تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

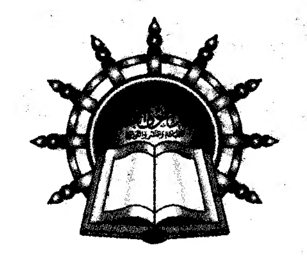
خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد الخامس

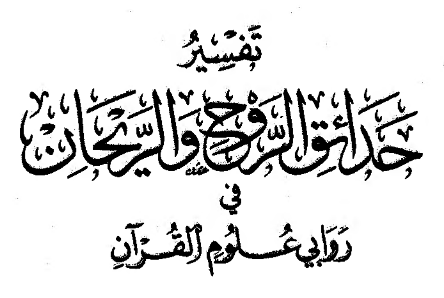
دار طوق النجاة

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م



دار طوق النجاة

بيروت - لبنان


تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن


بسم الله الرحمن الرحيم

شعر

إنْ أَخْـــرَجُـــونِـــي مِـــنْ بِـــلاَدِي فَـــإِنَّ مَـــعِـــيَ رَبَّ ٱلْـــعِـــبَـــادِ

فِـــي قَـــلْـــبِـــي إِيْـــمَـــانٌ وتَـــصْـــدِيْـــقٌ وَفِـــي جِـــسْـــمِـــيَ ٱمْـــتِـــثَـــالٌ وَتَـــطْـــبِـــيْـــقٌ

وَلاَ أَقُـــــولُ أَهْـــــلِـــــي وِلاَدِي ولا مَـــــالِـــــي وَلاَ تِـــــلاَدِي



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلَّى الله وسلَّم على سيدنا، ومولانا محمد خاتِم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ...﴾ مناسبةُ[١] هذه الآية لِما قبلها: هو أنه تعالى لما أخبر عمن مات كافراً، أنه لا يقبل منه ما أنفق في

(١) البحر المحيط.

الدنيا أو ما أحضره لتخليص نفسه في الآخرة.. حض المؤمن على الصدقة، وبيَّن أنه لن يدرك البر حتى ينفق مما يحب.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾. مناسبة هذه الآية لما قبلها، والجامع بينهما: أنه تعالى أخبر أنه لا ينال المرء البر إلا بالإنفاق مما يحب.

ونبيُّ الله إسرائيل، روي في الحديث أنه مرض مرضاً شديداً؛ فطال سقمه؛ فنذر لله نذراً إن عافاه الله من سقمه، أن يحرم، أو ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحوم الإبل، وأحب الشراب ألبانها. ففعل ذلك تقربا إلى الله تعالى. فقد اتفقت هذه الآية، والتي قبلها في أنَّ كلاً منهما في ترك ما يحبه الإنسان، وما يؤثره على سبيل التقرب به لله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة: وهو أنه لما أمر تعالى باتباع ملة إبراهيم، وكان حج البيت من أعظم شعائر ملة إبراهيم، ومن خصوصيات دينه.. أخذ في ذكر البيت وفضائله، ليبني على ذلك ذكر الحج ووجوبه. وأيضاً، فإن اليهود حين حولت القبلة إلى الكعبة؛ طعنوا في نبوة رسول الله ﷺ، وقالوا: بيت المقدس أفضل وأحق بالاستقبال؛ لأنه وضع قبل الكعبة، وهو أرض المحشر، وقبلة جميع الأنبياء، فأكذبهم الله في ذلك بقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾، كما أكذبهم في دعواهم قبل: إنما حرم عليهم ما كان محرماً على يعقوب من قبل أن تنزل التوارة. وأيضاً: فإن كل فرقة من اليهود والنصارى، زعمت أنها على ملة إبراهيم، ومن شعائر ملته حج الكعبة، وهم لا يحجونها، فأكذبهم الله في دعواهم تلك.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ...﴾ سبب نزول هذه الآية[1]: أن اليهود قالوا للنبيِّ محمد ﷺ: إنَّك تزعم أنك على ملة إبراهيم،

---

(١) الخازن.

وكان إبراهيم لا يأكل لحوم الإبل وألبانها، وأنت تأكل ذلك كلَّه، فلست على ملته. فقال النبي ﷺ: «كان ذلك حلالاً لإبراهيم». قالوا: كل ما نحرمه اليوم، كان ذلك حراماً على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا. فأنزل الله عز وجل: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ وهو يعقوب ﴿مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ﴾ يعني: ليس الأمر على ما تدعيه اليهود من تحريم لحوم الإبل، على إبراهيم، بل كان ذلك حلالاً على إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، وإنما حرَّمه يعقوب بسببٍ من الأسباب، وبقيت تلك الحرمة في أولاده، فأنكر اليهود ذلك، فأمرهم رسول الله ﷺ بإحضار التوراة، وطلب منهم أن يستخرجوا منها: أنَّ ذلك كان حراماً على إبراهيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا...﴾ سبب نزول هذه الآية: أنَّ اليهود قالوا للمسلمين، بيت المقدس، قبلتنا، وهو أفضل من الكعبة، وأقدم، وهو مهاجر الأنبياء وقبلتهم، وأرض المحشر، وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل، فأنزل هذه الآية.

وقيل: لما ادَّعَتِ اليهود والنصارى أنهم على ملة إبراهيم أكذبهم الله تعالى، وأخبر أن إبراهيم كان ﴿حَنِيفًا مُّسۡلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ وأمرهم باتباعه فقال تعالى في الآية المتقدمة: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ وكان من أعظم شعائر ملة إبراهيم الحج إلى الكعبة، ذكر في هذه الآية فضيلة البيت ليفرع عليها إيجاب الحج.

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ...﴾ سبب نزولها: ما أخرجه سعيد بن منصور عن عكرمة قال: لما نزلت آية ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينًا﴾ قالت اليهود: فنحن مسلمون، فقال لهم رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الله فرض على المسلمين حج البيت»، فقالوا: لم يكتب علينا، وأبوا أن يحجوا فأنزل الله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه ابن إسحاق، وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال: مرَّ

شاس بن قيس اليهودي ـ وكان عظيم الكفر، شديد الطعن على المسلمين، شديد الحسد لهم ـ على نفر من الأنصار الأوس والخزرج، وهم في مجلس يتحدثون، وقد زال ما كان بينهم في الجاهلية من العداوة ببركة الإسلام، فشق ذلك على اليهودي، فجلس إليهم، وذكرهم ما كان بينهم من الحروب قبل ذلك في بعاث، وهو موضع في المدينة، وكان يوم بعاث يوماً اقتتل فيه الأوس والخزرج قبل مبعثه ﷺ بمئة وعشرين سنة، وكان الظفر فيه للأوس.

وقرأ عليهم بعض ما قيل في تلك الحروب من الأشعار، فتنازع القوم وتغاضبوا، وقالوا: السلاح السلاح، فاجتمع من القبيلتين خلق عظيم، فوصل الخبر إلى النبي ﷺ؛ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار، وقال: أترجعون إلى أحوال الجاهلية، وأنا بين أظهركم، وقد أكرمكم الله بالإسلام، وألف بين قلوبكم! فعرف القوم أن ذلك كان من عمل الشيطان، ومن كيد ذلك اليهودي، فألقوا السلاح، وعانق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ. فما كان يوم أقبح أولاً وأحسن آخراً من ذلك اليوم.

قال الواحدي: اصطفوا للقتال، فنزلت الآية إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: فجاء النبيُّ ﷺ حتى قام بين الصفين فقرأهن ورفع صوته، فلما سمعوا صوت النبي ﷺ أنصتوا له وجعلوا يستمعون له، فلما فرغ ألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضاً، وجعلوا يبكون.

التفسير وأوجه القراءة

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ﴾؛ أي: لن تصيبوا، ولن تظفروا بثواب البر والخير وهو الجنة. والبر اسم جامع لكل خير، والكلام على حذف مضاف كما قدرنا، أو لن تبلغوا حقيقة البر الذي هو كمال الخير، أو لن تنالوا بر الله سبحانه وتعالى الذي هو الرحمة والرضا، والجنة، أو لن تكونوا أبراراً ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ﴾ وتصرفوا وتخرجوا ﴿مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ من أموالكم وجاهكم وعلمكم في معاونة الناس، وبدنكم في طاعة الله، ومهجتكم في سبيله؛ يعني من جيد أموالكم، وأنفسها عندكم، قال

تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ وقيل: هو أن تنفق من مالك ما أنت محتاج إليه، قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ وقال أبو بكر الوراق: معنى الآية: لن تنالوا بري لكم إلا ببركم بإخوانكم، والإنفاق عليهم من أموالكم وجاهكم، وقيل: المعنى لن تنالوا درجة الكمال من فعل البر حتى تكونوا أبراراً إلا بالإنفاق المضاف إلى سائر أعمالكم. قاله ابن عطية. ومن في قوله: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ للتبعيض، ويدل على ذلك قراءة عبد الله الشاذة: ﴿حتى تنفقوا بعض ما تحبون﴾ ﴿وَمَا﴾: موصولة. خاطبهم هنا بأن آية الإيمان وميزانه الصحيح هو الإنفاق في سبيل الله من المحبوبات مع الإخلاص، وحسن النية، ولكنكم أيها المدعون لتلك الدعاوي آثرتم شهوة المال على مرضاة الله، ولو أنفق أحدكم شيئاً من ماله، فإنما ينفق من أردأ ما يملك، وأبغضه إليه؛ لأن محبة المال في قلبه تفوق محبة الله تعالى، والرغبة في ادخاره، تعلو الرغبة فيما عند ربه من الرضا والثواب، فكيف ترجون أن تكونوا من المؤمنين الصادقين، وأنتم لا تنفقون ما تحبون؟ والمعنى: لن تصلوا إلى بر الله تعالى بأهل طاعته، برضاه عنهم، وتفضله برحمتهم، ونيلهم مثوبته، ودخولهم جنته، وصرف عذابه عنهم، حتى تنفقوا ما تهواه نفوسكم من كرائم أموالكم. وقد أثر عن السلف الصالح: أنهم إذا أحبوا شيئاً.. جعلوه لله تعالى.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها، ويشرب من ماءٍ فيها طيبٍ، قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنَّ الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إليَّ بيرحاء، وإنها صدقة لله عز وجل، أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث شئت، فقال رسول الله ﷺ: «بخ بخ ـ كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء) ـ ذاك مال رابح، أو قال: ذلك مال رابح، أرى أن تجعلها في الأقربين» فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه، متفق عليه، وفي رواية لمسلم:

فجعلها بين حسان بن ثابت وأبي بن كعب.

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن المنكدر قال: لما نزلت هذه الآية.. جاء زيد بن حارثة بفرس يقال لها: (سبل) لم يكن له مال أحب إليه منها، فقال: هي صدقة، فقبلها رسول الله ﷺ وحمل عليها ابنه أسامة فكأن زيداً وَجِدَ ـ حزن ـ في نفسه، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك منه قال: «أما إن الله قد قبلها».

فهذا الأثر وما قبله دلائل واضحات على حسن السياسة الدينية لرسول الله ﷺ ومعرفة ما يختلج في القلوب، فقد رأى أن أبا طلحة وزيداً قد خرجا عن أحب أموالهما إليهما بعاطفة الدين، فجعل ذلك في الأقربين، ليثبت قلوبهما، ويكمل إيمانهما، ولا يجعل للشيطان سبيلاً ينفذ به إلى ما بين الجوخ[1] فيندمان إذا هما رأيا أموالهما في أيدي الغرباء، إذ كثيراً ما يفارق المرء شيئاً محبوباً لديه باختياره لعاطفة الدين، أو للجود به على غيره، ثم لم يلبث إلا قليلاً حتى يعاوده الحنين إليه، ومن ثم كان النبي ﷺ: يأمر عمال الصدقة بإبقاء كرائم الأموال والبعد عنها حين جباية الصدقات.

وهناك من الشواهد ما يدل على هذا أيضاً، فقد أخرج عبد بن حميد عن ابن عمر رضي الله عنه قال: حضرتني هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ﴾ الآية، فذكرت ما أعطاني الله تعالى، فلم أجد أحب، إلي من مرجانة ـ جارية رومية ـ فقلت: هي حرة لوجه الله، فلو أني أعود في شيء جعلته لله تعالى.. لنكتحها فأنكحتها نافعاً (مولى له كان يحبه كأحد أولاده).

فتأمل وانظر تر أن نفسه قد راودته بعد عتقها على أن يستبقيها له، ولا يفارقها، لولا أن كان مما عود نفسه عليه.. ألا يرجع في شيء جعله لله، ومع ذلك جعلها لأحب الناس إليه، وهو مولاه. وعلى الجملة فآثار السلف في

---

(١) **الجوخ**: نسيج من الصوف يجمع على أجواخ.

الإيثار، وبذل المال ابتغاء مرضاة الله كثيرة.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه أهدى إلى رجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة، فقال: إن أخي فلاناً كان أحوج مني إليه؛ فبعث به إليه، فلما وصل إليه، قال: إنَّ فلاناً كان أحوج مني إليه، فلم يزل يبعث به كل واحد منهم إلى آخر حتى تناوله سبعة أبيات، ورجع إلى الأول. وفي هذه الآثار وأمثالها ما ينبغي أن يكون عظة لمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فيقتدي بأولئك الأبرار الطاهرين، ويجعلهم المثل العليا للبذل في سبيل الله.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ﴾؛ أي: وأي شيء تنفقونه في سبيل الله سواء كان من طيب تحبونه، أو من خبيث تكرهونه، وسواء، كان إنفاقكم له لوجه الله أو لمدح الناس ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِهِۦ﴾، أي: بذلك الشيء المنفق وبنياتكم ﴿عَلِيمٌ﴾ فيجازيكم عليه بحسبه، وبحسب نياتكم، وهذا تعليل للجواب المحذوف، أي: فيجازيكم بحسبه جيداً كان أو رديئاً، فإنه تعالى عالم بكل شيءٍ، تنفقونه من ذاته وصفاته علماً كاملاً بحيث لا يخفى عليه شيء.

فرب منفق مما يحب لا يسلم من الرياء، ورب فقير معدم لا يجد ما يحب فينفق منه، ولكن قلبه يفيض بالبر ولو وجد ما أحبه.. لأنفقه أو أكثره.

وفي هذه الآية ترغيب وترهيب، وحث على إخفاء الصدقة، كي لا يكون للشيطان منفذ إلى قلوب الأبرار الصالحين.

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾؛ أي: كل طعام حلال لمحمد ﷺ وأمته، فخرج ما حرم عليهم، وعلى من قبلهم كالميتة والدم. ﴿كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: كان حلالاً أكله لأولاد يعقوب عليه السلام ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ﴾؛ أي: يعقوب عليه السلام ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ بالنذر ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ على موسى، وذلك بعد إبراهيم بألف سنة.

وروى ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ قال: «إنَّ يعقوب مرض مرضاً شديداً، فنذر لئن عافاه الله.. ليحرمن أحب الطعام والشراب عليه، وكان أحب الطعام إليه لحوم الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها» قال، الأصمّ: لعل

نفسه كانت مائلة إلى أكل تلك الأنواع، فامتنع من أكلها قهراً للنفس، وطلباً لمرضاة الله تعالى، كما يفعله كثير من الزهاد، فعبر عن ذلك الامتناع بالتحريم، وذلك بعد إبراهيم بألف سنة، ولم تكن الإبل حراماً على عهد إبراهيم كما زعموا.

والمعنى: كل الأطعمة كانت حلالاً لبني إسرائيل قبل نزول التوراة إلا ما حرمه يعقوب على نفسه، وهو لحم الإبل ولبنها ثم حرمت عليهم أنواع من الأطعمة الشحوم وغيرها عقوبة لهم على معاصيهم، أو المراد[1] بإسرائيل: الشعب كله، كما هو شائع في الاستعمال عندهم لا يعقوب فقط، كما أن المراد بتحريم الشعب ذلك على نفسه: أنه اجترح من السيئات، وارتكب من الموبقات ما كان سبباً في هذا التحريم كما تدل عليه آية ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾.

وخلاصة هذا الجواب: أنَّ الأصل في الأطعمة الحلُّ، وما كان تحريم ما حرم على إسرائيل إلا تأديباً لهم على جرائم ومخالفات وقعت منهم، وكان سبباً فيما نالهم من التحريم لها، والنبي ﷺ وأمته لم يجترحوا هذه السيئات، فلا تحرم عليهم هذه الطيبات.

ومعنى قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ أنه قبل نزول التوراة كان حلاً لبني إسرائيل كل أنواع المطعومات، أما بعد نزولها: فقد حرم عليهم أنواع كثيرة بسبب الذنوب التي اقترفوها، وقد بينتها التوراة وبينت أسباب التحريم وعلله.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، هذا هو الحق لا زعمكم يا معشر اليهود ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ﴾؛ أي: أحضروها، ﴿فَٱتْلُوهَآ﴾؛ أي: فاقرؤوها عليَّ لتحكم بيني وبينكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم بأن التحريم قديم. وفي استدعاء[2] التوراة منهم وتلاوتها، الحجة الواضحة على صدق رسول الله ﷺ؛ إذ كان عليه السلام

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

النبي الأمي الذي لم يقرأ الكتب، ولا عرف أخبار الأمم السالفة، ثم أخذ يحاجهم ويستشهد عليهم بما في كتبهم، ولا يجدون من إنكاره محيصاً. وروي أنهم لم يتجاسروا على الإتيان بالتوراة لظهور افتضاحهم بإتيانها، بل بهتوا، وذلك كعادتهم في كثير من أحوالهم.

وفي الآية: دليل على جواز النسخ في الشرائع، وهم ينكرون ذلك ﴿فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾ واختلق ﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ بزعمه أن ذلك كان محرماً على الأنبياء السابقين كإبراهيم، ونوح، وعلى أممهم قبل نزول التوراة ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: من بعد ما ظهرت الحجة بأن التحريم إنما كان من جهة يعقوب، لا على عهد إبراهيم، أو من جهة ما ارتكب الشعب من الذنوب والخطايا.

ومن بعد أن طولب المدعون بالإتيان بالتوراة وتلاوتها، فامتنعوا لئلا يظهر كذبهم، وأن الله لم يحرم شيئاً قبل نزولها، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المصرون على الافتراء بعد ما ظهرت لهم حقيقة الحال ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم، ولمن أضلوه عن الدين من بعدهم الذين لا ينصفون من أنفسهم، ويكابرون الحق بعد ما وضح لهم؛ لأنهم قد حولوا الحق عن وجهه، ووضعوا حكم الله في غير موضعه، فضلوا، وأضلوا أشياعهم بإصرارهم على الباطل، وعدم تصديقهم رسول الله ﷺ. ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد ﴿صَدَقَ ٱللَّهُۗ﴾ فيما أنبأني به من أن سائر الأطعمة كانت حلالاً لبني إسرائيل، وأنها إنما حرمت على اليهود جزاء أفعالهم القبيحة، وبذلك قامت عليكم الحجة، وثبت أني مبلغ عنه إذ ما كان في استطاعتي، لولا الوحي أن أعرف صدقكم من كذبكم فيما تحدثون عن أنبيائكم، والجمهور على إظهار في ﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ﴾ وهو الأصل، وقرأ أبان بن تغلب شذوذاً بإدغام اللام في الصاد. ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ التي هي ملة الإسلام التي أنا عليها حالة كون إبراهيم ﴿حَنِيفٗاۖ﴾؛ أي: مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق. ﴿وَمَا كَانَ﴾ إبراهيم ﴿مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ أي: من الذين أشركوا بالله غيره، وعبدوا سواه، كما فعله العرب من عبادة الأوثان، وفعله اليهود من ادعائهم أن عزيراً ابن الله، وفعله النصارى من اعتقادهم أن المسيح ابن الله.

وخلاصة هذا: أنَّ محمداً ﷺ على دين إبراهيم في جزئيات الأحكام

وكلياتها، فأحل ما أحله هو من أكل لحوم الإبل وألبانها، ودعا إلى التوحيد والبراءة من كل معبود سوى الله، وما كان إبراهيم صلوات الله على نبينا وعليه إلا على هذا الدين.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ﴾؛ أي: بنى متعبداً ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ أي: بني لعبادات الناس ربهم سبحانه وتعالى ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾؛ أي: للبيت الذي هو ببكة؛ أي: بمكة، سميت مكة بكة؛ لأنه يبك بعضهم فيها بعضاً؛ أي: يزدحمون في الطواف. وسميت مكة؛ لأنها تمك من ظلم فيها؛ أي: تهلكه؛ والمعنى: إن أول بيت وضعه الله، وجعله موضعاً للطاعات، والعبادات، وقبلة للصلاة، وموضعاً للحج وللطواف، تزداد فيه الخيرات، وثواب الطاعات هو الذي بمكة.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض، قال: «المسجد الحرام قلت: ثم أيٌّ؟ قال: المسجد الأقصى. قال: قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون عاماً، ثم الأرض لك مسجد، فحيثما أدركت الصلاة فصلِّ». متفق عليه، زاد البخاري: «فإن الفضل فيه»؛ أي: إنَّ آدم بنى الكعبة، ثم بني بيت المقدس، وبين بنائهما أربعون سنة.

وهذه الآية[١] ردٌّ لشبهة اليهود، أنَّ بيت المقدس أفضل من الكعبة، وأحق بالاستقبال، فهو قد وضع قبلها، وهو أرض المحشر. وقيل: المعنى: إن البيت الذي نستقبله في صلاتنا هو أول بيت وضع متعبداً للناس، بناه إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام للعبادة، ثم بني المسجد الأقصى بعد ذلك بعدة قرون، بناه سليمان عليه السلام سنة (١٠٠٥) قبل الميلاد، فكان جعله قبلة أَوْلى. وبذا يكون النبي ﷺ على ملة إبراهيم، ويتوجه بعبادته إلى حيث كان يتوجه إبراهيم وإسماعيل صلوات الله عليه وعليهما.

والخلاصة: أنَّ أول بيوت العبادة الصحيحة التي بناها الأنبياء هو البيت الحرام، فليس في الأرض موضع بناه الأنبياء أقدم منه فيما يؤثر من تواريخهم،

---

(١) المراغي.

ويتبع هذا أولوية الشرف والتعظيم. ثم ذكر فضائل أربعة:

الأول منها ذكره بقوله: ﴿مُبَارَكًا﴾؛ أي: حالة كونه ذا بركة، وخير كثير؛ لأنه قد أفيض عليه من بركات الأرض، وثمرات كل شيء مع كونه بواد غير ذي زرع، كما قال تعالى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فترى الأقوات والثمار في مكة كثيرة جيدة، وأقل ثمناً من كثير من البلاد ذوات الخيرات الوفيرة، كمصر والشام، وكل هذا ببركة دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ الآية.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في مسجدي هذا، أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد، إلا المسجد الحرام». متفق عليه.

وذكر الثاني منها بقوله: ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: وحالة كونه هدى؛ أي: قبلة لكل نبي، ورسول وصديق، ومؤمن يهتدون بذلك البيت إلى جهة صلاتهم، ويولون وجوههم شطره في صلاتهم، وربما لا تمضي ساعة من ليل أو نهار إلاَّ وهناك ناس يتوجهون إليه، ويأتون إليه مشاة وركباناً من كل فج عميق، لأداء المناسك الدينية من الحج والعمرة، ولاشك أنَّ هذه الهداية من أشرف أنواع الهدايات. وكونه قبلة لكل نبي؛ لأن تكليف الصلاة كان لازماً في دين جميع الأنبياء عليهم السلام بدليل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾. فدلت الآية على أن جميع الأنبياء عليهم السلام، كانوا يسجدون لله، والسجدة لا بد لها من قبلةٍ، فلو كانت قبلة شيث، وإدريس، ونوح، عليهم السلام موضعاً آخر سوى الكعبة.. لبطل قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ فوجب أن يقال: إن قبلة أولئك الأنبياء المتقدّمين: هي الكعبة. فدل هذا على أن هذه الجهة كانت أبداً مشرفة مكرمة.

وذكر الثالث منها بقوله: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾؛ أي: وحالة كونه فيه؛ أي: في ذلك البيت آيات بينات؛ أي: دلائل وعلامات واضحات تدل على حرمته، ومزيد

فضله، وعظيم قدرته تعالى:

منها: ﴿مَقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾؛ أي: الحجر الذي يقوم عليه إبراهيم عند بناء البيت، وكان فيه أثر قدمي إبراهيم، فاندرس من كثرة المسح بالأيدي، وفيه دلالة على قدرة الله تعالى ونبوة إبراهيم؛ لأن تأثير قدميه في الصخرة الصماء، وغوصهما فيها إلى الكعبين، وإلانة بعض الصخرة دون بعض، وإبقاءها ألوفاً من الأعوام معجزةٌ عظيمة، وسبب هذا الأثر أنه: لما ارتفع بنيان الكعبة.. قام على هذا الحجر، ليتمكن من رفع الحجارة، فغاصت فيه قدماه.

ومنها: انحراف الطيور عن موازاة البيت، فلا تعلوا فوقه بل إذا قابل هواه في الجو.. انحرف عنه يميناً أو شمالاً، ولا يستطيع أن يقطع هواه إلا إذا حصل له مرض فيدخل هواه للتداوي. قال ابن عطية: وهذا ضعيف؛ لأن الطير يعاين يعلوه، وقد علته العقاب التي أخذت الحية المشرفة على جداره.

ومنها: مخالطة ضواري السباع، الصيود في الحرم من غير تعرض لها.
ومنها: إهلاك أصحاب الفيل لما قصدوا تخريبه، وما قصده جبار بسوء إلا أهلكه، ومن الآيات التي فيها الحجر الأسود، والملتزم والحطيم، وزمزم، ومشاعر الحج التي فيها كالصفا والمروة.

ومنها: أنَّ الآمر ببناء هذا البيت هو المولى الجليل، والمهندس له جبريل عليه السلام، والباني هو إبراهيم الخليل عليه السلام، والمساعد في بنيانه هو اسماعيل عليه السلام، فهذه كلها فضيلة عظيمة لهذا البيت.

وقرأ الجمهور: ﴿وُضِعَ﴾ بالبناء للمفعول، وقرأ عكرمة، وابن السميقع شذوذاً ﴿وضع﴾ مبنياً للفاعل، فاحتمل أن يعود على الله، واحتمل أن يعود على إبراهيم، وهو أقرب في الذكر، وأليق بالمقام. وقرأ الجمهور: ﴿ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ على صيغة الجمع، وقرأ أبي، وعمر وابن عباس، ومجاهد، وأبو جعفر، في رواية قتيبة: ﴿آية بينة﴾ على الإفراد وهي قراءة شاذة أيضاً.

وذكر الرابع منها بقوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾؛ أي: ومن دخل البيت كان

آمناً من ذنوبه. وعن ابن[1] عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَخَل البَيْتَ.. دَخَل في حسنةٍ، وخَرَجَ من سيئة، وخرج مغفوراً له» ولكن تفرد به عبد الله بن المؤمل، وليس بالقوي.

وقيل: من دخل الحرم للنسك تقرباً إلى الله تعالى.. كان آمناً من النار يوم القيامة، وإن الله أودع في قلوب الخلق الشفقة على كل من التجأ إليه. وعبارة أبي السعود: ومعنى أمن داخله: أمنه من التعرض له كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ﴾ وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ وكان الرجل إذا أجرم كل جريمة ثم لجأ إلى الحرم لم يطلب. وعن عمر رضي الله عنه: «لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب.. ما مسسته حتى يخرج منه». ولذلك قال أبو حنيفة رحمه الله: «من لزمه القتل في الحل بقصاصٍ أو ردةٍ أو زنا، فالتجأ إلى الحرم لم يتعرض له إلا أنه لا يؤوى، ولا يطعم، ولا يسقى، ولا يبايع، حتى يضطر إلى الخروج».

وقيل: المراد أمنه من النار، وعن النبي ﷺ: «من مات في أحد الحرمين، بعث يوم القيامة آمناً». وعن النبي ﷺ «الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما، وينثران في الجنة»؛ وهما مقبرتا مكة والمدينة.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه وقف رسول الله ﷺ على ثنية الحجون، وليس بها يومئذٍ مقبرةٌ، فقال: «يبعث الله تعالى من هذه البقعة، ومن هذا الحرم سبعين ألفاً وجوههم كالقمر ليلة البدر».

وعن النبي ﷺ: «من صبر على حر مكة ساعة من نهار.. تباعدت عنه جهنم مسيرة مئتي عام» انتهت بالحرف، ولكن هذه الأحاديث أكثرها ضعاف.

وفتح مكة بالسيف؛ كان لضرورة تطهير البيت من الشرك وتخصيصه للعبادة فقط، حلت للنبي ﷺ ساعةً من نهار، لم تحل لأحد قبله، ولن تحل لأحد بعده، كما جاء في الحديث.

---

(١) ابن كثير.

على أنَّ حِلَّ مكة وما يتبعُها من أرباضها للنبي ﷺ ساعة من نهار أمر زائد على أمن البيت، فإن النبي ﷺ لم يستحل البيت ساعة، وما دونها، بل كان مناديه ينادي: من دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل داره وأغلق باب بيته فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

وقد أخبر أبو سفيان النبيَّ ﷺ بقول سعد بن عبادة الأنصاري حامل اللواء له في الطريق: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، فقال ﷺ: «كذب سعد، هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة».

وما فعله الحجاج من رمي البيت بالمنجنيق فهو فعل السياسة التي قد تحمل صاحبها على مخالفة ما يعتقد حرمته، ويقع به في الظلم والإلحاد؛ إذ هو وجنده لم يكونوا معتقدين حلَّ ما فعلوا.

﴿وَلِلَّهِ﴾ واجب ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾؛ أي: قصد البيت للعبادة المخصوصة المعروفة ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾؛ أي: على من أطاق، وقدر إلى حج البيت سبيلاً؛ أي: طريقاً وبلاغاً إليه بوجود الراحلة، والزاد، والنفقة للعيال إلى الرجوع، لأنه ﷺ: فسَّره بالزاد والراحلة، رواه الحاكم وغيره. وكذا أمن الطريق. والحج أحد أركان الإسلام.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسولُ الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان». متفق عليه. فعد النبيُّ ﷺ الحج من أركان الإسلام الخمسة.

والمعنى: أنه يجب الحج على المستطيع من هذه الأمة، وفي هذا تعظيم للبيت أيما تعظيم، وما زال الناس من عهد إبراهيم إلى عهد محمد صلوات الله عليهما يحجون عملاً بسنة إبراهيم، جروا على هذا جيلاً بعد جيل، لم يمنعهم من ذلك شركهم، ولا عبادتهم للأوثان والأصنام، **فهي** آية متواترة على نسبة هذا البيت إلى إبراهيم.

واستطاعة السبيل إلى الشيء إمكان الوصول إليه، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ وتختلف الاستطاعة باختلاف الأشخاص، واختلاف البعد عن البيت والقرب منه، وكل مكلف أدرى بنفسه في ذلك. وقد اختلف في تفسيرها، فقال بعضهم إنها القدرة على الزاد والراحلة مع أمن الطريق. وقال بعضهم: إنها صحة البدن، والقدرة على المشي. وقال آخرون: هي صحة البدن، وزوال الخوف من عدو أو سبع مع القدرة على المال الذي يشتري منه الزاد والراحلة وقضاء جميع الديون، والودائع، ودفع النفقة التي تكفي لمن تجب عليه نفقته حتى العودة من الحج.

وخلاصة ذلك: أنَّ هذا الإيجاب مشروط بالاستطاعة، وهي تختلف باختلاف الأشخاص والأزمان.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾: أي: ومن جحد، وأنكر كون هذا البيت أول بيت وضعه الله للعبادة، وأنكر ما فرضه الله من حجه، والتوجه إليه بالعبادة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَنِيٌّ﴾؛ أي: مستغنٍ ﴿عَنِ﴾ إيمانه وإيمان جميع ﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ والخلق، وعن حجهم وعبادتهم.

وفسر بعضهم الكفر بترك الحج، وعبر عنه بالكفر تأكيداً لوجوبه وتغليظاً على تاركه، والمعنى حينئذٍ: ومن لم يحج مع استطاعته.. فإن الله غني عن حجه، وحج العالمين كلِّهم. قال الضحاك: لما نزلت آية الحج جمع رسول الله ﷺ أهل الأديان الستة: المسلمين والنصارى، واليهود، والصابئين، والمجوس، والمشركين، فخطبهم، وقال: «إن الله تعالى كتب عليكم الحج فحجوا، فآمن به المسلمون، وكفرت به الملل الخمس، وقالوا: لا نؤمن به، ولا نصلي إليه، ولا نحجه، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾؛ أي: ومن ترك اعتقاد وجوب الحج.. فإن الله غني عنه.

فقد روي أنه ﷺ قال: «من مات ولم يحج.. فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً».

وروي عن عليّ كرم الله وجهه أنَّ النبي ﷺ قال في خطبة له: «أيها الناس،

إن الله فرض الحج على من استطاع إليه سبيلاً، ومن لم يفعل.. فليمت على أي حال شاء يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً».

وأثر عن عمر رضي الله عنه أنه قال: لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى هذه الأمصار، فلينظروا كل من كان له جدة ـ سعةٌ ـ ولم يحج فيضربوا عليهم الجزية ما هم بمسلمين ما هم بمسلمين. ولهذه الأدلة قال كثير من الفقهاء: إن الحج واجب على الفور، وقال آخرون: إنه واجب على التراخي. وهذه الجملة تأكيد لما سبق من الوجوب، فإنه بدأ الآية بأن قال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾. فأفاد أنَّ ذلك ما كان لجر نفع، ولا لدفع ضر، بل كان لعزة الإلهية ولكبرياء الربوبية. وختمها بهذه الجملة المؤكدة لذلك لبيان أنَّ فاعل ذلك مستأهل للنعمة برضا الله عنه، وأن تاركه يسخط عليه سخطاً عظيماً.

وحسب البيت شرفاً وفضلاً أنه حرم آمن ومثابة للناس ومبارك وهدى للعالمين، وما جاء عن رسول الله ﷺ في حرمته وفضله من أنه لا يسفك فيه دم، ولا يعضد شجره، ولا يختلى خلاه ـ لا يقطع نباته ـ وأنَّ قصده مكفر للذنوب ماح للخطايا، وأن العبادة التي تؤدى فيه لا تؤدى في غيره، وأن استلام الحجر الأسود، فيه رمز إلى مبايعة الله تعالى على إقامة دينه، والإخلاص له وأن الصلاة فيه بمائة ألف ضعف في غيره. وكتب الأحاديث والسيرة مليئة ببيان فضله ومشيدة بذكره.

فصل في ذكر الأحاديث الواردة في فضل البيت وفضل الحج والعمرة

عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول بيت وضع للناس مباركاً يصلى فيه: الكعبة، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون عاماً». متفق عليه.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نزل الحجر الأسود من الجنة، وهو أشد بياضاً من اللبن، وإنما سودته خطايا بني آدم».

أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ في الحجر «والله ليبعثنّه الله يوم القيامة، وله عينان يبصر بهما، ولسان ينطق به، يشهد على من استلمه بحق». أخرجه الترمذي.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ: يقول: «إن الركن، والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة، طمس الله نورهما، ولو لم يطمس نورهما.. لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب». أخرجه الترمذي، وقال: هذا الحديث يروى عن ابن عمر موقوفاً.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول، والمسجد الأقصى».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس، قد فرض عليكم الحج فحجوا، فقال له رجل في كل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم». أخرجه مسلم.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ. فقال يا رسول الله ما يوجب الحج؟ قال: «الزاد والراحلة». أخرجه الترمذي. وقال: حديث حسن. وإبراهيم بن يزيد الجوزي المكي، قد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة». متفق عليه.

وفي رواية سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حج لله عز وجل ـ وفي لفظ من حج هذا البيت ـ فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه». أخرجه

الترمذي، وقال: «غفر له ما تقدم من ذنبه».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الذنوب، والفقر كما ينفي الكير خبث الحديد، والذهب والفضة، وليس لحجة مبرورة ثواب إلا الجنة، وما من مؤمن يظل يومه محرماً إلا غابت الشمس بذنوبه». أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ما من مسلم يلبي إلا لبى ما عن يمينه وشماله، من حجر، أو شجر، أو مدر، حتى تنقطع الأرض من ههنا وههنا». أخرجه الترمذي، وقال: هذا حديث غريب.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من طاف بالبيت خمسين مرةً خرج من ذنوبه، كيوم ولدته أمه». أخرجه الترمذي، وقال: هذا حديث غريب.

فصل في ذكر بعض أحكام تتعلق بالحج

قال العلماء: الحج واجب على كل مسلم، وهو أحد أركان الإسلام الخمسة، ولوجوبه خمس شرائط: الإسلام والبلوغ والعقل والحرية والاستطاعة. ولا يجب على الكافر والمجنون ولو حجا.. لم يصح حجهما؛ لأن الكافر ليس من أهل العبادة، ولا حكم لقول المجنون، ولا يجب على الصبي والعبد، ولو حج صبي مميزٌ، أو حج عبد صح حجهما تطوعاً، ولا يسقط فرض الإسلام. فإذا بلغ الصبي وعتق العبد، واجتمع فيهما شرائط الحج.. وجب عليهما أن يحجا ثانياً، ولا يجب على غير المستطيع؛ لقوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فلو تكلف غير المستطيع الحج، وحج: صح حجه، وسقطت عنه حجة الإسلام.

والاستطاعة نوعان: **أحدهما**: أن يكون مستطيعاً بنفسه. **والآخر**: أن يكون مستطيعاً بغيره.

فأما المستطيع بنفسه: فهو أن يكون قوياً، قادراً على الذهاب؛ واجداً للزاد والراحلة، لما تقدم من حديث ابن عمر في الزاد والراحلة.

وقال ابن المنذر: واختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فقالت طائفة: الآية على العموم، إذ لا نعلم خبراً ثابتاً عن النبي ﷺ، ولا إجماعاً لأهل العلم يوجب أن نستثني من ظاهر الآية بعضاً. فعلى كل مستطيع للحج يجد إليه السبيل ـ بأي وجه كانت الاستطاعة ـ الحج على ظاهر الآية.

قال ابن المنذر: وروينا عن عكرمة أنه قال: الاستطاعة: الصحة. وقال: الضحاك: إذا كان شاباً صحيحاً.. فليؤجر نفسه بأكله وعقبه حتى يقضي نسكه».

وقال مالك: الاستطاعة تختلف باختلاف الناس، الرجل يجد الزاد والراحلة، ولا يقدر على المشي، وآخر يقدر على المشي على رجليه.

وقال الشافعي: الاستطاعة وجهان:

أحدهما: أن يكون الرجل مستطيعاً ببدنه، واجداً من ماله ما يبلغه الحج، فتكون استطاعته تامة، فعليه فرض الحج.

والثاني: لا يقدر أن يثبت على الراحلة، وهو قادر على من يطيعه إذا أمره أن يحج عنه، أو قادر على مال، ويجد من يستأجره فيحج عنه، فيكون هذا ممن لزمه فرض الحج.

أما حكم الزاد والراحلة: فهو أن يجد راحلة تصلح له، ووجد من الزاد ما يكفيه لذهابه ورجوعه، فاضلاً عن نفقته ونفقة من تلزمه نفقتهم وكسوتهم، وعن دَيْنٍ إن كان عليه، ووجد رفقة يخرجون في وقت جرت العادة بخروج أهل البلد في ذلك الوقت، فإن خرجوا قبله، أو أخروا الخروج إلى وقت لا يصلون إلا بقطع أكثر من مرحلة في يوم لا يلزمه الخروج معهم، ويشترط أن يكون الطريق آمناً، فإن كان فيه خوف من عدو مسلم، أو كافر، أو رصدي يطلب الخفارة لا يلزمه الحج. ويشترط أن تكون منازل الماء مأهولة معمورة يجد فيها ما جرت به العادة بوجوده من الماء والزاد، فإن تفرق أهلها لجدب، أو غارت مياهها، فلا يلزمه الخروج. ولو لم يجد الراحلة وهو قادر على المشي، أو لم يجد الزاد وهو قادر على الاكتساب لا يلزمه الحج عند من جعل وجدان الزاد والراحلة شرطاً

لوجوب الحج، ويستحب له أن يفعل ذلك ويلزمه الحج عند مالك.

هذا كله في الزمن القديم، وأما الآن فالشرط القدرة على تحصيل جواز السفر، وعلى أجرة الطائرة، أو الباخرة، أو السيارة مع مؤونة سفره مطعماً ومشرباً وملبساً ومسكناً، ذهاباً وإياباً، والقدرة على ما تطلب منه الحكومة التي يسافر منها، والتي يسافر إليها فاضلاً عن مؤونة من تلزمه نفقتهم ذهاباً، وإياباً، وعن دين حالٍّ أو مؤجل يحل أجله قبل رجوعه من الحج.

وأما المستطيع بغيره: فهو أن يكون الرجل عاجزاً بنفسه، بأن يكون زَمِناً، أو به مرض لا يرجى برؤه، وله مال يمكنه أن يستأجر به من يحج عنه، وإن لم يكن له مال، وبذل ولده أو أجنبي الطاعة في أن يحج عنه.. لزمه الحج، إن كان يعتمد على صدقه؛ لأن وجوب الحج متعلق بالاستطاعة.

وعند أبي حنيفة: لا يجب الحج ببذل الطاعة، وعند مالك: لا يجب الحج على من غصب ماله أو سرق. وحُجَّةُ من أوجب الحج ببذل الطاعة ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الفضل بن عباس رديف رسول الله ﷺ فجاءته امرأة من خثعم تستفتيه، فجعل الفضل ينظر إليها، وتنظر إليه، فجعل رسول الله ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر قالت: يا رسول الله، إن فريضة الله على عباده في الحج أدركَتْ أبي شيخاً كبيراً، لا يستطيع أن يثبت على الراحلة أفأحج عنه؟ قال: «نعم» وذلك في حجة الوداع. أخرجه الشيخان في «الصحيحين».

وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿حِجُّ﴾ بكسر الحاء، والباقون بفتحها، وهما لغتان: الكسر لغة نجد، والفتح لغة أهل العالية، ثم أخذ يبكت أهل الكتاب على كفرهم فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لليهود والنصارى ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لأي سبب تنكرون آيات الله التي دلتكم على صدق نبوة محمد ﷺ فيما يدعيه من وجوب الحج وغيره، ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: والحال أن الله شهيد مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها، وهذه الحال توجب أن لا تجترئوا على الكفر بآياته، ولا ينفعكم التحريف والاستسرار. ولا يخفى ما في هذا من

التوبيخ والإيماء إلى تعجيزهم عن إقامة العذر على كفرهم، كأنه قيل: هاتوا عذركم، إن كان ذلك في مكنتكم.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد أيضاً ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ﴾ وتصرفون وتمنعون ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ودينه الحق الموصل إلى السعادة الأبدية، وهو ملة الإسلام ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ بالله وبمحمد وبالقرآن بإضلالكم ضعفة المسلمين، وإلقاء الشبهة والشكوك في قلوبهم، وذلك بإنكارهم صفة محمد ﷺ المذكورة في كتبهم ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾؛ أي: حالة كونكم تطلبون لسبيل الله اعوجاجاً وميلاً عن القصد، والاستقامة بقولكم: إن النسخ ممنوع، لأنه يدل على البداء، وبقولكم: ورد في التوراة أن شريعة موسى باقية إلى الأبد، وبتغيير صفة رسول الله ﷺ. والمعنى: لم تطلبون الزيغ والميل في سبيل الله بإلقاء الشبه في قلوب الضعفاء.

وخلاصة المعنى: لِمَ تتركون السبيل المعتدلة، وتطلبون السبيل المعوجة؟! ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾؛ أي: والحال أنكم تشهدون أن محمداً ﷺ وصفته مكتوبة في التوراة، وأن دين الله الذي لا يقبل غيره: هو الإسلام. وقيل: معناه: وأنتم تشهدون المعجزات التي تظهر على يد محمد ﷺ الدالة على نبوته، وأنها سبيل الله التي لا يصد عنها إلا ضال مضل.

وحاصل المعنى: لأي سبب تصرفون من آمن بمحمد ﷺ واتبعه عن الإيمان الذي يرقى عقل المؤمن بما فيه من طلب النظر في الكون، ويرقى روحه بتزكيتها بالأخلاق الطيبة، والأعمال الصالحة، وتكذبون بذلك كفراً، وعناداً، وكبراً، وحسداً، وتلقون الشبهات الباطلة في قلوب الضعفاء من المسلمين بغياً وكيداً للنبي ﷺ تبغون لأهل دين الله، ولمن هو على سبيل الخير عوجاً، وضلالاً، وزيغاً عن الاستقامة على الهدى والمحجة، وأنتم عارفون بتقدم البشارة به، عالمون بصدق نبوته، ومن كان كذلك. فلا يليق به الإصرار على الباطل والضلال والإضلال؟!.

قرأ الجمهور ﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ من صد الثلاثي، وهو متعدّ، ومفعوله من آمن، وقرأ الحسن شذوذاً ﴿تُصِدُّون﴾ من أصد الرباعي عدى صد اللازم بالهمز،

وهما لغتان.

قال الراغب:[1] وقد جاء: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بدون ﴿قُلۡ﴾ وجاء هنا مع ﴿قُلۡ﴾، فبدون ﴿قُلۡ﴾: هو استدعاء منه تعالى لهم إلى الحق، فجعل خطابهم منه استلانة للقوم؛ ليكونوا أقرب إلى الانقياد، ولما قصد الغض عنهم.. ذكر ﴿قل﴾ تنبيهاً على أنهم غير مستأهلين أن يخاطبهم بنفسه، وإن كان كلا الخطابين. وصل إليهم على لسان النبي ﷺ. انتهى.

﴿وَمَا ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِغَٰفِلٍ﴾ أي بساه ﴿عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ من هذا الصد وغيره من الأعمال، فمجازيكم عليه، ولا يخفى ما في هذا من التهديد والوعيد الشديد كما يقول الرجل لعبده، وقد أنكر عليه اعوجاج أخلاقه: لا يخفى علي ما أنت عليه، وما أنا بغافل عن أمرك.

وإنما ختم هذه الآية بنفي الغفلة؛ لأن صدهم عن الإسلام. كان بضرب من المكر، والكيد، ووجوه الحيل، وختم الآية السابقة بقوله: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ لأن العمل الذي فيها، وهو الكفر ظاهر مشهود.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

مناسبة[2] هذه الآية لما قبلها: لما أنكر تعالى عليهم صدهم عن الإسلام المؤمنين.. حذر المؤمنين من إغواء الكفار وإضلالهم، وناداهم بوصف الإيمان تنبيهاً على تباين ما بينهم وبين الكفار، ولم يأت بلفظ ﴿قل﴾ ليكون ذلك خطاباً منه تعالى لهم، وتأنيساً لهم، وأبرز نهيه عن موافقتهم، وطواعيتهم في صورة شرطية؛ لأنه لم يقع طاعتهم لهم، والإشارة بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: إلى الأوس والخزرج بقرينة سبب النزول كما مر.

والمعنى: يا أيها الذين صدقوا بمحمد ﷺ إن تطيعوا، وتوافقوا فريقاً،

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

وجماعة من الذين أوتوا الكتاب فيما يدعونكم إليه، وأصغيتم لهم، واستجبتم لما يدعونكم إليه مما يثير الفتنة بينكم كما مر في سبب النزول، وهم: شاس بن قيس، وعمرو بن شاس، وجبار بن صخر، وغيرهم ﴿يَرُدُّوكُم﴾ أي: يصيروكم بعد إيمانكم كافرين؛ أي: يردوكم إلى الكفر بعد الإيمان، والكفر: يوجب الهلاك في الدنيا والدين. أما في الدنيا فبوقوع العداوة والبغضاء وهيجان الفتنة المؤدي إلى سفك الدماء. وأما الدين فلا حاجة إلى بيانه. ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ استفهام إنكار واستبعاد لوقوع الكفر منهم في هاتين الحالتين، وهما تلاوة كتاب الله عليهم، وهو القرآن الظاهر الإعجاز، وكينونة الرسول فيهم الظاهر على يديه الخوارق ووجود هاتين الحالتين تنافي الكفر، ولا تجامعه، فلا يتطرق إليهم كفر مع ذلك، أي: وكيف يوجد منكم الكفر ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: والحال أنكم تقرأ عليكم آيات الله القرآنية التي فيها بيان الحق من الباطل على لسان نبيكم غضاً طرياً ﴿وَفِيكُمْ﴾؛ أي: ومعكم ﴿رَسُولُهُۥ﴾ تعالى محمد ﷺ الذي يبين لكم الحق، ويدفع عنكم الشبه.

قال قتادة[1]: في هذه الآية علمان بينان: كتاب الله، ونبي الله. فأما نبي الله: فقد مضى، وأما كتاب الله: فأبقاه الله بين أظهرهم رحمةً منه ونعمة، فيه حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته انتهى.

وقال الزمخشري[2]: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ معنى الاستفهام فيه: الإنكار، والتعجب، والمعنى: من أين يتطرق إليكم الكفر، والحال أن آيات الله، وهي القرآن المعجز تتلى عليكم على لسان الرسول غضة طرية وبين أظهركم رسول الله ينبهكم ويعظكم، ويزيح شبهكم، ولكم في سنته خير أسوة تُغَذِّي إيمانكم، وتنير قلوبكم، فلا ينبغي لمثلكم أن تلتفتوا إلى قولهم، بل الواجب عليكم أن ترجعوا عند كل شبهة تسمعونها من هؤلاء اليهود إلى الرسول ﷺ حتى يكشف عنها، ويزيل ما علق بقلوبكم منها.

---

(١) الخازن.
(٢) البحر المحيط.

وقرأ الجمهور ﴿تُتْلَى﴾ بالتاء وقرأ الحسن والأعمش شذوذاً: (يتلى) بالياء؛ لأجل الفصل ولأن التأنيث غير حقيقي؛ ولأن الآيات هي القرآن.

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾؛ أي: ومن يستمسك بدين الله وكتابه، وهو القرآن وبرسوله محمد ﷺ؛ ويحتفظ به عن الوقوع في الهلاك الأبدي ﴿فَقَدْ هُدِيَ﴾ وأرشد ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ وطريق ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: مستو قويم موصل إلى الجنة، وهو طريق دين الإسلام.

وقيل المعنى[1]: ومن يجعل ربه ملجأ ومفزعاً عند الشبه.. يحفظه عن الشبه.

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ يوما فينا خطيباً بماء يدعى خما بين مكة والمدينة، فحمد الله، وأثنى عليه، ووعظ الناس، وذكر، ثم قال: أما بعد: «ألا أيها الناس: إنما أنا بشر مثلكم، يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وإني تارك فيكم ثقلين؛ أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به، فحث على كتاب الله، ورغب فيه، ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي». أخرجه مسلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: لما بين الله سبحانه وتعالى ضلال الكفار في أنفسهم، وإضلالهم لغيرهم.. شرع في بيان تكميل المؤمنين لأنفسهم بهذه الآية، ولغيرهم بقوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ الخ؛ أي: يا أيها الذين صدقوا بما جاء به محمد ﷺ اتقوا الله، وخافوه ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾؛ أي: نهاية تقواه وكاملها، وأبلغها، وأدومها، وهو استفراغ الوسع في القيام بالواجبات، والاجتناب عن المحرمات كقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: هو أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى، والذي يصدر عن العبد على سبيل السهو والنسيان، غير قادح فيه؛ لأن التكليف في تلك الحال مرفوع عنه. وقيل: هو أن ينزه الطاعة عن

---

(١) النسفي.

الالتفات إليها، وعن توقع المجازاة عليها، وفي هذا الأمر تأكيد للنهي عن طاعة أهل الكتاب، وقيل: هو ألا تأخذه في الله لومة لائم، ويقوم بالقسط ولو على نفسه أو ابنه أو أبيه.

وقال قتادة،[1] والسدي، وابن زيد، والربيع: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أمروا أولاً بغاية التقوى حتى لا يقع إخلال بشيء، ثم نسخ، وقال ابن عباس، وطاووس: هي محكمة، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ بيان لقوله: و﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ وقال ابن عباس: المعنى: جاهدوا في الله حق جهاده. وقال[2] الماتريدي، وفي حرفِ حفصةَ ﴿واعبدوا الله حق عبادته﴾ ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؛ أي: ولا يأتينكم الموت إلا وأنتم ملتبسون بالإسلام، أي: [3] حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم؛ لتموتوا عليه، فيا عياذاً بالله من خلاف ذلك، والاستثناء فيه مفرغ من عام الأحوال؛ أي: ولا تموتن على حال من الأحوال إلا على حالة الإسلام.

والخلاصة: استمروا على الإسلام، وحافظوا على أداء الواجبات، وترك المنهيات حتى الموت. وقد جاء ولا تغيروا، ولا تبدلوا، لئلا يصادفكم الموت في حالة التغيير هذا في مقابلة قوله: ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾.

وعن جابر رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل» رواه مسلم.

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾؛ أي: تمسكوا بدين الله الذي هو الإسلام، أو بكتابه الذي هو القرآن، أو عهده الذي عهد به إليكم الذي هو التوحيد حالة كونكم ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: مجتمعين على الاعتصام والتمسك بحبل الله وعن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض».

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

(٣) ابن كثير.

وروي عنه ﷺ أنه قال: «القرآن حبل الله المتين، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، من قال به صدق، ومن عمل به رشد ومن اعتصم به هدي إلى صراط مستقيم». ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾؛ أي: لا تتفرقوا، ولا تختلفوا في الدين كما اختلف من قبلكم من اليهود والنصارى، أو لا تتفرقوا تفرقكم الجاهلي يحارب بعضكم بعضاً، ويقتل بعضكم بعضاً، وقيل: معناه لا تحدثوا بينكم ما يكون عنه التفرق، ويزول معه الاجتماع، والألفة التي أنتم عليها كالعصبية، والجنسية، ففيه النهي عن التفرق والاختلاف، والأمر بالاتفاق، والاجتماع؛ لأن الحق لا يكون إلا واحداً، وما عداه يكون جهلاً وضلالاً، وإذا كان كذلك.. وجب النهي عن الاختلاف في الدين، وعن الفرقة؛ لأن كل ذلك كان عادة أهل الجاهلية فنهوا عنه.

وبالجملة فحبل الله في هذه الآية هو صراطه المستقيم، كما أن أنواع التفرق هي السبل التي نهي عنها فيها، ومن السبل المفرقة في الدين إحداث الشيع، والفرق كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾.

ومنها: العصبية الجنسية كما بين الأوس والخزرج، وقد روى أبو داود عن مطعم بن جبير «ليس منا من دعا إلى عصبية». وقد سار على هذا النهج أهل أوربا في العصر الحديث، فاعتصموا بالعصبية الجنسية كما كانت العرب تفعل ذلك في الجاهلية، وسرى ذلك إلى بعض البلاد الإسلامية، بل عم جميعها، وفشا فيها، فحاول أهلها أن يجعلوا في المسلمين جنسيات وطنية، ومفاخرات عصبية.

وكانت كل دولة تتفاخر بجنسيتها ظناً منهم أن ذلك مما ينهض بالوطن، ويزيدهم شرفاً، وليس الأمر كما يظنون، فإن الوطن لا يرقى إلا باتحاد كل المقيمين فيه لإحيائه، لا في تفرقهم وعصبيتهم، فإن ذلك مما يورث الشحناء والبغضاء بينهم، خصوصاً، التقدم بالجنسية والعصبية في التعليم والتدريس والإفتاء، بل التقدم في ذلك بالعلم والتقوى، وما لهم في ذلك سند إلا الاقتداء

بالنصارى، والعياذ بالله من ذلك. فالدين يأمر باتحاد كل قوم، تضمهم أرض واحدة، وإن اختلفت أديانهم وأجناسهم، ويأمر بالاعتصام بحبل الله المتين بين جميع الأقوام.

﴿وَاذْكُرُوا﴾؛ أي: تذكروا يا معشر الأوس والخزرج ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: إنعامه سبحانه وتعالى عليكم نعمة دنيوية، وأخروية التي من جملتها: الهداية والتوفيق للإسلام المؤدي إلى التآلف، وزوال الغل ﴿إِذْ كُنتُمْ﴾: ظرف لقوله: ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أي: اذكروا إنعامه عليكم إذ كنتم في الجاهلية ﴿أَعْدَاءً﴾ متقاتلين يبغض بعضكم بعضاً ويحارب بعضكم بعضاً ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ بالإسلام؛ أي: قذف الله تعالى فيها المحبة بتوفيقكم للإسلام ﴿فَأَصْبَحْتُم﴾ وصرتم ﴿بِنِعْمَتِهِ﴾ بسبب إنعامه عليكم بنعمة الإسلام ﴿إِخْوَانًا﴾ في الدين: أي: متحابين مجتمعين على الأخوة في الله سبحانه وتعالى، وقيل: كان الأوس والخزرج أخوين لأبوين، فوقع بين أولادهما العداوة، وتطاولت الحروب بينهم مائة وعشرين سنة، حتى أطفأها الله بالإسلام، وألف بينهم برسوله ﷺ، وقيل: الخطاب على العموم، والمعنى حينئذٍ؛ واذكروا أيها المؤمنون النعمة التي أنعم الله عليكم بها حين كنتم أعداءً يقتل بعضكم بعضاً، ويأكل قويكم ضعيفكم، فجاء الإسلام، فألف بينكم وجمع جمعكم، وجعلكم إخواناً، حتى قاسم الأنصار المهاجرين أموالهم، وديارهم، وكان بعضهم يؤثر غيره على نفسه، وهو في خصاصة وحاجة إليه، وأطفأ الحروب التي تطاولت بين الأوس والخزرج مائة وعشرين سنة وأنقذهم مما هو أدهى وأمر، وهو عذاب الآخرة. ﴿وَكُنتُمْ﴾ يا معشر الأوس والخزرج ﴿عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ﴾؛ أي: على طرف وهدة ﴿مِّنَ النَّارِ﴾ الأخروية مثل شفا البئر؛ أي: وكنتم قريبين من الوقوع في النار بسبب كفركم، ليس بينكم، وبين الوقوع فيها إلا أن تموتوا على كفركم ﴿فَأَنقَذَكُم﴾؛ أي: فأنجاكم ﴿مِّنْهَا﴾؛ أي: من تلك الحفرة أو النار، بأن هداكم للإسلام.

والخلاصة: أي وكنتم بوثنيتكم وشرككم بالله كأنكم على طرف حفرة، يوشك أن ينهار، ويسقط بكم في النار، فليس بين الشرك، والهلاك في النار إلا

الموت، والموت أقرب غائب ينتظر؛ فأنقذكم الإسلام منها.

وفي هذه الآيات جماع المنن التي أنعم الله بها عليهم، فقد أخرجهم بالإسلام من الشرك ومخازيه، وألف بين قلوبهم حتى صاروا سادة البشر، حين كانوا يعملون بكتابه، وأنقذهم بذلك من النار فسعدوا بالحسنيين. فانظر إلى آيات الله، ودلائل قدرته كيف حول قوما متخاذلين تملأ قلوبهم الإحن والعداوات، ويتربص كل منهما بالآخر ريب المنون إلى جماعات متعافية القلوب مليئة بالحب والإخلاص، وجهتهم جميعاً واحدة هي حكم الله ورفعة دينه ونشره بين البشر.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما بين لكم ربكم في هذه الآيات ما تضمره لكم اليهود من غشكم، وبين لكم ما أمركم به، وما نهاكم عنه، وبين لكم الحال التي كنتم عليها في الجاهلية، وما صرتم إليه في الإسلام ليعرفكم في كل ذلك مواقع نعمه ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؛ أي: يفصل الله تعالى لكم ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أي: سائر حججه في تنزيله على لسان رسوله. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾؛ أي: لكي تهتدوا من الضلالة، وتستعدوا للاهتداء الدائم حتى لا تعودوا إلى عمل الجاهلية من التفرق والعدوان؛ والمعنى يزيدكم بيان ذلك ما دام رسول الله فيكم.

فائدة: والاختلاف[1] الذي يقع بين البشر ضربان:

الأول: ضرب لا يسلم منه الناس، ولا يمكن الاحتراس منه، وهو الخلاف في الرأي والفهم، وهو مما فطر عليه البشر، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ إذ أن العقول والأفهام ليست متساوية، فالأسرة الواحدة تختلف أفهام أفرادها في الشيء الواحد كما يختلف حبهم له؛ وميلهم إليه، وهذا ضرب لا ضرر فيه.

والثاني: ضرب جدت الشرائع في هدمه ومحوه، وهو تحكيم الرأي والهوى في أمور الدين وشؤون الحياة، وهاك مثلاً يتضح لك به ما تقدم. قد اختلف الأئمة المجتهدون في فهم كثير من نصوص الدين من كتاب وسنة، وما

---

(١) المراغي.

كان في ذلك من حرج، فمالكٌ نشأ في المدينة، ورأى ما كان عليه أهلها من صلاح وسلامة قلب فقال: إن عمل أهلها أصل من أصول الدين؛ لأنهم لقرب عهدهم من النبي ﷺ لا يتفقون على غير ما مضت عليه السنة في العمل. وأبو حنيفة نشأ في العراق وأهلها أهل شقاق ونفاق؛ فلم يجعل عملهم ولا عمل غيرهم حجة، ولو اجتمع هذان الإمامان. لعذر كل منهما صاحبه فيما رأى؛ لأنه بذل جهده في بيان وجه الحق مع الإخلاص لله تعالى، وإرادة الخير والطاعة لأمره. ولكن جاءت بعد هؤلاء فرق من المسلمين قلدتهم فيما نقل عنهم، ولم تقلدهم في سيرتهم، وحكموا الرأي والهوى في الدين، وتفرقوا شيعاً كل فريق يتعصب لرأي فيما وقع من أوجه الخلاف، ويعادي المخالف له حتى حدث من ذلك ما نرى، وما ذاك إلا لأن الحق لم يكن هو مطلب المتعصبين، فليس من المعقول أن أبا حنيفة أصاب في كل ما خالف فيه غيره من الأئمة، وأن الشافعي ومالكاً أخطآ في جميع ما خالفا فيه أبا حنيفة.

وإذاً فكيف يمضي نحو أربعة عشر قرناً، ولا يستبين لفقهاء مذهبه وجه الصواب في بعض المسائل الخلافية! فيرجحون بعض آراء المذاهب الأخرى على مذهبه في تلك المسائل، ويرجعون إلى الصواب فيها!.

وهذا الضرب من الخلاف، وهو تحكيم الرأي والهوى كان مصدر شقاء أمم كثيرة، فهوت بعد رفعتها وذلت بعد عزتها وضعفت بعد قوتها.

وقد حدث مثل هذا في الفرق الإسلامية في علم العقائد، فإن أبدى أحدهم رأياً في مسألة بادر مخالفه إلى الرد عليه، وتفنيد مذهبه وتضليله، ويقابله الآخر بمثل صنيعه، ولو حاول كل منهما محادثة الآخر والإطلاع على أدلته، ووزنها بميزان الإنصاف والحق. لما حدث مثل هذا الخلاف، بل اقتنع كل واحد منهما بما رأى مخالفه.

والمسلم ما دام محافظاً على نصوص دينه، لا يخل بواحد منها مع احترامه لرسوله المفسر لكتابه، لا يخرج من جماعة المسلمين لمخالفته سواه.

فإذا تحكم الرأي والهوى، ولعن بعضهم بعضاً، وكفر بعضهم بعضاً؛ فقد

باء بها من قالها، كما ورد في الحديث، وكذلك الحال في الاختلاف في المعاملة في المسائل السياسية والدينية، لا ينبغي أن يكون مفرقاً بين جماعة المسلمين، بل عليهم أن يرجعوا من النزاع إلى حكم الله، وآراء أولي العلم منهم، وبذلك نتقي غائلة الخلاف، ونكون في وفاق، ونصير ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

الإعراب

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

﴿لَن﴾: حرف نصب ﴿تَنَالُوا۟﴾: فعل وفاعل منصوب بـ ﴿لَن﴾. ﴿ٱلْبِرَّ﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية. ﴿تُنفِقُوا۟﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ مضمرة بعد ﴿حتى﴾، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿تَنَالُوا۟﴾. ﴿مِمَّا﴾: من حرف جر وتبعيض ﴿ما﴾: موصولة، أو موصوفة في محل الجر بـ ﴿من﴾. الجار والمجرور متعلق بـ ﴿تنفقوا﴾. قال أبو البقاء: ولا يجوز أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية، لأن المحبة لا تنفق، فإن جعل المصدر بمعنى المفعول.. فهو جائز على رأي أبي عليّ الفارسي انتهى. ﴿تُحِبُّونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: مما تحبونه.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ما﴾: اسم شرط جازم في محل النصب مفعول مقدم. ﴿تنفقوا﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿ما﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿مِن شَىْءٍ﴾: متعلق بـ ﴿تُنفِقُوا۟﴾. ﴿فَإِنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿ما﴾ الشرطية وجوباً. ﴿إنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بعليم. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبرها، وجملة ﴿إن﴾: في محل الجزم بـ﴿ما﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾: مبتدأ، ومضاف إليه ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها

ضمير يعود على ﴿كُلُّ﴾. ﴿حِلًّا﴾: خبرها. ﴿لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿حِلًّا﴾؛ لأنه مصدر بمعنى اسم الفاعل؛ لأنه بمعنى جائزاً، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب على الاستثناء؛ لأنه استثناء من اسم ﴿كَانَ﴾ والعامل فيه ﴿كَانَ﴾. ﴿حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ﴾: فعل وفاعل. ﴿على نفسه﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿حَرَّمَ﴾. والجملة الفعلية صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط ضميرٌ محذوف تقديره: حرمه.

﴿مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ﴾.

﴿مِن قَبۡلِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿حرَّم﴾، قاله أبو البقاء، وفي «الفتوحات» قوله: ﴿مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ﴾ متعلق بقوله ﴿كَانَ حِلًّا﴾ ولا ضَيْرَ في توسط الاستثناء بينهما إذ هو فصل جائز، وذلك على مذهب الكسائي، وأبي الحسن في جواز أن يعملَ ما قبل إلاّ فيما بعدَها؛ إذا كان ظرفاً أو جاراً ومجروراً أو حالاً، وقيل: متعلِّق بـ ﴿حَرَّمَ﴾. وفيه: أنَّ تقييد تحريمه ـ عليه السلام ـ بقبلية تنزيل التوراة ليس فيه مزيد فائدة، إذ كان ما عدا المستثنى حلالاً لهم قبل نزولها، مشتملة على تحريم أمور أخر؛ حرمت بسبب ظلمهم وبغيهم كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖ﴾ الآية. أبو السعود انتهت. ﴿أَن﴾: حرف نصب. ﴿تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ﴾ فعل ونائب فاعل منصوب بـ ﴿أَن﴾ والمصدر المؤول بـ ﴿أنْ﴾ مجرور بإضافة الظرف إليه تقديره: من قبل تنزيلها.

﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة، ﴿فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، لِـ ﴿قُلۡ﴾ وإن شئتَ: قلت ﴿فَأۡتُواْ﴾: ﴿الفاء﴾ عاطفة على محذوف تقديره: هذا هو الحق لا زعمكم يا معشر اليهود،

كما أشرنا إليه في مقام التفسير. ﴿أتوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على ذلك المحذوف على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾. ﴿بِٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ متعلق بـ﴿أتوا﴾. ﴿فَٱتْلُوهَآ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿اتلوها﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿فَأْتُوا۟﴾ ﴿إِن﴾: حرف شرط ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ على كونه فعلَ شرط لها. ﴿صَٰدِقِينَ﴾: خبرُ ﴿كان﴾، وجواب إن معلوم مما قبله تقديره: إن كنتم صادقين.. فاتلوها، وجملة إن الشرطية في محل النصب: مقول ﴿قُلْ﴾.

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿فَمَنِ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة أو استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط فقط، أو الجواب فقط، أو هما على الخلاف المذكور في محله ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾ فعل ماض في محل الجزم بِ ﴿منْ﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿افترى﴾. ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿افترى﴾ أو بـ ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ كما ذكره أبو البقاء. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية ﴿أولئك﴾: مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: خبر والجملة الاسمية في محل الجزم بـ ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، والجملة الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَأْتُوا۟﴾ بالتوراة على كونها مقولاً لِـ﴿قُلْ﴾ أو مستأنفة.

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت.. قلت ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لـ ﴿قُلْ﴾. ﴿فَٱتَّبِعُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، أو فصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا تبين لكم صدقي وصدق ما جئت به، وأردتم بيان ما هو المصلحة لكم.. فأقول لكم: ﴿فَٱتَّبِعُوا۟﴾: ﴿اتبعوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفةٌ على جملة قوله ﴿صَدَقَ﴾ على كونها مقولاً لـ ﴿قُلْ﴾ أو مقولاً لجواب إذا المقدرة. ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾:

مفعول به، ومضاف إليه ﴿حَنِيفًا﴾: حال من ﴿إبراهيم﴾. ﴿وَمَا كَانَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماضٍ ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾. ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ جار ومجرور خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب معطوفة على ﴿حَنِيفًا﴾ على كونها حالاً من ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ تقديره: حالة كونه عادماً كونه من المشركين.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾، ومضاف إليه ﴿وُضِعَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿بَيْتٍ﴾. ﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلق بـ ﴿وُضِعَ﴾ والجملة صفة لِـ ﴿بَيْتٍ﴾. ﴿لَلَّذِى﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداءٍ. ﴿الذي﴾: اسم موصول في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة. ﴿بِبَكَّةَ﴾: جار ومجرور صلة الموصول. ﴿مُبَارَكًا﴾: حال من الضمير المستتر في الصلة، أو المستتر في ﴿وُضِعَ﴾. ﴿وَهُدًى﴾: معطوف على ﴿مُبَارَكًا﴾. ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾: جار ومجرور تنازع فيه كل من ﴿مُبَارَكًا﴾ و﴿هدى﴾ أو متعلق بـ ﴿هدى﴾ فقط.

﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾.

﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ءَايَاتٌ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿بَيِّنَاتٌ﴾ صفة له، والجملة الاسمية في محل النصب حال ثالثة، أو مستأنفة لا محل لها من الإعراب؛ لأنها لبيان وتفسير بركته وهداه كما في «السمين». ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ بدل من ﴿ءَايَاتٌ﴾ بدل تفصيل من مجمل و ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ مضاف إليه، والرابط محذوف تقديره ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ منها ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: ﴿وَ﴾ استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط فقط، أو جملة الجواب، أو هما معاً ﴿دَخَلَهُۥ﴾ فعل ومفعول في محل الجزم بِـ ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿كَانَ﴾: فعل ماضٍ، ناقص في محل الجزم بـ ﴿مَنْ﴾ على كونه جواباً لها، واسمها ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿ءَامِنًا﴾: خبرها، وجملة من الشرطية: مستأنفة استئنافاً بيانياً سيقت لبيان تلك الآيات البينات، أو في محل الرفع معطوفة على ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ على كونها بدلاً

من ﴿ءَايَٰتٌۢ﴾، والمعنى: فيه آيات بينات. منها: مقام إبراهيم، **ومنها**: أمن داخله.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لله﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: متعلق بما تعلَّق به الجار والمجرور قبله. ﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾: مبتدأ مؤخر، ومضاف إليه، والتقدير: ﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾: واجب لله على الناس. ﴿مَنِ﴾ اسم موصول في محل الجر بدل ﴿من الناس﴾ بدل بعض من كل، والرابط محذوف تقديره: منهم. ﴿ٱسْتَطَاعَ﴾: فعل ماضٍ وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ والجملة صلة الموصول. ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق بـ ﴿ٱسْتَطَاعَ﴾. ﴿سَبِيلًا﴾: مفعول به لـ﴿استطاع﴾.

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب ﴿كَفَرَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم على كونه فعلَ شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً. ﴿إنْ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها ﴿غَنِىٌّ﴾: خبرها. ﴿عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: متعلق بغني، وجملة ﴿إن﴾: في محل الجزم بـ ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة (من) الشرطية: مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محلَّ لها من الإعراب، ويجوز أن تكون ﴿مَنْ﴾ موصولة، ودخلت الفاء تشبيهاً للموصول باسم الشرط، وقد تقدم نظيره غير مرة.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لِ ﴿قُلْ﴾. وإن شئت قلت: ﴿يا﴾ حرف نداء، ﴿أَهْلَ الْكِتَابِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول لـ ﴿قُلْ﴾ ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر. ﴿مَ﴾: اسم استفهام في

محل الجر باللام مبني بسكون على الألف المحذوفة فرقاً بينها وبين ﴿ما﴾ الموصولة، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿تَكۡفُرُونَ﴾. ﴿تَكۡفُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿تَكۡفُرُونَ﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: حالية ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿شَهِيدٌ﴾: خبر. ﴿عَلَىٰ مَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿شَهِيدٌ﴾ والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿تَكۡفُرُونَ﴾. ﴿تَعۡمَلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: تعملونه، ويصح كون ﴿ما﴾ مصدرية كما مر نظيره مراراً.

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ ﴿قُلۡ﴾، وإن شئت قلت: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء: في محل النصب مقول محكي لِـ﴿قُلۡ﴾. ﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر. ﴿م﴾: اسم استفهام في محل الجر باللام، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿تصدون﴾. ﴿تصدون﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول محكي لـ ﴿قُلۡ﴾. ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿تَصُدُّونَ﴾. ﴿مَنۡ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿تَصُدُّونَ﴾. ﴿ءَامَنَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنۡ﴾ والجملة صلة الموصول. ﴿تَبۡغُونَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب حال من الضمير في ﴿تَصُدُّونَ﴾ أو من ﴿السبيل﴾؛ لأنَّ في هذه الجملة ضميرين راجعين إليهما؛ فلذلك صح أن تجعل حالاً من كل واحد منهما؛ كما ذكره أبو البقاء، أو الجملة مستأنفة. ﴿عِوَجٗا﴾: حال من ﴿الهاء﴾ في ﴿تَبۡغُونَهَا﴾ بتأويله بمشتق تقديره: معوجة. ﴿وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿أنتم﴾: مبتدأ ﴿شُهَدَآءُۗ﴾: خبر، والجملة في محل النصب: حال إما من فاعل ﴿تَصُدُّونَ﴾ وإما من فاعل ﴿تبغون﴾. ﴿وَمَا ٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿ما﴾:

حجازية أو تميمية. ﴿ٱللَّهُ﴾: اسمها، أو مبتدأ. ﴿بِغَٰفِلٍ﴾: ﴿الباء﴾: زائدة ﴿غافل﴾: خبر لـ ﴿ما﴾ أو خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تَصُدُّونَ﴾. ﴿عَمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿غافل﴾ وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: صلة لـ ﴿ما﴾، أو صفة لها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿يا﴾: حرف نداء ﴿أيّ﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات؛ أي: من الإضافة؛ كما مر مراراً، وجملة النداء: مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول: في محل الرفع صفة لـ ﴿أي﴾: ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿تُطِيعُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَرِيقًا﴾: مفعول به. ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿فَرِيقًا﴾. ﴿أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، صلة الموصول. ﴿يَرُدُّوكُم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول مجزوم بـ ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها؛ لأنه من أفعال التصيير. ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾: ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يردون﴾. ﴿كَٰفِرِينَ﴾: مفعول ثان ﴿يَرُدُّوكُم﴾ وجملة ﴿إن﴾ الشرطية جواب النداء لا محل لها من الإعراب.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿وَكَيْفَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿كيف﴾: اسم استفهام في محل النصب، على الحالية. ﴿تَكْفُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿وَأَنتُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿أنتم﴾: مبتدأ. ﴿تُتْلَىٰ﴾: فعل مضارع مغيّر الصيغة. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به. ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾: نائب فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿تَكْفُرُونَ﴾. ﴿وَفِيكُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿فيكم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿رَسُولُهُۥ﴾: مبتدأ مؤخر، ومضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة

قوله: ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ﴾ على كونها حالاً من فاعل ﴿تَكْفُرُونَ﴾. ﴿وَمَن يَعْتَصِم﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو جملة الجواب أو هما. ﴿يَعْتَصِم﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿من﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿يَعْتَصِم﴾. ﴿فَقَدْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب من الشرطية وجوباً، لكون الجواب مقروناً بـ ﴿قد﴾ لأنه من المواضع التي يجب فيها إقتران الجواب بالفاء المجموعة في قول بعضهم:

إِسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وبِجَامِدِ وَبِمَا وَلَنْ وَبِقَدْ وَبِالتَّسْوِيفِ

﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق. ﴿هُدِيَ﴾: فعل ماضٍ مغيّر الصيغة في محل الجزم بـ﴿مَنْ﴾ على كونه جواب الشرط، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: جار ومجرور وصفة متعلق بـ ﴿هُدِيَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أيُّ﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أيُّ﴾، وجملة النداء، مستأنفة. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة جواب النداء. ﴿حَقَّ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، وهو مضاف ﴿تُقَاتِهِۦ﴾: مضاف إليه، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف، والأصل ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ التقاة الحق، أي: الثابتة. ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لا﴾: ناهية ﴿تَمُوتُنَّ﴾: فعل مضارع مجزوم ﴿بلا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأن أصله تَمُوتُونَنَّ والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين في محل الرفع فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ من عام الأحوال. ﴿وَأَنتُم﴾ ﴿الواو﴾: حالية ﴿أنتم﴾: مبتدأ. ﴿مُّسْلِمُونَ﴾: خبر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تَمُوتُنَّ﴾ تقديره، ولا تموتن على حالةٍ من الأحوال إلاَّ حالة كونكم مسلمين.

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾.

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿اعتصموا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿بِحَبۡلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿اعتصموا﴾. ﴿جَمِيعٗا﴾: حال من فاعل ﴿اعتصموا﴾ تقديره: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ﴾ الله حالة كونكم مجتمعين عليه. ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لا﴾: ناهية ﴿تَفَرَّقُواْۚ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ﴾.

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾.

﴿وَٱذۡكُرُواْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿اذكروا﴾ ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ﴾. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: متعلق بـ ﴿نعمة الله﴾ لأنه بمعنى إنعامه عليكم.

﴿إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾.

﴿إِذۡ﴾: ظرف لما مضى مجرد عن معنى الشرط، والظرف متعلق بـ ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾. ﴿كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿فَأَلَّفَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿ألَّف﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿كان﴾. ﴿بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿ألَّف﴾. ﴿فَأَصۡبَحۡتُم﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. ﴿أصبحتم﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِنِعۡمَتِهِۦٓ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿أصبح﴾. ﴿إِخۡوَٰنٗا﴾: خبر ﴿أصبح﴾ وجملة ﴿أصبح﴾ في محل الجر معطوفة على جملة ﴿ألَّف﴾.

﴿وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ﴾.

﴿وَكُنتُمۡ﴾ ﴿الواو﴾ عاطف. ﴿وَكُنتُمۡ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر ﴿كان﴾ تقديره؛ وكنتم كائنين على شفا حفرة، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة ﴿كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾. ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿حُفۡرَةٖ﴾. ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ﴾ الفاء عاطفة. ﴿أنقذكم﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة قوله

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ﴾. ﴿مِّنْهَا﴾ متعلق بـ ﴿أنقذكم﴾.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ جار ومجرور صفة لمصدر محذوف تقديره: يبين لكم بياناً كائناً كذلك؛ أي: كائناً مِثْلَ البيان المذكور هنا. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَكُمْ﴾ متعلق ﴿يُبَيِّنُ﴾. ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ مفعول به، ومضاف إليه﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ﴿لعل﴾ حرف نصب وتعليل بمعنى كي، و﴿الكاف﴾ اسمها. وجملة ﴿تَهْتَدُونَ﴾ خبرها وجملة ﴿لعل﴾ من اسمها وخبرها في محل الجر بلام التعليل المقدرة المتعلِّقة بـ ﴿يُبَيِّنُ﴾ تقديره: كذلك بين لكم آياته لاهتدائكم أي لإرادة اهتدائكم. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ﴾ يقال: ناله من فلان معروف يناله نيلاً إذا وصل إليه. والنوال: العطاء من قولك: نولته تنويلاً إذا أعطيته. والنيل: إدراك الشيء ولحوقه، وقيل: هو العطية، وقيل: هو تناول الشيء، باليد يقال: نلته أناله نيلاً قال تعالى: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾. وأما النول بالواو فمعناه: التناول يقال: نلته أنوله: أي: تناولته وأنلته زيداً أنيله إياه؛ أي ناولته إياه. والبر اسم جامع لوجوه الخير، والمراد به هنا الجنة. ﴿حِلًّا﴾ الحل لغة: في الحلال، كما أن الحرم لغة: في الحرام، والحلال، وكذا الحل مصدر يستوي فيه الواحد، والجمع، والمذكر، والمؤنث. ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ فيه مراعاة لفظ ﴿مَنْ﴾ وفي قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مراعاة معناها، والإفتراء اختلاق الكذب وهو من باب افتعل أصله: من: فرى الأديم إذا قطعه؛ لأن الكاذب يقطع القول من غير حقيقة له في الوجود.

﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ هي مكة بقلب الميم باء، وبكة علم للبلد الحرام، وكذا مكة، وهما لغتان: وقيل: إن بكة اسم لموضع البيت، ومكة اسم للبلد الحرام، وقيل: بكة للمسجد، ومكة للحرم كله، يقال: بك يبك من باب رد إذا دق

الشيء، وسميت بكة؛ لأنها تبك أعناق الجبابرة، وبكها لأعناقهم كناية عن إهلاكهم، وإذلالهم ويقال: بك القوم إذا ازدحموا؛ لأنهم يزدحمون فيها في الطواف. وأما تسميتها مكة فقيل: سميت بذلك؛ لأنها قليلة الماء تقول العرب: مك الفصيل ضرع أمه، وأمكه إذا امتص كل ما فيه من اللبن. وقيل: لأنها تمك المخ من العظم بما ينال ساكنها من المشقة، ومنه مككت العظم، إذا أخرجت ما فيه، وقيل: سميت بذلك؛ لأنها تمك من ظلم فيها؛ أي: تهلكه. وقد اختلف في الباني له في الابتداء، فقيل: الملائكة، وقيل: آدم، وقيل: إبراهيم، ويجمع بين ذلك؛ بأن أول من بناه الملائكة ثم جدده آدم ثم إبراهيم.

﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ والعوج ـ بكسر أوله وفتحه ـ: الميل، ولكن العرب فرقوا بينهما، فخصوا المكسور بالمعاني، والمفتوح بالأعيان، تقول: في دينه وكلامه عوج بالكسر، وفي الجدار عوج بالفتح. قال أبو عبيدة العوج بالكسر الميل في الدين، والكلام والعمل، وبالفتح في الحائط والجذع. وقال أبو إسحاق بالكسر فيما لا ترى له شخصاً، وبالفتح فيما له شخص، وقال صاحب المجمل: العوج بالفتح في كل منتصب كالحائط، وبالكسر ما كان في بساط أو دين أو أرض أو معاشٍ، فقد فرق بينهما بغير ما تقدم، يقال: عوج من باب: طرب فهو أعوج، والاسم: العوج كما ذكره في «المختار». ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ هو من باب إضافة الصفة إلى موصوفها كما تقول: ضربت زيداً شديد الضرب أي؛ الضرب الشديد فكذلك ما هنا، والتقدير: اتقو الله الإتقاء الحق؛ أي: الواجب الثابت. ﴿شَفَا حُفْرَةٍ﴾ في «المصباح»، وشفا كل شيء حرفه، مثل النوى، وفي «السمين»: الشفا: طرف الشيء، وحرفه، وهو مقصور من ذوات الواو يثنى بالواو نحو شفوان، ويكتب بالألف، ويجمع على أشفاء، ويستعمل مضافاً إلى أعلى الشيء، وإلى أسفله، فمن الأول ﴿شَفَا جُرُفٍ﴾ ومن الثاني هذه الآية، وأشفى على كذا إذا قاربه، ومنه أشفى المريض على الموت.

البلاغة

وذكروا في هذه الآيات من فنون البلاغة والفصاحة أنواعاً:

منها: التبكيت والتوبيخ، حيث أمرهم بالإتيان بالتوراة للدلالة على كمالِ القبح.

ومنها: الهزء في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ لأنه خرج مخرج الممكن وهو معلوم كذبهم، وذلك على سبيل الهزء بهم كقولك: إن كنت شجاعاً فالقني، ومعلوم عندك أنه ليس بشجاع، ولكن هزأت به؛ إذ جعلت هذا الوصف مما يمكن أن يتصف به.

ومنها: التفخيم في قوله: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ حيث حذف الموصوف، وذكر الصفة؛ لأن أصل الكلام للبيت الذي ببكة. ومنها: التأكيد والتشديد في قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ حيث وضع هذا اللفظ موضع، ومن لم يحج تأكيدا لوجوبه، وتشديداً على تاركه. قال أبو السعود: ولقد حازت الآية الكريمة من فنون الاعتبارات ما لا مزيد عليه، وهي قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ حيث أوثرت صيغة الخبر الدالة على التحقيق، وأبرزت في صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبات والاستمرار على وجه يفيد أنه حق واجب لله سبحانه وتعالى في ذمم الناس، وسلك بهم مسلك التعميم، ثم التخصيص والإبهام، ثم التبيين والإجمال، ثم التفصيل.

وقال أبو حيان[1]: وذكروا في هذه الآيات من فنون البلاغة والفصاحة:

منها: الاستفهام الذي يراد به الإنكار في قوله: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وفي اسم الله في مواضع، وفي ما يعملون.

ومنها: الطباق في الإيمان والكفر، وفي الهداية والكفر، إذ هو ضلال، وفي العوج والاستقامة، والتجوز بإطلاق اسم الجمع في قوله: ﴿فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فقيل: هو يهودي غير معين، وقيل: هو شاس بن قيس وإطلاق العموم

---

(١) البحر المحيط.

الذي أريد به الخصوص في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ على قول الجمهور إنه خطاب للأوس والخزرج.

ومنها: الحذف في مواضع. انتهى.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ﴾ حيث شبه الدين أو القرآن بالحبل، واستعير اسم المشبه به، وهو الحبل للمشبه، وهو الدين أو القرآن على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، والجامع بينهما التوصل للمقصود في كل، وإضافته للفظ الجلالة قرينة مانعة، والاعتصام ترشيح.

وفيه أيضاً: استعارة تصريحية تبعية حيث شبه الوثوق بالاعتصام، واستعار الاعتصام للوثوق، واشتق من الاعتصام ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ﴾ بمعنى ثقوا.

والحاصل: [1] أنَّ في الآية استعارتين: استعارة الحبل للدين، أو للكتاب فتكون استعارة مصرحة أصلية تحقيقية، والقرينة الإضافة إلى الله تعالى، واستعارة الاعتصام للوثوق به، والتمسك به، فتكون استعارة مصرحة تبعية تحقيقية، والقرينة اقترانها بتلك الاستعارة.

ومنها: الاستعارة التمثيلية حيث شبه حالهم الذي كانوا عليه بالجاهلية، بحال من كان مشرفاً على حفرة عميقة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) جمل.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۗ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩) كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)﴾.

المناسبة

لما حذر الله سبحانه[١] وتعالى المؤمنين فيما سلف من مكايد أهل الكتاب، وأمرهم بتكميل أنفسهم، وتزكيتها مما يشوبها من الأدناس، والأرجاس بالعمل بتقوى الله، والمحافظة على إخلاص العمل له حتى المماتِ، وأمرهم بالاعتصام بحبل الله المتين باتباع كتابه، والتمسك بسنة رسوله ﷺ إذا اختلفت الأهواء وتضاربت الآراء.. أمرهم هنا بتكميل غيرهم من أفراد الأمة بدعوتهم إلى الله تعالى، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر تثبيتاً لهم جميعاً على مراعاة ما في الشريعة من الأحكام، والمحافظة على ما فيها من التكاليف، وبذلك تكون بينهم رابطة تجمعهم في طلاب الخير لهم جميعاً حتى تكون الأمة كأنها جسد واحد كما رود في الحديث: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل

(١) المراغي.

الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» رواه مسلم.

وروى البخاري غيره: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً».

والحفاظ لوحدة الأمة، ومناط بقاء جامعتها أمر بعض أفرادها بعضاً بالاستمساك بالخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

ثم ذكر ما حل باليهود من الذل والصغار بسبب البغي والعدوان.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ﴾؛ أي: ولتوجد منكم يا معشر المؤمنين ﴿أُمَّةٌ﴾؛ أي: جماعةٌ متميزةٌ يقتدي بها فرق الناس ﴿يَدْعُونَ﴾ الناس ﴿إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ ويحثونهم على ما فيه صلاح معاشهم، ومعادهم، فأفضل الدعوة، الدعوة إلى توحيد الله وإلى إثبات ما أثبته لنفسه من الصفات، وإلى تقديسه عن الأنداد والشركاء، وعن مشابهة المخلوقات في ذاته، وصفاته، وأفعاله؛ لأنها أساس الدين ومبنى الإيمان.

﴿وَيَأْمُرُونَ﴾ الناس ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ شرعاً، والمعروف كلُ ما استحسنه الشرع والعقل، والأمر بالمعروف تابع للمأمور به، إن كان واجباً.. فواجب، وإن كان مندوباً.. فمندوب ﴿وَيَنْهَوْنَ﴾ الناس ﴿عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ شرعاً، والمنكر ضد المعروف، وهو ما عرف بالعقل، والشرع قبحه. فالنهي عن الحرام واجب كله، لأن تركه واجب. وهذه الأمور من فروض الكفاية؛ لأنها لا تليق إلا من العالم بالحال، وسياسة الناس حتى لا يوقع المأمور، أو المنهي في زيادة الفجور، فإن الجاهل ربما دعا إلى الباطل، وأمر بالمنكرَ، ونهى عن المعروف، وقد يغلظ في موضع اللين، ويلين في موضع الغلظة.

وقوله[1] ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ من باب عطف الخاص على العام؛ إظهاراً لترفهما، وأنهما الفردان الكاملان من الخير الذي أمر الله عباده بالدعاء إليه كما قيل، في عطف جبريل وميكال على الملائكة، وحذف مفعول

---

(١) الشوكاني.

الأفعال الثلاثة إيذاناً بالعموم؛ أي: كل من وقع منه سبب يقتضي ذلك.

وقرأ الجمهور[1] ﴿وَلْتَكُن﴾ بإسكان اللام، وقرأ أو عبد الرحمن، والحسن، والزهري، وعيسى بن عمر، وأبو حيوة، بكسرها، وعلة بنائها على الكسر مذكورةٌ في كتب النحو، وسنبينها لك في مقام الإعراب إن شاء الله تعالى.

وقرأ عثمان وعبد الله بن الزبير ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون بالله على ما أصابهم﴾ قال أبو بكر ابن الأنباري: وهذه الزيادة تفسيرٌ من ابن الزبير، وكلام من كلامه، غلط فيه بعض الناقلين عنه، فألحقه بألفاظ القرآن، وقد روي عن عثمان كما مر آنفاً أنه قرأها كذلك، ولكن لم يكتبها في مصحفه، فدل على أنها ليست من القرآن.

وفي الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة، وأصل عظيم من أصولها، وركن مشيد من أركانها، وبه يكمل نظامها ويرتفع مقامها.

فائدة[2]: ويشترط فيمن يقوم بهذه الدعوة شروط أربعةٌ؛ ليؤدي وظيفته خير الأداء، ويكون مثلاً صالحاً يحتذى به في علمه وعمله:

الأول: أن يكون عالماً بالقرآن والسنة وسيرة النبي ﷺ والخلفاءِ الراشدين رضي الله عنهم أجمعين.

الثاني: أن يكون عالماً بحال من توجه إليهم بالدعوة في شؤونهم واستعدادهم وطباعهم وأخلاقهم، أي: معرفة أحوالهم الاجتماعية.

والثالث: أن يكون عالماً بلغة الأمة التي يراد دعوتها، وقد أمر النبيُّ ﷺ بعض الصحابة بتعلم العبرانية لحاجته إلى محاورة اليهود، الذين كانوا يحاورونه ومعرفة حقيقة حالهم.

والرابع: معرفة الملل ومذاهب الأمم، وبذلك يتيسر له معرفة ما فيها من

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

باطلٍ، فإن الإنسان إن لم يتبين له بطلان ما هو عليه، لا يلتفت إلى الحق الذي عليه غيره، وإن دعاه إليه، وبالجملة فلا يقوم بهذه الدعوة إلا خواص الأمة العارفون بأسرار الأحكام، وحكمة التشريع، وفقهه، وهم الذين أشار إليهم الكتاب الكريم بقوله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

وهؤلاء يقومون بتطبيق أحكام الله تعالى على مصالح العباد في كل زمان ومكان على مقدار علمهم في المساجد، والمعابد، والمنتديات العامة، وفي المحافل عند سنوح فرصةٍ. فإذا هم فعلوا ذلك كثر في الأمة الخير، وندر فيها وقوع الشر، وائتلفت قلوب أهاليها، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر، وسعدوا في دنياهم وآخرتهم. وأمة هذه حالها تسود غيرها من الأمم باجتماع كلمتها، واتفاق أهوائها إذ لا مطمع لها إلا رفعة شأن دينها، وعزة أبنائها وسيادتها العالم كله. ولن يتم ذلك إلا إذا أعد أهلها للأمر عدته، وكملوا أنفسهم بالمعارف والعلوم التي تحتاج إليها الأمم التي تبغي السعادة والرقي، وتخلقوا بفاضل الأخلاق، وحميد الصفات حتى يكونوا مثلاً عليا يحتذى بها، ويشار إليهم بالبنان.

وإن ما أودع في ديننا من هذا، وما خلفه لنا السلف الصالح من الكنوز والثروة العلمية، فيه غنية لمن يريد الخير والفلاح، وقد روي أن رسول الله ﷺ سئل عن خير الناس، فقال: «آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر، وأتقاهم لله، وأوصلهم للرحم».

وعنه ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذاباً من عنده ثم لتدعنه فلا يستجاب لكم».

وعن علي رضي الله عنه: أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن غضب لله غضب الله له. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع

فبلسانه، فإن لم يستطيع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» أخرجه مسلم.

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينةٍ، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذي في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا، هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً». أخرجه البخاري.

واختلف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقيل: يجبان على كلِّ مكلف، فمعنى الآية على هذا القول: كونوا أمةً دعاةً إلى الخير، آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر. وصاحب هذا القول يقول: هما فرض كفاية إذا قام بهما واحد سقط الفرض عن الباقين.

وقيل: هنا يختصان بالعلماء وولاة الأمر، فعلى هذا يكون معنى الآية ليكن بعضكم آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الدعاة الآمرون الناهون ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: المختصون بالفلاح الكامل، والنجاح الواصل. روي أنه ﷺ قال: «من أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر.. فهو خليفة الله في أرضه، وخليفة رسوله وخليفة كتابه».

وبعد أن أمر الله سبحانه وتعالى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. بين ما يجب أن تكون عليه الأمة الداعية الآمرة الناهية من وحدة المقصد، واتحاد الغرض؛ لأن الذين سبقوهم من الأمم، لم يفلحوا لاختلاف نزعاتهم، وتفرق أهوائهم؛ لأن كلاً منهم يذهب إلى تأييد رأيه وإرضاء هواه.

أما المتفقون في القصد: فاختلافهم في الرأي لا يضر بل ينفعهم إذ هو أمر طبيعيٌّ، لا بدَّ منه لتمحيصه، وتبين وجه الصواب فيه فقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ﴾؛ أي: كاليهود والنصارى الذين تفرقوا بالعداوة ﴿وَٱخْتَلَفُواْ﴾ في الدين، وكانوا شيعاً تذهب كل شيعة منها مذهباً يخالف مذهب الآخر، وتنصر مذهبها وتدعو إليه، وتخطىء ما سواه ولذا تعادوا واقتتلوا، أو

المعنى تفرقوا بأبدانهم بأن صار كل واحد من أولئك الأحبار رئيساً في بلد، ثم اختلفوا بأن صار كل واحد منهم يدعي أنه على الحق، وأن صاحبه على الباطل، قال الفخر الرازي: إنك إذا أنصفت علمت أن أكثر علماء هذا الزمان، صاروا موصوفين بهذه الصفة، فنسأل الله العفو والرحمة.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾، أي: تفرقوا، واختلفوا من بعد ما جاءتهم الآيات الواضحة المبينة للحق الموجبة للاتفاق عليه، وإتحاد الكلمة. ولو كان فيهم أمة تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر وتعتصم بحبل الله وتتجه إلى غايةٍ واحدةٍ لما تفرقوا واختلفوا فيه. ولما تعددت مذاهبهم في أصوله وفروعه، وما قاتل بعضهم بعضاً: فلا تكونوا مثلهم؛ فيحل بكم ما حل بهم.

قالوا: وهذا الاختلاف المنهي عنه يختص بالمسائل الأصولية، وأما المسائل الفروعية الاجتهادية: فالاختلاف فيها جائزٌ. وما زال الصحابة فمن بعدهم من التابعين وتابعيهم مختلفين، في أحكام الحوادث لقوله ﷺ: «اختلاف أمتي رحمة» ولقوله ﷺ: «من اجتهد. . فأصاب؛ فله أجران، ومن أخطأ فله أجرٌ واحدٌ».

وأخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم، وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة». وزاد الحاكم في رواية: «كلها في النار إلاّ ملة واحدة». وزاد أحمد في روايةٍ عن أنس «قيل يا رسول الله: من تلك الفرقة؟ قال: «الجماعة». وإنما قال: ﴿جَآءَهُمُ﴾، ولم يقل: جاءتهم لجواز حذف علامة التأنيث من الفعل عند وجود الفاصل، أو عند كون الفاعل مؤنثاً مجازياً كما هنا.

ثم ذكر سبحانه وتعالى عاقبة المختلفين وعظيم نكالهم فقال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين تفرقوا واختلفوا في الدين ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة؛ بسبب تفرقهم واختلافهم. وفيه زجر عظيم للمؤمنين عن التفرق والاختلاف. وهذا العذاب يشمل خسران الدنيا، وخسران الآخرة، أما في الدنيا: فلأن بأسهم يكون بينهم شديداً، فيشقى بعضهم ببعض، ويبتلون بالأمم التي تطمع في الضعفاء

وتذيقهم الخزي والنكال. وأما في الآخرة: فعذاب الله أشد وأبقى. وهذا الوعيد المذكور في هذه الآية يقابل الوعد المذكور في الآية السابقة، وهو قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ فالفلاح فيها يشمل الفوز بخيري الدنيا والآخرة.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الجماعة شبراً.. فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه». أخرجه أبو داود. ربقة الإسلام: عقدة الإسلام وحبله وعراه.

وروى البغويُّ بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سَرَّه أن يسكن بحبوحة الجنة.. فعليه بالجماعة؛ فإن الشيطان مع الفذِّ، وهو من الاثنين أبعد». بحبوحة الجنة: وسطها، والفذ: هو الواحد.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى زمان ذلك العذاب فقال: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ﴾ الظرف منصوب بمحذوف تقديره: أذكروا يوم تبيض وتستنير، وتلألأ فيه وجوه كثيرة من المؤمنين بسبب ما تراه من الفرح والسرور بحسناتها، ﴿وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾ كثيرة من الكافرين بسبب ما تراه من الحزن والكآبة والغمّ بسيئاتها، وهو يوم القيامة حين[1] يبعثون من قبورهم تكون وجوه المؤمنين مبيضة، ووجوه الكافرين مسودة، ويقال: إن ذلك عند قراءة الكتاب إذ قرأ المؤمن كتابه.. رأى حسناته، فاستبشر وأبيض وجهه، وإذا قرأ الكافر كتابه.. رأى سيئاته؛ فحزن واسود وجهه.

وفي بياض[2] الوجوه وسوادها قولان:

أحدهما: البياض كناية عن الفرح، والسرور، والسواد: كناية عن الغم والحزن، واستعمال البياض في السرور والسواد في الحزن عرف شائع لدى كل ناطق بالضاد على سبيل التجوز.

والقول الثاني: بياض الوجوه وسوادها حقيقة تحصل في الوجه، فيبيض وجه المؤمن، ويكسى نوراً، ويسود وجه الكافر ويكسى ظلمة؛ لأن لفظ البياض والسواد حقيقة فيهما.

---

(١) الشوكاني. (٢) الخازن.

والحكمة في بياض الوجوه وسوادها: أن أهل الموقف إذا رأوا بياض وجه المؤمن، عرفوا أنه من أهل السعادة، وإذا رأوا سواد وجه الكافر.. عرفوا أنه من أهل الشقاوة. ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ وقوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ وفي الحديث: «إن أمتي يحشرون غراً محجلين من أثر الوضوء».

وخلاصة الكلام: أنَّ هؤلاء المختلفين المتفرقين لهم عذاب عظيم في هذا اليوم، كما تظاهرت على ذلك الآيات والأحاديث، كما يكون لهم مثل ذلك في الدنيا؛ إذ هم لاختلاف مقاصدهم لا يتناصرون، ولا يتعاونون، ولا يأبهون بالأعمال التي فيها شرف الملة وعز الأمة، فتسود وجوههم بالذل والكآبة حين يجنون ثمار أعمالهم، وعواقب تفرقهم، واختلافهم بقهر الغاصب لهم، وانتزاعه السلطة عن أيديهم، والتاريخ والمشاهدة شاهدا صدق على هذا.

أما المتفقون الذين اعتصموا، واتفقوا على الأعمال النافعة لخير الأمة وعزها، وأصبح كل واحد منهم عوناً للآخر، وناصراً له، فأولئك تبيض وجوههم، وتتلألأ بهجة وسروراً حين تظهر لهم آثار اتفاقهم، واعتصامهم بوجود السلطان والعزة والشرف وارتفاع المكانة بين الأمم.

وقرأ[1] الجمهور ﴿تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ﴾ بفتح التاء، وقرأ يحيى بن وثاب، وأبو رزين العقيلي، وأبو نهيك ﴿تبيض﴾ و﴿تسود﴾ بكسر التاء فيهما، وهي لغة تميم. وقرأ الحسن، والزهري، وابن محيصن، وأبو الجوزاء ﴿تَبياض﴾ و﴿تسواد﴾ بألف فيهما، ويجوز كسر التاء في ﴿تبياض وتسواد﴾، ولم ينقل أنه قرىء ذلك.

ثم فصل سبحانه وتعالى أحوال الفريقين فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ﴾ وأظلمت ﴿وُجُوهُهُمْ﴾ بسبب تفرقهم واختلافهم فيلقون في النار، وتقول الزبانية توبيخاً لهم ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، أي: هل كفرتم بعد ما ظهر لكم ما يوجب

---

(١) البحر المحيط.

الإيمان؟ وهو الدلائل التي نصبها الله تعالى على التوحيد والنبوة. وقال عكرمة، والأصم، والزجاج: أي أكفرتم يا أهل الكتاب بعد بعثة محمد ﷺ بعد إيمانكم به قبل مبعثه؟.

وابتدأ[1] بالذين اسودت وجوههم، للاهتمام بالتحذير من حالهم، ولمجاورة قوله وتسود وجوه، وليكون الابتداء بالمؤمنين والاختتام بحكمهم فيكون مطلع الكلام ومقطعه شيئاً يسر الطبع، ويشرح الصدر.

فإن قلت[2]: كيف قال؟ أكفرتم بعد إيمانكم وهم لم يكونوا مؤمنين، فمن المراد بهؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم؟

قلت: اختلف العلماء في ذلك، فروي عن أبيّ بن كعب أنه قال: أراد به الإيمان يوم أخذ الميثاق حين قال لهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى فآمن الكل، فكل من كفر في الدنيا.. فقد كفر بعد الإيمان، وقال الحسن: هم المنافقون؛ وذلك أنهم تكلموا بالإيمان بألسنتهم، وأنكروه بقلوبهم. وقال عكرمة: هم أهل الكتاب؛ وذلك أنهم آمنوا بمحمد ﷺ قبل مبعثه، فلما بعث.. أنكروه وكفروا به كما مر آنفاً. وقيل: هم الذين ارتدوا في زمن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهم أهل الردة.

ذكر الأحاديث المناسبة للآية

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض، وليرفعن إليّ رجال منكم حتى إذا أهويت إليهم لأنالهم، اختلجوا دوني، فأقول: أي رب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك». متفق عليه.

وعن أنس رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ليردن علي الحوض رجال ممن صاحبني، حتى إذا رفعوا إليّ اختلجوا دوني فلأقولنَّ: أي رب أصحابي أصحابي فيقال لي: لا تدري ما أحدثوا بعدك». زاد في رواية «فأقول سحقا لمن

(١) البحر المحيط. (٢) الخازن.

بدل بعدي». متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يرد علي يَوْمَ القيامة رهط من أصحابي، أو قال: من أمتي، فيجلون عن الحوض، فأقول: يا رب أصحابي، فيقول: إنه لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى». متفق عليه.

وقيل: هم الخوارج الذين خرجوا على عليّ بن أبي طالب، وقتلهم، وهم الحرورية. وقيل: هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة كالقدرية، ونحوهم، فكفرهم بعد إيمانهم على هذا القول هو خروجهم من الجماعة ومفارقتهم في الاعتقاد.

﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾، أي: باشروا العذاب وادخلوه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾؛ أي: بسبب كفركم بالله وبرسوله وبكتابه، والأمر بذوق العذاب على طريق الإهانة لهم، والاستهزاء بهم.

وقد جرى عرف القرآن أن يعد المتفرقين في الدين من الكفار والمشركين، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾.

كذلك يعد الخروج عن مقاصد الدين الحقيقية من الكفر؛ لأن الإيمان اعتقادٌ، وقولٌ، وعملٌ، وهو ذو شعبٍ كثيرة، من أجلها تحري العدل، واجتناب الظلم، فمن استرسل في الظلم.. كان كافراً كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وكذلك من ترك الإتحاد، والوفاق، والاعتصام بحبل الدين كان من الكافرين بعد الإيمان.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ﴾ واستنارت ﴿وُجُوهُهُمْ﴾ بالفرح والسرور؛ بما رأوا من حسناتهم التي من جملتها اتحاد الكلمة، وعدم التفرق ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾؛ أي:

فيكونون في رحمة الله وجنته، وعبر عنها بالرحمة تنبيهاً على أن المؤمن، وإن استغرق عمره في طاعة الله تعالى، فإنه لا يدخل الجنة إلا برحمته تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: هم دائمون في رحمته وجنته، لا يظعنون عنها ولا يموتون، قيل: إنما كرر ﴿في﴾ لأن في كل واحدة منها معنى غير الأخرى المعنى أنهم في رحمة الله، وأنهم في الرحمة خالدون، وقرأ أبو الجوزاء، وابن يعمر (فأما الذين اسوادت وأما الذين ابياضت﴾ بألف.

﴿تِلْكَ﴾؛ أي: هذه الآيات المشتملة على تنعيم الأبرار وتعذيب الكفار ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ القرآنية، ودلائله الدالة على صدقك يا محمد ﴿نَتْلُوهَا﴾، أي: نقرؤها بواسطة جبريل ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد حالة كونها ملتبسة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والعدل في مجازاة المحسن، والمسيء بما يستوجبانه، أو حالة كوننا ملتبسين بالحق والصدق.

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: وما يريد الله فرداً من أفراد الظلم لفرد من أفراد العالمين في وقت من الأوقات فضلاً عن أن يفعله، وأما ظلم بعضهم لبعض فواقع كثيراً، وكل واقع فهو بإرادته تعالى، والمعنى لا يشاء أن يظلم هو عباده، فيأخذ أحداً بغير جرم أو يزيد في عقاب مجرم، أو ينقص من ثواب محسن.

والحاصل: أن كل ما يأمرهم به وينهاهم عنه فإنما يريد به هدايتهم، إلى ما يكمل فطرتهم ويتم به نظام جماعتهم، فإذا هم فسقوا عن أمره حل بهم البلاء، وكانوا هم الظالمين، لأنفسهم بتفرقهم، واختلافهم إلى نحو ذلك من الذنوب التي تفسد نظم المجتمع، وتجعل أهله في شقاء، ولا يحل عذاب بأمة إلا بذنب فشا فيها، فزحزحها عن الصراط المستقيم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

ثم ذكر ما هو كالبرهان لنفي الظلم عنه تعالى فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ولله سبحانه وتعالى لا لغيره جميع ما في السموات، وما في الأرض ملكاً، وخلقاً، إحياءً وإماتة، وإثابةً، وتعذيباً.

لما ذكر الله تعالى أنه لا يريد ظلماً للعالمين، لأنه لا حاجة به إلى الظلم،

وذلك أن الظالم إنما يظلم غيره ليزداد مالاً أو عزاً أو سلطاناً أو يتم نقصاً فيه بما يظلم به غيره، ولما كان الله عز جل مستغنياً عن ذلك، وله صفة الكمال أخبر أن له ما في السموات وما في الأرض، وأن جميع ما فيهما ملكه وأهلهما عبيده، وإذا كان كذلك يستحيل في حقه سبحانه وتعالى أن يظلم أحداً من خلقه؛ لأنهم عبيده وفي قبضته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً؛ ولأن الظلم ينافي الحكمة، والكمال في النظام، وفي التشريع، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا إلى غيره ﴿تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾؛ أي: إلى حكمه تصير أمور الخلائق، وشؤونها في الآخرة المؤمن، والكافر، والعاصي، والطائع، فيجازي الكل على قدر استحقاقهم، ولا يظلم أحداً منهم فلا مفر منه، ولا محيص عنه. وقرىء ﴿ترجع﴾ بالبناء للفاعل، أو المفعول، وبالتاء المثناة من فوق على القراءتين. ﴿كُنتُمۡ﴾ يا أمة محمد في سابق علمه تعالى ﴿خَيۡرَ أُمَّةٍ﴾؛ أي: أفضل أمة ﴿أُخۡرِجَتۡ﴾ وأظهرت بفضلها وشرفها ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ أي: عرف فضلها وشرفها للناس حتى تميزت عنهم بما فيها من الخصال الآتية، أو المعنى أخرجت، وأظهرت في عالم الوجود في الدنيا، لنفع الناس كما أخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة في الآية قال: خير الناس للناس يأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام، وفي الآخرة بالشهادة للأنبياء على أممهم، وقال ابن عباس: أخرجت من مكة إلى المدينة، وقيل: اللام فيه بمعنى من، والمعنى: كنتم يا أمة محمد في سابق علمي خير أمة أخرجت: أي: اختيرت من الناس لنفعها لهم في الدنيا والآخرة.

ثم بين وجه خيريتها بقوله: ﴿تَأۡمُرُونَ﴾ الناس ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، أي: بالتوحيد واتباع محمد ﷺ ﴿وَتَنۡهَوۡنَ﴾ الناس ﴿عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾؛ أي: عن الشرك ومخالفة الرسول محمد ﷺ ﴿وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾؛ أي: وتصدقون بالله وتخلصون له التوحيد والعبادة، أو المعنى تؤمنون بالله إيماناً متعلقاً بكل ما يجب أن يؤمن به من رسول، وكتاب، وحساب، وجزاء، وغير ذلك. وقال قتادة: هم أمة محمد ﷺ لم يؤمر نبي قبله بالقتال؛ فهم يقاتلون الكفار، فيدخلونهم في الإسلام فهم خير أمة أخرجت للناس.

فإن قلت[1]: لِمَ قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله في الذكر، مع أن الإيمان يلزم أن يكون مقدماً على جميع الطاعات، والعبادات لأنه أساسها؟

قلت: إنَّ الإيمان بالله أمر يشترك فيه جميع الأمم المؤمنة، وإنما فضلت هذه الأمة الإسلامية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على سائر الأمم، فكأنهما هما المقصودان هنا وإن كان الإيمان بالله شرطاً فيهما؛ فلهذا السبب حسن تقديم ذكرهما على ذكر الإيمان، فهذه الأمة لها شبه بالأنبياء من حيث إنها مهتدية في نفسها هادية لغيرها.

فصل في ذكر الأحاديث الدالة على خيرية هذه الأمة

عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم». قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة، «ثم إن بعدهم قوماً يشهدون، ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن». زاد في رواية «ويحلفون ولا يستحلفون». متفق عليه.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته». متفق عليه.

وعن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي؛ فلو أنَّ أحداً أنفق مثل أحدٍ ذهباً ما بلغ مدَّ أحدهم، ولا نصيفه». متفق عليه. النصيف: النصف.

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: «أنتم تتمون سبعين أمة أنتم

---

(١) الخازن.

خيرها، وأكرمها على الله تعالى».

أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى قالوا: ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى». أخرجه البخاري.

وعن ابن عمر رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله لا يجمع أمتي، أو قال: أمة محمد ﷺ على ضلالة، ويد الله على الجماعة، ومن شذ شذ في النار». أخرجه الترمذي.

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أمتي أمة مرحومة ليس عليها عذاب في الأخرة، عذابها في الدنيا، الفتن والزلازل والقتل». أخرجه أبو داود.

وعن أنس رضي الله عنه: «مثل أمتي كمثل المطر، لا يدرى آخره خير أم أوله». أخرجه الترمذي.

وله عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أهل الجنة عشرون ومئة صف، ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أمتي من يشفع في الفئام من الناس، ومنهم من يشفع في القبيلة، ومنهم من يشفع للعصبة، ومنهم من يشفع للواحد». أخرجه الترمذي.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً، أو سبع مئة ألف سماطين[1] متماسكين، آخذ بعضهم ببعض، حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر». أخرجه البخاري.

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: ولو آمنت اليهود والنصارى بمحمد ﷺ

---

(١) **سماطين**: أي صفين.

وبما جاء به من الدين إيماناً كاملاً كإيمانكم ﴿لَكَانَ﴾ ذلك الإيمان ﴿خَيْرًا لَّهُم﴾ مما هم عليه من اليهودية والنصرانية، وإنما حملهم على ذلك حب الرياسة، واستتباع العوام، ولو أنهم آمنوا.. لحصلت لهم الرياسة في الدنيا، والثواب العظيم في الآخرة، وهو دخول الجنة، فكان ذلك خيراً لهم مما قنعوا به ﴿مِّنْهُمُ﴾؛ أي: من أهل الكتاب ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ بمحمد ﷺ كعبد الله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا من اليهود، والنجاشي، وأصحابه الذين أسلموا من النصارى ﴿وَأَكْثَرُهُمُ﴾؛ أي: أكثر أهل الكتاب ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ في أديانهم، فيكونون مردودين عند الطوائف كلهم؛ لأن المسلمين لا يقبلونهم لكفرهم، والكفار لا يقبلونهم، لكونهم فاسقين، فيما بينهم؛ فليسوا بمن يجب الاقتداء بهم ألبتة عند أحد من العقلاء ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ﴾؛ أي: لن يضركم أيها المؤمنون هؤلاء اليهود ﴿إِلَّا أَذًى﴾؛ أي: إلا ضرراً يسيراً باللسان، لا نكاية فيه، ولا إجحاف لكم إما بطعنهم في دينكم أو نبيكم، وإما بإظهار كلمة الكفر كقولهم عزير ابن الله، وإما بإلقاء الشبه في الأسماع، وإما بتخويف الضعفة من المسلمين فلا يصل إليكم منه شيء، وإنما هو مجرد لقلقة اللسان. قيل: سبب نزول هذه الآية أن رؤساء اليهود عمدوا إلى من آمن منهم مثل عبد الله بن سلام وأصحابه، فآذوهم لإسلامهم، فأنزل الله تعالى ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾.

والمعنى: أن هؤلاء الفاسقين لا يقدرون على إيقاع الضرر عليكم، بل غاية جهدهم أن يؤذوكم بالهجو القبيح، والطعن في الدين، وإلقاء الشبهات، وتحريف النصوص التي في التوراة، والخوض في النبيّ ﷺ ﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ﴾؛ أي: وإن يقابلوكم في ميدان القتال ﴿يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾؛ أي: يجعلوا أدبارهم وظهورهم مولى إلى جهتكم، وينهزموا من غير أن يظفروا منكم بشيء، والمنهزم من شأنه أن يحول ظهره إلى جهة مقاتله، ويستدبره في هربه منه، فيكون قفاه إلى وجه من انهزم منه ﴿ثُمَّ﴾ بعد انهزامهم من قتالكم ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾ عليكم أبداً؛ أي: لا يجدون الشوكة والقوة والنصرة عليكم أبداً ما داموا على فسقهم ودمتم على خيرتكم، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله.

﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾؛ أي: جعلت الذلة والصغار والهوان على اليهود، بأن يحاربوا ويقتلوا وتغنم أموالهم، وتسبى ذراريهم، وتملك أراضيهم، وقيل: الذلة ضرب الجزية عليهم؛ لأنها ذلة وصغار، وقيل: ذلتهم أنك لا ترى في اليهود ملكاً قاهراً، ولا رئيساً معتبراً، بل هم مستضعفون في جميع البلاد، ﴿أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾؛ أي: حيثما وجدوا وصودفوا؛ فلا يقدرون أن يقوموا مع المؤمنين ﴿إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: أي؛ إلا بعهد من الله، وهو أن يسلموا؛ فتزول عنهم الذلة ﴿وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: أو بعهد من المؤمنين ببذل الجزية، والمعنى: ضربت عليهم الذلة في جميع الأحوال إلا في حال اعتصامهم بحبل الله، وحبل الناس، وهو ذمة الله، وعهده، وذمة المسلمين وعهدهم، لا عز لهم أبداً إلا في هذه الحالة الواحدة، وهي التجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من بذل الجزية وإنما سمي العهد حبلاً؛ لأنه سبب يوصل إلى الأمن، وزوال الخوف.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: استوجبوا، واستحقوا غضباً من الله، ولعنة منه، وغضب الله تعالى ذمه إياهم في الدنيا، وعقوبته لهم في الآخرة ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ﴾ كما يضرب البيت على أهله، فهم ساكنون في المسكنة غير خارجين منها، يعني: جعل عليهم زي الفقر، واليهود في غالب الأحوال مساكين، تحت أيدي المسلمين والنصارى. فاليهودي، وإن كان غنيا موسراً يظهر من نفسه الفقر. ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من ضرب الذلة، والمسكنة، وغضب الله ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾؛ أي: بسبب أنهم ﴿كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ينكرون آيات الله الناطقة بنبوة محمد ﷺ يحرفونها، وسائر الآيات القرآنية ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ﴾؛ أي: بلا جرم، فإن الذين قتلوا الأنبياء، أسلافهم، وهؤلاء المتأخرون كانوا راضين بفعل أسلافهم، فنسب إليهم، كما أن التحريف من أفعال أحبارهم، ينسب إلى كل من يتبعهم، والتقييد بغير حق، مع أنه كذلك في نفس الأمر للدلالة على أنه لم يكن حقاً بحسب اعتقادهم أيضاً، وللتشنيع عليهم، وللدلالة على أن ذلك حدث منهم عن عمد لا عن خطأ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الكفر والقتل ﴿بِمَا عَصَواْ﴾؛ أي: بسبب كثرة عصيانهم، ومخالفتهم لأوامر الله تعالى، وغشيانهم لمعاصي الله، كالاصطياد في يوم السبت مثلاً ﴿و﴾ بما ﴿كانوا يعتدون﴾؛ أي: يتجاوزون

حدود الله باستحلال المحارم؛ أي؛ ذلك بسبب عصيانهم واعتدائهم ومجاوزتهم حدود الله تعالى؛ فنزل بهم ما نزل.

وهذه الجملة مؤكدة لما قبلها، فالعصيان والاعتداء هو عين الكفر، وقتلهم الأنبياء، ويحتمل أنها ليست مؤكدة بل هي علة للعلة؛ أي: فعلة ضرب الذلة، والمسكنة، والغضب من الله: كفرهم، وقتلهم الأنبياء، وعلة الكفر، والقتل: عصيانهم أمر الله وتجاوزهم الحد.

وقال بعض العارفين: من ابتلي بترك الآداب.. وقع في ترك السنن ومن ابتلي بترك السنن.. وقع في ترك الفريضة، ومن ابتلي بترك الفريضة.. وقع في اسحقار الشريعة، ومن ابتلى بذلك.. وقع في الكفر.

الإعراب

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَلْتَكُن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿اللام﴾ لام الأمر، مبنية على السكون لسبقها بعاطف والأصل فيها: البناء على الكسر كما في قوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ﴾ وإنما حركت حينئذٍ؛ لكونها على حرف واحد، ولتعذر الابتداء بالساكن، وكانت الحركة كسرة للفرق بينها وبين لام القسم، والالتباس بينها وبين لام الجر يندفع بالمقام؛ لأن هذه لا تدخل إلا على الفعل، وتلك إلا على الاسم، كما ذكرته في «الفتوحات القيومية على متن الآجرومية» ﴿تكن﴾ فعل مضارع تام، أو ناقص مجزوم باللام. ﴿مِّنكُمْ﴾ متعلق به، أو خبر لـ﴿تكن﴾ إن قلنا ناقصة. ﴿أمة﴾ فاعل، أو اسمٌ لها، والجملة مستأنفة. ﴿يَدْعُونَ﴾ فعل وفاعل. ﴿إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ متعلق به، والجملة صفة لـ﴿أمة﴾، وجملة ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وكذلك جملة ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ﴾ معطوفتان على جملة ﴿يَدْعُونَ﴾ على كونهما صفة لـ﴿أمة﴾. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿أولئك﴾ مبتداء. ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل. ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ خبر، والجملة مستأنفة.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، أو عاطفة. ﴿لا﴾ ناهية جازمة. ﴿تَكُونُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور خبره، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ﴾. ﴿تَفَرَّقُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. وجملة قوله: ﴿وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ معطوفة على جملة ﴿تَفَرَّقُوا۟﴾. ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ جار ومجرور تنازع فيه كل من ﴿تَفَرَّقُوا۟﴾ ﴿وَٱخْتَلَفُوا۟﴾. ﴿مَا﴾ مصدرية. ﴿جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ فعل وفاعل، ومفعول، والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من بعد مجيء البينات إياهم. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿أولئك﴾ مبتدأ أول ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ ثانٍ مؤخر، وسوغ الابتداء، تقدم الخبر الظرفي عليه ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة لـ ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ﴾

﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية، والظرف متعلق بمحذوف تقديره: أذكر، والجملة المحذوفة مستأنفة، ويجوز: أن يكون الظرف متعلقاً بـ ﴿عَظِيمٌ﴾، أو للاستقرار في ﴿لَهُمْ﴾ كما ذكره أبو البقاء. ﴿تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. وجملة ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ معطوفة على جملة ﴿تَبْيَضُّ﴾.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾.

﴿فَأَمَّا﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن الناس في القيامة فريقان: فرقة تبيض وجوههم، وفرقة تسود وجوههم، وأردت بيان مأوى الفريقين فأقول لك ﴿أما الذين﴾ ﴿أما﴾ حرف شرط وتفصيل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ. ﴿ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فعل وفاعل، ومضاف إليه، والجملة صلة الموصول، وخبر المبتدإ، محذوف تقديره: فيلقون في النار، أو يكونون في النار، والجملة من المبتدإ، والخبر جواب ﴿أمَّا﴾ لا محل لها من

الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل النصب مقولٌ لجواب، إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

﴿الهمزة﴾ للاستفهام التوبيخي، وقال أبو حيان: الاستفهام، فيه للتقرير والتوبيخ والتعجيب ﴿كفرتم﴾ فعل وفاعل. ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق ﴿بكفرتم﴾، وجملة الاستفهام في محل النصب مقول لقول محذوف معطوف على الخبر المحذوف تقديره؛ ويقال لهم توبيخاً: أكفرتم بعد إيمانكم. ﴿فَذُوقُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة تفريعية. ﴿ذوقوا العذاب﴾ فعل وفاعل ومفعول، فالجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَكَفَرْتُم﴾ على كونها مقولاً لقول محذوف. ﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾ حرف جر وسبب. ﴿ما﴾ مصدرية. ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿تَكْفُرُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾؛ وجملة ﴿كان﴾ صلة ﴿لما﴾ المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور ﴿بالباء﴾ تقديره: بسبب كفركم، الجار والمجرور متعلق ﴿بذوقوا﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿وَأَمَّا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿أمَّا﴾ حرف شرط. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ. ﴿ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿أما﴾ واقعة في غير موضعها. ﴿في رحمة الله﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر المبتدأ تقديره: فكائنون في رحمة الله والجملة الاسمية جواب ﴿أما﴾، وجملةُ ﴿أما﴾ في محل النصب معطوفة على جملة، ﴿أما﴾ الأولى ﴿هُمْ﴾ مبتدأ. ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿خَٰلِدُونَ﴾ المذكور بعده. ﴿خَٰلِدُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة دالةٌ على أنَّ الاستقرار في الرحمة على سبيل الخلود، فلا تعلقَ لها بالجملة قَبلها من حيث الإعراب كما ذكره في «الفتوحات».

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر، ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿نَتْلُوهَا﴾

فعل ومفعول، والفاعل ضمير يعود على الله. ﴿عَلَيْكَ﴾ متعلّق به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من آيات الله، ولكنّها حالةٌ سببيةٌ تقديره: حالة كوننا تالِينَ إياها. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿نَتْلُوهَا﴾ أو مِنْ مفعوله. ﴿وَمَا ٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾ حجازية، أو تميمة. ﴿ٱللَّهُ﴾ اسمها أو مبتدأ. ﴿يُرِيدُ ظُلْمًا﴾ فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾. ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿اللام﴾ زائدة زيدت لتقويةِ معنى العامل كاللام في قوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، أو خبر لِمَا، والجملة الاسمية مستأنفة، ولكنها مرتبطة في المعنى بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿لله﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ما﴾ في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جار ومجرور صلةٌ لـ﴿ما﴾ أو صفة لها. ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ما﴾ معطوفة على ﴿ما﴾ الأولى. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ صلةٌ ﴿لما﴾ أو صفة لها. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿إلى الله﴾ جار ومجرور متعلق بما بعده. ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية المذكورة قبلها، أو مستأنفة.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ﴾.

﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ خبر كان ومضاف إليه، وجملة ﴿كان﴾ مستأنفة ﴿أُخْرِجَتْ﴾ فعلٌ ماضٍ مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾؛ والجملة الفعلية صفة لـ﴿أمة﴾. ﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلق بـ ﴿أُخْرِجَتْ﴾. ﴿تَأْمُرُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب خبر ثان لـ ﴿كان﴾، أو مستأنفة اسْتِئْنافاً بَيَانِياً ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ جملة معطوفة على جملة ﴿تأمرون﴾، وكذلك معطوفة عليها جملة قوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ﴾ على كونها خبراً لـ﴿كان﴾ أو مستأنفة.

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿لو﴾ حرف شرط غير جازم. ﴿ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فعل وفاعل، ومضاف إليه، والجملة الفعلية فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَكَانَ﴾ اللام رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾. ﴿كان﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير مستتر فيه تقديره: هو يعود على الإيمان. ﴿خَيْرًا﴾ خبر لـ ﴿كان﴾. ﴿لَّهُم﴾ متعلق بـ ﴿خَيْرًا﴾ وجملة ﴿كان﴾ جواب ﴿لوَ﴾ لا محلَّ لها من الإعراب، وجملة لو مستأنفة. ﴿مِّنْهُمُ﴾ خبر مقدم. ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ جملة اسمية معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ﴾ حرف نصب وفعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿إلاّ﴾ أداة استثناء مفرغ قال أبو حيان: والظاهر أن قوله: ﴿إِلَّآ﴾ استثناء متصل، وهو استثناء مفرغ من المصدر المحذوف، والتقدير: لن يضروكم ضرراً إلاّ ضرراً يسيراً، هو الأذى لا نِكايةَ فيه، ولا إجْحافَ لكم. انتهى. ﴿أَذًى﴾ منصوب على المفعولية المطلقة بـ ﴿يَضُرُّوكُمْ﴾ لأنه مصدر معنوي له. ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، أو عاطفة. ﴿إن﴾ حرف شرط جازم. ﴿يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول مجزوم ﴿بإنْ﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿يُوَلُّوكُمُ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول مجزوم بـ﴿أن﴾ على كونه جواب شرط لها ﴿ٱلْأَدْبَارَ﴾ مفعول ثان، وجملة الشرط مستأنفة أو معطوفة على ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ﴾. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف بمعنى ﴿الواو﴾ الاستئنافية. ﴿لا﴾ نافية. ﴿يُنصَرُونَ﴾ فعل مغير، ونائب فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ مستأنف، ولم يجزم عطفاً على جواب الشرط؛ لأنه يلزم عليه تغيير المعنى؛ وذلك؛ لأنَّ الله أخبر بعدم نصرتهم مطلقاً، ولو عطفناه على جواب الشرط.. للزم تقييده بمقاتلتهم لنا، مع أنهم غير منصورين مطلقاً قاتلوا أو لم يقاتلوا. انتهى. ويصح أن تكون ﴿ثم﴾ للترتيب الذكري. والجملة معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الشرطية، لا على الجواب فقط. وقال أبو البقاء: هو كلام مستأنف أستؤنف به ليدل على أنَّ الله لا ينصرهم

قاتلوا، أو لم يقاتلوا انتهى.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

﴿ضُرِبَتْ﴾ فعل ماض مغير الصيغة. ﴿عَلَيْهِمُ﴾ متعلق به. ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ نائب فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَيْنَ﴾ اسم شرط جازم في محل النصب على الظرفية المكانية، والظرف متعلق بالجواب المحذوف. ﴿مَا﴾ زائدة. ﴿ثُقِفُوٓاْ﴾ فعل ونائب فاعل مجزوم بـ ﴿أَيْنَ﴾ على كونه فعلَ شَرْطٍ لها، وجوابها معلوم مما قبلها تقديره أينما ثقفوا ضُرِبَت عليهم الذلة، أو يقال: إنَّ ﴿أَيْنَ﴾ ظرف مجرَّدٌ عن معنى الشرط متعلق بـ ﴿ضُربت﴾ فلا جوابَ لها، وجملة ﴿ثُقِفُوٓاْ﴾ مضاف إليه لـ﴿أين﴾. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ من عام الأحوال. ﴿بِحَبْلٍ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من ﴿واو﴾ ﴿ثُقِفُوٓاْ﴾ تقديره: ضربت عليهم الذلة في جميع الأحوال إلاَّ في حالة كونهم مُتمسكين بحبل من الله، وحبل من الناس. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿حبل﴾ تقديره: حبل كائن من الله. ﴿وَحَبْلٍ﴾. معطوف على ﴿حبل﴾ ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ صفة لحبلِ الثاني.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾.

﴿وَبَآءُو﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿باءوا﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿ضُربت﴾. ﴿بِغَضَبٍ﴾ متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿باءوا﴾ والباء للملابسة؛ أي: رجعوا مغضوباً عليهم، وليس مفعولاً به كمررت بزيد. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ صفة لـ ﴿غضب﴾. ﴿وَضُرِبَتْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفةً. ﴿ضربت﴾ فعل ماض مغير الصيغة. ﴿عَلَيْهِمُ﴾ متعلق به ﴿ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ نائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿ضربت عليهم الذلة﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿أن﴾ حرف نصب وتوكيد و﴿الهاء﴾ اسمها. ﴿كَانُواْ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿يَكْفُرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة خبر ﴿كان﴾ تقديره: كانوا كافرين، وجملة ﴿كان﴾ في

محل الرفع خبر أنَّ تقديره: بأنهم كافرون، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مجرور ﴿بالباء﴾ تقديره بسبب كفرهم. ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يَكْفُرُونَ﴾. ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يَكْفُرُونَ﴾ على كونها خبراً لـ ﴿كان﴾. ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من الضمير في ﴿يقتلون﴾، والتقدير: يقتلونهم مبطلين، ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف تقديره قتلاً بغير الحق، وعلى كِلاَ الوجهين هو توكيد.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ. ﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾ حرف جر ﴿ما﴾ مصدرية. ﴿عَصَوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية ما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿الباء﴾ المتعلقة بخبر محذوف، تقديره: ذلك كائن بسبب عصيانهم، والجملة مستأنفة، ومؤكدة للجملة التي قبلها كما مَر في بحث التفسير ﴿وَّكَانُوا۟﴾ الواو عاطفة ﴿كانوا﴾ فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿يَعْتَدُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على جملة ﴿عصوا﴾ على كونها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿الباء﴾ تقديره: ذلك كائنٌ بسبب عصيانهم واعتدائهم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أُمَّةٌ﴾ الأمة بضم الهمزة: الجماعة دينهم وأمرهم متفق، والطريقة يجمع على أمم. ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ﴿عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ المعروف: هو ما استحسنه الشرع والعقل. والمنكر: ما استقبحه الشرع، والعقل، أو المعروف ما وافق الكتاب والسنة، والمنكر ما خالفهما أو المعروف الطاعة، والمنكر المعاصي. والدعاء إلى الخير عام في التكاليف من الأفعال، والتروك وما عطف عليه خاص. ﴿ابيضت اسودت﴾ ابيض اسود من باب[1] إفعل أصله إفعلل، يدل على ذلك قولهم: اسوددت واحمررت، وشرطه: أن يكون للون أو عيب حسي، كاسود واعوجَّ،

(١) البحر المحيط.

واغورَّ، وأن لا يكون مضعفاً كأحَمَّ الرجل إذا صار محموماً ولا معتل لامٍ كألمى الرجل إذا حسنت شفته سمرة، وأن لا يكون للمطاوعة، وندر نحو انقاضَّ الحائط وابهار الليل، واشعار الرجل إذا فرق شعره، وشذ ارعوى؛ لكونه معتل اللام بغير لون ولا عيب، مطاوعاً لرعوته بمعنى كففته، وأما زيادة الألف على افعل بأن يقال: افعال كابياضَّ واسواد، فالأكثر أن يقصد به عروض المعنى إذا جيء بها؛ وقد يكون العكس؛ فمن قصد اللزوم مع ثبوت الألف قوله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ من ادهام، ومن قصد العروض مع عدم الألف قوله تعالى: ﴿تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ واحمر خجلاً.

وَابْيِضَاضُ الوجوه عبارة عن المسرة، واسودادها عبارة عن المساءة، وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿بِالْحَقِّ﴾، أي: بالأمر الذي له ثبوت وتحقق، ولا مجال فيه للشبهات و﴿الظلم﴾: لغة وعرفاً، وضع الشيء في غير موضعه، إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه. ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ ﴿ضرب﴾ مبني للمفعول، و﴿الذِّلَّةُ﴾ قائم مقام الفاعل. ومعنى ﴿ضُرِبَتْ﴾ ألزموها، وقضي عليهم بها، والذلة بكسر أوله الصغار، والهوان، والحقارة، والذل بالضم: ضد العز.

﴿الْمَسْكَنَةُ﴾ مفعلة من السكون، لأن المسكين قليل الحركة والنهوض لما به من الفقر. والمسكين مفعيل منه. ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ﴾ ألف باء منقلبة عن واو لقولهم باء يبوء مثل: قال، يقول. قال عليه السلام: «أبوءُ بنعمتك» والمصدر البواءُ ومعناه الرجوع.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾ وأصل ﴿عَصَواْ﴾ عصيوا تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، فالتقى ساكنان هي والواو، فحذفت لكونها أول الساكنين، وبقيت الفتحة تدل عليها. وأصل العصيان: الشدة يقال: اعتصت النواة، إذا اشتدت. ﴿وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ وأصل ﴿يَعْتَدُونَ﴾ يعتديون ففعل به ما فعل بِـ ﴿يتقون﴾، من الحذف والإعلال، فوزنه يفتعون. والاعتداء المجاوزة من عدا يعدو، فهو افتعال منه، ولم يذكر متعلق العصيان. والاعتداء ليعم كل ما يعصى، ويعتدى فيه.

وواو ﴿عَصَوا﴾ واجبة الإدغام، ومثله فقد اهتدوا، وإن تولوا. وهذا بخلاف ما إذا انضم ما قبل الواو، فإن الضم يقوم مقام الحاجز بين المثلين؛ فيجب الإظهار نحو ﴿آمنوا﴾ ﴿وعملوا﴾ ومثله ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ﴾.

البلاغة

﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ فيه مجازٌ بالحذف، لأنه حذف من الأفعال الثلاثة المفعول؛ لأن الأصل يدعون الناس، ويأمرونهم وينهونهم، حذفه للإيذان بظهوره، أو للقصد إلى إيجادِ نفس الفعل كما في قولك: فلان يعطي؛ أي: يفعلون الدعاء إلى الخير. وقوله: يأمرون الخ من عطف الخاص على العام، لإظهار فضلهما على سائر الخيرات. وفي يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ فيه من مباحث المعاني قصر صفة على موصوف، حيث قصر الفلاح عليهم.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فيه من أنواع البلاغة: التفصيل بعد الإجمال؛ لأنه تفصيلٌ لأحوال الفريقين بعد الإشارة إليها إجمالاً، وتقديم بيان حال الكفار؛ لما أن المقام مقام التحذير عن التشبه بهم، مع ما فيه من الجمع بين الإجمال، والتفصيل، والإفضاء إلى ختم الكلام بحسن حال المؤمنين، كما بدىء بذلك عند الإجمال. ففي الآية من المحسنات البديعية حسن الابتداءِ، وحسن الاختتام حيث بدأ الآية بالبشرى وختمها كذلك.

قال أبو حيان[1]: تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة:

منها: الطباقُ بين كلمتي ﴿تبيض﴾ و﴿تسود﴾، وبين ﴿ٱسْوَدَّتْ﴾ و﴿ٱبْيَضَّتْ﴾، وفي ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، وفي قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ و﴿ظُلْمًا﴾.

ومنها: التفصيل في قوله: ﴿فأما﴾ و﴿أمَّا﴾.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿أَكَفَرْتُم﴾ و﴿تَكْفُرُونَ﴾.

---

(١) البحر المحيط.

ومنها: تأكيد المظهر بالمضمر في قوله: ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ لأنه أطلق الحال، وأريد المحل أي: ففي الجنة؛ لأنها مكان تنزل الرحمة.

ومنها: التكرار في لفظ الله، ومحسنه أنه في جمل متغايرة المعنى، والمعروف في لسان العرب إذا اختلفت الجمل.. أعادت المظهر لا المُضْمَرَ، لأنَّ في ذكره دلالة على تفخيم الأمر، وتعظيمه، وليس ذلك نظيره.

لاَ أرىٰ ٱلْمَوْتَ يَسْبِقُ ٱلْمَوْتَ شَيْءٌ

لاتحاد الجملة لكنه قد يؤتى في الجملة الواحدة بالمظهر قصداً للتفخيم.

ومنها: الإشارة في قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿نَتْلُوهَا﴾ بالنون لما في إسناد التلاوة للمعظم نفسه من الفخامة والشرف.

ومنها: تلوين الخطاب في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم﴾.

ومنها: التشبيه والتمثيل في قوله: ﴿تَبْيَضُّ﴾ و﴿وَتَسْوَدُّ﴾ إذا كان ذلك عبارة عن الطلاقة، والكآبة.

ومنها: الحذف في مواضع.

ومنها: الاستعارة التبعية التخييلية في قوله: ﴿فَذُوقُواْ﴾.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ حيث شبه العذاب بشيء مر يدرك بحاسة الذوق تصوراً بصورة ما يذاق، وطوى ذكر المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه، وهو الذوق، فإثباته تخييل.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)﴾.

المناسبة

لمَّا وصف الله سبحانه وتعالى أهل الكتاب فيما تقدَّم بذميم الصفات، وقبيح الأعمال، وذكر الجزاء الذي استحقوه بسوء عملهم؛ ذكر هنا أنهم ليسوا بدرجة واحدة، وليسوا جميعاً على تلك الشاكلة، بل فيهم من هو متصفٌ بحميد الخصال، وجميل الصفات، لأن فيهم المؤمن والكافر والبر والفاجر. ثم ذكر تعالى عقاب الكافرين، وأن أموالهم وأولادهم لن تنفعهم يوم القيامة شيئاً، وأعقب ذلك بالنهي عن اتخاذ أعداء الدين أولياء، ونبه إلى ما في ذلك من الضرر الجسيم في الدنيا والدين.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه أحمد، وغيره عن ابن مسعود قال: أخَّر رسول الله ﷺ صلاةَ العشاءِ، ثم خرج إلى

المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال: «أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحدٌ يذكر الله هذه الساعة غيركم، قال: وأنزل الله هذه الآيات ﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ حتى بلغ ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾.

هذا، وقد ورد للآية سبب آخر، ففي «مجمع الزوائد» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعيه، وأسيد بن سعيه، وأسيد بن عبيد، ومن أسلم من يهود، فآمنوا، وصدقوا، ورغبوا في الإسلام، قالت أحبار يهود أهل الكفر: ما آمن بمحمد وتبعه إلاّ شرارنا، ولو كانوا من خيارنا.. ما تركوا دين آبائهم، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قوله: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ رواه الطبراني، ورجاله ثقات، ويقال: لا مانع من نزول الآية في الجميع، أو أنه تعدَّد سبب نزولها.

التفسير وأوجه القراءة

﴿لَيْسُوا﴾؛ أي: ليس جميع أهل الكتاب ﴿سَوَآءً﴾، أي: مستوين، في المساوىء والصفات القبيحة، بل منهم المؤمنون، وأكثرهم الفاسقون، أي؛ فليس من آمن منهم كمن لم يؤمن.

وفي قوله[1]: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾ قولان:

أحدهما: إنه كلام تام يوقف عليه، والمعنى: أنَّ أهل الكتاب الذين سبق ذكرهم منهم المؤمنون، وأكثرهم الفاسقون ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾. وقيل: معناه: لا يستوي اليهود، وأمة محمد ﷺ القائمة بأمر الله الثابتة على الحق.

والقول الثاني: إن قوله: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾ متعلق بما بعده، ولا يوقف عليه. وقوله عز وجل: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ فيه اختصار، وإضمار، والتقدير: ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمةٌ قائمةٌ، ومنهم أمةٌ مذمومةٌ غير قائمة، فترك ذكر الأمة الأخرى اكتفاء بذكر أحد الفريقين.

---

(١) الخازن.

وخلاصة الكلام: ليس أهل الكتاب متساوين في تلك الصفة القبيحة، بل منهم المؤمنون، وأكثرهم الفاسقون، وهذه الجملة كالتأكيد لتلك أعني قوله: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾.

وبعد أن وصف الفاسقين، وذكر سوء أفعالهم.. وصف المؤمنين، ومدحهم بثمانية أوصاف، كلٌّ منها منقبةٌ ومفخرةٌ، يستحق فاعلها الثواب عليها:

الأول منها: ما ذكره بقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾؛ أي: منهم جماعةٌ مستقيمة على الحق متبعة للعدل، لا تظلم أحداً، ولا تخالف أمر الدين. وكان من تمام الكلام أن يقال: ومنهم: أمة مذمومة كما مر آنفاً، إلا أن العرب قد تذكر أحد الضدين، وتستغني به عن ذكر الآخر، كما قال الشاعر:

دَعَانِيْ إِلَيْهَا ٱلْقَلْبُ إِنِّيْ لِأَمْرِهَا ... مُطِيْعٌ فَمَا أَدْرِيْ أَرُشْدٌ طِلَابُهَا

يريد: أم غيٌّ، وهذه الجملة مبينة لعدم التساوي مزيلةٌ لإبهامه، والمراد بهذه الأمة: جماعةٌ من اليهود، أسلموا كعبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعيه، وأسيد بن سعيه، وأضرابهم، كما رواه ابن جرير عن ابن عباس وقال في تفسير الآية: الأمة القائمة: أمة مهتدية قائمةٌ على أمر الله، لم تنزع عنه وتتركه كما تركه الآخرون وضيعوه.

وهذه الآية حجة على أن دين الله واحدٌ على ألسنة جميع الأنبياء، وأن من أخذه مذعناً وعمل به مخلصاً، وأمر بمعروفٍ ونهى عن منكر فهو من الصالحين.

واستقامة بعضهم على الحق من دينهم لا ينافي ضياع بعض كتبهم، وتحريف بعضهم لما في أيديهم منها، ألا ترى أن من يحفظ بعض الأحاديث، ويعمل بما علم، ويستمسك به مخلصاً فيه يقال: إنه قائم بالسنة عاملٌ بالحديث.

والثاني والثالث: ما ذكره بقوله: ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾؛ أي: يقرؤون القرآن ساعات الليل، وهم يصلون التهجد في الليل، وخص السجود بالذكر من بين أركان الصلاة لدلالته على كمال الخضوع، والخشوع، ودلَّت هذه الآية على الترغيب في قيام الليل، وقد جاء في كتاب الله ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ

﴿ٱلَّيۡلَ﴾. وفي الحديث: «يا عبد الله لا تَكَنْ مثلَ فلان كان يقوم الليل فتركه إلى غير ذلك».

وذكر الرابع والخامس بقوله: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾؛ أي: يؤمنون إيمان إذعانٍ بهما على الوجه المقبول عند الله، ومن ثمراتِ ذلك الخشية والخضوع والاستعداد لذلك اليوم لا إيماناً لا حظَّ لصاحبه منه إلا الغرور والدعوى، كما هو حال سائر اليهود؛ إذ يؤمنون بالله واليوم الآخر لكنه إيمان هو والعدم سواءٌ، لأنهم يقولون: عزيرُ ابن الله، ويكفرون ببعض الرسل، ويصفون اليوم الآخر بخلاف صفته.

ولمَّا كان كمال الإنسان أن يعرف الحق لذاته، والخير للعمل به، وكان أفضل الأعمال الصلاة، وأفضل الأذكار ذكر الله، وأفضل العلوم معرفة المبدإ، والمعاد، وصفهم الله بقوله: ﴿يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ للدلالة على أنهم يعملون صالح الأعمال، وبقوله: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ للإشارة إلى فضل المعارف الحاصلة في قلوبهم.

وذكر السادس بقوله: ﴿وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ أي: إنهم بعد أن كمَّلُوا أنفسهم علماً وعملاً كما تقدم يسعون في تكميل غيرهم، إما بإرشادهم إلى ما ينبغي بأمرهم بالمعروف، أو بمنعهم عمَّا لا ينبغي بالنهي عن المنكر.

وفي هذا تعريضٌ باليهود المداهنين الصادين عن سبيل الله.

وذكر السابع بقوله: ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ﴾؛ أي: يبادرون فيها، ويعملون صالح الأعمال راغبين فيها غير متثاقلين علماً منهم بجلالة موقعها وحسن عاقبتها، وإنما يتباطأُ الذين في قلوبهم مرضٌ كما وصف الله المنافقين بقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ فالمسارعة في الخير ناشئةٌ عن فرط الرغبة فيه؛ لأن من رغب في أمر بادر إليه، وإلى القيام به، وآثر الفور على التراخي، وجاء في الحديث: «اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك، وغناك قبل فقرك». وهذه الصفة جماع الفضائل الدينية والخلقية، وفي ذكرها تعريض باليهود

الذين يتثاقلون عن ذلك، وعبر بالسرعة، ولم يعبر بالعجلة، لأن الأولى: التقدم فيما ينبغي تقديمه وهي محمودةٌ وضدها الإبطاء، والثانية: التقدم فيما لا ينبغي أن يتقدم فيه، ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام: «العجلة من الشيطان، والتأنِّي من الرحمن» وضدها الأناة، وهي محمودةٌ.

وذكر الثامن بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: وأولئك المصوفون بالصفات السبعة السابقة، هم من الذين صلحت أحوالهم، وحسنت أعمالهم؛ فرضيهم ربهم، وفي هذا رد على اليهود الذين قالوا فيمن أسلم منهم: ما آمن بمحمد إلا شرارنا، ولو كانوا خيارنا ما تركوا دين آبائهم، وذهبوا إلى غيره. والوصف بالصلاح: هو غاية المدح، ونهاية الشرف والفضل، فقد مدح الله به أكابر الأنبياء كإسماعيل وإدريس، وذي الكفل فقال: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. وقال حكاية عن سليمان: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ولأنه ضد الفساد، الذي لا ينبغي في العقائد، والأفعال، فهو حصول ما ينبغي في كل منهما، وذلك منتهى الكمال ورفعة القدر وعلو الشأن.

﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وعبد الوارث عن أبي عمرو بالياء في الفعلين؛ لأن الكلام متصلٌ بما قبله من ذكر مؤمني أهل الكتاب؛ فإن جهال اليهود لما قالوا لعبد الله بن سلام وأصحابه: إنكم خسرتم بسبب هذا الإيمان.. قال تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ﴾؛ أي: عبد الله بن سلام وأصحابه ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ أي: إيمان وطاعة، وقيل: من إحسان إلى محمد وأصحابه ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ أي: فلن يحرموا ثوابه بل يثابوا عليه، وهذه قراءة ابن عباس. وقرأ نافع، وابن عامر، وابن كثير، وأبو بكر بالتاء فيهما، على الخطاب لجميع المؤمنين الذين من جملتهم هؤلاء أي: وما تفعلوا معاشر المؤمنين من خير.. فلن تمنعوا ثوابه وجزاؤه بل تجازُوا عليه.

وهذه الجملة جاءت ردًّا على اليهود الذين قالوا لمن أسلم منهم: أنتم خسرتم بسبب هذا الإيمان، وإشارةً إلى أنهم فازوا بالسعادة العظمى، والدرجات العليا، وفيها تعظيمٌ لهم ليزيل من صدورهم أثر كلام أولئك الأوغاد.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ فهو يجزي العاملين بحسب ما يعلم من أحوالهم، وما تنطوي عليه سرائرهم، فمن كان إيمانه صحيحاً، واتَّقى الله . . فازَ بالسعادة، وفيه بشارةٌ لهم بجزيل الثواب، ودلالة على أنه لا يفوز عنده تعالى إلاّ أهل التقوى.

وهذه الجملة كالدليل لما قبلها؛ لأن عدم الإثابة المعبَّر عنه بالكفر، إمَّا للسهو والنسيان، وإما للجهل، وذلك ممتنع في حقه تعالى؛ لأنه عليم بكل شيء، وإما للعجز أو البخل أو الحاجة، وكل ذلك محال عليه؛ لأنه خالق جميع الكائنات، وهو القادر على كل شيء. ولما انتفى كل هذا . . كان المنع من الجزاء محالاً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمَّا بَيَّن فيما سلف أحوال الكافرين، وما يحيق بهم من العقاب وأحوال المؤمنين، وما أعدَّ لهم من الثواب جامعاً بين الزجر والترغيب، والوعد والوعيد، ثم وصف من آمن من الكفار بتلك الخلال الحسنة، والمفاخر التي عددها لهم . . أتبع ذلك بوعيد الكفار، وتيئيسهم بأنهم لن يجدوا يوم القيامة ما يدفع عنهم عذابه، ثم أردفه ببيان أن ما ينفقونه في هذه الحياة الدنيا في لذاتهم وجاههم، وتأييد كلمتهم لا يفيدهم شيئاً كزرع أصابته ريح فيها صر فأهلكته فلم يستفد أصحابه منه شيئاً.

والمعنى: إن الذين كفروا من أهل الكتاب ومشركي مكة، وغيرهم ممن كانوا يعيرون النبيَّ ﷺ وأتباعه بالفقر، ويقولون: لو كان محمد على الحق . . ما تركه ربه في هذا الفقر الشديد، ويتفاخرون بكثرة الأموال، والأولاد كما حكى الله تعالى عنهم ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ لن تدفع عنهم هذه الأموال، والأولاد يوم القيامة شيئاً من عذاب الله، ولن تنفعهم في الآخرة. واقتصر على ذكرهما؛ لأنهما من أعظم النعم ومن كان يرتع في بحبوحة هذه النعم فقلما يوجه نظره إلى طلب الحق، أو يصغي إلى الداعي إليه، ومن ثم تراه يتخبط في ظلام دامس حتى يتردَّى في الهاوية، ويقع في المهالك، ولا ينفعه مال

ولا ولد يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت يوم يوضع الميزان ويحاسب كل امرىءٍ، على النقير والقطمير ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الكفار.

المذكورون هم ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ وملازموها ﴿هُمۡ فِيهَا﴾؛ أي: في النار ﴿خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: دائمون لا يخرجون منها ولا يموتون.

وقيل: إنما خصَّ الله سبحانه وتعالى الأموال والأولاد بالذكر؛ لأن أنفع الجمادات هو الأموال، وأنفع الحيوانات هو الولد. ثم بين تعالى أن الكافر لا ينتفع بهما البتة في الآخرة وذلك يدل على عدم انتفاعه بسائر الأشياء بطريق الأولى.

وبعد ما بين سبحانه وتعالى: أن أموالهم لا تغنى عنهم شيئاً. . . ذكر أن ما ينفقونه من المال في سبيل الخير لا يجديهم ليزيل ما ربما علق بالبال من أنهم ينتفعون به، وضرب لذلك مثلاً فقال: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾ أي: صفة ما ينفقه الكفار ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ في المفاخر والمكارم، وكسب الثناء وحسن الذكر بين الناس، أو ينفقونه في سبيل الخيرات كبناء الرباطات والقناطر والإحسان إلى الضعفاء والأيتام والأرامل. وقرأ ابن هرمز[1] الأعرج ﴿تنفقون﴾ بالتاء على معنى: قل لهم قيل[2]: أراد نفقة أبي سفيان، وأصحابه ببدر، وأحد في معاداة النبيّ ﷺ وقيل: أراد نفقة اليهود على علمائهم، ورؤسائهم، وقيل: أراد نفقات جميع الكفار، وصدقاتهم في الدنيا، وقيل: أراد نفقة المرائي الذي لا يريد بما ينفق وجه الله تعالى؛ وذلك لأنَّ إنفاقهم المال إما أن يكون لمنافع الدنيا، أو لمنافع الآخرة، فإن كان لمنافع الدنيا. . لم يبق له أثر في الآخرة في حق المسلم، فضلاً عن الكافر، وإن كان لمنافع الآخرة كمن يتصدق، ويعمل أعمال البر، فإن كان كافراً. . فإنَّ الكفر محبط لجميع أعمال البر؛ فلا ينتفع بما أنفق

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الخازن.

في الدنيا لأجل الآخرة، وكذلك المرائي الذي لا يريد بما أنفق وجه الله تعالى؛ فإنه لا ينتفع بما ينفقه في الآخرة.

ثم ضرب مثلاً لذلك الإنفاق فقال: ﴿كَمَثَلِ﴾ مصاب ﴿رِيحٍ﴾ شديدٍ ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الريح ﴿صِرٌّ﴾؛ أي: حر شديد ويسمى بالسموم أو برد شديدٌ ويسمى بالزمهرير ﴿أَصَابَتْ﴾ تلك الريح ﴿حَرْثَ قَوْمٍ﴾؛ أي: زرع قوم، وسمي الزرع حرثاً لأنه يحرث عند زرعه ﴿ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أي؛ خسروا أنفسهم بالكفر، والمعاصي، ومنع حق الله تعالى فيه ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾؛ أي: فأحرقت تلك الريح الزرع، كذلك الشرك يهلك النفقة كما أهلكت الريح الزرع.

ومعنى الآية[1]: مثل نفقات الكفار في ذهابها، وقت الحاجة إليها كمثل زرع أصابته ريح باردة فأهلكته، أو نار فأحرقته، فلم ينتفع به أصحابه.

وقيل المعنى[2]: مثل الكفر في إهلاك ما ينفقون كمثل الريح المهلكة للزرع، أو مثل الكافر الذي أنفق أمواله في الخيرات، كبناء الرباطات كمثل من زرع زرعاً، وتوقع منه نفعاً كثيراً، فأصابته ريح فأحرقته، فلا يبقى معه إلا الحزن والأسف.

والخلاصة[3]: أن الجوائح قد تنزل بأموال الناس من حرث ونسل عقوبةً لهم على ذنوب اقترفوها؛ إذ لا يستنكر على القادر الحكيم الذي وضع السنن، وربط الأسباب بمسبباتها في عالم الحسِّ أن يوفِّقَ بينها وبين سننه الخفية في إقامة ميزان القسط بين الناس، لهدايتهم إلى ما به كمالهم من طريق العلوم الحسية التي تستفاد من النظر، والتجربة، ومن طريق الإيمان بالغيب الذي يرشد إليه الوحي الإلهيُّ.

ونحن نسمي ما يترتب عليه حدوث الشيء سبباً له وما يلابس السبب من النفع لبعض والضر لآخرين حكمة له، وكل مقصودٌ للفاعل الحكيم.

---

(١) الخازن.

(٢) مراح.

(٣) مراغي.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ تعالى بعدم انتفاعهم بنفقاتهم ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ أي: ولكن الكفار المنفقين ظلموا أنفسهم بإنفاق الأموال في السبل التي تؤدي إلى الخيبة والخسران على النهج الذي سنه الله تعالى في أعمال الإنسان؛ لأنّ الآية نزلت فيما ينفقه أهل مكة أو ينفقه اليهود في عداوة النبي ﷺ ومقاومته، لأنهم هم الذين اختاروا ذلك لأنفسهم، ولم يضروا النبيَّ ﷺ ومن معه بل كان ذلك سبب سيادته عليهم وتمكنه منهم.

أو المعنى[1]: وما ظلمهم الله بذهاب منفعة زرعهم ونفقاتهم، ولكن أنفسهم يظلمون بالكفر، ومنع حق الله تعالى من الزرع.

وقرىء[2] شاذا ﴿ولكنَّ﴾ بالتشديد، واسمها ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ والخبر ﴿يَظْلِمُونَ﴾، والمعنى: يظلمونها هم، وحسن حذف هذا الضمير وإن كان الحذف في مثله قليلاً كون ذلك فاصلة رأس آية؛ فلو صرح به لزال هذا المعنى، ولا يجوز أن يعتقد أن اسم ﴿لكن﴾ ضمير الشأن، وحذف، و﴿أَنفُسَهُمْ﴾ مفعولٌ بـ ﴿يَظْلِمُونَ﴾ لأنَّ حذف هذا الضمير يختص بالشعر ذكره أبو حيان. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ نزلت هذه الآية في شأن رجال من المؤمنين يشاورون اليهود في أمورهم، لما كان بينهم من الرضاع، والحلف ظناً منهم أنهم ينصحون لهم في أسباب المعاش، فنهاهم الله تعالى بهذه الآية عنه كما قاله ابن عباس، أو في رجال من المؤمنين كانوا يغترون بظاهر أقوال المنافقين فيفشون إليهم الأسرار، ويطلعونهم على الأحوال، فالله تعالى منعهم عن ذلك كما قاله مجاهد.

أي: يا أيها الذين آمنوا وصدقوا بمحمد ﷺ وما جاء به ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾ وتجعلوا لأنفسكم ﴿بِطَانَةً﴾؛ أي: خواصَّ، وأصفياء، وأصدقاء تباطنونهم في الأمور وتطلعونهم على سركم كائنين ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾؛ أي: من غيركم أي: من غير أهل ملتكم من الكفار والمنافقين ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾؛ أي: لا يقصرون لكم ولا يتركون جهدهم، وطاقتهم في مضرتكم، وفسادكم، وعداوتكم؛ أي: ليس عندهم

(١) تفسير ابن عباس.

(٢) البحر المحيط.

تقصيرٌ في ذلك بل هو شأنهم وديدنهم ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾؛ أي: أحبوا وتمنوا عنتكم ومشقتكم وضرركم في دينكم، ودنياكم أشد الضرر أي؛ فإن الكفار لا يقصرون لكم في إفساد دينكم، فإن عجزوا عنه أحبوا بقلوبهم إلقاءكم في أشد أنواع الضرر ﴿قَدْ بَدَتِ﴾ وظهرت ﴿ٱلْبَغْضَآءُ﴾ والعداوة لكم ﴿مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ وألسنتهم بالوقيعة في أعراضكم والشتيمة لكم، والتكذيب لنبيكم وكتابكم، والنسبة لكم إلى الحمق والجهل لأنهم لا يتمالكون ضبط أنفسهم مع مبالغتهم في ضبطها، ومع ذلك يتفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغض المسلمين، فهم لا يكتفون ببغضكم، وقرأ عبد الله ﴿قَدْ بَدَا﴾ لأنَّ الفاعل مؤنث مجازاً، أو على معنى البغض ﴿وَمَا تُخْفِى﴾ وتستر وتضمر ﴿صُدُورُهُمْ﴾ وقلوبهم من الحقد والبغض والعداوة والغيظ لكم ﴿أَكْبَرُ﴾؛ أي: أعظم وأشد مما يظهرونه لكم على ألسنتهم، لأنَّ فلتات اللسان أقل مما تجنه الصدور بل تلك الفلتات بالنسبة إلى ما في الصدور قليلةٌ جداً. ثم إنه سبحانه وتعالى امتنَّ عليهم ببيان الآيات، والعلامات الدالة على عداوتهم كما قال: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾؛ أي: أوضحنا وأظهرنا لكم العلامات الدالة على عدواتهم وحسدهم لكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وتفهمون تلك العلامات أي: إن كنتم من أهل العقول المدركة لذلك البيان.

وذكر[1] سبحانه وتعالى في هذه الآية من تلك العلامات أربعاً:

الأولى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾؛ أي: لا يقصرون في مضرتكم وإفساد الأمر عليكم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

والثانية: يتمنون ضركم في دينكم، ودنياكم أشد الضرر.

والثالثة: يبدون البغضاء بأفواههم، ويظهرون تكذيب نبيكم وكتابكم، وينسبونكم إلى الحمق والجهل.

والرابعة: كون ما يظهرونه على ألسنتهم من علامات الحقد أقل مما في قلوبهم منه.

---

(١) المراغي.

فهذه الأوصاف شروط في النهي عن اتخاذ البطانة من غير المسلمين فإذا اعتراها تغير وتبدلٌ كما وقع من اليهود، فبعد أن كانوا في صدر الإسلام أشد الناس عداوةً للذين آمنوا انقلبوا؛ فصاروا عوناً للمسلمين في فتوح الأندلس، وكما وقع من القبط إذ صاروا عوناً للمسلمين على الروم في فتح مصر؛ فلا يمنع حينئذٍ اتخاذهم أولياء وبطانة للمسلمين، فقد جعل عمر بن الخطاب رجال دواوينه من الروم وجرى الخلفاء من بعده على ذلك.

وقيل: معنى قوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: قد أظهرنا لكم الدلالات الواضحة التي يتميز بها الولي من العدو ومن يصح أن يتخذ بطانة، ومن لا يصح أن يتخذ لخيانته وسوء عاقبة مباطنته إن كنتم تدركون حقائق هذه الآيات التي تفرق بين الأعداء والأولياء، وتعلمون قدر مواعظ الله، وحسن عواقبها.

ثم ذكر سبحانه وتعالى نوعاً آخرَ من التحذير عن مخالطة الكافرين، واتخاذهم بطانةً، وفيه تنبيهٌ للمسلمين على خطئهم في ذلك، وقد ضمنه أموراً ثلاثة كل منها يستدعي الكف عن مخالطتهم:

الأول منها: ما ذكره بقوله: ﴿هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾؛ أي: انتبهوا أنتم يا معشر المؤمنين المخطئين في موالاتهم تحبونهم، وتودونهم بسبب ما بينكم وبينهم من الرضاعة، والمصاهرة، وبسبب أنهم أظهروا لكم الإيمان ومحبة الرسول محمد ﷺ، وذلك بأن تفشوا إليهم أسراركم ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ بسبب المخالفة في الدين، وبسبب أن الكفر مستقر في باطنهم أي: لا يفشون أسرارهم إليكم.

والمعنى[1]: إنكم يا معشر المؤمنين تحبون هؤلاء ـ الكفار ـ الذين هم أشد الناس عداوةً لكم، ولا يقصرون في إفساد أمركم وتمني عنتكم، ويظهرون لكم العداوة والغش، ويتربصون بكم ريب المنون، فكيف توادونهم وتواصلونهم.

---

(١) المراغي.

والثاني منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾؛ أي: وإنكم تؤمنون بجميع ما أنزل الله من الكتب سواءٌ منها ما نزل عليكم، وما نزل عليهم فليس في نفوسكم جحدٌ لبعض الكتب الإلَهية، ولا للنبيين الذين جاءوا بها حتى يحملكم ذلك على بغض أهل الكتاب، أما هم: فيجحدون بعض الكتب، وينكرون بعض النبيين.

وخلاصة الكلام: أنهم لا يحبونكم مع أنكم تؤمنون بكتابهم وكتابكم، فما بالكم لو كنتم لا تؤمنون بكتابهم كما أنهم لا يؤمنون بكتابكم؛ فأنتم أحرى، ببغضهم، ومع هذا تحبونهم ولا يحبونكم. قال ابن جرير[1]: في الآية، إبانةٌ من الله عز وجل عن حال الفريقين، أعني: المؤمنين، والكافرين، ورحمة أهل الإيمان، ورأفتهم بأهل الخلاف لهم، وقساوة قلوب أولئك وغلظتهم على أهل الإيمان، انتهى.

وقال قتادة: فوالله إنَّ المؤمن ليحب المنافق، ويأوي إليه ويرحمه، ولو أن المنافق يقدر من المؤمن على ما يقدر عليه المؤمن منه لأَبادَ خضراءه وأفناه وأهلكه.

وفي هذا: توبيخٌ للمؤمنين بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم.

والثالث منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ﴾؛ أي: وإذا لقيكم يا معاشر المؤمنين هؤلاء المنافقون من اليهود وغيرهم، واجتمعوا معكم في المجالس ألانوا لكم القول حذراً على أنفسهم منكم، و﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ وصدقنا بما جاء به محمدٌ ﷺ فإن نعته في كتابنا ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾؛ أي: وإذا خلا بعضهم ببعضٍ، وانفردوا عنكم، ورجعوا، وصاروا في مكان خال، بحيث لا يراهم المؤمنون ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾؛ أي: عضوا الأنامل لأجل الغيظ والغضب عليكم. ففي الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، أي: أكلوا أطراف أصابعهم؛ لأجل شدة غيظهم وغضبهم عليكم.

---

(١) طبري.

والمعنى: وإذا رجع بعضهم إلى بعض أظهروا شدة العداوة على المؤمنين حتى تبلغ تلك الشدة إلى عض الأنامل كما يفعل ذلك أحدنا إذا اشتد غيظه، ولما كثر هذا الفعل من الغضبان، صار ذلك كنايةً عن الغضب، حتى يقال في الغضبان: إنه يعضُّ يده غيظاً، وإن لم يكن هناك عضٌّ. والعرب تصف المغتاظ، والنادم بعضِّ الأنامل، والبنان، وإنما فعلوا ذلك لما رأوا من ائتلاف المؤمنين، واجتماع كلمتهم، وصلاح ذات بينهم ونصر الله إياهم حتى عجز أعداؤهم أن يجدوا سبيلاً إلى التشفي منهم، فاضطروا إلى مداراتهم.

﴿قُلْ﴾ لهم: يا محمد ﴿مُوتُوا﴾ ملتبسين ﴿بِغَيْظِكُمْ﴾ وغضبكم، وهذا أمرٌ من الله تعالى لنبيه ﷺ بأن يدعو عليهم بدوام ما يوجب هذا الغيظ، وهو قوة الإسلام، وأن يدعو عليهم بالموت قبل بلوغ ما يتمنون، وليس أمراً بالإقامة على الغيظ؛ فإن الغيظ كفرٌ، والأمر بالكفر غير جائز، ويجوز أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ أنه تعالى أمر رسوله بطيب النفس وقوة الرجاء والاستبشار بوعد الله إياه أنهم يهلكون غيظاً بإعزاز الإسلام، وإذلالهم به كأنه قيل: حدث نفسك بذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ أي: عالمٌ بما في القلوب؛ فيعلم ما تنطوي عليه صدوركم أيها المنافقون من البغضاءِ، والحقدِ، والحسد، ولا يخفى عليه ما تقولون في خلواتكم، وما يبديه بعضكم لبعضٍ من تدبير المكائد، ونصب الحيل للمؤمنين، وما تنطوي عليه صدور المؤمنين من حب الخير والنصح لكم، ويجازي كلا على ما قدم من خير أو شر، واعتقد من إيمان أو كفر.

ومعنى قوله: ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ أي: بالمضمرات ذوات الصدور، وجعلت صاحبة للصدر لملازمتها لها، وعدم انفكاكها عنها نحو أصحاب الجنة، وأصحاب النار ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾؛ أي: إن تصبكم منفعة الدنيا كانتصاركم على أعدائكم المقاومين المعارضين لدعوتكم، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وكصحة البدن، وحصول الخصب، والفوز بالغنيمة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾؛ أي:

تحزنهم تلك الحسنة ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾؛ أي: مضرة كمرض، وفقر، وانهزام من عدو، وقتل، ونهب، وغارة وحدوث اختلاف بين جماعتكم ﴿يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾؛ أي: بإصابتها إياكم؛ أي: يسر المنافقون من اليهود، وغيرهم بتلك المصيبة التي أصابتكم، فإنهم متناهون في عداوتكم فاجتنبوهم. فالحسنة[1] هنا: ما يسر من رخاءٍ، وخصبٍ، ونصرة، وغنيمة، ونحو ذلك من المنافع، والسيئة ضد ذلك.

قال[2] قتادة في بيان ذلك: فإذا رأوا من أهل الإسلام ألفة وجماعةً وظهوراً على عدوهم غاظهم ذلك، وساءهم، وإذا رأوا من أهل الإسلام فرقةً واختلافاً، أو أصيب طرف من أطراف بلاد المسلمين سرهم ذلك، وأعجبوا به، وابتهجوا، وهم كلما خرج منهم قرن، أكذب الله أحدوثته، وأوطأ محلته، وأبطل حجته، وأظهر عورته، وذلك قضاء الله تعالى فيمن مضى منهم، وفيمن بقي إلى يوم القيامة انتهى.

﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟﴾ على عداوتهم، وإذايتهم، وقيل: إن تصبروا على مشاق التكاليف فتمتثلوا الأوامر ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾؛ أي: تخافوا موالاتهم، وتتوكلوا في أموركم على الله أو تتقوا كل ما نهيتم عنه وحظر عليكم، ومن ذلك اتخاذ الكافرين بطانة ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ أيها المؤمنون، ولا ينقصكم ﴿كَيْدُهُمْ﴾؛ أي: كيد الكفار ومكرهم وحيلتهم التي دبروها لأجلكم ﴿شَيْـًٔا﴾ من الضرر بفضل الله عز وجل، وحفظه الموعود للصابرين، والمتقين؛ لأنكم قد وفيتم الله بعهد العبودية فهو يفي لكم بحق الربوبية، ويحفظكم من الآفات، والمخافات كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ والكيد: احتيال الشخص ليقع غيره في مكروه. قال بعض الحكماء: إذا أردت أن تكبت من يحسدك، فاجتهد في اكتساب الفضائل. وقد جرت سنة الله في القرآن أن يذكر الصبر في كل مقامٍ يشق على النفس احتماله، ولا شك أن حبس الإنسان سره عن وديده، وعشيره، ومعامله، وقريبه، مما يشق عليه، فإن من لذات النفوس أن تفضي بما

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

في الضمير إلى من تسكن إليه وتأنس به.

ولمَّا نهى المؤمنين عن اتخاذ بطانة من دونهم، من خلطائهم، وعشرائهم، وحلفائهم، لما بدا منهم من البغضاء والحسد، حسن أن يذكرهم بالصبر على هذا التكليف الشاق عليهم، واتقاء ما يجب اتقاءه للسلامة من عواقب كيدهم.

وفي الآية عبرة للمسلمين في معاملة الأعداء؛ فإنَّ الله أمر المؤمنين بالصبر على عداوة أولئك المبغضين الكافرين، واتقاءِ شرهم، ولم يأمرهم بمقابلة الشر بمثله؛ إذ من دأب القرآن أن لا يأمر إلا بالمحبة، والخير، ودفع السيئة بالحسنة كما قال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾.

فإن تعذر تحويل العدو إلى محب بدفع سيئاته بما هو أحسن منها.. جاز دفع السيئة بمثلها من غير بغي، كما فعل النبيُّ ﷺ مع بني النضير؛ فإنه حالفهم، ووادَّهم فنكثوا العهد، وخانوا، وأعانوا عليه عدوه من قريش وسائر العرب، وحاولوا قتله، فلم يكن هناك وسيلةٌ لعلاجهم إلا قتالهم وإجلاؤهم من ديارهم.

وقرأ الجمهور[1] ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ﴾ بالتاء، وقرأ السلمي بالياء معجمة من أسفل؛ لأن تأنيث الحسنة مجازيٌّ وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحمزة في رواية عنه: ﴿لا يَضِرْكُم﴾ بفتح الياء وكسر الضاد، وسكون الراء من ضار يَضِير، ويقال: ضار يضور، وكلاهما بمعنى ضَرَّ. وقرأ الكوفيون، وابن عامر ﴿لا يضُرُّكم﴾ بضم الضاد والراء المشددة على الجزم بسكون مقدر للإتْباع من ضر يضر. وقرأ عاصم فيما روى أبو زيد عن المفضل عنه بضم الضاد، وفتح الراء المشددة للتخفيف، وهي أحسن من قراءة ضم الراء نحو لم يرد زيد. والفتح: هو الكثير المستعمل. وقرأ الضحاك بضم الضاد، وكسر الراء المشددة على أصل التقاء الساكنين. وقرأ أُبي ﴿لا يضرركم﴾ بفك الإدغام، وهي لغة أهل الحجاز: وعليها في الآية ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ﴾ ولغة سائر العرب الإدغام في هذا كله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بـ﴿الياء﴾ باتفاق القراء

---

(١) البحر المحيط.

العشرة؛ أي: بما يعمل المنافقون من عداوتهم ومكرهم، وإذايتهم إياكم ﴿مُحِيطٌ﴾ فيعاقبهم عليه، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وهي قراءة شاذة بـ﴿التاء﴾ الفوقية، والمعنى عليها: إنه تعالى عالم بما تعملون من الصبر والتقوى وغيرهما، فيفعل بكم أيها المؤمنون ما أنتم مستحقون له.

والمعنى[1]: إنه تعالى عالم بعمل الفريقين، ومحيط بأسباب ما يصدر من كل منهما، ومقدماته، ونتائجه، وغاياته، فهو الذي يعتمد على إرشاده في معاملة أحدهما للآخر، ولا يمكن أن يعرف أحدهما من نفسه ما يعلمه ذلك المحيط بعمله، وعمل من يناهضه ويناصبه العداوة، فهداية الله للمؤمنين خير وسيلةٍ للوصول إلى أغراضهم، ومآربهم. وهذه الجملة كالعلة لكون الاستعانة بالصبر، والتمسك بالتقوى شرطين للنجاح.

وخلاصة المعنى: أن الله قد دلكم على ما ينجيكم من كيد أعدائكم، فعليكم أن تمتثلوا، وتعلموا أنه محيط بأعمالهم، وهو القادر على أن يمنعهم مما يريدون بكم فثقوا به، وتوكلوا عليه.

الإعراب

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾.

﴿لَيْسُوا﴾ فعل ناقص، واسمه ﴿سَوَاءً﴾ خبرها، وجملة ﴿ليس﴾ من اسمها وخبرها مستأنفة. ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿أُمَّةٌ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿قَائِمَةٌ﴾ صفة له. والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً بيانياً. وفي «الفتوحات» قوله[2]: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ استئنافٌ مبين لكيفية عدم تساويهم، ومزيلٌ لما فيه من الإبهام كما أن ما سبق من قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ الخ مبين لقوله ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ الخ. انتهى.

﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾.

---

(١) المراغي. (٢) جمل.

﴿يَتْلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية صفة ثانية لـ﴿أمة﴾. ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿يتلون﴾ ﴿وَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾ حالية ﴿هم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَسْجُدُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يَتْلُونَ﴾.

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿يُؤْمِنُونَ﴾ فعل وفاعل. ﴿بِٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَٱلْيَوْمِ﴾ معطوف على لفظ الجلالة. ﴿ٱلْءَاخِرِ﴾ صفة لليوم. والجملة الفعلية في محل الرفع بدل من جملة ﴿يتلون﴾ على كونها صفة ثانية لـ﴿أمة﴾. وقال أبو البقاء:[1] إن شئت.. جعلتها حالاً، وإن شئت.. جعلتها مستأنفةً انتهى. وقال أبو حيان[2]: والظاهر في ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أن يكون صفة، أي: تاليةٌ مؤمنةٌ، وجوَّزوا أن تكون الجملة مستأنفةً، أو في موضع الحال من الضمير في ﴿يَسْجُدُونَ﴾، وأن تكون بدلاً من السجود. قيل: لأنَّ السجود بمعنى الإيمان ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿يأمرون﴾ فعل وفاعل ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَيَنْهَوْنَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿ينهون﴾ فعل وفاعل ﴿عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ متعلق به، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَيُسَٰرِعُونَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿يسارعون﴾ فعل وفاعل. ﴿فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ متعلق به، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿أولئك﴾ مبتدأ. ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿ما﴾ اسم شرط جازم يجزم فعلين في

---

(١) أبو البقاء.

(٢) البحر المحيط.

محل النصب مفعول مقدم وجوباً. ﴿يفعلوا﴾ فعل وفاعل مجزوم بما على كونه فِعْلَ شرط لها. ﴿مِنۡ خَيۡرٖ﴾ متعلق بـ﴿يَفۡعَلُواْ﴾ أو حال من ما ﴿فَلَن﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿ما﴾ الشرطية وجوباً، لكون الجواب مقروناً بـ ﴿لَنْ﴾. ﴿لن﴾: حرف نفي ونصب. ﴿يُكۡفَرُوهُۗ﴾ فعل مضارع، مغير الصيغة منصوب بـ﴿لن﴾، و﴿الواو﴾ نائب فاعل له، وهو المفعول الأول، و﴿الهاء﴾ في محل النصب مفعول ثان له؛ لأنه ضُمِّن معنى حُرم فيتعدى إلى مفعولين، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿ما﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ما الشرطية من فعل شرطها، وجوابها مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو استئنافية ﴿الله﴾ مبتدأ ﴿عَلِيمُۢ﴾ خبره ﴿بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾ متعلق بـ ﴿عَلِيمُۢ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب وتوكيد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محل النصب اسمها ﴿كَفَرُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿لَن﴾ حرف نفي ونصب. ﴿تُغۡنِيَ﴾ فعل مضارع منصوب بـ﴿لَن﴾ ﴿عَنۡهُمۡ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾ فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم﴾ الواو عاطفة ﴿لا﴾ زائدة زيدت لتأكيد نفي ما قبلها. ﴿أَوۡلَٰدُهُم﴾ معطوف على ﴿أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور حال من ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ لأنه صفة نكرة، قدمت عليها، فيعرب حالاً ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ مفعول به منصوب بـ ﴿تُغۡنِيَ﴾.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿أولئك أصحاب النار﴾ مبتدأ وخبر، ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿هُمۡ﴾ مبتدأ. ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿خَٰلِدُونَ﴾ وهو خبر عن المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾.

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ﴾.

﴿مَثَلُ﴾ مبتدأ، وهو مضاف و﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل الجر

مضاف إليه. ﴿يُنفِقُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لِـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد محذوف تقديره: ينفقونه ﴿فِى هَٰذِهِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿يُنفِقُونَ﴾. ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان عنه. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة لـ ﴿الحياة﴾ ﴿كَمَثَلِ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿مثل﴾ مضاف. ﴿رِيحٍ﴾ مضاف إليه ﴿فِيهَا﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿صِرٌّ﴾ مبتدأ، والجملة في محل الجر صفة لـ ﴿رِيحٍ﴾. وفي «الفتوحات»[1] ويجوز أن يكون فيها وحده هو الصفة و﴿صِرٌّ﴾ فاعل به، وجاز ذلك لاعتماد الجار على الموصوف، وهذا أحسن؛ لأن الأصل في الأوصاف الإفراد، وهذا قريب منه انتهى.

﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿أَصَابَتْ﴾ فعل ماض، و﴿التاء﴾ علامة التأنيث، وفاعله ضمير يعود على ﴿رِيحٍ﴾ والجملة الفعلية في محل الجر صفة ثانية لـ ﴿رِيحٍ﴾. ﴿حَرْثَ قَوْمٍ﴾: مفعول به، ومضاف إليه. ﴿ظَلَمُوٓا۟﴾ فعل وفاعل. ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ مفعول به؛ ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الجر صفة لـ﴿قوم﴾ ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ الفاء: عاطفة، ﴿أهلكته﴾ فعل ومفعول. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾ نافية ﴿ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿وَلَٰكِنْ﴾ الواو عاطفة. ﴿لكن﴾ حرف استدراك. ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ مفعول به مقدم على عامله، ومضاف إليه ﴿يَظْلِمُونَ﴾ فعل وفاعل، وجملة الاستدراك معطوفة على جملة النفي.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾.

﴿يا﴾ حرف نداء. ﴿أيُّ﴾ منادى نكرة مقصودة في محل النصب مبني على الضم. ﴿ها﴾ حرف تنبيه زِيدَت تعويضاً عمَّا فاتَ ﴿أيُّ﴾ من الإضافة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل الرفع، أو النصب صفة لـ﴿أيُّ﴾ وجملة النداء مستأنفة

(١) جمل.

﴿ءَامَنُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾ ﴿لا﴾ ناهية. ﴿تَتَّخِذُوا۟﴾ فعل وفاعل مجزوم ﴿بلا﴾ الناهية، والجملة، جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿بِطَانَةً﴾ مفعول به. ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه صفة أولى لـ ﴿بِطَانَةً﴾ ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ﴾ ﴿لا﴾ نافية. ﴿يَأْلُونَكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول. و﴿يَأْلُو﴾ يتعدى لمفعول واحد، والجملة الفعلية في محل الجر صفة ثانية لـ﴿بطانة﴾ ﴿خَبَالًا﴾ منصوب على التمييز، أو على نزع الخافض تقديره: ﴿لا يألونكم﴾ في تخبيلكم، ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال ﴿وَدُّوا۟﴾ فعل وفاعل. ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ ﴿مَّا﴾ مصدرية. ﴿عَنِتُّمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلةٌ لـ﴿ما﴾ المصدرية. ﴿مَّا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره؛ ودوا عنتكم، وجملة ﴿وَدُّوا۟﴾ من الفعل والفاعل مستأنفة، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير، في ﴿يَأْلُونَكُمْ﴾، و﴿قد﴾ مقدرةٌ معه حينئذٍ.

﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾.

﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق. ﴿بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، أو حال من فاعل ﴿يَأْلُونَكُمْ﴾ ﴿مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿بَدَتِ﴾ أو حال من ﴿البغضاء﴾، تقديره: حالة كون البغضاء ظاهرةً من أفواههم ﴿وَمَا تُخْفِى﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾ موصولة في محل الرفع مبتدأ. ﴿تُخْفِى صُدُورُهُمْ﴾ فعل وفاعل، ومضاف إليه. والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: وما تخفيه. ﴿أَكْبَرُ﴾ خبر المبتدأ والجملة مستأنفة.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق ﴿بَيَّنَّا﴾ فعل وفاعل ﴿لَكُمُ﴾ جار ومجرور متعلق به ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ مفعول به، والجملة مستأنفة. ﴿إِن كُنتُمْ﴾ إن حرف شرط. ﴿كنتم﴾ فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بأن على كونه فعل شرط لها. وجملة ﴿تَعْقِلُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجواب ﴿إنْ﴾ معلوم ممَّا قبلها تقديره: إن كنتم تعقلون فلا توالوهم، وجملة إن الشرطية مستأنفة.

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾.

﴿ها﴾ حرف تنبيه لتنبيه المؤمنين المخاطبين على خطئهم في موالاة الكفار. ﴿أنتم﴾ مبتدأ. ﴿أُوْلَآءِ﴾ منادى نكرة مقصودة، حذف منه حرف النداء في محل النصب على المفعولية مبني على الكسر لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً؛ وإنما حُرِّك فراراً من التقاء الساكنين، وكانت الحركة كسرةً لأنها الأصل في حركة التخلص، وجملة النداء معترضةٌ لاعتراضها بين المبتدأ والخبر. ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ الواو حالية ﴿لا﴾ نافية. ﴿يُحِبُّونَكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب حال من الهاء في ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ ﴿وَتُؤْمِنُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾ متعلق بـ﴿تؤمنون﴾ ﴿كُلِّهِۦ﴾ توكيد لـ﴿الكتاب﴾ ومضاف إليه.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ﴾ الواو عاطفة. ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿لَقُوكُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها ﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، والظرف متعلق بالجواب، وجملة ﴿إذا﴾ من فعل شرطها، وجوابها في محل الرفع معطوفة على جملة قوله ﴿تحبونهم﴾ على كونها خبر المبتدأ ﴿ءَامَنَّا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿خَلَوْاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرطٍ لها. ﴿عَضُّواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا في محل الرفع معطوفة على جملة قوله ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ على كونها خبر المبتدإ ﴿عَلَيْكُمُ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿عضوا﴾. ﴿ٱلْأَنَامِلَ﴾ مفعول به منصوب بـ﴿عضوا﴾. ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿عضوا﴾ أيضاً. وفي «الفتوحات»

قوله ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ خبر عن المبتدإ، وكذلك قوله ﴿وتؤمنون﴾ الخ. وقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ وقوله: ﴿إن يمسسكم﴾ الخ انتهى شيخنا.

﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿مُوتُوا﴾ فعل وفاعل. ﴿بِغَيْظِكُمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من ضمير الفاعل تقديره: ملتبسين بغيظكم، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب وتوكيد. ﴿اللَّهَ﴾ اسمها. ﴿عَلِيمٌ﴾ خبرها ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليها متعلق بعليم، وجملة إن مستأنفة أو مقول القول لـ﴿قل﴾.

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾.

﴿إِن﴾ حرف شرط جازم. ﴿تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾ فعل ومفعول وفاعل مجزوم بـ﴿إِنْ﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ فعل ومفعول مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه جواب شرط لها، والفاعل ضمير يعود على حسنة، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة، أو معطوفة على جملة ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ على كونها خبر المبتدأ. ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ فعل ومفعول، وفاعل مجزوم بـ﴿إنْ﴾ على كونها فِعْلَ شرط لها. ﴿يَفْرَحُوا﴾ فعل وفاعل، مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها. ﴿بِهَا﴾ متعلق به، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾.

﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿تَصْبِرُوا﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إنْ﴾ على كونه فِعْل شرط لها. ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الواو عاطفة ﴿تتقوا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿تصبروا﴾ ﴿لا يضركم﴾ ﴿لا﴾ نافية. ﴿يضركم﴾ فعل مضارع ومفعول مجزوم بـ﴿إنْ﴾ على كونه جواب الشرط لها. ﴿كَيْدُهُمْ﴾ فاعل ومضاف إليه ﴿شَيْئًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنه صفة مصدر محذوف

تقديره: ضرراً شيئاً، وجملة إن الشرطية مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب وتوكيد. ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿مُحِيطٌ﴾ الآتي. ﴿يَعْمَلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: يعملونه. ﴿مُحِيطٌ﴾ خبر إن مرفوع وجملة ﴿إِنَّ﴾ من اسمها وخبرها مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ سواء: اسم مصدر بمعنى الاستواء، ويوصف به على أنه بمعنى مستوٍ، فيحتمل حينئذ ضميراً، ويرفع الظاهر. ومنه قولهم: مررت برجلٍ سواءٍ والعدم، برفع العدم على أنه معطوف على الضمير المستكن في سواء، ولا يثنى ولا يجمع، إما لكونه في الأصل مصدراً، وإما للاستغناء عن تثنيته بتثنية نظيره، وهو سِيٌ بمعنى مثل تقول: ما سيَّان، أي؛ مثلان ويستعمل للواحد، والمثنى، والجمع بلفظ واحد، فيقال: هما سواء وهم سواءٌ.

﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ الآناء: الساعات، وفي مفردها: لغاتٌ خمسٌ: إنىً كـ(معىً)، وأنىً كـ(فتىً)، وإنيٌ كـ(نحيٌ)؛ وأنيٌ كـ(ظبيٌ)؛ وإنو كجرو. فالهمزة في آناء منقلبة عن ياء على اللغات الأربعة الأولى كرداء، وعن واوٍ على اللغة الأخيرة نحو كساء، وكل واحد من هذه المفردات الخمس يطلق على الساعة من الزمان كما يؤخذ من «القاموس».

﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ الأمة الجماعة، ويجمع على أمم. قائمة: أي مستقيمة عادلة من قولك: أقمت العود فقام أي: استقام ﴿يَتْلُونَ﴾ التلاوة القراءة، وأصلها: الاتباع فكأنها إتباع اللفظ اللفظ.

﴿وَيُسَٰرِعُونَ﴾ من سارع ـ من باب فاعل ـ يسارع مسارعة، ولكن المفاعلة ليست على بابها، بل للمبالغة في معنى الثلاثي. والمسارعة في الخير: فرط الرغبة فيه؛ لأن من رغب في الأمر يسارع في توليه والقيام به، والمعنى يبادرون مع كمال الرغبة في فعل أصناف الخيرات القاصرة والمتعدية.

﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ الصر البرد الشديد المحرق، قاله ابن عباس، وأصله من الصرير الذي هو الصوت من قولهم: صر الشيء إذا صوت، ويراد به الريح الشديدة الباردة.

﴿بِطَانَةً﴾: بطانة الرجل، وكذا وليجته من يعرفه أسراره ثقة به، مشبهٌ ببطانة الثوب يقال: بطن فلان من فلان بطوناً، وبطانة إذا كان خاصاً به داخلاً في أمره. وفي «الفتوحات» بطانة الرجل خاصته الذين يباطنهم في الأمور، ولا يظهر غيرهم عليها مشتقةٌ من البطن انتهى.

﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ يألونكم من ألا في الأمر يألو من باب دعا وسما إذا قصر فيه، ويقال: لا آلوك نصحاً أي: لا أمنعك نصحاً، ولا آلوك جهداً أي لا أنقصك جهداً، ويقال: آلوت في الأمر إذا قصرت فيه. والخبال والخبل: الفساد الذي يلحق الحيوان، يقال في قوائم الفرس؛ خبل وخبال، أي: فسادٌ من جهة الاضطراب؛ والخبال أيضاً النقصان، ومنه رجلٌ مخبول ومخبلٌ، ومختبلٌ إذا كان ناقصَ العقلِ ويقال: خَبَل من باب ضرب فهو خابل، وخبله بالتشديد فهو مخبل. ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ يقال: ود الشيء إذا أحبه. والعنت المشقة، وشدة الضرر. وقال الراغب: هنا المعاندة والمعانتة متقاربان، لكن المعاندة هي الممانعة، والمعانتة هي: أن يتحرى مع الممانعة المشقة، ويقال: عنت الأمر إذا شق من باب فرح. ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ﴾ البغضاء مصدر كالسراء، والضراء يقال: منه بغض الرجل، فهو بغيض كالظريف كظرف فهو ظريف.

﴿والأفواه﴾ معروفة، وهو جمع فم، وأصله فوه فلامه هاء يدل على ذلك جمعه على أفواه، وتصغيره على فويه، والنسب إليه فوهي، وهل وزنه فعل بسكون العين، أو فعل بفتحها؟ خلاف للنحويين انتهى. سمين. وفي الفم تسع لغات، ذكرت في بعض كتب النحو ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ﴾ والعض: وضع الأسنان على الشيء بقوة، والفعل منه على فعل بكسر العين، يقال: عضضت بكسر العين في الماضي: أعض بالفتح في المضارع عضاً وعضيضاً. والعض كله بالضاد إلا في قولهم: عظ الزمان إذا اشتد، وعظت الحرب إذا اشتدت، فإنهما

بالظاء أخت الطاء. والأنامل جمع أنملة، وهي رؤوس الأصابع، وقال ابن عيسى: أصلها النمل المعروف، وهي مشبهة به في الدقة، والتصرف بالحركة ومنه رجل نمل أي: نمام.

وعض الأنامل كناية عن شدة الغيظ والغضب ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ والغيظ: مصدر غاظه يغيظه إذا أغضبه، وفسره الراغب: بأنه أشد الغضب، قال: وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من نوازف دم قلبه. ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: بالخواطر القائمة بالقلب، والدواعي التي تدعو إلى الأفعال. فذات هنا تأنيث ذي بمعنى صاحبة الصدور، وجعلت صاحبة الصدور لملازمتها لها، وعدم انفكاكها عنها.

﴿كَيْدُهُمْ﴾ الكيد المكر، وهو مصدر: كاده يكيده إذا مكربه، وهو الاحتيال بالباطل. قال ابن قتيبة: وأصله المشقة من قولهم: فلان يكيد بنفسه؛ أي: يعالج مشقات النزع وسكرات الموت.

البلاغة

﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ أتى بالجملة الاسمية لتدل على الدوام والاستمرار، كما أتى بالجملة الفعلية في قوله: ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وفي قوله: ﴿يَسْجُدُونَ﴾ للدلالة على التجدد والحدوث.

والإشارة بالبعيد في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لبيان علو درجتهم وسمو منزلتهم في الفضل ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ فيه تشبيه تمثيلي حيث شبه ما كانوا ينفقونه في المفاخر، وكسب الثناء بالزرع الذي اصابته الريح العاصفة الباردة فدمرته وجعلته حطاماً.

﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً﴾ فيه استعارة حيث شبه الأصفياء ببطانة الثوب الملتصقة به، واستعير اسم المشبه به للمشبه على طريقة الاستعارة الأصلية، والجامع شدة الالتصاق على حد: «الناس دثارٌ والأنصار شعارٌ».

وقال أبو حيان: تضمنت هذه الآيات ضروباً من أنواع الفصاحة والبلاغة:

منها: التكرار في قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ﴾ والاكتفاء بذكر بعض الشيء

عن كله إذ كان فيه دلالة على الباقي في ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ﴾ ﴿وَيَنْهَوْنَ﴾، وفي قوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ و﴿ٱلْمُنكَرِ﴾ ويجوز أن يكون طباقاً معنوياً، وفي قوله: ﴿حَسَنَةٌ﴾ و﴿سَيِّئَةٌ﴾ و﴿تَسُؤْهُمْ﴾ و﴿يَفْرَحُوا۟﴾.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾، و﴿أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾، و﴿بِطَانَةً﴾ و﴿عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، و﴿تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾ و﴿تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ شبه حصولهما بالمس والإصابة، وهو من باب تشبيه المعقول بالمحسوس.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿ظَلَمَهُمُ﴾ و﴿يَظْلِمُونَ﴾.

ومنها: تسمية الشيء باسم محله في قوله: ﴿مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ عبر بها عن الألسنة، لأنها محلها.

ومنها: الحذف في مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰٓۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةًۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢)﴾.

المناسبة

مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه لما نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن اتخاذ بطانة من الأعداء الذين كاشفوهم بالعداوة، ثم أعلمهم ببغضهم إياهم، ثم أمرهم بالصبر والتقوى، وأنهم إذا فعلوا ذلك لا يضرهم كيدهم شيئاً.. ذكرهم في هذه الآيات بوقعة أحد، وما كان فيها من كيد المنافقين، إذ أذاعوا عن المؤمنين من قالة السوء ما أذاعوا، ثم خرجوا معهم، وانشقوا عنهم في الطريق، ورجعوا بثلث الجيش، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول، واتبعه في الانخذال، والرجوع ثلاث مئة رجل من المنافقين، وغيرهم من المؤمنين، ليوقع الفشل بين صفوف المسلمين، ويخذلوهم أمام عدوهم، وما كان من كيد المشركين، وتألبهم عليهم، ولم يكن لذلك من واق إلا الصبر ـ حتى عن الغنيمة التي طمع فيها الرماة فتركوا مواقعهم ـ وإلا تقوى الله ومن أهم دعائمها طاعة الرسول فيما به أمر وعنه نهى، وذكرهم أيضاً بما كان يوم بدر من نصرهم على عدوهم على قلتهم؛ إذ جعلوا الصبر جنتهم، وتقوى الله عدتهم، فأصابوا من

عدوهم ما أصابوا، وكان لهم الفلج والنصر عليهم مما لا يزال مكتوباً في صحيفة الدهر مثلاً خالداً لصدق العزيمة، والبعد عن مطامع هذه الحياة.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا...﴾ الآية، أخرج البخاري رحمه الله تعالى عن جابر رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية فينا ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ بني سلمة من الخزرج، وبني حارثة من الأوس، وما أحب أنها لم تنزل، والله يقول، والله وليهما، وأخرجه مسلم أيضاً.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع من الركعة الأولى من الفجر يقول: «اللهم العن فلاناً، وفلانا بعد ما يقول: سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد، فأنزل الله عز وجل ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أخرجه البخاري.

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كسرت رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ أخرجه مسلم، وأخرجه أيضاً أحمد في مسنده، والترمذي في جامعه. وقد أخرج البخاري، ومسلم، وأحمد، وابن جرير من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: «اللهم العَن فلاناً، وفلاناً لأحياء من العرب حتى أنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾.

استطراد دعت إليه الحاجة

من هذه الآيات إلى ستين آية بعدها، نزلت في غزوة أحد، فوجب ذكر طرف من أخبار هذه الوقعة، ليستعين به القارىء على فهمها، ويعرف مواقع أخبارها ويستيقن من حكمها وأحكامها، ولكن عليك أن تعرف قبل هذا أن قريشاً اغتاظت من هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، وحقدوا على أهلها إيواءهم

للمسلمين، وتهددوهم، فكان لا بد من الاستعداد للدفع وقد صار النبي ﷺ داعية للدين ورئيساً لحكومة المدينة وقائداً لجيشها.

هذا، وقد أدى دفاع المسلمين عن أنفسهم إلى سلسلة من الغزوات؛ بها انتشر الإسلام بسرعة لم تعهد في التاريخ، وقد اشترك النبيُّ ﷺ في تسع منها أشهرها.

وقعة بدر

كانت قريش ترى أن محمداً وأصحابه شرذمة من الثوار يجب أن تقتل، ولا سيما بعد أن صارت لهم القوة في المدينة، وهي على طريق التجارة إلى الشام، فجد المسلمون في مهاجمة قوافل مكة، ونالوا أول انتصارٍ لهم في السنة الثانية من الهجرة في غزوة بدر بئر بين مكة والمدينة كانت لرجل يسمى بدراً، فسميت باسمه، وكانت هذه الوقعة نصراً مؤزراً للمسلمين، وكارثة كبرى على المشركين، وكان لها دوي عظيم في أرجاء البلاد العربية من أقصاها إلى أقصاها.

وقعة أحد

أحدٌ: جبل على نحو ميل من المدينة إلى الشمال. سمي أحداً لتوحده عن الجبال. ولما خذل المشركون في وقعة بدر، ورجع فلُّهم إلى مكة مقهورين أخذ أبو سفيان يؤلب المشركين على رسول الله ﷺ، إذ كان هو الرئيس بعد مقتل من قتل من صناديد قريش، فاجتمعوا للحرب، وكانوا نحو ثلاثة آلاف، فيهم سبع مئة دارع، ومعهم مئتا فرس، وقائدهم: أبو سفيان بن حرب، ومعه زوجه هند بنت عتبة، وكانت جملة النساء اللاتي معهم خمس عشرة امرأة، ومعهن الدفوف يضربن بها، ويبكين على قتلى بدر، ويحرضن المشركين على حرب المسلمين، وساروا من مكة حتى نزلوا مقابل المدينة في شوال سنة ثلاث من الهجرة. وكان رأي رسول الله ﷺ المقام في المدينة، وقتالهم بها، ورأى باقي الصحابة الخروج لقتالهم، فخرج في ألف من الصحابة إلى أن صار بين المدينة وأحدٍ، فانخذل عنه عبد الله بن أبي بن سلول في ثلث الناس ونزل رسولُ الله ﷺ الشعب من أحد،

وجعل ظهره إلى الجبل، وكان عدة أصحاب رسول الله ﷺ سبع مئة فيهم مئة دارع، ولم يكن معهم من الخيل سوى فرسين، وكان لواء رسول الله ﷺ مع مصعب بن عمير، وعلى ميمنة المشركين خالد بن الوليد، وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل، ولواؤهم مع بني عبد الدار. ولما التقى الجمعان قامت هند زوج أبي سفيان، ومعها النسوة يضربن بالدفوف وهي تقول:

وِيْهَا بَنِيْ عَبْدِ ٱلدَّارِ وِيْهَا حُمَاةَ ٱلأَدْبَارِ ضَرْبَاً بِكُلِّ بَتَّارِ

وقاتل حمزة قتالاً شديداً. ولما قتل مصعب بن عمير أعطى النبيُّ ﷺ الراية لعليّ بن أبي طالب. ولما انهزم المشركون طمعت الرماة في الغنيمة، وفارقوا المكان الذي أمرهم النبيُّ ﷺ بملازمته. فأتى خالد بن الوليد مع خيل المشركين من خلف المسلمين، ووقع الصراخ أن محمداً قد قتل، وانكشف المسلمون، وأصاب العدو منهم. وكان يوم البلاء على المسلمين، وكان عدة الشهداء من المسلمين سبعين رجلاً وعدة قتلى المشركين اثنين وعشرين رجلاً. ووصل العدو إلى رسول الله ﷺ وأصابته حجارتهم حتى وقع، وأصيبت رباعيته، وشج في وجهه، وكلمت شفته وجعل الدم يسيل على وجهه وهو يقول: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم». وجعل يدعوهم إلى ربهم فنزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجه رسول الله ﷺ في الشجة، ونزع أبو عبيدة بن الجراح إحدى الحلقتين من وجهه ﷺ فسقطت ثنية من ثنياته، ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى، وامتص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته، وطمع فيه المشركون، وأدركوه يريدون منه ما الله عاصمه منه كما قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ وأصابت طلحة يومئذٍ ضربة شديدة شلت يده منها، وهو يدافع عن رسول الله ﷺ.

ومثلت هند وصواحبها بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ، فجدعن الأنوف، وصلمن الآذان، واتخذن منها قلائد، وبقرت هند عن كبد حمزة ولاكتها ولم تستسغها وضرب أبو سفيان شدق حمزة بزج الرمح، وصعد الجبل، وصرخ

بأعلى صوته الحرب سجال يوم بيوم بدر، أعل هبل ـ صنم في الكعبة ـ أي؛ ظهر دينك.

ولما انصرف أبو سفيان، ومن معه.. نادى إن موعدكم بدر العام القابل. فقال النبي ﷺ: «قولوا له: هو بيننا وبينكم». ثم سار المشركون إلى مكة، وبحث رسول الله ﷺ عن عمه حمزة فوجده مبقور البطن مجدوع الأنف مصلوم الأذن فقال: «لئن أظهرني الله عليهم لأمثلن بثلاثين منهم». ثم أمر أن يسجى عمه ببردته، ثم صلى عليه فكبر سبع تكبيرات، ثم أتي بالقتلى فوضعهم إلى جانب حمزة واحداً بعد واحدٍ حتى صلى عليهم ثنتين وسبعين صلاة، ثم أمر بحمزة فدفن، واحتمل ناس من المسلمين قتلاهم إلى المدينة، فدفنوهم بها ثم نهى رسول الله ﷺ عن ذلك، وقال: «ادفنوهم حيث صرعوا». إذا علمت ما تقدم.. سهل عليك فهم هذه الآيات، وما بعدها مما له صلة بهذه الوقعة الهامة في تاريخ الإسلام، وما فيها من عظة وعبرة للمسلمين، فقد كانت نبراساً لهم في كل حروبهم وأعمالهم في حياة النبي ﷺ وبعده.

إذ علموا أن مخالفة القائد الأعظم لها أسوأ الآثار، وأن كل ما حدث فيها، إنما جر إليه الطمع في الغنيمة وجمع حطام الدنيا، وهو ظل زائل، وعرض مفارق.

التفسير وأوجه القراءة

﴿و﴾ اذكر يا محمد: لأصحابك قصة ﴿إذ غدوت﴾ وخرجت بعد صلاة الجمعة خامس عشر من شوال سنة ثلاثٍ من الهجرة ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾؛ أي: من منزلك الذي فيه أهلك من المدينة، وهو حجرة عائشة إلى أحد ليتذكروا ما وقع لهم في ذلك اليوم من الأحوال الناشئة من عدم الصبر، فيعلموا أنهم لو لزموا الصبر؛ لا يضرهم كيد الكفرة، وعبر عن الخروج بالغدوِّ الذي هو الخروج غدوة مع كونه ﷺ خرج بعد صلاة الجمعة، لأنه قد يعبر بالغدو عن الخروج من غير نظر إلى أصل معناه، كما يقال: أضحى، وإن لم يكن في وقت الضحى، وفي

قوله: ﴿مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ منقبةٌ عظيمةٌ لعائشة رضي الله عنها؛ لأنه تعالى نصَّ على أنها من أهله.

حالة كونك ﴿تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: تقصد أن تبوئهم وتنزلهم وتهيء لهم ﴿مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ﴾؛ أي: أماكن ومراكز ومثابت يثبتون فيها لقتال عدوهم المشركين، مراكز للرماة، ومراكز للفرسان، ومراكز لسائر المؤمنين، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم؛ أي: لما يقول المؤمنون لك فيما شاورتهم فيه من موضع لقائك عدوك وعدوهم، كقول من قال: اخرج بنا إليهم حتى نلقاهم في خارج المدينة، وقول من قال: لا تخرج إليهم وأقم بالمدينة حتى يدخلوها علينا، وسميع لما تشير به أنت عليهم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بأصلح تلك الآراء لك ولهم، وبنية كل قائل، من أخلص منهم في قوله، وإن أخطأ في رأيه كالقائلين بالخروج إليهم، ومن لم يخلص في قوله، وإن كان صواباً كعبد الله بن أبي، وأصحابه من المنافقين.

﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ﴾؛ أي: واذكر يا محمد أيضاً حين همت وقصدت جماعتان منكم أيها المؤمنون بنو حارثة من الأوس وبنو سلمة من الخزرج، وكانا جناحي عسكر رسول الله ﷺ وأدغم السبعة تاء التأنيث في الطاء، وعن قالون خلافٌ في ذلك ﴿أَن تَفۡشَلَا﴾، أي: بأن تضعفا وتجبنا وترجعا عن القتال حين رأوا انخذال عبد الله بن أبي، ومن معه عن رسول الله ﷺ؛ وذلك أنه ﷺ خرج من المدينة مع تسع مئة وخمسين، ووعدهم النصر إن صبروا، فلما بلغوا عند جبل أحد انعزل ابن أبي المنافق، مع ثلاثمائة من أصحابه المنافقين، وقال: يا قوم: لأي شيء نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فتبعهم عمرو بن حزم الأنصاريُّ وأبو جابر السلمي، وقالا: نسألكم بالله في حفظ نبيكم وأنفسكم أي فإنكم إن رجعتم فاتتكم نصرة نبيكم وفاتتكم وقاية أنفسكم من العذاب لتخلفكم عن نبيكم، فقال عبد الله بن أبي: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم، فهم الطائفتان باتباع عبد الله بن أبي، فعصمهم الله، فثبتوا مع رسول الله ﷺ.

وهذا الهم لم يكن عزيمةً ممضاة، ولكنها كانت حديث النفس، وقلما تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع، فإن ساعدها صاحبها ذم، وإن ردها إلى

الثبات والصبر فلا بأس بما فعل، ومما يدل على أن ذلك الهم لم يصل إلى حد العصيان قوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾؛ أي: ولي الطائفتين أي متولي أمورهما، وعاصمهما عن اتباع تلك الخطوة، وحافظهما عنه لصدق إيمانهما، ولذلك صرف الفشل عنهما، وثبتهما فلم يجيبا داعي الضعف الذي ألم بهما عند رجوع المنافقين، وكانوا نحو ثلث العسكر، بل تذكروا ولاية الله للمؤمنين، فوثقا به، وتوكلا عليه.

وقرأ[1] عبد الله ﴿والله وليهم﴾ أعاد الضمير على المعنى، لا على لفظ التثنية كقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾ و﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ﴾ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا على غيره ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾؛ أي: فليعتمدوا عليه وليثقوا به في أمورهم؛ أي: إن المؤمنين ينبغي لهم أن يدفعوا ما يعرض لهم من جزع أو مكروه، بالتوكل على الله لا بحولهم وقوتهم، ولا بأنصارهم وأعوانهم، بعد أخذ الأهبة والعدة تحقيقاً لسنن الله في خلقه إذ جعل الأسباب مفضية إلى المسببات، وهو الخالق للسبب والمسبب، والموجد للصلة بينهما، فبقدرته تعالى ينصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة، كما نصر المؤمنين يوم بدر على قلة منهم في العدد والعُدد والسلاح، وفي سائر عتاد الجيش، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى أيها المؤمنون ﴿بِبَدۡرٖ﴾؛ أي: في وقعة يوم بدر ـ موضعٌ بين مكة والمدينة معروف ـ الذي انبنى فيه الإسلام وظهر، وقتل فيه صناديد قريش، وكان يوم الجمعة السابع عشر من رمضان لثمانية عشر شهراً من الهجرة ﴿وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ﴾؛ أي: والحال أنكم ذليلون ضعفاء بقلة العدد، والعدد، والسلاح، وقلة المال، وضعف الحال، وعدم القدرة على مقاومة العدو، فإن المؤمنين كانوا ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً، وما كان فيهم إلا فرس واحد، والكفار كانوا قريبين من ألف مقاتل، ومعهم مئة فرس مع الأسلحة الكثيرة، والعدة الكاملة، أي: نصركم يوم بدر مع قلتكم وكثرة العدو، ولتعلموا أن النصر من عند الله لا بكثرة العدد والعدد. وأتى بجمع القلة في قوله: ﴿وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ﴾ ليدل على أنهم قليلون في ذواتهم، وعددهم.

---

(١) البحر المحيط.

وخلاصة الكلام: أنكم إن تصبروا وتتقوا.. لا يضركم كيدهم شيئاً، وينصركم ربكم كما نصركم على أعدائكم، وأنتم يومئذٍ في قلة من العدد، وفي غير منعة من الناس حتى أظهركم على عدوكم مع كثرة عددهم، وعظيم منعتهم، فأنتم اليوم أكثر عدداً منكم يومئذٍ، فإن تصبروا لأمر الله ينصركم، كما نصركم في ذلك اليوم، ولا ضير في الذل إذا لم يكن عن قهر من البغاة والظالمين، ولم يكن المؤمنون بمقهورين، ولا بمستذلين من الكفار، وإنما كانت قوتهم أول تكونها.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أيها المؤمنون وخافوه في أمر الحرب بالثبات فيها مع الرسول ﷺ وعدم مخالفة أميركم فيها ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: لكي تشكروا نعمته تعالى عليكم ونصرته لكم على أعدائكم، والمعنى: فاتقوا الله ربكم بطاعته، واجتناب محارمه، لتهيؤوا أنفسكم لشكره على ما منَّ به عليكم من النصر على أعدائكم؛ وإظهار دينكم، ولما هداكم له من الحق الذي ضل عنه مخالفوكم؛ إذ من لم يروض نفسه بالتقوى يغلب عليه الهوى، واتباع الشهوات فلا يرجى منه الشكر لأنعم الله بصرفها فيما خلقت لأجله من الحكم والمنافع.

والظرف في قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بـ﴿نصركم﴾ و﴿الهمزة﴾ في قوله: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ للاستفهام الإنكاري؛ أي: لإنكاره ﷺ عليهم عدم اكتفائهم بذلك المدد من الملائكة. ومعنى الكفاية سد الخلة والقيام بالأمر.

والمعنى: ولقد نصركم الله ببدر في الوقت الذي تقول فيه للمؤمنين تطميناً لقلوبهم، وبشارة لهم: ألن يكفيكم ويغنيكم عن مساعدة الغير ﴿أَن يُمِدَّكُمْ﴾ ويساعدكم ويعينكم ﴿رَبُّكُم﴾ على عدوكم ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ الْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ من السماء لنصركم.

وذلك القول[١] حين أظهروا العجز عن المقاتلة، لما بلغهم أن كرز بن جابر يريد أن يمد المشركين، فشق ذلك على المسلمين، فأنزل الله ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ الخ.

---

(١) جمل.

أخرج[١] ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وغيرهما عن الشعبي، أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر المحاربي يريد أن يمد المشركين، فشق ذلك عليهم، فأنزل الله ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾ إلى قوله: ﴿مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ فبلغته هزيمة المشركين، فلم يمد أصحابه، ولم يمدوا بالخمسة آلاف.

وقرأ[٢] الحسن ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ﴾ يقف على الهاء، وكذلك ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ﴾ قال ابن عطية: ووجه هذه القراءة ضعيفٌ، لأن المضاف والمضاف إليه يقتضيان الاتصال؛ إذ هما كالاسم الواحد. انتهى. والذي يناسب توجيه هذه القراءة الشاذة أنها من إجراء الوصل مجرى الوقف، أبدلها هاءً في الوصل كما أبدلوها هاءً في الوقف.

وقرىء شاذا ﴿بثلاثة آلافٍ﴾ بتسكين التاء في الوصل إجراءً له مجرى الوقف.

وقرأ الجمهور ﴿مُنزَلِينَ﴾ بالتخفيف مبنياً للمفعول، وابن عامر بالتشديد مبنياً للمفعول أيضاً، والهمزة، والتضعيف للتعدية فهما سيان.

وقرأ بن أبي عبلة ﴿منزلين﴾ بتشديد الزاي، وكسرها مبنياً للفاعل، وبعض القراء بتخفيفها، وكسرها مبنياً للفاعل أيضاً، والمعنى ينزلون النصر.

﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجابٌ لما بعد لن، أي: بلى يكفيكم الإمداد بهم. ثم وعدهم بالزيادة بشرط الصبر، والتقوى حثاً لهم عليهما، وتقويةً لقلوبهم فقال: ﴿إِن تَصْبِرُوا۟﴾ مع نبيكم على لقاء العدو، ومناهضتهم، ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ معصية الله، ومخالفة نبيه ﷺ ﴿وَيَأْتُوكُم﴾؛ أي: ويجئكم المشركون ﴿مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾؛ أي: من ساعتهم هذه من جهة مكة ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم﴾؛ أي: ينصركم ربكم على عدوكم في حال إتيانهم من غير تراخٍ، ولا تأخير ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ليعجل نصركم، ويسهل فتحكم ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم بكسر الواو؛ أي: معلِّمين أنفسهم أو خيلهم بعلامات. ورجح ابن جرير هذه القراءة وقال كثير من

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

المفسرين: مرسلين خيلهم في الغارة. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، ونافع ﴿مسومين﴾ بفتح الواو أي: معلمين بالصوف الأبيض في نواصي الدواب، وأذنابها، أو مجذوذة أذنابها، أو مرسلين.

قال ابن جرير[1]: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر عن نبيه محمد ﷺ أنه قال: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ثم وعدهم بعد الثلاثة آلاف بخمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم، واتقوا، ولا دلالة في الآية على أنهم أمدوا بالثلاثة الآلاف، ولا بالخمسة الآلاف، ولا على أنهم لم يمدوا بهم، وقد يجوز أن يكون الله أمدَّهم على نحو ما رواه الذين أثبتوا أنه أمدهم، وقد يجوز أن يكون الله لم يمدهم على نحو الذي ذكره من أنكر ذلك، ولا خبر عندنا صح من الوجه الذي يثبت أنهم أمدوا بالثلاثة الآلاف، ولا بالخمسة الآلاف، وغير جائز أن يقال في ذلك قول إلا بخبر تقوم الحجة به، ولا خبر فنسلم لأحد الفريقين قوله.

غير أن في القرآن دلالةٌ على أنهم قد أمدوا يوم بدر بألفٍ من الملائكة، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.

أما في أحد: فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبين منها في أنهم أمدوا، وذلك أنهم لو أمدوا، لم يهزموا، وينل منهم ما نيل انتهى.

والإمداد بالملائكة يصح أن يكون من قبيل الإمداد بالمال الذي يزيد في قوة القوم، وأن يكون من الإمداد بالأشخاص الذين ينتفع بهم، ولو نفعاً معنوياً، وذلك أن الملائكة أرواح تلابس النفوس، فتمدها بالإلهامات الصالحات التي تثبتها وتقوي عزيمتها.

فإن قلت: أي حاجة إلى ذلك العدد الكثير، فإن جبريل وحده، أو أي ملك كافٍ في قتال الكفار؟

---

(١) طبري.

أجيب: بأن النصر في ذلك ينسب للرسول ﷺ والمؤمنين لقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ فلو هلكوا بشيء مما هلك به الأمم السابقة.. لم يكن في ذلك مزيد فخر للمؤمنين، ولا شفاء لغيظهم لكونه خارجاً عن اختيارهم.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾، أي: ما جعل الله ذلك الإمداد بالملائكة، أو ما جعل[1] الله ذلك القول الذي قاله الرسول لكم ﴿ألن يكفيكم﴾ الآية. ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾؛ أي: إلاّ بشارة لكم أيها المؤمنون لتزدادوا ثباتاً على لقاء العدو أي؛ وما جعل الله ذلك الإمداد إلا ليبشركم به ﴿و﴾ إلا ﴿لتطمئن﴾ وتثبت ﴿قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك الإمداد، وتسكن إليه من الخوف الذي طرقها من كثرة عدد عدوكم، وعظيم استعداده لكم. وفي هذا إشارة إلى أن في ذكر الإمداد فائدتين:

إحداهما: إدخال السرور في القلوب.

والثانية: حصول الطمأنينة ببيان أن معونة الله ونصرته. معهم فلا يجبنوا عن المحاربة مع العدوّ ﴿وما النصر﴾ على الأعداء حاصل من عند أحدٍ غير الله لا من عند الملائكة، ولا من كثرة العدد ﴿إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ أي؛ القوي الذي لا يغالب في أقضيته وأحكامه ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ الذي يعطي النصر لأوليائه، ويبتليهم بجهاد أعدائه، أو الذي يدبر الأمور على خير السنن، وأقوم الوسائل، فيهدي لأسباب النصر الظاهرة، والباطنة من يشاء، ويصرفهما عمن يشاء.

والمراد[2]: أنه يجب توكلكم على الله لا على الملائكة، فيجب على العبد أن لا يتكل على الأسباب فقط، بل يقبل على مسبب الأسباب؛ إذ هو الذي لا يعجز عن إجابة الدعوات، فعليكم ألا تتوقعوا النصر إلا من رحمته، ولا المعونة إلا من فضله وكرمه؛ لأن من لم ينصره الله فهو مخذول، وإن كثرت أنصاره، فإن حصل الإمداد بالملائكة، فليس ذلك إلا جزءاً من أسباب النصر، وهناك أسباب

---

(١) المراغي.

أخرى كإلقاء الرعب في قلوب الأعداء، ومعرفة المواقع، والمكامن كما فعل النبيُّ ﷺ، إذ سلك إلى أحد أقرب الطرق، وأخفاها على العدو، وعسكر في أحسن موضع، وهو الشعب أي: الوادي وجعل ظهره إلى الجبل، وجعل الرماة من ورائهم.

فإن قلت: لم أمد الله المؤمنين يوم بدر بملائكته يثبتون قلوبهم، وحرمهم من ذلك يوم أحد حتى أصاب العدو منهم ما أصاب؟

فالجواب: إن المؤمنين كانوا يوم بدر في قلة وذلةٍ، من الضعف والحاجة؛ فلم يكن لهم إعتمادٌ إلا على الله، وما وهبهم من قوة في أبدانهم ونفوسهم، وما أمرهم به من الثبات، والذكر إذ قال: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ولم يكن في نفوسهم تطلع إلى شيء سوى النصر، وإقامة الدين، والدفاع عن حوزته، وكانت أرواحهم بهذا الإيمان مستعدة لقبول الإلهام من أرواح الملائكة، والتقوي بالاتصال بها.

وروى أحمد ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ كان يدعو يوم بدر «اللهم أنجز ما وعدتني، اللهم أنجز ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة.. فلن تعبد في الأرض أبداً» وما زال يستغيث ربه، ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه فرداه به، ثم التزمه من ورائه ثم قال: يا نبي الله كفاك مناشدتك لربك، فإنه ينجز لك ما وعدك. وأنزل الله يومئذٍ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم﴾ الآية.

أمَّا في يوم أحد: فقد كان بعضهم في أول القتال قريباً من الافتتان بما كان من المنافقين، ومن ثم همت طائفتان منهم أن تفشلا، ولكن الله ثبتهما، وباشروا القتال مع بقية المؤمنين حتى انتصروا، وهزموا المشركين، ثم خرج بعضهم عن التقوى، وخالفوا أمر الرسول ﷺ وطمعوا في الغنيمة، وتنازعوا في الأمر فقتلوا، وضعف استعداد أرواحهم، فلم ترتق إلى الاستمداد من أرواح الملائكة، فلم يكن لهم منهم مدد في ذلك اليوم.

وحكمة ما حصل بهم في ذلك اليوم تمحيص المؤمنين كما سيأتي في قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ﴾ الآية. وتربيتهم بالفعل على إقامة سنن الله تعالى في ارتباط الأسباب بالمسببات، ومعرفة أن هذه السنن حاكمة حتى على الرسول، وأن قتل الرسول أو موته لا ينبغي أن يثبط الهمم، ولا يدعو إلى الانقلاب على الأعقاب، وأن كل ما يصيب العباد من مصائب فهو نتيجة عملهم، وعقوبة طبيعية على أفعالهم.

واللام في قوله: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ متعلقة بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾، أي: وعزتي وجلالي، لقد نصركم الله سبحانه وتعالى، وأعزكم على عدوكم يوم بدر مع قلة عددكم وعددكم بأمداد الملائكة؛ ليقطع، ويهلك طرفاً وجماعة من صناديد الذين كفروا، وأشركوا بالله، ويهدم ركناً من أركان الشرك، يعني مشركي مكة بقتل سبعين منهم، وأسر سبعين آخرين منهم. وعبر بالطرف؛ لأنه أقرب إلى المؤمنين من الوسط، فهو أول ما يوصل إليه من الجيش ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾؛ أي: أو ليكبت، ويذل، ويخزي الطرف الآخر منهم، والجماعة الباقية منهم، ويغيظهم بالهزيمة ﴿فَيَنقَلِبُوا۟﴾، ويرجعوا إلى مكة حال كونهم ﴿خَآئِبِينَ﴾، أي: غير ظافرين بمرادهم من استئصال المؤمنين والظفر لهم.

وقد فعل الله تعالى ذلك بهم في بدر حيث قتل المسلمون من صناديدهم سبعين، وأسروا سبعين، وأعز الله المؤمنين، وأذل الشرك والمشركين.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ بالتاء، وقرأ لاحق بن حميد ﴿أو يكبدهم﴾ بالدال مكان التاء، والمعنى: أو يصيب الحزن كبدهم.

ثم أتى بجملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها؛ لبيان أن الأمر كله بيد الله فقال: ﴿لَيْسَ لَكَ﴾ يا محمد ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾؛ أي: من أمر عبادي وتدبيرهم وحسابهم ﴿شَىْءٌ﴾ بل إنما عليك البلاغ والدعوة لهم إلى توحيدي، والقضاء فيهم بيدي دون غيري، أقضي فيهم، وأحكم بالذي أشاء من التوبة، أو عاجل العذاب

---

(١) المراغي.

بالقتل، والنقم، أو آجله بما أعددت لأهل الكفر من العذاب في الآخرة.

وروى أحمد ومسلم، عن أنس رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد، وشج في وجهه حتى سال الدم على وجهه، فقال: «كيف يفلح قوم فعلوا بنبيهم هذا، وهو يدعوهم إلى ربهم»؟ فأنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية.

قيل: أراد النبيُّ ﷺ أن يدعو عليهم بالاستئصال، فنزلت هذه الآية، وذلك لعلمه أن أكثرهم يسلمون. فمعنى الآية: ليس لك مسألة هلاكهم والدعاء عليهم، لأنه تعالى أعلم بمصالحهم، فربما تاب على من يشاء منهم. وقوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿ليقطع طرفا﴾ وقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ كلامٌ معترض بين المعطوف والمعطوف عليه كما مر آنفاً.

وتقدير الكلام: ولقد نصركم الله أيها المؤمنون في يوم بدر، ليقطع طرفاً من الذين كفروا بالقتل، أو يكبتهم بالهزيمة، أو يتوب عليهم بالإسلام، إن أسلموا ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ على الكفر إن أصروا؛ فإنهم ظالمون، ليس لك من الأمر شيء، بل الأمر أمري في ذلك كله، وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ هو كالتعليل لعذابهم، والمعنى: إنما يعذبهم؛ لأنهم ظالمون أنفسهم بالإصرار على الكفر مستحقون للتعذيب.

قال بعض العلماء[1]: والحكمة في منعه ﷺ من الدعاء عليهم، ولعنهم أن الله تعالى علم من حال بعض الكفار أنه سيسلم فيتوب عليه، أو سيولد من بعضهم ولد يكون مسلماً براً تقياً. فلأجل هذا المعنى منعه الله تعالى من الدعاء عليهم؛ لأن دعوته ﷺ مستجابة، فلو دعا عليهم بالهلاك هلكوا جميعاً، لكن اقتضت حكمة الله، وما سبق في علمه إبقائهم ليتوب على بعضهم، وسيخرج من بعضهم ذرية صالحة مؤمنة، ويهلك بعضهم بالقتل والموت.

وفي هذا الكلام تأديب من الله لرسوله ﷺ وإعلامٌ له بأن الدعاء على

(١) البحر المحيط ج٢ ص ٥٢.

المشركين، ولعنهم مما لم يكن ينبغي منك. إذ الأمر كله لله، وليس لأحد من أهل السموات والأرض شركة معه، ولا رأيٌ ولا تدبير فيهما، وإن كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلاً إلا من سخره الله للقيام بشيء من ذلك؛ فيكون خاضعاً لذلك التسخير لا يستطيع الخروج فيه عن السنن العامة التي قام بها نظام الكون، ونظام الاجتماع.

﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: جميع ما في السموات، وما في الأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ مغفرته بفضله ورحمته ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تعذيبه بعدله وتقديم المغفرة على التعذيب للإعلام بأنَّ رحمته تعالى سبقت غضبه ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن تاب ﴿رَّحِيمٌ﴾ لمن مات على التوبة.

قال ابن جرير[1]: أي لله جميع ما بين أقطار السموات والأرض من مشرق الشمس إلى مغربها، دونك ودونهم، يحكم فيهم بما شاء، ويقضي فيهم بما أحب فيتوب على من شاء من خلقه العاصين أمره ونهيه ثم يغفر له ويعاقب من شاء منهم على جرمه، فينتقم منه، فهو الغفور يستر ذنوب من أحب أن يستر عليه ذنوبه، من خلقه بفضله عليهم بالعفو والصفح، وهو الرحيم بهم في تركه عقوبتهم عاجلاً على عظيم ما يأتون من المآثم انتهى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما[2] نهى الله تعالى المؤمنين عن اتخاذ البطانة من اليهود، وأمثالهم من المشركين، ثم بين لهم أن كيدهم لا يضرهم ما اعتصموا بتقوى الله، وطاعته وطاعة رسوله، ثم ذكرهم بما يدل على صدق ذلك بما حدث لهم حين صدقوا الله ورسوله من الفوز والفلاح في وقعة بدر، وبما حدث لهم حين عصوا الله، وخالفوا أمر القائد، وهو الرسول ﷺ في وقعة أحد، وكيف حل بهم من البلاء ونزلت من المصائب مما لم يكونوا ينتظرون القليل منها.. نهاهم هنا عن شر

(١) الخازن.
(٢) الطبري.

عمل من أعمال اليهود، ومن اقتدى بهم من المشركين، وهو الربا مع بيان أن الربح المتوقع منه ليس هو السبب في السعادة، بل السعادة، إنما تكون في تقوى الله، وامتثال أوامره، وفي ذلك حث على بذل المال في سبيل الله كالدفاع عن الملة، وتنفير من البخل، والشح، والكلب على جمع المال بكل وسيلة مستطاعة، وشر تلك الوسائل أكل الربا أضعافاً مضاعفةً.

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ لا تأخذوا الزيادة على رؤوس أموالكم، وذكر الأكل ليس قيداً بل إنما ذكره لكونه معظم منافعه حالة كون تلك الزيادة أضعافاً مضاعفة، أي؛ زياداتٍ مكررةً عاماً بعد عام بسبب تأخير أجل الدين الذي هو رأس المال، وزيادة المال إلى ضعف ما كان كما كنتم تفعلون في الجاهلية، فإن الإسلام لا يبيح لكم ذلك لما فيه من القسوة واستغلال ضرورة المعوز وحاجته.

وذكر الأضعاف[1] ليس لتقييد النهي لما هو معلوم من تحريم الربا على كل حال، ولكنه جيء به باعتبار ما كانوا عليه من العادة التي يعتادونها في الربا، فإنهم كانوا يربون إلى أجل، فإذا حل الأجل.. زادوا في المال مقداراً يتراضون عليه، ثم يزيدون في أجل الدين، فكانوا يفعلون ذلك مرةً بعد مرةٍ، حتى يأخذ المرابي أضعاف دينه الذي كان له في الابتداء.

قال ابن جرير[2] معنى الآية: لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفةً في إسلامكم بعد إذ هداكم الله كما كنتم تأكلونه في جاهليتكم، وكان أكلهم ذلك في جاهليتهم: أن الرجل منهم يكون له على الرجل مالٌ إلى أجل، فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه فيقول له، الذي عليه المال: أخر دينك عني وأزيدك على مالك فيفعلان ذلك، فذلك هو الربا أضعافاً مضاعفة، فنهاهم الله عز وجل في إسلامهم عنه انتهى.

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

وقال الرازي[1]: كان الرجل في الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم إلى أجل فإذا جاء الأجل، ولم يكن المديون واجداً لذلك المال، قال الدائن: زد في المال حتى أزيد لك في الأجل، فربما جعله مائتين ثم إذا حل الأجل الثاني فعل مثل ذلك ثم إلى آجال كثيرة، فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها فهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ انتهى.

وربا[2] الجاهلية هو ما يسمى في عصرنا: بالربا الفاحش، وهو ربح مركب وهذه الزيادة الفاحشة كانت بعد حلول الأجل، ولا شيءَ منها في العقد الأول، كأن يعطيه المائة بمائة وعشرة أو أكثر، أو أقل، وكأنهم كانوا يكتفون في العقد الأول بالقليل من الربح، فإذا حل الأجل، ولم يقض الدين، وهو في قبضتهم اضطروه إلى قبول التضعيف في مقابلة الإنساء، وهذا هو ربا النسيئة. قال ابن عباس رضي الله عنه إن نص القرآن الحكيم ينصرف إلى ربا النسيئة الذي كان معروفاً عندهم انتهى.

وعلى الجملة فالربا نوعان:

الأول: ربا النسيئة؛ وهو الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية، وهو أن يؤخر دينه، ويزيده في المال، وكلما أخره زاد في المال حتى تصير المائة آلافاً مؤلفة، وفي الغالب لا يفعل مثل ذلك إلا معدمٌ محتاجٌ، فهو يبذل الزيادة ليفتدي من أسر المطالبة، ولا يزال كذلك حتى يعلوه الدين، فيستغرق جميع موجوده، فيربو المال على المحتاج من غير نفع يحصل له، ويزيد مال المرابي من غير نفع يحصل منه لأخيه، فيأكل مال أخيه بالباطل، ويوقعه في المشقة والضرر. فمن رحمة الله، وحكمته وإحسانه إلى خلقه أن حرم الربا، ولعن آكله، ومؤكله، وكاتبه، وشاهده، وآذن من لم يدعه بحربه وحرب رسوله، ولم يجيء مثل هذا الوعيد في كبيرةٍ غيره، ولهذا كان من أكبر الكبائر.

والنوع الثاني: ربا الفضل، كأن يبيع قطعة من الحلي كسوار بأكثر من وزنها

---

(١) الطبري.

(٢) الرازي.

دنانير، أو يبيع كيلة من التمر الجيد بكيلة وحفنةً من التمر الردىء مع تراضي المتبايعين، وحاجة كل منهما إلى ما أخذه، ومثل هذا لا يدخل في نهي القرآن، ولا في وعيده، ولكنه ثبت بالسنة، فقد روى ابن عمر قوله ﷺ: «لا تبيعوا الذهب بالذهب، إلا مثلاً بمثلٍ، ولا تبيعوا الورق بالورق، إلا مثلاً بمثلٍ، سواءً بسواءٍ، ولا تشفوا بعضه على بعض، إني أخشى عليكم الرماء» الربا.

وهذه الآية[1]: هي أولى الآيات نزولاً في تحريم الربا، وآيات البقرة نزلت بعد هذه، بل هي آخر آيات الأحكام نزولاً.

وقد يقول بعض المسلمين الآن: إنا نعيش في عصر ليس فيه دولٌ إسلاميةٌ قوية تقيم أحكام الإسلام، وتستغني عمن يخالفها في أحكامه بل زمام العالم في أيدي أمم ماديةٍ تقبض على الثروة، وبقية الشعوب عيالٌ عليها، فمن جاراها في طرق الكسب ـ والربا من أهم أركانه ـ أمكنه أن يعيش معها، وإلا كان مستعبداً لها. أفلا تقضي ضرورةٌ كهذه على الشعوب الإسلامية التي تتعامل مع الأوربيين كالشعب المصري مثلاً أن تتعامل بالربا كي تحفظ ثروتها؛ وتنميها وحتى لا يستنزف الأجنبي ثروتها، وهي مادة حياتها؟.

وجواباً عن هذا نقول: إن الحرمات في الإسلام ضربان:

١ ـ ضرب محرمٌ لذاته لما فيه من الضرر: ومثل هذا لا يباح إلا لضرورة كأكل الميتة وشرب الخمر، والربا المستعمل الآن هو ربا النسيئة، وهو متفق على تحريمه، فإذا احتاج المسلم إلى الاستقراض، ولم يجد من يقرضه إلا بالربا؛ فالإثم على آخذ الربا دون معطيه؛ لأن له فيه ضرورةً.

٢ ـ وضرب محرم لغيره: وهو ربا الفضل، لأنه ربما كان سبباً في ربا النسيئة، وهو يباح للضرورة والحاجة أيضاً.

والمسلم يبحث عن حاله، هل كان مضطراً إلى الربا أم لا؟. فإن كان

---

(١) المراغي.

مضطراً حلَّ له تناوله، ويكون مثل أكل الميتة، وشرب الخمر ونحوهما، وإلا لم يحلَّ ذلك.

إذ الربا يضر بإيمان المؤمنين، وإن كان زيادةً في مال الرابي؛ فهو في الحقيقة نقصانٌ: لأنَّ الفقراء الذين يأخذ أموالهم بهذا التعامل؛ إذا شاهدوه، يلعنونه ويدعون عليه، وبذلك يسلب الله الخير من يديه عاجلاً أو آجلاً في نفسه وماله، وتتوجه إليه المذمة من الناس لقساوة قلبه وغلظ كبده. وقد ورد في الأثر «إنَّ آخذ الربا لا يقبل منه صدقةٌ، ولا جهادٌ ولا حج ولا صلاة». وقرأ ابن كثير، وابن عامر ﴿أضعافاً مضعَّفة﴾ بتشديد العين بلا ألف قبلها. ثم أكد النهي فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: خافوا عقاب الله أيها المؤمنون فيما نهيتم عنه من أكل الربا، وغيره فلا تأكلوه، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: لكي تنجوا من عذابه وسخطه، وتظفروا بثوابه في الآخرة. لأن الفلاح يتوقف على التقوى، فلو أكل، ولم يتق؛ لم يحصل الفلاح. وفيه دليل على أنَّ أكل الربا من الكبائر، ولهذا أعقبه بقوله: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾؛ أي: واخشوا أيها المؤمنون النار الأخروية التي هيئت للكافرين بالتحرز عن متابعتهم، وتعاطي أفعالهم؛ فلا تستحلُّوا شيئاً مما حرم الله، فإن من استحل شيئاً مما حرم الله.. فهو كافر بالإجماع، ويستحق النار بذلك.

وفيه[1] تنبيه على أن النار بالذات معدة للكفار، وبالعرض للعصاة.

قال أبو حنيفة[2]: هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين، إن لم يتقوه في اجتناب محارمه، وقد أمدَّ ذلك بما أتبعه من تعليق رجاء المؤمنين لرحمته بتوفرهم على طاعته، وطاعة رسوله بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾، وامتثلوه فيما يأمركم به، وينهاكم عنه من أخذ الربا وغيره ﴿و﴾ أطيعوا ﴿الرسول﴾ محمداً ﷺ أيضاً، فإن طاعته طاعة الله. قال محمد ابن إسحاق[3]:

---

(١) المراغي.
(٢) البيضاوي.
(٣) النسفي.

في هذه الآية معاتبة للذين عصوا رسولَ الله ﷺ يوم أحد ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ أي: لكي ترحموا، ولا تعذبوا، إذا أطعتم الله ورسوله فإن طاعة الله مع معصية رسوله ليست بطاعة، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

والمعنى[1]: وأطيعوا الله ورسوله فيما نهيا عنه من أكل الربا، وما أمرا به من الصدقة كي ترحموا في الدنيا بصلاح حال المجتمع، وفي الآخرة بحسن الجزاء على أعمالكم. وقد ورد في الأثر «الراحمون يرحمهم الرحمن» رواه أبو داود، والترمذي.

الإعراب

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف تقديره؛ واذكر يا محمد لأصحابك قصة إذ غدوت. ﴿غَدَوْتَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه ﴿لإذ﴾. ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿غَدَوْتَ﴾ ﴿تُبَوِّئُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ مفعول أول، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿غَدَوْتَ﴾: وهي حال مقدرة أي: قاصداً تبوييء المؤمنين. ﴿مَقَاعِدَ﴾ مفعول ثان. ﴿لِلْقِتَالِ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿مَقَاعِدَ﴾ أو متعلق بـ ﴿تُبَوِّئُ﴾. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ الواو استئنافية. ﴿الله﴾ مبتدأ. ﴿سَمِيعٌ﴾ خبر أول. ﴿عَلِيمٌ﴾ خبر ثان، والجملة مستأنفة.

﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب على الظرفية، والظرف بدل من الظرف قبله، وهو المقصود بالسِّياق. ﴿هَمَّت طَّائِفَتَانِ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿مِنكُمْ﴾ جار ومجرور صفة لـ

---

(١) الخازن.

﴿طَّآئِفَتَانِ﴾. ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿تَفْشَلَا﴾: فعل وفاعل منصوب ﴿بأن﴾ ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بالفشل، والباء متعلق بـ ﴿هَمَّت﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو استئنافية. ﴿الله﴾ مبتدأ. ﴿وَلِيُّهُمَا﴾ خبر، ومضاف إليه، والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب. قال أبو حيان[1]: وهذه الجملة لا موضع لها من الإعراب، بل جاءت مستأنفة لثناء الله على هاتين الطائفتين انتهى.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿على الله﴾ جار ومجرور متعلق، بـ ﴿يتوكل﴾ قدم عليه للاهتمام به. ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ ﴿الفاء﴾ زائدةٌ، زيدت لتوهم معنى الشرط. و﴿اللام﴾ لام الأمر. ﴿يتوكل﴾ مجزوم بلام الأمر. ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فاعل، والجملة مستأنفة. وقال العكبري[2]: دخلت ﴿الفاء﴾ لمعنى الشرط، والمعنى إن فشلوا فتوكلوا أنتم، وإن صعب الأمر فتوكلوا انتهى.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. و﴿اللام﴾ موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، ومفعول، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب. ﴿بِبَدْرٍ﴾ الباء حرف جر بمعنى في ﴿بدر﴾ مجرور بالباء، الجار والمجرور متعلق بـ﴿نصر﴾. ﴿وَأَنتُمْ﴾ الواو حالية. ﴿أنتم﴾ مبتدأ. ﴿أَذِلَّةٌ﴾ خبر، والجملة الاسمية حال من ضمير المخاطبين. ﴿فَٱتَّقُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة تفريعية، لكون ما قبلها علةً لما بعدها. ﴿اتقوا الله﴾ فعل وفاعل، ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿نَصَرَكُمُ﴾ ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ﴿لعل﴾ حرف جر، وتعليل بمعنى ﴿كي﴾. و﴿الكاف﴾ اسمها. وجملة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ خبرها، وجملة ﴿لعل﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة تقديره، فاتقوا الله لشكركم إياه.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان. ﴿تَقُولُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل الجر بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها، والظرف متعلق بـ ﴿نَصَرَكُمُ﴾. ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿تَقُولُ﴾. ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ الخ مقول محكي لـ﴿تَقُولُ﴾ وإن شئت. قلت: الهمزة للاستفهام التقريري. ﴿لن﴾ حرف نفي ونصب. ﴿يَكْفِيَكُمْ﴾ فعل ومفعول به منصوب بـ ﴿لن﴾. ﴿أَن يُمِدَّكُمْ﴾ ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿يُمِدَّكُمْ﴾ فعل مضارع، ومفعول به منصوب ﴿بأن﴾ المصدرية. ﴿رَبُّكُم﴾ فاعل، ومضاف إليه، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية تقديره: ألن يكفيكم إمداد ربكم إياكم، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ ﴿تَقُولُ﴾ ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يُمِدَّكُمْ﴾ ﴿مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة أولى لـ ﴿ثلاثة آلاف﴾ تقديره: كائنات ﴿مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾. ﴿مُنزَلِينَ﴾ صفة ثانية لـ ﴿ثلاثة آلاف﴾.

﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿بَلَىٰٓ﴾ حرف جواب، وهو إيجاب للنفي في قوله: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾. ﴿إِن﴾ حرف شرط. ﴿تَصْبِرُوا۟﴾ فعل وفاعل مجزوم ﴿بإِنْ﴾ على كونه جواب الشرط لها. ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿تَصْبِرُوا۟﴾. ﴿وَيَأْتُوكُم﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿تَصْبِرُوا۟﴾. ﴿مِّن فَوْرِهِمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يأتوكم﴾. ﴿هَٰذَا﴾ صفة لـ ﴿فَوْرِهِمْ﴾ وهو جامد مؤول بمشتق تقديره من وقتهم الحاضر. ﴿يُمْدِدْكُمْ﴾ فعل ومفعول مجزوم ﴿بإِنْ﴾ على كونه جواب الشرط لها. ﴿رَبُّكُم﴾ فاعل ومضاف إليه، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية من فعل شرطها، وجوابها جملةٌ جوابيةٌ لا محلَّ لها من الإعراب. ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يُمْدِدْكُمْ﴾ ﴿خمسة﴾ مضاف. ﴿ءَالَٰفٍ﴾ مضاف إليه. ﴿مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ جار ومجرور صفة أولى لـ ﴿خمسة﴾ ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ صفة ثانية لها.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ

﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾ نافية. ﴿جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ فعل، وفاعل، ومفعول أول. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿بُشْرَىٰ﴾ مفعول ثان لـ ﴿جعل﴾ على أنه بمعنى صير، ويجوز أن يكون مفعولاً له على أن يكون ﴿جعل﴾ متعدياً لواحد، كما ذكره العكبري ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿بُشْرَىٰ﴾ أو متعلق بـ ﴿بُشْرَىٰ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة.

وعبارة[1] «السمين» قوله: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه مفعول لأجله، وهو استثناء مفرغ إذ التقدير، وما جعله لشيء من الأشياء إلا للبشرى، وشروط نصبه موجودةٌ، وهي اتحاد الفاعل والزمان، وكونه مصدراً سيق للعلة.

والثاني: أنه مفعول ثان لجعل على أنه بمعنى صير.

والثالث: أنه بدل من ﴿الهاء﴾ في ﴿جَعَلَهُ﴾ قاله الحوفي، وجعل ﴿الهاء﴾ عائدةً على الوعد بالمدد. انتهى.

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ فيه[2] وجهان:

أحدهما: أنه معطوف على ﴿بُشْرَىٰ﴾ هذا إذا جعلنا مفعولاً لأجله، وإنما جر باللام لاختلال شرط من شروط النصب، وهو عدم اتحاد الفعل، فإن فاعل الجعل هو الله تعالى، وفاعل الاطمئنان القلوب، فلذلك نصب المعطوف عليه لاستكمال الشروط، وجر المعطوف باللام لاختلال شرطه، وقد تقدَّم، والتقديرُ: وما جعله إلا للبشرى وللطمأنينة.

والثاني: أنه متعلق بفعل محذوف تقديره؛ وفعل ذلك الإمداد لتطمئن قلوبكم به. وقال الشيخ: و﴿تطمئنّ﴾ منصوب بإضمار أن بعد لام كي فهو من عطف الاسم على توهم موضع آخر. ثم نقل عن ابن عطية أنه قال: واللام في

---

(١) العكبري. (٢) الجمل.

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ متعلقة بفعل مضمر يدل عليه ﴿جَعَلَهُ﴾ ومعنى الآية وما كان هذا الإمداد إلا لتستبشروا به وتطمئن به قلوبكم. انتهى، «سمين».

وعلى ما قاله ابن عطية: فنقول في إعرابه: ﴿الواو﴾ عاطفة لمحذوف. ﴿لتطمئن﴾ اللام حرف جر وتعليل. ﴿تطمئن﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازا بعد لام كي. ﴿قُلُوبُكُم﴾ فاعل، ومضاف إليه ﴿بِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿تطمئن﴾، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام المتعلقة بفعل محذوف معطوف على جملة قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ تقديره: وما جعله الله إلا لطمأنينة قلوبكم به ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾ نافية. ﴿ٱلنَّصْرُ﴾ مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: وما النصر إلا كائنٌ من عند الله تعالى، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ صفة أولى للجلالة. ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ صفة ثانية له.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿لِيَقْطَعَ﴾ ﴿اللام﴾ لام كي ﴿يقطع﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾. ﴿طَرَفًا﴾ مفعول به، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام الجار والمجرور متعلق بقوله: ﴿ولقد نصركم﴾ تقديره: ولقد نصركم الله ببدر ليقطع طرفٍ. ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿طَرَفًا﴾. ﴿كَفَرُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ معطوف على ﴿لِيَقْطَعَ﴾ وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿الهاء﴾ مفعول به. ﴿فَيَنقَلِبُواْ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. ﴿ينقلبوا﴾ معطوف على ﴿يكبت﴾. و﴿الواو﴾ فاعل. ﴿خَآئِبِينَ﴾ حال من فاعل ﴿ينقلبوا﴾.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

﴿لَيْسَ﴾ فعل ماض ناقص. ﴿لَكَ﴾ خبرها مقدم. و﴿شَىْءٌ﴾ اسمها مؤخر. ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ حال ﴿من شيء﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها فتعرب حالاً منها، وجملة ﴿لَيْسَ﴾ من اسمها وخبرها جملة معترضة لاعتراضها بين المعطوف

والمعطوف عليه. ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ معطوفان على ﴿يقطع﴾ ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ الفاء تعليلية. ﴿إن﴾ حرف نصب. و﴿الهاء﴾ اسمها. ﴿ظَٰلِمُونَ﴾ خبرها، وجملة إنَّ من اسمها وخبرها في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بالفاء التعليلية تقديره: أو لتعذيبهم.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿لله﴾ جار ومجرور خبر مقدم: ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جار ومجرور صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها. ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ الواو عاطفة: ﴿مَا﴾ في محل الرفع معطوفة على ﴿ما﴾ الأولى. ﴿فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ جار ومجرور صلةٌ لما أو صفة لها. ﴿يَغْفِرُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة مستأنفة. ﴿لِمَن﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَغْفِرُ﴾. ﴿يَشَآءُ﴾ صلة لمن، والعائد محذوف تقديره: لمن يشاء غفرانه. ﴿وَيُعَذِّبُ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿يعذب﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَغْفِرُ﴾. ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿يشاء﴾ صلته، والعائد محذوف تقديره: من يشاء تعذيبه. ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو استئنافية. ﴿الله﴾ مبتدأ. ﴿غَفُورٌ﴾ خبر أول. ﴿رَّحِيمٌ﴾ خبر ثان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةًۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾.

﴿يا﴾ حرف نداء. ﴿أيُّ﴾ منادى نكرة مقصودة. و﴿الهاء﴾ حرف تنبيه زائد، زيد تعويضاً عمَّا فات ﴿أيُّ﴾ من الإضافة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل النصب صفة لـ﴿أيُّ﴾ وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿لَا تَأْكُلُوا۟﴾ ﴿لا﴾ ناهية جازمة. ﴿تَأْكُلُوا۟﴾ فعل وفاعل مجزوم بلا الناهية. ﴿ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ مفعول به، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿أَضْعَٰفًا﴾ حال من الربا، ولكن بتأويله بمشتق؛

لأنه مصدر جامد تقديره: حال كونه مضاعفات. ﴿مضاعفة﴾ صفة مؤكدة لـ﴿أضعافا﴾. ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ الواو عاطفة. ﴿اتقوا الله﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا تَأْكُلُواْ﴾. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ لعلَّ حرف نصب وتعليل. و﴿الكاف﴾ اسمها. وجملة ﴿تُفْلِحُونَ﴾ في محل الرفع خبرها، وجملة ﴿لعلَّ﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة تقديره؛ واتقوا الله لأجل قصد فَلاحِكُم.

﴿وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١)﴾.

﴿وَاتَّقُواْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿أتقوا النار﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿الَّتِي﴾ اسم موصول في محل النصب صفة لـ ﴿النَّارَ﴾. ﴿أُعِدَّتْ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على النار. ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أُعِدَّتْ﴾، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير النائب.

﴿وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢)﴾.

﴿وَأَطِيعُواْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿أطيعوا الله﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة ﴿وَالرَّسُولَ﴾: معطوف على الجلالة ﴿لعل﴾ حرف نصب وتعليل. و﴿الكاف﴾ اسمها. وجملة ﴿تُرْحَمُونَ﴾ من الفعل المغير، ونائبه في محل الرفع خبر ﴿لعلَّ﴾، وجملة ﴿لَعَلَّ﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة تقديره، وأطيعوا الله والرسول لطلب رحمتكم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ يقال: غدا الرجل[1] يغدو من باب سما، أي: خرج غدوةً. والغدوة، والغداة ما بين طلوع الفجر، وطلوع الشمس، ويستعمل غدا ناقصاً بمعنى صار عند بعضهم، فيرفع الاسم وينصب الخبر، وعليه قوله عليه الصلاة والسلام: «لو توكلتم على الله حق توكله.. لرزقكم كما يرزق الطير، تغدوا خماصاً وتروح بطاناً».

---

(١) الجمل.

وهذا المعنى الثاني: ممكن هنا، فالمعنى عليه، وإذ غدوت؛ أي صرت تبوىء المؤمنين؛ أي: تنزلهم في منازل، وهذا أظهر من المعنى الآخر، لأنَّ المذكور في القصة أنه سار من أهله بعد صلاة الجمعة، وبات في شعب أحد، وأصبح ينزل أصحابه في منازل القتال، ويدبرهم أمر الحرب.

﴿تُبَوِّئُ﴾؛ أي: تهيء وتبوىء وتنزل مضارع بوأ من باب فعل المضاعف، وأصله من المباءة، وهي المرجع، فالمباءة مكان البوء، والبوء الرجوع، وهو هنا المقرُّ؛ لأنه يبوءُ إليه صاحبه. ويقال: بوأته منزلاً، وبوأت له منزلاً؛ أي؛ أنزله فيه فأصل التبوَّؤ اتخاذ المنزل.

﴿مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِۗ﴾ جمع مقعد؛ وهو مكان القعود، والمراد: المراكز، والمواطن، والمواقف، وعبر عنها بالمقاعد، إشارةً إلى طلب ثبوتهم فيها، وإن كانوا وقوفاً كثبوت القاعد في مكانه.

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ﴾ يقال: هممت بكذا، أهم به، بضم الهاء من باب: رد إذا قصده، وأراد فعله، فالهم حديث النفس، وتوجهها إلى الشيء بلا عزم عليه.

وقال أبو حيان: وأوَّل ما يمر الشيء على القلب يسمى خاطراً، فإذا تردد صار حديث نفسٍ فإذا ترجح فعله صار همًّا، فإذا قوى وأشتد صار عزماً، فإذا قوى العزم واشتدَّ حصل الفعل أو القول.

﴿أَن تَفْشَلَا﴾ يقال فشل يفشل فشلا من باب فرح إذا ضعف وجبن عن الحرب، وقال بعضهم: الفشل في البدن الإعياء وعدم النهوض وفي الحرب الجبن والخور، وفي الرأي العجز والفساد، والفعل منه فشل بكسر العين من باب تعب وتفاشل الماء إذا سال.

﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ التوكل تفعل من وكل فلان أمره إلى فلان إذا فوضه إليه، واعتمد عليه في كفايته، ولم يتوله بنفسه. وقال ابن فارس[1]: التوكل: إظهار

---

(١) البحر المحيط.

العجز، والاعتماد على غيرك، يقال: فلان وكلةٌ أي: عاجزٌ يكل أمره إلى غيره، وقيل: هو من الوكالة، وهو تفويض الأمر إلى غيره ثقةً بحسن تدبيره. ﴿بدر﴾ علم لموضع بين مكة والمدينة، سمي باسم صاحبه بدر بن كلدة، وقيل: غير ذلك ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ جمع ذليل كرغيف، وأرغفة كما قال ابن مالك:

فِـيْ ٱسْـمٍ مُـذَكَّـرٍ رُبَـاعِـيٍّ بِـمَـدّ ثَـالِـثٍ ٱفْـعِـلَـةُ عَـنْـهُـمُ ٱطَّـرَدْ

والذليل هو من لا منعة له ولا قوة وقد كانوا قليلي العدة من السلاح والدواب والزاد.

﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ من الكفاية، وهي سد الحاجة، وفوقها الغنى ﴿أَن يُمِدَّكُمْ﴾ من أمد الرباعي، والإمداد إعطاء الشيء حالاً بعد حال ﴿بَلَىٰٓ﴾ حرف جواب كنعم لكنها لا تقع إلا بعد النفي، وتفيد إثبات ما بعده ﴿مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾؛ أي: من ساعتهم هذه بلا إبطاء ولا تراخٍ، فالفور الحال التي لا بطء فيها، ولا تراخي وأصله[1] من فارت القدر إذا اشتدَّ غليانها، وبادر ما فيها إلى الخروج، ويقال: فار غضبه إذا جاش وتحرك، وتقول: خرج من فوره أي، من ساعته لم يلبث.

﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ﴾ الخمسة مرتبة من العدد معروفةٌ، ويشتق منها الفعل، يقال: خمست الأربعة، إذا صيرتهم في خمسة ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ بكسر[2] الواو من قولهم، سومَّ على القوم إذا أغار عليهم، ففتك بهم، وقيل: من التسويم بمعنى إظهار سيما الشي وعلامته، أي؛ معلمين أنفسهم وخيلهم.

﴿بُشْرَىٰ﴾ اسم مصدر على فعلى لبشر المضاعف كالرجعى بمعنى البشارة، والبشارة إذا أطلقت لا تكون إلا بالخير، وإنما تكون بالشر إذا قيدت به كقوله تعالى: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾.

﴿طَرَفًا﴾ والطرف جانب الشيء الأخير ثم يستعمل للقطعة من الشيء وإن لم يكن جانباً أخيراً، والمعنى هنا أي: طائفةً وقطعةً منهم ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ الكبت:

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

الهزيمة والإهلاك، وقد يأتي بمعنى الغيظ، والإذلال، أو الوهن، الذي يقع في القلب ﴿خَآئِبِينَ﴾ اسم فاعل من خاب خيبة كهاب هيبة، والخيبة عدم الظفر بالمطلوب.

البلاغة

قال أبو حيان[1]: وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من الفصاحة والبلاغة:

فمنها: إطلاق العام وإرادة الخاص في قوله: ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ فإن الجمهور قالوا: أراد به بيت عائشة.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. وفي قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ و﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ و﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ خص نفسه بذلك كقوله: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ فأشبه من قتل، وتفرق بالشيء المقتطع الذي تفرقت أجزاؤه، وانخرم نظامه، وفي قوله: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم﴾ شبه زوال الخوف عن القلب وسكونه عن غليانه باطمئنان الرجل الساكن الحركة، وفي قوله: ﴿فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ﴾ شبه رجوعهم بلا ظفر، ولا غنيمة بمن أمل خيراً من رجل فأمه فأخفق أمله وقصده.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ لأن النصر إعزازٌ، وهو ضد الذل، وفي قوله: ﴿يَغْفِرُ﴾ و﴿يُعَذِّبُ﴾ لأن الغفران ترك المؤاخذة، والتعذيب المؤاخذة بالذنب.

ومنها: التجوز بإطلاق التثنية على الجمع في قوله: ﴿أَن تَفْشَلَا﴾، وبإقامة اللام مقام إلى في قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ﴾؛ أي: إليك أو مقام على أي؛ ليس عليك.

ومنها: الاعتراض والحذف في مواضع اقتضت ذلك.

---

(١) البحر المحيط.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾.

ومنها: تسمية الشيء بما يؤول إليه في قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا﴾ سمي الأخذ أكلاً لأنه يؤول إليه فهو مجاز مرسل علاقته اعتبار ما يكون. انتهى.

وجملة قوله[1]: وما النصر إلا من عند الله تذييلٌ، أي: كل نصر هو من الله لا من الملائكة. وإجراء وصفي العزيز الحكيم هنا، لأنهما أولى بالذكر في هذا المقام، لأن العزيز ينصر من يريد نصره، والحكيم يعلم من يستحق نصره كيف يعطاه.

﴿طَرَفًا﴾ والطرف بالتحريك يجوز أن يكون بمعنى الناحية، ويخص بالناحية التي هي منتهى المكان كما في قول أبي تمام:

كَانَتْ هِيَ ٱلْوَسَطُ ٱلْمَحْمِيُّ فَٱتَّصَلَتْ   بِهَا ٱلْحَوَادِثُ حَتَّىٰ أَصْبَحَتْ طَرَفَاً

فيكون استعارةً لطائفة من المشركين كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾. ويجوز أن يكون بمعنى الجزء المتطرّف من الجسد كاليدين، والرجلين، والرأس، فيكون هنا مستعاراً لأشراف المشركين وتنوين ﴿طَرَفًا﴾ للتفخيم.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) التحرير والتنوير في علم التفسير.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

المناسبة

لما حث الله تعالى المؤمنين على الصبر والتقوى، ونبهم على إمداد الله لهم بالملائكة في غزوة بدر، أردفه بالأمر بالمسارعة إلى نيل رضوان الله، ثم ذكر بالتفصيل غزوة أحد، وما نال المؤمنين فيها من الهزيمة بعد النصر بسبب مخالفة أمر الرسول ﷺ، ثم بين أن الابتلاء، سنة الحياة، وأن قتل الأنبياء لا ينبغي أن

يدخل الوهن في قلوب المؤمنين، ثم توالت الآيات الكريمة في بيان الوقائع والعبر من غزوة أحد.

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ...﴾ مناسبتها لما قبلها: أنه لما ذكر في الآيات السابقة قصة أحد، وأهم أحداثها، ثم ذكرهم بوقعة بدر، وما كتب لهم فيها من النصر على قلة عددهم، وعددهم ذكرهم هنا بسنن الله في خليقته، وأن من سار على نهجها أدى به ذلك إلى السعادة، ومن حاد عنها ضل وكانت عاقبته الشقاء والبوار، وأن الحق لا بد أن ينصر على الباطل مهما كانت له أول الأمر من صولةٍ، كما وعد الله بذلك على ألسنة رسله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾. وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها أنه سبحانه وتعالى لما أرشدهم في الآيات السابقة إلى أنه لا ينبغي لهم أن يحزنوا، أو يضعفوا، وأن ما أصابهم من المحنة والبلاء جار على سنن الله في خليقته من مداولة الأيام بين الناس، وفيه تمحيص له الحق؛ فإن الشدائد محك الأخلاق. وفيه هديٌ وإرشادٌ وتسليةٌ للمؤمنين حتى يتربوا على الصفات التي ينالون بها الفوز والظفر في جميع أعمالهم.

بين لهم هنا أن سبيل السعادة في الآخرة منوط بالصبر والجهاد في سبيل الله؛ كما أن طريق السعادة في الدنيا يكون بإقامة الحق، وسلوك طريق الإنصاف، والعدل بين الناس، فسنة الله هنا كسنته هناك.

أسباب النزول

قوله تعالى[1]: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما

(١) لباب النقول.

أخرجه ابن أبي حاتم من طريق العوفي، عن ابن عباس أنَّ رجالاً من الصحابة كانوا يقولون: ليتنا نقتل كما قتل أصحاب بدر، أو ليت لنا يوماً كيوم بدر نقاتل فيه المشركين، فنفوز فيه بالشهادة والجنة، أو الحياة والرزق، فأشدهم الله أحداً، فلم يلبثوا إلا من شاء الله منهم فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ. . .﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ. . .﴾ الآية، أخرج ابن المنذر عن عمر قال: تفرقنا عن رسول الله ﷺ يوم أحد فصعدتُ الجبلَ، فسمعتُ يهود تقول: قتل محمد فقلت: لا أسمع أحداً يقول: قتل محمد إلا ضربت عنقه، فنظرت فإذا رسول الله ﷺ والناس يتراجعون، فنزلت: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ. . .﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع قال: لما أصابهم يوم أحدٍ ما أصابهم من القرح، وتداعوا نبيَّ الله قالوا: قد قتل فقال أناسٌ: لو كان نبياً ما قتل، وقال أناس: قاتلوا على ما قاتل عليه نبيكم حتى يفتح الله عليكم، أو تلحقوا به، فأنزل الله ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ. . .﴾ الآية.

وأخرج البيهقي في «الدلائل» عن ابن أبي نجيح أن رجلاً من المهاجرين مر على رجل من الأنصار، وهو يتشحط في دمه فقال: أشعرت أن محمداً قد قتل؟ فقال: إن كان محمدٌ قد قتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم فنزلت.

وأخرج ابن راهويه في مسنده عن الزهري، أن الشيطان صاح يوم أحد: إنَّ محمداً قد قتل، قال كعب ابن مالك: أنا أول من عرف رسولَ الله ﷺ رأيت عينيه من تحت المغفر، فناديت بأعلى صوتي هذا رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ. . .﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَسَارِعُوٓا۟﴾ قرأ الجمهور بالواو عطفاً تفسيرياً على وأطيعوا الله كمصاحفهم، فإنها ثابتة في مصاحف مكة والعراق، ومصحف عثمان. وقرأ ابن عامر، ونافع، وأبو جعفر ﴿سارعوا﴾ بدون واو كرسم المصحف الشامي، والمدني، على الاستئناف، كأنه قيل: كيف نطيعهما؟ فقيل: سارعوا إلى ما يوجب المغفرة، وهو

الطاعة بالإسلام، والتوبة والإخلاص، وأمال الدوري في قراءة الكسائي ﴿وسَارِعُوا﴾ لكسرةِ الراء.

وقرأ أُبيٌّ وعبدُ الله ﴿وسابقوا﴾ وهي شاذَّةٌ.

أي: وسابقوا وبادروا ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾؛ أي: إلى ما يوجب[1] المغفرة من ربكم، وهي الأعمال الصالحة المأمور بفعلها. قال ابن عباس رضي الله عنهما إلى الإسلام، ووجهه أنَّ الله تعالى ذكر المغفرة على سبيل التنكير، والمراد منه المغفرة العظيمة، وذلك لا يحصل إلا بسبب الإسلام؛ لأنه يَجُبُّ ما قبله. وعن ابن عباس أيضاً إلى التوبة من الرّبا والذنوب؛ لأنَّ التوبة من الذنوب توجب المغفرة. وقال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه: إلى أداء الفرائض لأنَّ اللفظ مطلق فيعم الكل.

وروي عن أنس بن مالك، وسعيد بن جبير، أنها التكبيرة الأولى يعني تكبيرة الإحرام، وقيل: إلى الإخلاص في الأعمال، كما قاله عثمان بن عفان؛ لأنَّ المقصود من جميع العبادات هو الإخلاص. وقيل: إلى الهجرة، وقيل: إلى الجهاد، كما قاله الضحاك، ومحمد بن إسحاق. وينبغي[2]: أن تحمل هذه الأقوال على التمثيل، لا على التعيين والحصر. ﴿وَجَنَّةٍ﴾؛ أي: وسارعوا إلى جنة موصوفة بما سيأتي، وأنما فصل بين المغفرة والجنة؛ لأن معنى المغفرة إزالة العقاب، ومعنى الجنة إيصال الثواب، فلا بد للمكلف من تحصيل الأمرين فجمع بينهما للإشعار؛ بأنه لا بدَّ من المسارعة إلى التوبة الموجبة للمغفرة، وذلك بترك المنهيات، ومن المسارعة إلى الأعمال الصالحة المؤدية إلى الجنة.

﴿عَرۡضُهَا﴾؛ أي: عرض تلك الجنة وسعتها ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾؛ أي: كعرض السموات السبع والأرضين السبع وسعتهما، بمعنى لو جعلت السموات والأرض طبقاً طبقاً، ووصلت تلك الطبقات بعضها ببعض كالثياب، وجعلت طبقاً

---

(١) الخازن. (٢) البحر المحيط.

واحداً. . لكان ذلك مثل عرض الجنة، وهذا غايةٌ في السعة، فإذا كان عرضها كذلك فكيف بطولها؛ لأن الغالب أنَّ الطول يكون أكثر من العرض. وإنما مثل عرض الجنة بعرض السموات والأرض؛ لأنهما أوسع مخلوقات الله تعالى فيما يعلمه الناس. وإنما جمعت السموات وأفردت الأرض؛ لأن السموات أنواع قيل: بعضها فضة وبعضها غير ذلك، والأرض نوع واحد.

وقال أبو مسلم[1]: إن العرض هنا ما يعرض من الثمن في مقابلة المبيع؛ أي: ثمنها، لو بيعت كثمن السموات والأرض، والمراد بذلك عظم مقدارها وجلالة خطرها، وإنه لا يساويها شيء وإن عظم ﴿أُعِدَّتْ﴾؛ أي: هيئت تلك الجنة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الشرك، والمعاصي بامتثال المأمورات، واجتناب المنهيات. وفي الآية دليلٌ على أنَّ الجنة مخلوقةٌ الآن، وأنها خارجةٌ عن هذا العالم؛ إذ أنها تدل على أن الجنة أعظم، فلا يمكن أن يكون محيطاً بها.

ويدل على[2] ذلك حديث رؤيا النبي ﷺ؛ وهو الحديث الطويل الذي فيه قوله ﷺ إن جبريل وميكائيل قالا له: «ارفع رأسك فرفع، فإذا فوقه مثل السحاب، قالا: هذا منزلك قال: فقلت دعاني أدخل منزلي قالا: إنه بقي لك عمرٌ لم تستكمله، فلو استكملت. . أتيت منزلك».

والأدلة الدالة على أنها مخلوقةٌ من الكتاب والسنة كثيرةٌ شائعة خلافاً للمعتزلة.

وخلاصة[3] المعنى: أي وبادروا إلى العمل لما يوصلكم إلى مغفرة ربكم، ويدخلكم جنةً واسعة المدى، أعدها الله تعالى لمن اتقاه، امتثل أوامره، وترك نواهيه فاعملوا الخيرات، وتوبوا عن المعاصي والآثام كالربا مثلاً، وتصدقوا على ذوي البؤس والفاقة.

---

(١) المراغي.

(٢) التحرير والتنوير في علم التفسير.

(٣) المراغي.

رُويَ أنَّ رسول هرقل ملك الروم، قدم على النبي ﷺ بكتاب هرقل، وفيه أنك كتبت تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار؟ فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله، فأين الليل إذا جاء النهار»، يريد أنه إذا دار الفلك حصل النهار في جانب من العالم، والليل في ضد ذلك الجانب، فكذا الجنة في جهة العلو، والنار في جهة السفل.

ثم وصف الله تعالى المتقين بجملة أوصافٍ كلها مناقب ومفاخر، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ ويصرفون أموالهم في مصارف الخير ﴿فِي﴾ حالة ﴿ٱلسَّرَّآءِ﴾ والغنى، والسعة، والفرح، والرخاء ﴿و﴾ في حالة ﴿الضراء﴾ والفقر، والضيق، والحزن، والشدة، فينفقون في كل حال بحسبها، ولا يتركون الإنفاق في كلتا الحالتين لا في حال غنى وفقر، ولا في حال حزن وسرور، ولا في رخاءٍ وشدةٍ، ولا محنةٍ وبلاء، وسواء كان الواحد منهم في عرس أو حبس، فإنهم لا يدعون الإحسان إلى الناس في جميع الأحوال. وأثر عن عائشة رضي الله عنها أنها تصدقت بحبة عنب وأثر عن بعض السلف أنه تصدق ببصلة. وفي الحديث: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، وردوا السائل ولو بظلف محرق».

وإنما بدأ الله سبحانه وتعالى وصف المتقين بالإنفاق لأمرين:

الأول: أنه جاء في مقابلة الربا الذي نهى عنه في الآية السابقة؛ إذ أن الصدقة إعانة للمعوز المحتاج، وإطعام له ما لا يستحقه، والربا استغلال الغني حاجة ذلك المعوز لأكل أمواله بلا مقابل فهي ضده. ومن ثم لم يرد في القرآن ذكر الربا إلاّ ذم وقبح، ومدحت معه الزكاة والصدقة كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ وقوله: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

والأمر الثاني: أنَّ الإنفاق في حالي، اليسر والعسر أدل على التقوى، لأن المال عزيز على النفس، فبذله في طرق الخير والمنافع العامة التي ترضى الله يشق عليها أما في السراء؛ فلما يحدثه في السرور والغنى من البطر والطغيان وشدة الطمع، وبعد الأمل، وأما في الضراء؛ فلأن الإنسان يرى أنه أجدر أن يأخذ لا

أن يعطي، ولكنه مع هذه الحال لا يعدم وقتاً يجد فيه ما ينفقه في سبيل الله، ولو قليلاً. وحب الخير هو الذي يحرك في الإنسان داعية البذل لإنفاق هذا العفو القليل، فإن لم توجد تلك الداعية بحسب الفطرة فالدين ينميها، ويقويها، إذ هو قد جاء لتعديل الأمزجة المعتلة وإصلاح الفطر المعوجة.

وقد أرشدنا هذا الدين إلى أن النفوس يجب أن تكون كريمةً في ذاتها مهما ألح عليها الفقر، وأن تتعود الإحسان بقدر الطاقة لتسمو عن الرذائل التي قد تجرها إليها الحاجة، فتبعد بقدر الإمكان عن ذل السؤال، ومد الأيدي إلى الناس لطلب الإحسان، وإراقة ماء الوجه أمام بيوت الأغنياء، لما في ذلك من الذلة والصغار، وهي ما لا يرضاها مؤمن لنفسه يعتقد أن الأرزاق في قبضة الله، وهو الذي يعطي ويمنع، وقد جعل لكسب المال أوجهاً كثيرة يستطيع المرء أن يسعى إليها ليحصل عليه.

وقد وردت أحاديث كثيرة في الحض على اكتساب المال من كل طريق حلال، والبعد عن ذل السؤال. إلا أن بذل القليل من الأفراد والجماعات إذا اجتمع صار كثيراً، ومن ثم كانت الأمم الراقية تقيم مشروعاتها النافعة للأمة في الزراعة، والصناعة، أو في بناء الملاجىء والمستشفيات بالتبرعات القليلة التي تؤخذ من أفرادها، وبذا تقدمت في سائر فنون المدنية، والحضارة. ولذا حث الله تعالى على بذل الخير ولو قليلاً بقوله: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

ومن هذا ترى: أنَّ الله جعل من أهم علامات التقوى بذل المال؛ كما أن الشحَّ به علامة عدم التقوى. والتقوى: هي السبيل الموصل إلى الجنة. فانظر إلى أهل الثراء الذين يقبضون أيديهم عن بذل المعونة للأفراد، والجماعات، ويكنزون في صناديقهم القناطير المقنطرة من الذهب والفضة هل تغنيهم صلاتهم وصومهم شيئاً مع هذا الشح البادي على ووجههم؟!. فما هي إلاّ حركات وأعمال مرنوا عليها دون أن يكون لها الأثر الناجع في نفوسهم إذ الصلاة التي يقبلها الله، والصوم الذي يرضاه الله هو ما ينهى عن الفحشاء والمنكر، وأيُّ منكر أشد من

الضن بالمال حين الحاجة إليه لنفع أمة أوفرد؟.

ولو جاد المسلمون بأموالهم عند الحاجة إلى البذل؛ لكان لنا شأن آخر بين أرباب الديانات الأخرى، ولكنا من ذوي العزة والمكانة بينها.

ولكنا صرنا إلى ما ترى عسى الله أن يغير من نفوس المسلمين، ويرشدهم إلى ما فيه صلاحهم باتباع أوامر كتابهم، واجتناب نواهيه التي ابتلوا بها من جهة الأوروبيين من الملاهي العصرية، والملاعب الفاضية، من المنافع الحربية التي ينفقون فيها أموالاً كثيرةً، وملايين عديدةً تشبهاً باليهود والنصارى، فإنا لله وإنّا إليه راجعون.

فصل في ذكر بعض الأحاديث الواردة في الحث على الإنفاق

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جنتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق: فلا ينفق إلا سبغت أو وفت على جلده حتى تخفى ثيابه، وتعفو أثره، وأما البخيل: فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقةٍ مكانها؛ فهو يوسعها فلا تتسع». «الجنة الدرع من الحديد متفق عليه.

وعن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «السخي قريبٌ من الله، قريبٌ من الناس، قريبٌ من الجنة بعيد من النار، والبخيل بعيدٌ من الله، بعيدٌ من الناس، بعيدٌ من الجنة، قريب من النار، ولجاهلٌ سخيٌّ أحبُّ إلى الله تعالى من عابدٍ بخيل» أخرجه الترمذي.

وعنه أيضاً رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلاّ وملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً». متفق عليه.

وعنه أيضاً رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من أنفق زوجين في سبيل الله تعالى دعاه خزنة الجنة كل خزنة باب، أي فل: هلم، فقال أبو بكر رضي الله: عنه يا رسول الله، ذاك الذي لا توى عليه، قال رسول الله ﷺ: «إني

لأرجو أن تكون منهم». متفق عليه. قوله: أي فل: يعني يا فلان، وليس بترخيم والتوى الهلاك: يعني ذاك الذي لا هلاك عليه.

وعنه أيضاً رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «قال الله تبارك وتعالى: أنفق ينفق عليك». متفق عليه.

﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ﴾؛ أي: الجارعين ﴿ٱلْغَيْظَ﴾ والغضب عند امتلاء نفوسهم منه، والممسكين ما في أنفسهم من الغيظ بالصبر، والكافين لها عن الانتقام مع القدرة عليه، ولا يظهرون أثره. والكظم حبس الشيء عند امتلائه، وكظم الغيظ: هو أن يمتلىء غيظاً فيرده في جوفه، ولا يظهره بقولٍ ولا فعلٍ، ويصبر عليه ويسكن عنه.

ومعنى الآية[1]: أنهم يكفون غيظهم عن الإمضاء، ويردون غيظهم في أجوافهم، وهذا الوصف من أقسام الصبر والحلم كما في آية أخرى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾.

ومن أجاب داعي الغيظ وتوجه بعزيمةٍ إلى الانتقام لا يقف عند حد الاعتدال، ولا يكتفي بالحق بل يتجاوزه إلى البغي، ومن ثم كان من التقوى كظمه.

وروي عن عائشة رضي الله عنها أن خادماً لها غاظها فقالت: لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شفاءً، وقال ﷺ: «ما من جرعتين أحب إلى الله من جرعة موجعة يجرعها صاحبها بصبر وحسن عزاءٍ، ومن جرعة غيظٍ كظمها».

وعن سهل بن معاذ عن أنس الجهني عن أبيه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء». أخرجه الترمذي، وأبو داود.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الشديد

---

(١) الخازن.

بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب». متفق عليه.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً، وإيماناً» وقال[1] مقاتلٌ بلغنا أنَّ رسول الله ﷺ قال في هذه الآية: «إنَّ هذه في أمتي لقليل، وقد كانوا أكثر في الأمم الماضية». وأنشد أبو القاسم بن حبيب:

وَإِذَا غَضِبْتَ فَكُنْ وَقُوراً كَاظِماً لِلْغَيْظِ تُبْصِرُ مَا تَقُوْلُ وَتَسْمَعُ
فَكَفَىٰ بِهِ شَرَفاً تَصَبُّرُ سَاعَةٍ يَرْضَىٰ بِهَا عَنْكَ ٱلإِلَـٰهُ وَيَدْفَعُ

﴿وَٱلْعَافِينَ﴾؛ أي: التاركين المسامحين الإساءة والمظالم ﴿عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ الجناة والمسيئين عليهم؛ أي: الذين يتجاوزون عن ذنوب الناس، ويتركون عقوبة من استحقوا مؤاخذته مع القدرة عليه، وتلك منزلة من ضبط نفسه وملك زمامها قل من يصل إليها، وهي أرقى من كظم الغيظ إذ ربما كظم المرء غيظه على الحقد والضغينة. وأخرج الطبراني عن أبيٍّ بن كعب أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «من سره أن يشرف له البنيان، وترفع له الدرجات، فليعف عمن ظلمه، ويعط من حرمه، ويصل من قطعه».

وفي الآية: إيماءٌ إلى حسن موقع عفوه ﷺ عن الرماة وترك مؤاخذتهم بما فعلوا من مخالفة أمره، وإرشادٌ له إلى ترك ما عزم عليه من مجازاة المشركين بما فعلوه بحمزة رضي الله عنه حتى قال حين رآه: «قد مثل به لأمثلن بسبعين منهم».

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُحِبُّ﴾ ويثيب ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالإخلاص، والأعمال الصالحة، وبالإحسان إلى غيرهم على إحسانهم، ومحبة الله للعبد أعظم درجات الثواب.

أي: والله سبحانه وتعالى يحب الذين يتفضلون على عباده البائسين، ويواسونهم ببعض ما أنعم الله به عليهم شكراً له على جزيل نعمائه.

---

(١) البحر المحيط.

أخرج البيهقي: أنَّ جاريةً لعليِّ بن الحسين رضي الله عنهما جعلت تسكب عليه الماء ليتهيأ للصلاة فسقط الإبريق من يدها، فشجه، فرفع رأسه فقالت: إن الله يقول: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ فقال لها: قد كظمت غيظي قالت: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ قال: قد عفا الله عنك، قالت: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال: اذهبي فأنت حرة لوجه الله تعالى.

واعلم: أن الإحسان إلى الغير إما بإيصال النفع إليه، وهو الذي عناه الله بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ فيدخل فيه إنفاق العلم بأن يشتغل بتعليم الجاهلين، وهداية الضالين، ويدخل فيه إنفاق المال في وجوه الخيرات والعبادات.

وإما بدفع الضرر عنه، فهو إما في الدنيا بأن لا يقابل الإساءة بإساءة أخرى، وهو ما عناه الله بقوله: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ وإما في الآخرة بأن يعفو عما له عند الناس من التبعات، والحقوق، وهذا هو المراد بقوله: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ ومن ثم كانت هذه الآية جامعة لوجوه الإحسان إلى الغير.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ هذا[1] مبتدأٌ خبره ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وقيل: معطوف على ﴿المتقين﴾ والأول أولى، وهؤلاء هم صنف دون الصنف الأول، ملحقون بهم، وهم التوابون. أي: والذين إذا فعلوا وارتبكوا فاحشةً أي: ذنباً قبيحاً، وهو ما يتعدى أثره إلى الغير كالغيبة ونحوها ﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي: ارتكبوا ذنباً يكون مقصوراً عليهم، كشرب الخمر ونحوه، وقيل: المراد بالفاحشة الكبائر وبالظلم الصغائر.

وقال ابن عباس[2]: الفاحشة الزنا، وظلم النفس ما دونه من النظر واللمسة. ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: ذكروا وعده ووعيده، وأمره ونهيه، بألسنتهم وعظمته وجلاله وعقابه بقلوبهم ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: فرجعوا إليه تعالى طالبين مغفرته راجين رحمته علماً منهم أنه لا يغفر الذنوب إلا هو، فهو الفعال

---

(١) الشوكاني. (٢) البحر المحيط.

لما يشاء بمقتضى حكمته وعلمه الواسع. وقوله: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ جملةٌ معترضة بين ماقبلها وما بعدها، أعني بين جملة ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟﴾، وجملة ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟﴾ تصويباً لفعل التائبين، وتطييباً لقلوبهم، وبشارةً لهم بسعة الرحمة، وقرب المغفرة وإعلاءً لقدرهم بأنهم علموا أن لا مفزع للمذنبين إلا فضله، وكرمه، وأن من كرمه أن التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له، وأن العبد إذا التجأ إليه، وتنصل عن الذنب بأقصى ما يقدر عليه عفا عنه، وتجاوز عن ذنوبه، وإن جلت، فإن عفوه أجل، وكرمه أعظم؛ كما أن فيها تحريضاً للعباد على التوبة وحثاً لهم عليها، وتحذيراً من اليأس والقنوط.

والاستفهام فيه للإنكار، أي: لا يغفر ذنوب التائبين أحدٌ إلا الله.

ومعنى: ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: أتوا بالتوبة على الوجه الصحيح؛ لأجل ذنوبهم، وهو الندم على فعل ما مضى مع العزم على ترك مثله في المستقبل، ومع الإقلاع عنه في الحال، وهذا هو حقيقة التوبة. فأما الاستغفار باللسان؛ أي: مجرد قول استغفر الله باللسان والقائل ملتبس بالذنوب، فذاك لا أثر له في إزالة الذنب، بل يجب إظهار هذا الاستغفار لإزالة التهمة، ولإظهار انقطاعه إلى الله تعالى. وقوله: ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟﴾ معطوف على جواب إذا.

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟﴾ معطوف على ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: ولم يقيموا، ولم يدوموا ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟﴾ وارتكبوا من الفواحش واللمم من غير استغفار منها، ورجوع إلى الله بالتوبة بل أقروا واستغفروا. وقد قال ﷺ: «لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار». يريد ﷺ أن الصغيرة مع الإصرار كبيرةٌ. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهذه الجملة حال من فاعل ﴿يُصِرُّوا۟﴾ أي؛ والحال أنهم يعلمون أن ما فعلوه معصية الله، وأنه منهيٌّ عنه قبيحٌ ورد الوعيد عليه، أو يعلمون أن الله يتوب على من تاب.

والفائدة من ذكر هذه الجملة: بيان أنه إذا لم يعلم أنه معصية الله.. يعذر في فعله.

والمؤمن المتقي لا يصر على الذنب، وهو يعلم نهي الله عنه، ووعيده عليه

إذ يعلم أن الذنب فسوق وخروج عن نظام الفطرة السليمة، واعتداء على حقوق الشريعة.

فالآية: تؤمِئُ إلى أن المتقين الذين أعدَّ الله لهم الجنة لا يصرون على ذنب يرتكبونه صغيراً كان أو كبيراً؛ لأن ذكرهم لله يمنعهم أن يقيموا على الذنوب، إذ الإصرار على الصغائر يجعلها كبائر. ورب كبيرة أصابها المؤمن بجهالةٍ، وبادر إلى التوبة منها، فكانت مذكرة له بضعفه البشري، ودليلاً على أن للغضب عليه سلطاناً تكون دون صغيرةٍ يقترفها مستهيناً بها، مصرا عليها، مستأنساً بها، فتزول من نفسه هيبة الشريعة، ويتجرأ بعد ذلك على ارتكاب الكبائر فيكون من الهالكين.

وروي أن الله عز وجل أوحى إلى موسى عليه السلام: «ما أقل حياء من يطمع في جنتي بغير عملٍ، كيف أجود برحمتي على من يبخل بطاعتي». وقال عبد الله بن المبارك شعراً:

تَرْجُو ٱلنَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا ... إِنَّ ٱلسَّفِيْنَةَ لاَ تَجْرِي عَلَىٰ ٱلْيَبَسِ

قال ثابت البناني: بلغني أن إبليس بكى حين نزلت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ إلى آخرها.

فصلٌ فيما وَرَد في فضل الاستغفار من الأحاديث الصحيحة

عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «إني كنت إذا سمعت حديثاً من رسول الله ﷺ نفعني الله منه ما شاء أن ينفعني، وإذا حدَّثني أحد من الصحابة استحلفته، فإذ حلف لي صدقته، وأنه حدثني أبو بكرٍ، وصدق أبو بكر أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «ما من عبد مؤمن أو قال: ما من رجل يذنب ذنباً فيقوم ويتطهر، ثم يصلي، ركعتين، ثم يستغفر الله، إلا غفر الله له، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ إلى آخر الآية. أخرجه أبو داود، والترمذي، وقال: هذا حديث قد رواه غير واحد عن عثمان بن المغيرة فرفعوه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ لَزِم الاستغفارَ.. جَعَل الله له من كل ضيقٍ مخرجاً، ومن كل هم فرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب». أخرجه أبو داود.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال، رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا.. لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون فيغفر لهم». أخرجه مسلم.

وعنه أيضاً عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه تبارك وتعالى قال: «إذا أذنب عبد ذنباً، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، قال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد، فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال، تبارك وتعالى: إن عبدي أذنب ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال: تبارك وتعالى أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له ربًا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب». وفي رواية اعمل ما شئت قد غفرت لك». قال عبد الأعلى: لا أدري أقال في الثالثة أو الرابعة اعمل ما شئت؛ متفق عليه.

وعن أنس رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك، ولا أُبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، ولا أبالي، يا ابن آدم لو اتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرةً». أخرجه الترمذي. وعنان السماء بفتح العين السحاب، وقيل: ما ظهر لك منها. وقراب الأرض بضم القاف، وروي كسرها، والضم أشهر، وهو ما يقارب ملأها.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ من قال: «استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، غفرت ذنوبه، وإن كان قد فر من الزحف». أخرجه أبو داود، والترمذي والحاكم، وقال: حديث حسن صحيح على شرط البخاري ومسلم.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ذنب عسَى أن يغفره الله إلا من مات مشركاً، ومن قتل مؤمناً متعمداً». أخرجه أبو داود. انتهى الفصل.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصفات السابقة، والمستغفرون من ذنوبهم ﴿جَزَآؤُهُم﴾ على أعمالهم الحسنة ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ كائنة ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ لذنوبهم ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾؛ أي: بساتين ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها، وقصورها ﴿الْأَنْهَٰرُ﴾؛ أي: أنهار الماء، واللبن، والخمر، والعسل حالة كونهم ﴿خَٰلِدِينَ﴾؛ أي: مقدرين الخلود ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة دائمين فيها لا يموتون، ولا يخرجون منها ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَٰمِلِينَ﴾؛ أي: وحسن جزاء المطيعين الله بالصفات السابقة، وبالاستغفار من ذنوبهم. والمخصوص بالمدح المغفرة، والجنات.

وخلاصة ذلك: نِعْمَ هذا الأجر الذي ذكر من المغفرة، والجنات أجراً للعاملين تلك الأعمال الصالحة، وللمستغفرين من ذنوبهم. وذكر تعالى[1] ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَٰمِلِينَ﴾ بـ ﴿واو﴾ العطف هنا، وتركها في العنكبوت لوقوع مدخولها هنا بعد خبرين متعاطفين بالواو، فناسب عطفه بها ربطاً بخلاف ما في العنكبوت؛ إذ لم يقع قبل ذلك إلا خبر واحد كنظيره في الأنفال في قوله تعالى: ﴿نِعْمَ الْمَوْلَىٰ﴾ ونظير الأول قوله في الحج: ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ﴾؛ وإن كان العطف فيه بالفاء.

ولا يلزم[2] من إعداد الجنة للمتقين، والتائبين جزاءً لهم أن لا يدخلها المصرون، كما لا يلزم من إعداد النار للكافرين جزاء لهم أن لا يدخلها غيرهم.

والتعبير عن المغفرة، والجنات بالأجر المشعر بأنهما يستحقان في مقابلة العمل، وإن كان بطريق التفضل، لمزيد الترغيب في الطاعات، والزجر عن المعاصي.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ وهذا رجوع إلى تفصيل بقية قصة أحد بعد تمهيد مبادىء الرشد، والصلاح وأولها قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ فقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) الجمل. (٢) كرخي.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ اعتراضٌ في خلال القصة.

أيْ: قد[1] مضت من قبل زمانكم أيها المؤمنون سنن الله تعالى وعاداته في الأمم الماضية المكذِّبة لرسلهم بإهلاكهم، واستئصالهم لأجل مخالفتهم الرسل، إن لم يتوبوا، وبالمغفرة إن تابوا، فرغب الله تعالى أمة محمد ﷺ في تأمل أحوال هؤلاء الماضين؛ ليصير ذلك داعياً لهم إلى الإيمان بالله ورسله، والإعراض عن الرياسة في الدنيا، وطلب الجاه.

والخلاصة: أن النظر في أحوال من تقدمكم من الصالحين والمكذبين يهديكم إلى الطريق المستقيم، فإن أنتم سلكتم سبيل الصالحين، فعاقبتكم كعاقبتهم، وإن سلكتم سبيل المكذبين، فحالكم كحالهم. وفي الآية تذكير لمن خالف أمر النبي ﷺ يوم أحد، وإرشادٌ لهم إلى أنهم بين عاملي خوف ورجاءٍ، فهي على أنها بشارةٌ لهم بالنصر على عدوهم إنذار بسوء العاقبة إذ هم حادوا عن سننه، وساروا في طريق الضالين ممن قبلهم. وعلى الجملة، فالآية خبر وتشريع، وتتضمن وعداً ووعيداً وأمراً ونهياً.

والمسلمون الصادقون أولى الناس بمعرفة تلك السنن في الأمم، وأجدر الناس بأن يسيروا على هديها. لذلك لم يلبث أصحاب النبي ﷺ أن ثابوا إلى رشدهم يومئذٍ، ورجعوا إلى الدِّفاع عن نبيهم، وثبتوا حتى انجلى المشركون عنهم، ولم ينالوا ما كانوا يقصدون.

وقد جرت سنة الله بأن للشماهدة في تثبيت الحقائق ما ليس للقول وحده؛ إذ المقول قد ينسى، ويقل الاعتبار به من قبل هذا، أرشدهم إلى الاعتبار، وقياس ما في أنفسهم على ما كان لدى غيرهم من قبلهم، ومن ثم قال: ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

ومعنى الآية: قد مضت وسلفت مني سنن فيمن كان قبلكم من الأمم الماضية الكافرة بإمهالي، واستدراجي إياهم حتى يبلغ الكتاب أجله الذي أجلته

---

(١) مراح.

لإهلاكهم، فإن أردتم معرفة ذلك فامشوا أيها المؤمنون في نواحي الأرض وأرجائها، ثم انظروا، وتأملوا كيف صار آخر أمر المكذبين بالرسل الذين لم يتوبوا من تكذيبهم. وفي الآية[1] دلالةٌ على أهمية علم التاريخ، لأن فيه فائدة السير في الأرض، وهي معرفة أخبار الأوائل وأسباب صلاح الأمم وفسادها. قال ابن عرفة: السير في الأرض حسي ومعنوي. والمعنوي هو النظر في كتب التاريخ بحيث يحصل للناظر العلم بأحوال الأمم، وما يقرب من العلم، وقد يحصل به من العلم ما لا يحصل بالسير في الأرض، لعجز الإنسان وقصوره. وإنما أمر الله بالسير في الأرض دون مطالعة الكتب، لأن في المخاطبين من كانوا أميين، ولأن المشاهدة تفيد من لم يقرأ، علماً، وتقوي علم من قرأ التاريخ، أو قص عليه.

والمعنى: فسيروا في الأرض، وتأملوا فيما حل بالأمم قبلكم؛ ليحصل لكم العلم الصحيح المبني على المشاهدة وتسترشدوا بذلك إلى أن المصارعة قد وقعت بين الحق والباطل في الأمم السالفة وانتهى أمرها إلى غلبة أهل الحق لأهل الباطل، وانتصارهم عليهم ما تمسكوا بالصبر والتقوى. والسير في الأرض والبحث عن أحوال الماضين وتعرف ما حل بهم نعم العون على معرفة تلك السنن والاعتبار بها. وقد نستفيد هذه الفائدة بالنظر في كتب التاريخ التي دونها من ساروا في الأرض، ورأوا آثار الذين خلوا، فتحصل لنا العظة والعبرة، ولكنها تكون دون اعتبار الذين يسيرون في الأرض بأنفسهم، ويرون الآثار بأعينهم، لأن النظر إلى آثار المتقدمين له أثرٌ في النفس كما قيل:

إِنَّ آثَارَنَا تَدُلُّ عَلَيْنَا ... فَٱنْظُرُوا بَعْدَنَا إِلَى ٱلآثَارِ

والحاصل: أنه تعالى رغب أمة محمد ﷺ في تأمل أحوال الأمم الماضية ليصير ذلك داعياً لهم إلى الإيمان بالله ورسوله، والإعراض عن الدنيا ولذاتها. وفيه أيضاً زجر للكافر عن كفره؛ لأنه إذا تأمل في أحوال الكفار الماضين، وإهلاكهم صار ذلك داعياً له إلى الإيمان.

---

(١) التحرير والتنوير في علم التفسير.

وفي هذه الآية أيضاً تسليةٌ لأصحاب محمد ﷺ على ما جرى لهم في غزوة أحد، وحينئذٍ فلا عجب في أن ينهزم المسلمون في وقعة أحد، وأن يصل المشركون إلى النبيّ ﷺ فيشجوا رأسه، ويكسروا سنه، ويردوه في حفرةٍ. وفيها أيضاً دلالةٌ[1] على جواز السفر في فجاج الأرض للاعتبار، ونظر ما حوت من عجائب مخلوقات الله تعالى، وزيارة الصالحين، وزيارة الأماكن المعظمة، كما يفعله سياح هذه الأمة. وجواز النظر في كتب المؤرخين، لأنها سبيل إلى معرفة سير العالم، وما جرى عليهم من المثلات. والأمر في قوله: ﴿فَسِيرُواْ﴾ أمر ندب لا وجوب، بل المقصود تعرف أحوال الماضين. وفي هذه الآية دلالةٌ على أن الاشتغال بعلم التواريخ مندوب ندباً كفائياً، أو عينياً كما مرت الإشارة إليه.

﴿هَٰذَا﴾ القرآن الذي أنزل عليك يا محمد، وقيل: اسم الإشارة عائد إلى ما تقدم من أمره، ونهيه، ووعده، ووعيده ﴿بَيَانٌ﴾ وإيضاحٌ لأحكام الدين ﴿لِّلنَّاسِ﴾ عامة أي: مبينٌ لهم لأحكام دينهم من الحلال، والحرام، وغيرهما. ﴿وهدى﴾ للمتقين منهم خاصة ورشاد لهم؛ أي: هادٍ لهم من الضلالة إلى طريق الرشاد ﴿وَمَوۡعِظَةٌ﴾ ونصيحةٌ ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ الله خاصة بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، أي واعظٌ وزاجرٌ لهم عن المنهيات والمنكرات. وقيل[2]: في الفرق بين البيان، والهدي، والموعظة؛ لأن العطف يقتضي المغايرة. إن البيان هو الدلالة التي تفيد إزالة الشبهة بعد أن كانت حاصلةً. والهدي هو: طريق الرشد المأمور بسلوكه دون طريق الغيّ. والموعظة هي: الكلام الذي يفيد الزجر عما لا ينبغي في طريق الدين.

فالحاصل: أن البيان جنس تحته نوعان:

أحدهما: الكلام الهادي إلى ما ينبغي في الدين، وهو الهدى.

والثاني: الكلام الزاجر عما لا ينبغي في الدين، وهو الموعظة. وإنما خص المتقين بالهدى والموعظة؛ لأنهم المنتفعون بهما دون غيرهم.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الخازن.

والمعنى:[1] أنَّ هذا الذي تقدم بيان للناس كافةً، وهدى وموعظة للمتقين منهم خاصةً، فالإرشاد عام للناس، وحجة على المؤمن، والكافر التقي منهم والفاجر.

وذلك يدحض ما وقع للمشركين والمنافقين من الشبهة بنحو قولهم: لو كان محمدٌ رسولاً حقاً لما غلب في وقعة أحدٍ. فهذا الهدي والبيان يرشد إلى أن سنن الله حاكمة على الأنبياء والرسل كما هي حاكمةٌ على سائر خلقه. فما من قائدٍ يخالفه جنده، ويتركون حماية الثغر الذي يؤتون من قبله، ويخلون بين عدوهم وظهورهم، والعدو مشرف عليهم، إلا كان جيشه عرضةً للإنكسار؛ إذا كر العدو عليه قطع خط الرجعة، ولا سيما إذا كان بعد فشل وتنازع، ومن ثم كان هذا البيان لجميع الناس كلٌّ على قدر استعداده للفهم وقبول الحجة.

وأما كونه هدى وموعظةً للمتقين خاصَّةً، فلأنهم هم الذين يهتدون بمثل هذه الحقائق، ويتعظون بما ينطبق عليها من الوقائع، فيستقيمون، ويسيرون على النهج السوي، ويتجنبون نتائج الإهمال التي تظهر لهم مضرة عاقبتها. فالمؤمن حقًّا، هو الذي: يهتدي بهدي الكتاب، ويسترشد بمواعظه كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فالقرآن يهدينا في مسائل الحرب، والتنازع مع غيرنا، إلى أن نروض أنفسنا ونعرف كنه استعدادنا لنكون على بصيرة من حقنا، فنسير على سنن الله في طلبه، وفي حفظه، وأن نعرف كذلك حال خصمنا، ونضع الميزان بيننا وبينه وإلا كنا غير مهتدين ولا متعظين.

﴿وَلَا تَهِنُوا﴾؛ أي: ولا تضعفوا عن الجهاد مع عدوكم لما أصابكم من الهزيمة يوم أحد ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما فاتكم من الغنائم فيه، ولا على ما أصابكم من القتل، والجراحة، وكان قد قتل منهم يومئذٍ سبعون رجلاً خمسةٌ من المهاجرين، حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، صاحب راية رسول الله ﷺ، وعبد الله بن جحش ابن عمة رسول الله ﷺ، وشماس بن عثمان، وسعدٌ

---

(١) المراغي.

مولى عتبة، وباقيهم من الأنصار رضي الله عنهم أجمعين.

﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾؛ أي: الغالبون في آخر الأمر بالنصرة لكم دون عدوكم، فإن مصير أمرهم إلى الدَّمار حسب ما شاهدتم من أحوال أسلافهم، أي لكم العاقبة المحمودة ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ حقاً بصدق وعد الله نبيه بالنصر، وهذا إما منصبٌّ بالنهي أو بوعد النصر والغلبة؛ أي: إن كنتم مؤمنين.. فلا تهنوا، ولا تحزنوا، فإن الإيمان يوجب قوة القلب، والثقة بصنع الله تعالى، وقلة المبالاة بالأعداء، أو إن كنتم مؤمنين. فأنتم الأعلون؛ فإن الإيمان يقتضي العلو بلا شكٍّ.

والمعنى: ولا تضعفوا عن القتال، وما يتبعه من التدبير بسبب ما أصابكم من الجروح والفشل في يوم أحد، ولا تحزنوا على من فقد منكم في هذا اليوم، وكيف يلحقكم الوهن والحزن وأنتم الأعلون؛ فقد مضت سنة الله أن يجعل العاقبة للمتقين، الذين لا يحيدون عن سنته، بل ينصرون من ينصره، ويقيمون العدل فهم أجدر بذلك من الكافرين الذين يقاتلون لمحض البغي، والانتقام، أو للطمع فيما في أيدي الناس.

فهمة الكافر على قدر ما يرمي إليه من غرض خسيسٍ، ولا كذلك همة المؤمن الذي يرمي إلى إقامة صرح العدل في الدنيا، والسعادة الباقية في الآخرة ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ ومصدِّقين بصدق وعد الله بنصر من ينصره، وجعل العاقبة للمتقين المتبعين لسنته في نظم الاجتماع حتى صار ذلك الإيمان وصفاً ثابتاً لكم حاكماً على نفوسكم وأعمالكم.

وإنما نهى عن الحزن على ما فات؛ لأن ذلك مما يفقد الإنسان شيئاً من عزيمته، وبالعكس صلته بما يحب من مالٍ أو متاع أو صديقٍ تكسبه قوة، وتوجد في نفسه سروراً. والمراد بالنهي عن مثل ذلك معالجة النفس بالعمل ولو تكلفاً.

وخلاصة ذلك الأمر: بأخذ الأهبة وإعداد العدة، مع العزيمة الصادقة، والحزم والتوكل على الله حتى يظفروا بما طلبوا، ويستعيضوا مما خسروا.

وفي قوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ تبشيرٌ لهم بما يقع لهم في المستقبل من النصر، فإن من اخترق الإيمان الصحيح فؤاده، وتمكن من سويداء قلبه يكون على يقينٍ من العاقبة بعد مراعاة السنن والأسباب المطردة للظفر والفلاح ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾؛ أي: إن أصابكم أيها المؤمنون جرح في يوم أحد ﴿فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ﴾؛ أي: فقد أصاب كفار مكة يوم بدر ﴿قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾، أي: جرح مماثلٌ لما أصابكم في يوم أحد، بل هو أعظم مما أصابكم؛ لأنه أسر منهم سبعون، وقتل سبعون والمسلمون في أحدٍ قتل منهم سبعون، وأسر عشرون، ومع ذلك فلم يضعف ذلك قلوبهم، فأنتم أحق بأن لا تضعفوا.

وقيل: إن المعنى إن نالكم يوم أحد قرحٌ وانهزامٌ.. فقد نال كفار مكة في ذلك اليوم، أعني يوم، أحد قرحٌ مماثلٌ لما نالكم، فإن المسلمين نالوا من الكفار قبل أن يخالفوا أمر رسول الله ﷺ قتلوا منهم نيفاً وعشرين رجلاً، منهم صاحب لوائهم، وجرحوا عدداً كثيراً، وعقروا عامة خيلهم بالنبل، وقد كانت الهزيمة عليهم أول النهار.

والخلاصة: أنه لا يسوغ لكم التقاعد عن الجهاد، وليس لكم العذر فيه؛ لأجل أن مسكم قرحٌ، فإن أعداءكم قد مسهم مثله قبلكم وهم على باطلهم لم يفتروا في الحرب، ولم يهنوا فأنتم أجدر بصدق العزيمة لمعرفتكم بحسن العاقبة وتمسككم بالحق.

وقرأ حمزة[1] والكسائي، وابن عيَّاش عن عاصم، والأعمش في طريقةٍ ﴿قرحٌ﴾ بضم القاف وباقي السبعة بالفتح. والسبعة كلهم على تسكين الراء. قال أبو علي: والفتح أولى انتهى. ولا أولوية إذ كلاهما متواترٌ فهما لغتان كالضعف والضعف. وقيل: هو بالفتح الجراح، وبالضم ألمها. وقرأ أبو السمال، وابن السميقع ﴿قرحٌ﴾ بفتح القاف والراء، وهي لغة: كالطرد والطرد والشل والشلل. وقرأ الأعمش ﴿إن تمسسكم﴾ بالتاء من فوق ﴿قروحٌ﴾ بالجمع.

---

(١) البحر المحيط والبيضاوي.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ﴾؛ أي: أيام الغلبة والظفر والنصر ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ ونناقلها، ونحاولها، ونناوبها، ونصرفها من قديم الزمان إلى آخره ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ على وفق ما أردناه أزلاً تارةً لهؤلاء، وتارةً لهؤلاء، فلا تبقى الناس على حالة واحدةٍ، ولا يدوم[1] مسارها ومضارها فيومٌ يحصل فيه السرور للمؤمنين، والغم للأعداء، ويومٌ آخر بالعكس، ولكن العاقبة للمؤمنين، وليس المراد من هذه المداولة أنَّ الله تعالى تارةً ينصر المؤمنين، والأخرى ينصر الكافرين. وذلك؛ لأن نصرة الله منصبٌ شريفٌ، فلا يليق بالكافر بل المراد من هذه المداولة أنه تارةً يشدد المحنة على الكفار، وأخرى على المؤمنين، ولو شدَّد المحنة على الكفار في جميع الأوقات.. لحصل العلم الضروري بأن الإيمان حقٌّ، وما سواه باطلٌ، ولو كان كذلك.. لبطل التكليف والثواب، وأيضاً إن المؤمن قد يقدم على بعض المعاصي؛ فيشدد الله المحنة عليه في الدنيا تأديباً له. وأمَّا تشديد المحنة على الكافر، فإنه غضبٌ من الله عليه، وأيضاً: إن لذات الدنيا وآلامها غير باقية، وإنما السعادات المستمرة في دار الآخرة.

ورُوي أنَّ أبا سفيان صعد الجبل يوم أحد فمكث ساعةً، ثم قال: أين ابن أبي كبشة؟ يعني محمداً ﷺ وأبو كبشة زوج حليمة السعدية، وهو أبوه من الرضاع أين ابن أبي قحافة؟ يريد أبا بكر أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: هذا رسولُ الله ﷺ وهذا أبو بكر وها أنا ذا عمر فقال أبو سفان: يومٌ بيوم، والأيام دولٌ، والحرب سجالٌ، فقال عمر: لا سواء قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار، فقال: إن كان الأمر كما تزعمون.. فقد خبنا إذاً وخسرنا.

والخلاصة[2]: أن مداولة الأيام، وأوقات الغلبة، والنصر بين الناس سنةٌ من سنن الله تعالى في المجتمع البشري، فمرةً تكون الدولة، والغلبة للمبطل، وأخرى للمحق، ولكن العاقبة دائماً لمن اتبع الحق.

وإنما تكون الدولة لمن عرف أسباب النجاح، ورعاها حق رعايتها،

---

(١) مراح. (٢) المراغي.

كالإتفاق، وعدم التنازع، والثبات، وصحة النظر، وقوة العزيمة، وأخذ الأهبة، وإعداد ما يستطاع من القوة.

فعليكم أيها المؤمنون: أن تقوموا بهذه الأعمال، والأسباب وتحكموها أتم الإحكام حتى تظفروا، وتفوزوا، ولا يكن ما أصابكم من الفشل مضعفاً لعزائمكم؛ فإن الدنيا دولٌ كما قال:

فَيَوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرّ

ومن أمثال العرب: الحرب سجالٌ. وقرىء[1] شاذاً ﴿يداولها﴾ بالياء، وهو جار على الغيبة قبله وبعده، وقراءة النون فيها التفاتٌ وإخبارٌ بنون العظمة المناسبة لمداولة الأيام.

وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ معطوف على محذوف تقديره وتلك الأيام نداولها بين الناس ليقوم بذلك العدل، ويستقر النظام، ويعلم الناظر في السنن العامة، والباحث في الحكم الإلّهية، أنه لا محاباة في هذه المداولة ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ﴾؛ أي: وليرى الله صبر الذين آمنوا منكم على مناجزة الجهاد وملاقاة الأعداء. قال ابن كثير[2]: قال ابن عباس في مثل هذا: لنرى من يصبر على مناجزة الأعداء. انتهى أو المعنى: وليميِّز الله الذين أخلصوا في إيمانهم من المنافقين إذا أصابتهم المشقة كما وقع في أحد. وقال الشوكانيُّ[3]: فعلنا فعل من يريد أن يعلم؛ لأنه سبحانه لم يزل عالماً، أو ليعلم الذين آمنوا بصبرهم علماً يقع عليه الجزاء والثواب، كما علمه علماً أزليًّا انتهى. وإنما فسرنا كذلك، لأنَّ الله سبحانه وتعالى علمهم أزلاً فلم يزل عالماً بهم. ﴿وَيَتَّخِذَ﴾؛ أي: وليكرم بعضكم باتخاذهم شهداء في سبيل الله، وهم شهداء أحد، وذلك أن قوماً من المسلمين فاتهم يوم بدر، وكانوا يتمنون لقاء العدو، ويلتمسون فيه الشهادة. والشهداء جمع شهيد، وهو من قتل من المسلمين بسيف

---

(١) البحر المحيط.
(٢) ابن كثير.
(٣) فتح القدير.

الكفار في المعركة؛ سمي بذلك لكونه مشهودا له بالجنة، أو جمع شاهد لكونه كالمشاهد للجنة. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جملةٌ معترضةٌ بين العلل المتعاطفات؛ لتقرير مضمون ما قبلها؛ أي: لبيان أنَّ الشهداء يكونون ممن أخلصوا في إيمانهم، وأعمالهم، ولم يظلموا أنفسهم بمخالفة أوامر الله ونواهيه، والخروج عن سننه في خلقه.

أي: يعاقب المشركين، وإنما يظفرهم في بعض الأحيان استدارجاً لهم وابتلاءً للمؤمنين. والمعنى: إن الله لا يصطفي للشهادة الظالمين ما داموا على ظلمهم. وفي ذلك بشارةٌ للمتقين بمحبة الله لهم، وإنذارٌ للمقصرين بأنه لا يحبهم الله. وتعريضٌ لأعدائهم المشركين بأن الله لا يحبهم، لأنهم ظلموا أنفسهم، وسفهوها بعبادة المخلوقات، وظلموا سواهم بالفساد في الأرض؛ والبغي على الناس، وهضم حقوقهم. ومن المعلوم أن الظلم لا تدوم له سلطةٌ، ولا تثبت له دولةٌ، بل تكون دولته سريعة الزوال، قريبة الانحلال. ثم عطف على قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: وليطهر الذين آمنوا من ذنوبهم، ويصفيهم منها بما يصيبهم في الجهاد إن كانت الغلبة للكافرين على المؤمنين.

أي: ونداول تلك الأيام ليميز المؤمنين الصادقين من المنافقين، ويطهر نفوس بعض ضعفاء المؤمنين من كدورتها، فتصير تبراً خالصا لا كدورة فيه، فإن الإنسان كثيراً ما يشتبه عليه أمر نفسه، ولا تتجلى له حقيقتها إلا بالتجربة الكثيرة، والامتحان بالشدائد العظيمة، فهي التي تمحصها، وتنفي خبثها، وزغلها، كما أن تمحيص الذهب يميز بهرجه من خالصه.

فالمعتقد في دين أنه الحق قد يخيل إليه وقت الرخاء، أنه يسهل عليه بذل ماله، ونفسه في سبيل الله؛ ليرفع راية ذلك الدين، ويدفع عنه كيد المعتدين، فإذا جاء البأس ظهر له من نفسه غير ما كان يتصور له أولاً، أنظروا إلى الذين خالفوا أمر النبيّ ﷺ يوم أحد، وطمعوا في الغنيمة، وإلى الذين انهزموا وولوا الأدبار كيف محصهم الله تعالى بتلك الشدائد.

فعلموا أن المسلم ما خلق للهو واللعب، ولا للكسل، والتواكل، ولا لنيل الظفر، ونيل السيادة، بخوارق العادات، وتبديل سنن الله في المخلوقات، بل خلق ليكون أكثر الناس جداً في العمل، وأعظمهم تفانياً، في أداء الواجب إتباعاً للنواميس، والسنن التي وضعها الله في الخليقة.

وقد تجلّى أثر هذا التمحيص في الغزوات التي تلت هذه الوقعة ففي «غزوة حمراء الأسد» أمر النبي ﷺ ألا يتبع المشركين فيها إلا من شهد القتال بأحد، فامتثل المؤمنون أمره بقلوب مطمئنةٍ، وعزائم صادقةٍ، وهم على ما هم عليه من الجراح المبرحة، والقلوب المتكسرة.

﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: وليهلك الكافرين في الحرب، ويستأصلهم شيئاً فشيئاً، إن كانت الغلبة للمؤمنين على الكافرين. ويجعل اليأس يسطو على قلوبهم، وفقد الرجاء يذهب بعزائمهم، فلا يبقى لديهم شجاعةٌ، ولا بأسٌ، ولا قلٌّ[1]، ولا كثرٌ من عزة النفس، فيكون وجودهم كالعدم، لا فائدة فيه، ولا أثر له فالكافرون المبطلون، لا يثبت لهم حالٌ مع المؤمنين الصادقين، وإنما يظهرون إذا لم يوجد من أهل الحق والعدل من ينازعهم ويقاوم باطلهم، كما هو مشاهد في عصرنا هذا. لأن الإسلام راح إلا الاسم، فهذه مصيبةٌ، ما أعظمها، فإنا لله، وإنا إليه راجعون.

وأم في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ منقطعةٌ عند الأكثرين تقدَّر ببل، وهمزة الإنكار، والخطاب فيه للذين انهزموا يوم أحد أي أظننتم[2] أن تدخلوا الجنة وتفوزوا بنعيمها، والحال أنه لم يجتمع فيكم الجهاد في سبيل الله، والصبر فيه على مشاقه؟ أي: لا تحسبوا دخولها ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. أي؛ والحال: أنه لم ير الله المجاهدين منكم في سبيل الله

---

(١) وَقُلُّ الشيء: عُلُوَّهُ وارتفاعه، يقال: قَلَّ الشي يَقِلُّ ـ من باب ضرب ـ قِلًّا وقَلاًّ إذا علا وكُثْرُ الشيء عظمته. اهـ مؤلفه.

(٢) مراح.

يوم أحد، ولم ير الصابرين على قتال عدوّهم مع نبيهم؛ أي: لا تحسبوا[1] أن تدخلوا الجنة بدون أن تجاهدوا وتصبروا على عواقب الجهاد من جراحٍ، وألم، وكل مكروه، وأريد بحالة نفي علم الله بالذين جاهدوا، والصابرين الكناية عن حالة نفي الجهاد، والصبر عنهم. لأن الله إذا علم شيئاً فذلك المعلوم محقق الوقوع، فكما كنى بعلم الله عن التحقق في قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ كنى بنفي العلم عن نفي وقوع اجتماع الجهاد والصبر فيهم، فكأنه، قال: لا تحسبوا دخول الجنة مع أنكم لم تجاهدوا، ولم تصبروا على شدائد الحرب. وقال الطبريُّ[2] المعنى: أظننتم يا معشر أصحاب محمد: أن تنالوا كرامة ربكم، ولما يتبين لعبادي المؤمنين المجاهدون منكم في سبيل الله، والصابرون عند البأس على ما ينالهم في ذات الله من ألمٍ ومكروه. انتهى.

وفي هذه[3] الآية معاتبةٌ لمن انهزم يوم أحد، والمعنى: أم حسبتم أيها المنهزمون أن تدخلوا الجنة كما دخلها الذين قتلوا، وبذلوا مهجهم لربهم عز وجل، وصبروا على ألم الجراح، والضرب، وثبتوا لعدوهم يوم بدر من غير أن تسلكوا طريقهم وتصبروا صبرهم.

والخلاصة: لا تحسبوا دخول الجنة والحال أنه لم يقع منكم الجهاد مع الصبر على مكابده، وذلك بعيدٌ، وإنما استبعد هذا؛ لأن الله تعالى لما أوجب الجهاد قبل هذه الوقعة، وأوجب الصبر على تحمل متاعبه، وبين وجوه المصالح فيه في الدين والدنيا، كان من البعيد أن يظن الإنسان أنه يصل إلى السعادة، والجنة مع إهمال هذه الطاعة.

وجهاد[4] النفس على أداء حقوق الله، وحقوق العباد مما يشق عليها احتماله، ويحتاج إلى مجاهدتها وترويضها حتى تذلل، ويسهل عليها أداء تلك الحقوق. وربما فضل هذا الجهاد جهاد الأعداء في ميدان القتال، وخوض غمار الوغى وأصعب من هذا، وأشق دعوة الأمة إلى خيرٍ لها في دينها ودنياها، أو بث

---

(١) التحرير والتنوير.
(٢) تفسير الطبري.
(٣) الخازن.
(٤) المراغي.

فكرةٍ صالحةٍ تغير بعض أخلاقها، وعاداتها، أو مقاومة بدعةٍ فاشيةٍ بين أفرادها، فإنها تجد مقاومةً من الخاصة بله العامة، فتراهم يرفعون راية العصيان في وجه الداعي، ويشاكسونه بكل الوسائل، ولا سيما إذا تعلق بتغيير بعض عادات مرنوا عليها جيلاً بعد جيل، ووجدوا من أشباه العلماء من يؤازرهم، ويناصرهم في باطلهم.

وكثيراً ما يحدث للداعي التلف والهلاك، أو ثلم العرض أو الإخراج من حظيرة الدين.

وقرأ الجمهور[1] ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ﴾ بكسر الميم لالتقاء الساكنين. وقرأ ابن وثاب، والنخعي بفتحها. وخُرِّج على أنه إتباعٌ لفتحة اللام، أو على إرادة النون الخفيفة، وحذفها كقول الشاعر:

لاَ تُهِيْنَ ٱلْفَقِيْرَ عَلَّكَ أَنْ تَرْ كَعَ يَوْمَاً وَٱلدَّهْرُ قَدْ رَفَعَهْ

وقرأ الجمهور ﴿وَيَعْلَمَ﴾ بفتح الميم فقيل: هو مجزومٌ وأتبع الميم اللام في الفتح كقراءة من قرأ ﴿ولما يعلم﴾ بفتح الميم على أحد التخريجين السابقين. وقيل: هو منصوب فعلى مذهب البصريين بإضمار أن بعد واو المعية نحو: ما تأتينا وتحدثنا. وعلى مذهب الكوفيين بواو الصرف. وتقرير المذهبين في علم النحو وقرأ الحسن، وابن يعمر، وأبو حيوة، وعمرو بن عبيد، بكسر الميم عطفاً على ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ﴾ المجزوم. وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو وبن العلاء ﴿ويعلم﴾ برفع الميم، وفي تخريجه وجهان:

أظهرهما: أنه مستأنف، أي وهو يعلم الصابرين.

وثانيهما: أن الواو للحال كأنه قيل: ولما تجاهدوا، وأنتم صابرون. قاله الزمخشري.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ خوطب به الذين لم يشهدوا بدراً، وكانوا يتمنون أن يحضروا مشهداً مع رسول الله ﷺ لينالوا كرامة الشهادة.

---

(١) البحر المحيط.

أي: وعزتي وجلالي، لقد كنتم يا أصحاب محمد ﷺ تطلبون الموت بالشهادة في الحرب من قبل أن تشاهدوا أسباب الموت وشدائده من الجهاد، والقتال يوم أحد، أو من قبل أن تلقوا العدو فيه حيث قلتم ليت لنا يوماً كيوم بدر لننال ما نال شهداؤه من الكرامة، كانوا قد ألحوا على رسول الله ﷺ يوم أحد في الخروج إلى المشركين في أحد، وكان رأيه ﷺ في الإقامة بالمدينة حتى يدخلها عليهم المشركون. ثم ظهر منهم خلاف ذلك. وقراءة الجمهور بكسر اللام ﴿مِن قَبْلِ﴾ لأنها معربة لإضافتها إلى ﴿أن﴾ وما في حيزها؛ أي: من قبل لقائه. وقرأ مجاهد بن جبر ﴿من قبلُ﴾ بضم اللام قطعها عن الإضافة كقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ وعلى هذا، فـ﴿إن﴾ وما في حيزها في محل نصب على أنها بدل اشتمال من الموت أي: تمنون لقاء الموت كقولك رهبت العدو لقاءه.

وقرأ الزهري والنخعيُّ ﴿تلاقوه﴾ ومعناه متحدٌ مع معنى تلقوه، لأن لقي يستدعي أن يكون بين اثنين بمادته، وإن لم يكن على المفاعلة.

﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ أي: فقد رأيتم الموت وأسبابه وأبصرتموه يوم أحد إن كنتم صادقين في تمنيكم الحرب ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي: والحال أنكم تنظرون، إلى سيوف الكفار، والأعداء حين قتل أمامكم من قتل من إخوانكم فلم انهزمتم منهم، ولم تثبتوا مع نبيّكم؛ وهذه الجملة تأكيدٌ لما قبلها، أي: والحال أنكم بصراء ليس بأعينكم علّةٌ.

وقال الشوكاني: وقيد الرؤية بالنظر مع اتحاد معناهما للمبالغة. انتهى.

وقرأ طلحة بن مصرف ﴿فلَقَدْ رأيْتمُوه﴾ باللام.

فمعنى[1] قوله: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ أنكم شاهدتم أسبابه من ملاقاة الشجعان بعدتهم، وأسلحتهم، وكرهم وفرهم مشاهدةً لا خفاء فيها، ولا شبهة، وكان لها الأثر العميق في نفوسكم.

---

(١) المراغي.

ومعنى تمني الموت: تمني الشهادة في سبيل الله، والقتال لنصرة الحق، ولو ذهبت نفوسكم دونه.

وصفوة القول: لقد كنتم تتمنون الموت قبل أن تلاقوا القوم في الميدان، فها أنتم أولاء قد رأيتم ما كنتم تتمنونه، وأنتم تنظرون إليه، لا تغفلون عنه، فما بالكم دهشتم عندما وقع الموت فيكم، وما بالكم تحزنون وتضعفون عند لقاء ما كنتم تحبون وتتمنون به، ومن تمنى الشيء، وسعى إليه لا ينبغي أن يحزنه لقاؤه ويسوءَه.

وفي الآية الكريمة: تنبيهٌ لكل مؤمن إلى اتقاء الغرور بحديث النفس، والتمنّي، والتشهّي، وهديه إلى اختبار نفسه بالعمل الشاقّ، وعدم الثقة منها بما دون الجهاد، والصبر على المكاره في سبيل الحق حتى يأمن الدعوى الخادعة التي يتوهم فيها أنه صادق فيما يدعي مع الغفلة، أو الجهل بعجزه عنه.

وكثيراً ما يتصور بعض الناس أنه يحب ملته ووطنه، ويفكر في خدمتهما، ويتمنى لو يتاح له أن يساهم في تلك الخدمة بنفسه، أو بماله، حتى إذا احتيج إليه وجد من نفسه الضعف، فأعرض عن العمل قبل الشروع، أو بعد أن ذاق مرارته، وكابد مشقته.

ولكن المؤمن حقاً من وصل الأمر به إلى حد اليقين فيما يعتقد أنه حقٌّ، وذلك يستدعي العمل مهما كان شاقًّا، والجهاد مهما كان عسيراً، والصبر على المكاره، وإيثار الحق على الباطل. وقد كان في الذين خوطبوا بهذه الآية جماعةٌ ممن كانوا في المرتبة العليا من صدق الجهاد، والصبر على المكاره، وأولئك هم المجاهدون الذين ثبتوا مع النبي ﷺ ثبات الجبال الراسيات، وهم نحو ثلاثين رجلاً؛ لكنه جعل الخطاب عاماً ليكون الإرشاد والنصح عاماً للجميع، فيتهم ذوو المراتب العالية أنفسهم بالتقصير فيزدادوا كمالاً على كمالهم، ويرعوي المقصرون، وينزعوا عن خداع أنفسهم لهم، وهذا من التمحيص العظيم الذي له أجمل العواقب في تهذيب الأنفس.

وقد ظهر أثر ذلك في نفوس أولئك القوم فيما بعد، ورباهم تربيةً كانت بها

عزائمهم ماضيةً، وهممهم صادقةً فلم يهنوا، ولم يضعفوا، ولم يستكينوا فيما حاولوه من جسيم الأمور. ثم نزل[1] في مقالتهم لرسول الله ﷺ بلغنا يا نبيَّ الله أنك قتلت فلذلك انهزمنا فقال الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ﴾ ﷺ ﴿إِلَّا رَسُولٌ﴾؛ أي: إلا بشر مرسل إلى كافة الناس ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مِن قَبْلِهِ﴾، أي من قبل محمد ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ عليه وعليهم صلوات الله وسلامه أجمعين. فسيخلو كما خلوا، وكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم، وسنتهم بعد خلوهم. فعليكم يا أمة محمد أن تتمسكوا بدينه بعد خلوه؛ لأن المقصود من بعثةِ الرسل تبليغ الرسالة، وإلزام الحجة، لا وجوده وخلوده بين أظهر قومه.

ومحمدٌ اسم[2] علم لرسول الله ﷺ وفيه إشارة إلى وصفه بذلك وتخصيصه بمعناه، وهو الذي كثرت خصاله الحميدة، والمستحق لجميع المحامد المخلوقية؛ لأنه الكامل في نفسه ﷺ؛ أي: في خلقه وخلقه، فسماه باسمين مشتقين من اسمه المحمود سبحانه وتعالى، فسمَّاه محمداً، وأحمد.

وفي ذلك يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَرْسَلَ عَبْدَهُ ... بِبُرْهَانِهِ وَٱللَّهُ أَعْلَىٰ وَأَمْجَدُ

أَغَرُّ عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ ... مِنَ ٱللَّهِ مِنْ نُوْرٍ يَلُوْحُ وَيَشْهَدُ

وَضَمَّ ٱلإِلٰهُ ٱسْمَ ٱلنَّبِيِّ إِلَىٰ ٱسْمِهِ ... إِذَا قَالَ فِيْ ٱلْخَمْسِ ٱلْمُؤَذِّنُ أَشْهَدُ

وَشَقَّ لَهُ مِنْ إِسْمِهِ لِيُجِلَّهُ ... فَذُوْ ٱلْعَرْشِ مَحْمُوْدٌ وَهَذَا مُحَمَّدُ

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب». متفق عليه. والعاقب الذي ليس بعده نبيٌّ، وسماه الله رؤوفاً رحيماً.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسمي لنا

---

(١) تنوير المقياس.
(٢) الخازن.

نفسه أسماءً: فقال: «أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا المقفى، ونبي التوبة، ونبي الرحمة». رواه مسلم. والمقفى هو آخر الأنبياء الذي لا نبي بعده.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ﴾ للاستفهام[1] الإنكاري، والفاء للعطف ورتبتها التقديم، لأنها حرف عطف. وإنما قدمت الهمزة، لأن لها صدر الكلام. وقال ابن الخطيب: الأوجه: أن يقدر محذوف بعد الهمزة، وقبل الفاء، وتكون الفاء عاطفة، ولو صرح به لقيل أتؤمنون به مدة حياته؛ فإن مات كما مات موسى، وإبراهيم وغيرهما ﴿أَوْ قُتِلَ﴾ كما قتل زكريا، ويحيى ﴿انقَلَبْتُمْ﴾ ورجعتم ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ وأدباركم، وارتددتم راجعين عن دينكم، فتخالفوا سنن أتباع الأنبياء قبلكم في ثباتهم على ملل أنبيائهم بعد موتهم، والرسول ليس مقصوداً لذاته، بل المقصود ما أرسل به من الهداية التي يجب على الناس أن يتبعوها.

أي: لا ينبغي منكم الارتداد حينئذٍ؛ لأنَّ محمداً ﷺ مبلغ لا معبودٌ، وقد بلَّغكم والمعبود باقٍ، فلا وجه لرجوعكم عن الدين الحق لو مات من بلغكم إياه.

روي[2] أنه لما رمى عبد الله بن قميئة الحارثي رسولَ الله ﷺ بحجرٍ فكسر رباعيته، وشج وجه، فذب عنه مصعب بن عمير رضي الله عنه وكان صاحب راية رسول الله ﷺ يومئذٍ حتى قتله ابن قميئة، وهو يرى أنه قتل النبيَّ عليه الصلاة والسلام فقال: قد قتلت محمداً، وصرخ صارخ أن محمداً قد قتل، فانكفأ الناس، وجعل الرسول عليه السلام يدعو «إليَّ عبادَ الله» فانحاز إليه ثلاثون من أصحابه، وحموه حتى كشفوا عنه المشركين، وتفرق الباقون، وقال بعضهم: ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبي، فيأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وقال ناسٌ من المنافقين: لو كان محمدٌ نبياً لما قتل، ارجعوا إلى إخوانكم، ودينكم الأول، وقال أنس بن النضر؛ عم أنس بن مالك في تلك الساعة التي زاغت فيها الأبصار والبصائر، وبلغت فيها القلوب الحناجر، يا قوم إن كان محمدٌ قد قتل، فإن رب

(١) الفتوحات الإلهية.

(٢) البيضاوي.

محمد حيٌّ لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه، ثم قال: اللهم إنّي أعتذر إليك مما قال هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل رضي الله عنه فنزلت ﴿وَمَن يَنقَلِبْ﴾ أي: ومن يرجع ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾؛ أي: إلى دينه الأول، وهو الشرك ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾؛ أي: فلن ينقص الله رجوعه شيئاً، وإنما يهلك نفسه بإقباله على العذاب، أو المعنى؛ ومن يرجع عن جهاده ومكافحته الأعداء فلن يضر الله شيئاً بما فعل، بل يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب وحرمانها من الثواب، فالله قد وعد بنصر من ينصره ويعز دينه، ويجعل كلمته هي العليا، وهو لا محالة منجزٌ وعده، ولا يحول دون ذلك ارتداد الضعفاء، والمنافقين على أعقابهم فهو سيثبت المؤمنين، ويمحصهم حتى يكونوا كالتبر الخالص، فيقيموا دينه وينشروا دعوته، ويرفعوا شأنه وتنشر على الخافقين رايته، وهو الذي بيده الخلق، والأمر، وهو القادر على كل شيء ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ له نعمه عليهم بالإيمان، والهداية إلى أقوم السبل الثابتين على دين الإسلام، الذي هو أجل نعمةٍ وأعز معروفٍ كأنس بن النضر وأمثاله، أي: يجازيهم في الدنيا والآخرة بما يستحقون من النصر على أعدائهم، والثواب الجسيم.

وفي الآية إرشادٌ إلى أن المصائب التي تحل بالإنسان لا مدخل لها في كونه على حق أو باطل، فكثيراً ما يبتلى صاحب الحق بالمصائب والرزايا، وصاحب الباطل بالنعم والعطايا.

وفيها إيماءٌ إلى أنا لا نعتمد في معرفة الحق والخير على وجود العلم بحيث نتركهما عند موته بل نسير على منهاجهما حين وجوده وبعد موته.

والخلاصة: أن الله أوجب علينا أن نستضيء بالنور الذي جاء به الرسولُ ﷺ، أمّا ما يصيب جسمه من جرحٍ أو ألمٍ، وما يعرض له من حياةٍ أو موت، فلا مدخل له في صحة دعوته، ولا في إضعاف النور الذي جاء به، فإنما هو بشرٌ مثلكم خاضعٌ لسنن الله كخضوعكم.

والخلاصة: أن قتل محمد ﷺ لا يوجب ضعفاً في دينه، لأمرين:

أحدهما: أن محمداً ﷺ بشرٌ كسائر الأنبياءِ، وهؤلاء قد ماتوا أو قتلوا.

والثاني: أن الحاجة إلى الرسول هي تبليغ الدِّين، فإذا تَمَّ له ذلك.. فقد حصل الغرض، ولا يلزم من قتله فساد دينه.

وفي الآية هداية وإرشاد إلى أنه لا ينبغي أن يكون استمرار الحرب أو عدم استمرارها، ذا صلة بوجود القائد، بحيث إذا قتل انهزم الجيش، أو استسلم للأعداء بل يجب أن تكون المصالح العامة جاريةً على نظام ثابت، لا يزلزله فقد الرؤساء، وعلى هذا تجري الحكومات، والحروب في عصرنا هذا.

ومن توابع هذا النظام أن تعد الأمة لكل أمرٍ عدته، فتوجد لكل عملٍ رجالاً كثيرين حتى إذا فقدت معلماً أو مرشداً أو قائداً أو حكيماً أو رئيساً أو زعيماً وجدت الكثير ممن يقوم مقامه، ويؤدِّي لها من الخدمة ما كان يؤدِّيه، وحينئذ يتنافس أفرادها، ويحفزون عزائمهم للوصول إلى ما يمكن أن يصل إليه كسب البشر، وينال كلٌّ منه بقدر استعداده وسعيه وتوفيق الله له.

وقرأ الجمهور ﴿ٱلرُّسُلُۚ﴾ في قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾ بالتعريف على سبيل التفخيم للرسل والتنويه بهم على مقتضى حالهم من الله. وفي مصحف عبد الله ﴿رسل﴾ بالتنكير، وبها قرأ ابن عباس وقحطان بن عبد الله. وقرأ الجمهور ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ بالتثنية، وقرأ ابن أبي إسحاق على ﴿عقبه﴾ بالإفراد. ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾؛ أي: وليس من شأن النفوس، ولا من سنة الله فيها ﴿أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إلاّ بأمر الله وقضائه وقدره، وعلمه، وإرادته، ومشيئته التي بها يجري نظام الحياة، وترتبط فيها الأسباب بالمسببات.

وذلك أنَّ الله تعالى يأمر ملك الموت بقبض الأرواح، فلا يموت أحدٌ إلا بإذن الله تعالى وأمره، ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ﴾ منصوب بعامل محذوف تقديره: كتب الله الموت على عباده كتاباً مقروناً بأجلٍ معين لا يتغير، ومؤقتاً بوقت لا يتقدم، ولا يتأخر، فكثيرٌ من الناس يتعرضون لأسباب المنايا بخوض غمرات الحروب أو يتعرضون لعدوى الأمراض، أو يتصدون لأفاعيل الطبيعة، وهم مع ذلك لا يصابون بالأذى، فالشجاع المقدام قد يسلم في الحرب، ويقتل الجبان المتخلف،

ويفتك المرض بالشاب القوي، ويترك الضعيف الهزيل وتغتال عوامل الأجواء الكهل المستوي وتتجاوز الشيخ الضعيف فللأعمار آجالٌ، وللآجال أقدارٌ لا تخطوها. والأقدار هي السنن التي عليها تقوم نظم العالم، وإن خفيت على بعض الناس، وإذا كان محيانا ومماتنا بإذن الله فلا محل للخوف والجبن، ولا عذر في الوهن والضعف. وقيل: الكتاب اللوح المحفوظ؛ لأن فيه آجال جميع الخلق، وفي الآية تحريض المؤمنين على الجهاد، وتشجيعهم على لقاء العدو، فإنه إذا كان الأجل محتوماً ومؤقتاً بميقاتٍ، وأن أحداً لا يموت قبل بلوغ أجله، وإن خاض المعارك واقتحم المهالك.. فلا فائدة إذاً للخوف والجبن والحذر.

وفي الآية أيضاً إشارة إلى كلاءةً الله وحفظه لرسوله ﷺ مع غلبة العدو له والتفافهم عليه، وإسلام أصحابه له فرصةً للمختلس، فلم يبق سببٌ من أسباب الهلاك إلا قد حصل، ولكن لما كان الله حافظاً له لم يضره شيٌ. وفيها أيضاً: إشارةٌ إلى أن قومه قد قصروا في الذَّبِّ عنه ﴿وَمَن يُرِدۡ﴾ ويقصد بعمله الصالح ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾، وحظها ومنفعتها ﴿نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾؛ أي: نعطه من الدنيا ما يكون جزاء لعمله مما نشاء أن نعطيه إياه على ما قدرنا له، ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾. نزلت في الذين تركوا المركز يوم أحد، وطلبوا الغنيمة ﴿وَمَن يُرِدۡ﴾ ويقصد بعمله الصالح ﴿ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ونعيمها ﴿نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ نعطه من حظوظ الآخرة، ونعيمها ما يريد مما نشاء من الأضعاف على حسب ما جرى به الوعد الكريم. نزلت في الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ يوم أحد.

واعلم: أن هذه الآية، وإن نزلت في الجهاد خاصة لكنها عامةٌ في جميع الأعمال؛ وذلك لأنَّ الأصل في ذلك كله يرجع إلى نية العبد، فإن كان يريد بعمله الدنيا.. فليس له جزاء إلا فيها، وكذلك من أراد بعمله الدار الآخرة فجزاؤه أيضاً فيها.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمالُ بالنياتِ». الحديث متفق عليه.

وروى البغوي بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ

قال: «من كانت نيته طلب الآخرة، جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا راغمة ومن كانت نيته طلب الدنيا، جعل الله الفقر بين عينيه، وشتت عليه أمره ولا يأتيه منها إلا ما كتب الله له».

وذلك[1] لأن المؤثر في جلب الثواب والعقاب الدواعي والقصود، لا ظواهر الأعمال كما في الحديث المذكور، فإن من وضع الجبهة على الأرض مثلاً في صلاة الظهر والشمس قدامه، فإن قصد بذلك السجود عبادة الله تعالى.. كان ذلك من أعظم دعائم الإسلام، وإن قصد به عبادة الشمس، كان ذلك من أعظم دعائم الكفر ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾؛ أي: سنثيب الثابتين على شكر نعمة الله تعالى في الدنيا والآخرة، الذين يعرفون أنعم الله عليهم من القوى، ويصرفونها إلى ما خلقوا لأجله من طاعة الله تعالى، ويستعملوها فيما يرقى بهم إلى مراقي الكمال، فيعملون صالح الأعمال التي ترفع نفوسهم، وتنفع أمتهم كأنس بن النضر، وأمثاله الذين جاهدوا، وصبروا مع النبي ﷺ بما كان لهم من الإرادة القوية التي كانت السبب في انجلاء المشركين عن المسلمين.

وقرأ الجمهور[2] ﴿نُؤْتِهِۦ﴾ في الموضعين بالنون، وكذلك قرؤوا ﴿سنجزي﴾ بالنون أيضاً، وهو إلتفاتٌ إذ هو خروج من غيبةٍ إلى تكلمٍ بنون العظمة، وقرأ الأعمش ﴿يُؤْتِهِ﴾ بالياء فيهما، وفي ﴿سيجزي﴾ وهو على ما سبق من الغيبة.

وأدغم[3] أبو عمرو وحمزة والكسائي، وابن عامر، بخلاف عنه دال ﴿يرد﴾ في الثاء والباقون بالإظهار. وقرأ أبو عمرو بالإسكان في هاء ﴿نؤتِهْ﴾ في الموضعين وصلاً ووقفاً، وقالون وهشامٌ بخلاف عنه بالاختلاس وصلاً، والباقون بالإشباع وصلاً. فأما السكون فقالوا: إنَّ الهاء لما حلت محل ذلك المحذوف أعطيت ما كان تستحقه من السكون، وأما الاختلاس فلأستصحاب ما كانت عليه الهاء قبل حذف لام الكلمة، فإن الأصل نؤتيه فحذفت الياء للجزم، ولم يعتد

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الفتوحات.

بهذا العارض فبقيت الهاء على ما كانت عليه، وأما الإشباع فنظراً إلى اللفظ، لأن الهاء بعد متحرك في اللفظ، وإن كانت في الأصل بعد ساكن، وهو الياء التي حذفت للجزم اهـ «سمين».

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾؛ أي: وكثيرٌ من نبي قاتل لإعلاء كلمة الله، وإعزاز دينه، والحال أن معه في القتال جماعاتٌ كثيرةٌ من العلماء العاملين، والعُبَّاد الصالحين، فأصابهم من عدوهم قرحٌ ﴿فَمَا وَهَنُواْ﴾؛ أي: جبنوا وفتروا عن الجهاد، لأن الذي أصابهم إنما هو في طاعة الله، وإقامة دينه ونصرة رسوله، ﴿وَمَا ضَعُفُواْ﴾؛ أي: عجزوا عن قتال عدوهم لما أصابهم من جرح أو قتل، حتى ولو كان المقتول هو نبيهم نفسه، لأنهم يقاتلون في سبيل الله، لا في سبيل نبيّهم علماً منهم بأن النبي ما هو إلا مبلِّغٌ عن ربِّه، وهادٍ لأمته، ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ﴾. ﴿وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾؛ أي: ما ذلوا وما تواضعوا لعدوهم، كما فعلتم أنتم حين قيل قتل نبيكم، وأردتم أن تعتضدوا بالمنافق عبد الله بن أبي في طلب الأمان من أبي سفيان، ولا ولوا الأدبار، ولكنهم صبروا على أمر ربهم، وطاعة نبيهم، وجهاد عدوهم، إذ هم على يقين من ربهم في أن الجهاد في السبيل التي يرضاها من تقرير العدل في الأرض، وحماية الحق ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على شدائد التكاليف، ومشاق الجهاد، في طلب الآخرة، أي: يكرمهم ويعظمهم ويثيبهم، ومحبة[1] الله تعالى للعبد عبارةٌ عن إرادة إكرامه وإعزازه، وإيصال الثواب له، وإدخاله الجنة مع أوليائه وأصفيائه.

والخلاصة[2]: عليكم أن تعتبروا بحال أولئك الربيين وتصبروا كما صبروا، فإن دين الله واحدٌ وسنته في خلقه واحدةٌ، ومن ثم طلب إليكم أن تعرفوا عاقبة من سبقكم من الأمم، وتقتدوا بعمل الصادقين الصابرين منهم، وتقولوا مثل قول أولئك الربيين.

﴿وَكَأَيِّن﴾ عبارة السمين قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾ هذه اللفظة قيل: مركبة من

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

كاف التشبيه، ومن أيٍّ الاستفهامية، وحدث فيها بعد التركيب معنى التكثير المفهوم من كم الخبرية، وهي كناية عن عدد مبهم، ومثلها في التركيب، وإفهام التكثير كذا في قولهم: عندي كذا كذا درهماً، والأصل كاف التشبيه، وذا الذي هو اسم إشارة فلما ركبا حدث فيهما معنى التكثير فكم الخبرية، وكأين وكذا كلها بمعنى واحدٍ.

وهل هذه الكاف الداخلة على أيّ تتعلق بشيء كغيرها من حروف الجر أم لا؟. والصحيح أنها لا تتعلق بشيء، لأنها مع أي صارتا بمنزلة كلمةٍ واحدةٍ، وهي ككم فلا تتعلق بشيء، ولذلك هجر معناها الأصليُّ، وهو التشبيه.

وفي كأيِّن[1] خمس لغاتٍ:

إحداها: ﴿كَأَيِّن﴾ بتشديد الياء والتنوين، وبها قرأ الجماعة إلا ابن كثير.

والثانية: ﴿كَائِنٌ﴾ بوزن فاعن وبها قرأ ابن كثير، وجماعةٌ، وهي أكثر استعمالاً من كأيِّن وإن كانت تلك الأصل.

والثالثة: ﴿كئين﴾ بوزن كريم بياء خفيفة بعد همزة مكسورة، وبها قرأ ابن محيصنٍ، والأشهب العقيليُّ.

والرابعة: ﴿كيئن﴾ بياء ساكنة بعدها همزة مكسورة، وهذه مقلوبة عن القراءة التي قبلها وقرأ بها بعضهم.

والخامسة: ﴿كأن﴾ مثل كعن، وبها قرأ ابن محيصن أيضاً. وقرأ الحسن[2] ﴿كَيٍ﴾ بكافٍ بعدها ياءٌ مكسورة منونة. وقرأ ابنُ كثير ونافع وأبو عمرو ﴿قتل﴾ مبنياً للمفعول، وقتادة كذلك إلا أنه شدد التاء، وضمير النائب على هذه القراءة يعود على المبتدأ، والجملة خبر المبتدأ، وجملة ﴿مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ﴾ من المبتدأ، والخبر في محل النصب حال من ضمير الفعل، و﴿كَثِيرٌ﴾ صفة لـ ﴿رِبِّيُّونَ﴾، والمعنى على هذه القراءة، وكثيرٌ من الأنبياء قتلوا، وبعدهم الذين بقوا من جماعتهم. وقال الحسن البصريُّ، وجماعةٌ من العلماء لم يقتل نبيٌّ في حرب قط، ولهذا ضعفت هذه القراءة من جهة المعنى.

---

(١) الجمل. (٢) البحر المحيط.

وقرأ باقي السبعة ﴿قَـٰتَلَ﴾ بوزن فاعل، وهي القراءة المشهورة التي جرينا عليها في تفسيرنا سابقاً. وقرأ الجمهور ﴿رِبِّيُّونَ﴾ بكسر الراء جمع ربِّي، وهو العالم منسوب إلى الرب، وإنما كسرت راؤه تغييراً في النسب، نحو: إمسي بالكسر منسوب إلى أمس، وقرأ عليٌّ وابن مسعود وابن عباس والحسن ﴿ربيون﴾ بضم الراء، وهو من تغيير النسب إن قلنا: هو منسوب إلى الرب. وقرأ ابن عباس في رواية قتادة بفتح الراء على الأصل إن قلنا: منسوبٌ إلى الرب، وإلا فمن تغيير النسب إن قلنا: إنه منسوبٌ إلى الربة بمعنى الجماعة.

وقرأ الجمهور ﴿وَهَنُوا۟﴾ بفتح الهاء وقرأ الأعمش، والحسن، وأبو السمال، بكسرها، وهما لغتان، وهن يهن كوعد يعد، ووهن يوهن، كوجل يوجل. وقرأ عكرمة، وأبو السمال أيضاً بإسكان الهاء على تخفيف المكسور، كما قالوا: نعم في نعم، وشهد في شهد، وتميمٌ تسكن عين فعل وقرىء ﴿ضعفوا﴾ بفتح العين وبإسكانها[1].

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾؛ أي: قول الربيين عند لقاء العدو، واقتحام مضايق الحرب، وإصابة ما أصابهم من فنون الشدائد والأهوال، أو عند قتل نبيهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ هذا الدعاء الآتي، وقولهم بالنصب خبرٌ لكان واسمها أن وما بعدها، أي: وما كان قولهم إلا قولهم هذا الدعاء أي هو دأبهم وديدنهم، وهذه قراءة الجمهور.

وقرأ[2] ابن كثير، وعاصم في رواية عنهما برفع قولهم على أنه اسم كان والخبر جملة أن وما في حيزها. وقراءة الجمهور أولى، لأنه إذا اجتمع معرفتان: فالأولى أن تجعل الأعرف منهما اسماً، وأن وما في حيِّزها أعرف قالوا: لأنها تشبه المضمر من حيث إنها تضمر، ولا توصف، ولا يوصف بها. وقولهم: مضاف للمضمر فهو في رتبة العلم، فهو أقل تعريفاً اهـ سمين.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، أي: صغائرنا وكبائرنا ﴿وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾؛ أي: إفراطنا وتجاوزنا الحد في أمر ديننا، بارتكاب الكبائر، والظاهر أن الذنوب تعم

---

(١) الشوكاني. (٢) الجمل.

كل ما يسمى ذنباً من صغيرة، أو كبيرة والإسراف ما فيه مجاوزةٌ للحدِّ، فهو من عطف الخاص على العام. وإنما أضافوا الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين برآء من التفريط في جنب الله تعالى هضماً لها، واستقصاراً لهم وإسناداً لما أصابهم إلى أعمالهم. وقدموا الدعاء بمغفرتها على ما هو الأهم بحسب الحال من الدعاء بقولهم: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ في مواطن الحرب بالتقوية والتأييد من عندك أو بإزالة الخوف من القلوب وإزالة الخواطر الفاسدة من الصدور أو ثبتنا على دينك الحق ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بالمصابرة والمجاهدة تقريباً له إلى حيز القبول، فإن الدعاء، المقرون بالخضوع الصادر عن ذكاء وطهارة أقرب إلى الاستجابة.

والمعنى: لم يزالوا مواظبين على هذا الدعاء من غير أن يصدر منهم قولٌ يوهم شائبة الجزع والتزلزل في مواقف الحرب، ومراصد الدِّين، وفيه من التعريض للمنهزمين عن النبيِّ ﷺ يوم أحد ما لا يخفى، ذكره، أبو السعود.

والخلاصة: أن هؤلاء الربّيين لم يكن لهم من قولٍ عند اشتداد الخطوب، ونزول الكوارث إلا الدعاء، لربهم بأن يغفر لهم بجهادهم، ما كانوا ألموا به من الذنوب، وتجاوزوا حدود الشرائع، وأن يثبت أقدامهم على الصراط القويم، الذي هداهم إليه حتى لا تزحزحهم الفتن، ولا يعروهم الفشل، والوهن حين مقابلة الأعداء، وأن ينصرهم على القوم الكافرين الذين يجحدون الآيات، ويعتدون على أهل الحق، فلا يمكنونهم من إقامة ميزان القسط، فما النصر إلا من عند الله يؤتيه من يشاء بمقتضى السنن التي هدى إليها خلقه، وألهمها عباده.

وفي هذا إيماءٌ إلى أن الذنوب والإسراف في الأمور من عوامل الخذلان والطاعة والثبات والاستقامة من باب النصر والفلاح، ومن ثم سألوا ربهم أن يمحو من نفوسهم أثر الذنوب، وأن يوفقهم إلى دوام الثبات حين تزل الأقدام.

وفي طلبهم النصر من الله مع كثرة عددهم التي دلَّ عليها قوله: ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ إعلامٌ بأنهم لا يعولون على كثرة العدد بل يطلبون العون والمدد الروحاني من الله تعالى بثبات الأقدام والتمسك بأهداب الحقِّ.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ قرأ الجحدري ﴿فأثابهم﴾ من الإثابة؛ أي: أعطاهم الله تعالى بسبب هذا الدعاءِ جزاء الدنيا بالنصر على الأعداء والظفر بالغنيمة، والسيادة في الأرض، والكرامة، والعزة، وحسن الأحدوثة، والثناء الجميل، وانشراح الصدر بنور الإيمان، وزوال ظلمات الشبهات، وكفارة المعاصي، والسيئات، وإنما سمي ذلك ثواباً لأنه جزاءٌ على الطاعة وامتثال أوامر الله تعالى.

﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: ثواب الآخرة الحسن بنيل رضوان الله ورحمته، والقرب منه في دار الكرامة، وقد فسر بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ وبقوله: في الحديث: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر» وما حصلوا على ذلك إلا بما قدموا من صالح العمل الذي كان له أحسن الأثر في نفوسهم، فارتقت به إلى حظيرة القدس. والمعنى: حكم الله لهم بحصول الجنة، وما فيها من المنافع واللذات وأنواع السرور والتعظيم في الآخرة.

وإنما خصَّ ثواب الآخرة بالحسن إيذاناً بشرفه وفضله، لأنه غير زائل وثوابٌ لا يشوبه أذى ولا تنغيصٌ، وبأنه المعتدُّ به عند الله تعالى بخلاف ثواب الدنيا؛ فإنه قليلٌ سريع الزوال، وعرضة للأذى والمنغصات وترغيباً في طلب ما يحصله من العمل الصالح، ومناسبة لآخر الآية.

وإنما جمع الله لهم بين الثوابين؛ لأنهم أرادوا بعملهم هاتين السعادتين سعادة الدنيا، وسعادة الآخرة كما هو شأن المؤمن ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً﴾.

وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: من عمل لدنياه أضر بآخرته، ومن عمل لآخرته أضر بدنياه، وقد يجمعهما الله تعالى لأقوامٍ.

وهذه الآية وأشباهها حجة على الغالين في الزهد الذين يتحرجون عن الاستمتاع بشيء من لذات الدنيا، ويعدون ذلك منافياً للتقوى ومبعداً عن رضوان الله تعالى.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: المعترفين بكونهم مسيئين مقصِّرين، فلما اعترفوا بذلك سماهم الله محسنين، كأنه تعالى يقول لهم: إذا اعترفتم بإساءتكم وعجزكم.. فأنا أصفكم بالإحسان، وأجعلكم أحباء لنفسي حتى تعلموا أنه لا سبيل للعبد إلى الوصول إلى رضا الله تعالى، إلا بإظهار الذلة والمسكنة والعجز.

وقال أبو حيان: وفسَّر المفسرون ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ هنا بأحد معنيين:

الأول: من أحسن ما بينه وبين ربه بلزوم طاعته.

والثاني: من ثبت في القتال مع نبيه حتى يقتل أو يغلب؛ لأنهم هم الذين يقيمون سننه في أرضه، ويظهرون أعمالهم، وأنهم جديرون بخلافة الله فيها، ولا تكون أعمالهم إلا بما يرضى الله تعالى، فهي من الله ولله. وفي هذا تعليمٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يقولوا مثل هذا: عند لقاء العدو، وفيه دقيقةٌ لطيفةٌ، وهي أنهم لمَّا اعترفوا بذنوبهم، وكونهم مسيئين سماهم الله تعالى محسنين.

الإعراب

﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

﴿وَسَارِعُوٓا۟﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، أو عاطفة. ﴿سارعوا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ عطفاً تفسيرياً ﴿إِلَىٰ﴾ ﴿مَغْفِرَةٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿سارعوا﴾. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف صفة لـ ﴿مَغْفِرَةٍ﴾ تقديره: كائنة من ربكم. ﴿وَجَنَّةٍ﴾ معطوف على مغفرة. ﴿عَرْضُهَا﴾ مبتدأ، ومضاف إليه. ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ خبر. ﴿وَٱلْأَرْضُ﴾ معطوف عليه، ولكنه على حذف مضاف تقديره: مثل عرض السموات والأرض، والجملة الاسمية في محل الجر صفة ﴿أُوْلَى﴾ لـ ﴿جنة﴾ ﴿أُعِدَّتْ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿جنة﴾. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجر صفة ثانية لـ ﴿جنة﴾. ويجوز[1] أن تكون حالاً

---

(١) العكبري.

منها؛ لأنها قد وصفت، وأن تكون مستأنفة.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل الجر صفة للمتقين، ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أعني، وأن يكون مرفوعاً بإضمار هم، فيجوز فيه الأوجه الثلاثة. ﴿يُنفِقُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿فِي ٱلسَّرَّآءِ﴾ متعلق بـ ﴿يُنفِقُونَ﴾. ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّرَّآءِ﴾.

﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿الكاظمين﴾ معطوف على الموصول مجرور على كونه صفةً لـ ﴿المتقين﴾، ويجوز النصب بفعل محذوف تقديره: أمدح، وهو اسم فاعل يعمل عمل الفعل الصحيح يرفع الفاعل، وفاعله مستتر فيه تقديره: هم. ﴿ٱلْغَيْظَ﴾ مفعوله منصوب ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿العافين﴾ معطوف على الموصول أيضا على كونه صفة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ ويجوز نصبه بفعل محذوف. ﴿عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ متعلق به ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿الواو﴾ اعتراضية ﴿الله﴾ مبتدأ. ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر عن الجلالة، والجملة الاسمية معترضة لاعتراضها بين المتعاطفين.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿الذين﴾ اسم موصول للجمع المذكر معطوف على الموصول قبله، فيجوز فيه الأوجه الثلاثة السابقة، الجر على كونه صفة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، والقطع إلى النصب والرفع، ويجوز[1] أن يكون قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً﴾ مرفوعاً بالابتداء و﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ثان و﴿جَزَآؤُهُم﴾ مبتدأ ثالث

(١) الفتوحات.

و﴿مَّغۡفِرَةٌ﴾ خبر الثالث والثالث وخبره خبر الثاني، والثاني وخبره خبر الأول، ﴿إِذَا فَعَلُواْ﴾ ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان في محل النصب على الظرفية، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿فَعَلُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿فَٰحِشَةً﴾ مفعول به. ﴿أَوۡ﴾ حرف عطف: ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾ فعل وفاعل. ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، والجملة في محل الخفض معطوفة على جملة فعلوا على كونها فعل شرط لـ﴿إذا﴾ ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية جواب ﴿إذا﴾ لا محلَّ لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ من فعل شرطها وجوابها صلة الموصول. ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. ﴿استغفروا﴾ فعل وفاعل، واستغفر يتعدى إلى مفعولين، وكلاهما هنا محذوف تقديره؛ فاستغفروا الله ذنوبهم. ﴿لِذُنُوبِهِمۡ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿استغفروا﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿ذَكَرُواْ﴾ على كونها جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ ﴿الواو﴾ اعتراضية. ﴿مَن﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ فعل ومفعول به، وفاعله ضمير مستتر فيه يعود على ﴿مَن﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناءٍ مفرغ. ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ بدل من الضمير المستتر في ﴿يَغۡفِرُ﴾ والجملة الاسمية جملة معترضة لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين المتعاطفين أعني: قوله: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ﴾، وقوله الآتي ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ﴾. ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿لم يصروا﴾ جازم وفعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ﴾ على كونها جواب ﴿إِذَا﴾. ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ ﴿عَلَىٰ مَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿يُصِرُّواْ﴾. ﴿فَعَلُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لِما، أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: على ما فعلوه. ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿الواو﴾ حالية. ﴿هم﴾ مبتدأ. ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ فعل وفاعل والمفعول محذوف لعلمه تقديره: ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ المؤاخذة بها أو عفو الله عنها، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، تقديره: وهم عالمون بها، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ضمير ﴿يُصروا﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ

وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ مبتدأ أول. ﴿جَزَآؤُهُم﴾ مبتدأ ثان، ومضاف إليه ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ خبر للمبتدأ الثاني. ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف صفة لـ ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ والجملة من المبتدأ الثاني، وخبره في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول، وخبره مستأنفة، وقد سبق لك قريباً ما في هذه الجملة من أوجه الإعراب غير ما ذكرناه هنا فراجعه. ﴿وَجَنَّـٰتٌ﴾ معطوف على مغفرة. ﴿تَجْرِى﴾ فعل مضارع. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بتجري. ﴿ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع صفة لـ ﴿جنات﴾. ﴿خَـٰلِدِينَ﴾[1] حال من الضمير في ﴿جَزَآؤُهُم﴾ لأنه مفعول به في المعنى، لأن المعنى يجزيهم الله جنات في حال خلودهم، وتكون حالاً مقدرة، ولا يجوز أن تكون حالاً من ﴿جنات﴾ في اللفظ، وهي لأصحابها في المعنى؛ إذ لو كان كذلك.. لبرز الضمير لجريان الصفة على غير من هي له. ﴿فِيهَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿خالدين﴾. ﴿وَنِعْمَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿نعم﴾ فعل ماض؛ وهو من أفعال المدح. ﴿أَجْرُ﴾ فاعل. ﴿ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ مضاف إليه، والجملة من الفعل، والفاعل في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف وجوباً، يسمى المخصوص بالمدح تقديره ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ الجنة، والجملة من المبتدأ المحذوف، وخبره في محل الرفع معطوفة على ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ على كونها خبراً للمبتدأ الثاني: تقديره: أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم، ومقولٌ في جزائهم نعم أجر العاملين.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾.

﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق. ﴿خَلَتْ﴾ فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿خَلَتْ﴾. ﴿سُنَنٌ﴾ فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت

---

(١) الفتوحات.

عن شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أنه قد خلت من قبلكم سننٌ، وشككتم فيها، وأردتم تيقنها، والاعتبار بها.. فأقول لكم: سيروا في الأرض لتعتبروا بما ترون من آثار هلاكهم؛ ويجوز أن تكون الفاء عاطفة. ﴿سيروا﴾ فعل وفاعل. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، أو معطوفة على جملة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ وعبارة[1] الكرخي هنا، ودخلت الفاء لأن المعنى على الشرط؛ أي: إن شككتم فسيروا في الأرض لتعتبروا بما ترون من آثار هلاكهم، وهذا مجازٌ عن إجالة الخاطر. **والحاصل**: أن المقصود تعرف أحوالهم فإن تيسر بدون السير في الأرض.. كان المقصود حاصلاً انتهت. ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. ﴿انظروا﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿سيروا﴾. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام عن الحال في محل النصب خبر مقدم لـ ﴿كَانَ﴾. ﴿كَانَ﴾، فعل ماضٍ ناقص. ﴿عَٰقِبَةُ﴾ اسمها. ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ مضاف إليه، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب مفعول لـ﴿انظروا﴾ تقديره: فانظروا حال عاقبة المكذبين.

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾.

﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ. ﴿بَيَانٌ﴾ خبر، والجملة مستأنفة. ﴿لِّلنَّاسِ﴾ متعلق بمحذوف صفة لـ ﴿بَيَانٌ﴾ أو متعلق به. ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ﴾ معطوفان على ﴿بَيَانٌ﴾ ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ تنازع فيه كل من ﴿هدى﴾ و﴿موعظة﴾ على أنه متعلق بهما، أو صفة لهما.

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿لا﴾ ناهية. ﴿تَهِنُواْ﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، والجملة مستأنفة، وفي «الجمل» قوله: ﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾ هذا وما عطف عليه معطوفان في المعنى على قوله ﴿فَسِيرُواْ﴾ في الأرض الخ. انتهى. وكذلك قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ جازم وفعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة

---

(١) الجمل.

﴿وَلَا تَهِنُوا﴾. ﴿وَأَنتُمُ﴾ الواو حالية. ﴿أنتُم﴾ مبتدأ. ﴿ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ خبر مرفوع بالواو، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تَهِنُوا﴾ أو ﴿تَحْزَنُوا﴾. ﴿إِن كُنتُم﴾ ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿كُنتُم﴾ فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ ﴿إنْ﴾. ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ خبر ﴿كان﴾ وجواب ﴿إنْ﴾ معلوم مما قبلها تقديره: إن كنتم مؤمنين فأنتم الأعلون لأن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، وجملة إن الشرطية مستأنفة.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾.

﴿إن﴾ حرف شرط جازم. ﴿يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ فعل ومفعول، وفاعل مجزوم بإن الشرطية. ﴿فَقَدْ مَسَّ﴾ الفاء رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب مقروناً بقد. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ﴾ فعل ومفعول وفاعل. ﴿مِّثْلُهُۥ﴾ نعت لقرح ومضاف إليه، والجملة في محل الجزم بإن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة إن الشرطية مستأنفة، وفي «الجمل»: قوله[1]: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ جواب الشرط محذوف؛ أي: فتأسوا، ومن زعم أن جواب الشرط ﴿فَقَدْ مَسَّ﴾ فهو غالط؛ لأن الماضي معنى يمتنع أن يكون جوابا للشرط، وللنحويين في مثل هذا تأويلٌ، وهو أن يقدروا شيئاً مستقبلاً، لأنه لا يكون التعليق إلا في المستقبل، كما مرت الإشارة إليه. اهـ كرخي، وذلك التأويل هو التبيين؛ أي: فقد تبين مس القرح للقوم اهـ سمين.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

﴿وَتِلْكَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿تلك﴾. مبتدأ. ﴿ٱلْأَيَّامُ﴾ بدل أو عطف بيان أو نعت لاسم الإشارة. ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾. ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿نداول﴾، الجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

---

(١) الجمل.

﴿وَلِيَعۡلَمَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة على محذوف تقديره: نداولها بين الناس ليتعظوا، وليعلم الله، وقيل: إن الواو زائدة. ﴿اللام﴾ لام كي. ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مفعول به لأن، ﴿علم﴾ هنا بمعنى عرف، يتعدى إلى مفعول واحد ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل، والجملة من الفعل والفاعل، صلة أن المضمرة، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: ولعلم الله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور المحذوف المتعلق بقوله ﴿نداولها﴾ تقديره: وتلك الأيام نداولها بين الناس لاتعاظهم، ولعلم الله الذين آمنوا. ﴿وَيَتَّخِذَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿يتخذ﴾ فعل مضارع معطوف على قوله: ﴿ليعلم﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ ﴿مِنكُمۡ﴾ متعلق بـ ﴿يتخذ﴾. على كونه مفعول أول لـ﴿يتخذ﴾ ﴿شُهَدَآءَ﴾ مفعول ثان ﴿لِيَتَّخِذَ﴾ والمعنى ويتخذ بعضكم شهداء ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿الواو﴾ اعتراضية. ﴿الله﴾ مبتدأ. ﴿لا﴾ نافية. ﴿يُحِبُّ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾. ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جملة معترضة لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين العلل المتعاطفات.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ليمحص﴾ ﴿اللام﴾ لام كي. ﴿يمحص﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مفعول به. وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾ صلة الموصول، وجملة ﴿يمحص﴾ صلة أن المضمرة وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور تقديره: ولتمحيص الله. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. ﴿وَيَمۡحَقَ﴾ معطوف على ﴿يمحص﴾ وفاعله ضمير يعود على الله ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ مفعول به.

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾.

﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى بل التي للإضراب الانتقاليِّ، والهمزة التي للاستفهام الإنكاريِّ، والمعنى[1]: لا تظنوا أيها المؤمنون أنكم تدخلون الجنة مع السابقين بمجرد الإيمان من غير جهاد، ولا صبر بل مع الجهاد، والصبر، وهو خطاب لأهل أحدٍ حيث أمروا بالقتال مع كونهم جرحى، وشدد عليهم في ذلك، والمقصود من ذلك تعليم من يأتي بعدهم، وإلا فهم قد جاهدوا في الله حق جهاده وصبروا صبراً جميلاً. ﴿حَسِبْتُمْ﴾ فعل وفاعل. ﴿أنْ﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول منصوب بـ ﴿أن﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية، و﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر سادٍ مسدَّ مفعولي حسب، والتقدير: لا تحسبوا دخولكم الجنة. ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾ حالية. ﴿لما﴾ حرف نفي وجزم تفيد توقع الجهاد منهم في المستقبل، فلذا عبر بها دون لم. ﴿يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لما﴾ وعلامة جزمه سكون مقدر منع من ظهوره اشتغال المحل، بحركة التخلص من التقاء الساكنين، وجملة ﴿يعلم﴾ من الفعل والفاعل في محل النصب حال من فاعل ﴿تَدْخُلُوا۟﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مفعول به. ﴿جَٰهَدُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿مِنكُمْ﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿جَٰهَدُوا۟﴾. ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة معية. ﴿يَعْلَمَ﴾ منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد واو المعية الواقعة في جواب النفي. ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، مفعول به، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، ،أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى، والتقدير: أم حسبتم أن تدخلوا الجنة، ولما يكن علم الله الذين جاهدوا منكم، وعلمه الصابرين: أي: لا تحسبوا ذلك.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. و﴿اللام﴾ موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ فعل وفاعل ومفعول،

---

(١) الصاوي.

والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾ من اسمها وخبرها، جواب القسم لا محلَّ لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة. ﴿مِن قَبْلِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿تَمَنَّوْنَ﴾. ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿تَلْقَوْهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول منصوب بأن، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من قبل لقائكم إياه. ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. قد حرف تحقيق. ﴿رأيتموه﴾ فعل وفاعل ومفعول، لأن ﴿رأى﴾ بصرية، والجملة معطوفة على جملة ﴿تَمَنَّوْنَ﴾. ﴿وَأَنتُمْ﴾ ﴿الواو﴾ حالية. ﴿أنتم﴾ مبتدأ وجملة ﴿تَنظُرُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿رَأَيْتُمُوهُ﴾.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾ نافية. ﴿مُحَمَّدٌ﴾ مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿رَسُولٌ﴾ خبر، والجملة مستأنفة. ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق. ﴿خَلَتْ﴾ فعل وتاء تأنيث. ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿خلت﴾ ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ فاعل ﴿خَلَتْ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع صفةٌ لـ ﴿رَسُولٌ﴾.

﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾.

﴿أَفَإِيْن﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف تقديره: أتؤمنون به مدة حياته؟ ﴿الفاء﴾ عاطفة ما بعدها على ذلك المحذوف، ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿مَّاتَ﴾ فعل ماضي في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿أَوْ قُتِلَ﴾ فعل ماضي مغير الصيغة معطوف على ﴿مَّاتَ﴾ ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مُحَمَّدٌ﴾. ﴿ٱنقَلَبْتُمْ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونه جواباً لها. ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بـ﴿انقلب﴾ أو حال من فاعل ﴿ٱنقَلَبْتُمْ﴾ أي: راجعين على أعقابكم، كما ذكره العكبري. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية من فعل شرطها، وجوابها معطوفة على الجملة المحذوفة على كونها مستأنفة كما مر آنفاً، وجملة الجواب هي محل الاستفهام الإنكاري، أي: إنكار انقلابهم وارتدادهم

عن الدين، ﴿فالهمزة﴾ داخلة عليها في المعنى، والتقدير: أأنقلبتم على أعقابكم إن مات، أو قتل أي لا ينبغي منكم الانقلاب والارتداد حينئذٍ كما بيناه في بحث التفسير.

﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿من﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ. ﴿يَنقَلِبْ﴾ فعل مضارع مجزوم بمن على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، وخبر ﴿من﴾ الشرطية إما جملة الشرط أو الجواب، أو هما معاً. ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يَنقَلِبْ﴾. ﴿فَلَن﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب من الشرطية وجوباً لاقترانه بـ ﴿لن﴾. ﴿يَضُرَّ﴾ فعل مضارع منصوب بـ ﴿لَنْ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، والجملة في محل الجزم على كونها جواباً لها، وجملة من الشرطية مستأنفة. ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ مفعول به. ﴿شَيْـًٔا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة أي؛ ضرراً شيئاً. ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾ نافية. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص. ﴿لِنَفْسٍ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم على اسمها. ﴿أَن﴾ حرف نصب. ﴿تَمُوتَ﴾ منصوب بـ﴿أن﴾ وفاعله ضمير يعود على نفس، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية و﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع، على كونه اسم ﴿كان﴾ مؤخراً، تقديره؛ وما كان الموت إلا بإذن الله كائناً لنفس. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿تَمُوتَ﴾. ﴿كِتَٰبًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة بعامل محذوف تقديره: كتب الله الموت على كل نفس ﴿كتاباً﴾. ﴿مُّؤَجَّلًا﴾ صفة لـ ﴿كِتَٰبًا﴾ والجملة المحذوفة مؤكدة لمضمون الجملة المذكورة قبلها.

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿من﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿يُرِدْ﴾ مجزوم بـ ﴿مَنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿نُؤْتِهِۦ﴾ جواب الشرط مجزوم بـ ﴿مَنْ﴾ والهاء مفعول أول. ﴿مِنْهَا﴾ جار ومجرور في محل المفعول الثاني، لأنّ أتى هنا بمعنى: أعطى وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾ وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ الواو عاطفة. ﴿من﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط. ﴿يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ فعل ومفعول ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ ﴿نُؤْتِهِۦ﴾ جواب الشرط، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾. والهاء مفعول أول. ﴿مِنْهَا﴾ في محل المفعول الثاني، وجملة ﴿من﴾ معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى. ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿سنجزى﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ مفعول به، والجملة مستأنفة.

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾.

﴿وَكَأَيِّن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿كأين﴾ اسم بمعنى كم الخبرية التكثيرية في محل الرفع، مبتدأٌ مبنيٌّ بسكون على النون المدغمة في ميم من لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً لتضمنه معنى رب التكثيرية. ﴿مِّن﴾ زائدة. ﴿نَّبِيٍّ﴾ تمييز له. ﴿قَٰتَلَ﴾ فعل ماض، وفعله ضمير يعود على كأيّن، والجملة في محلّ الرفع خبر المبتدأ والتقدير: وكثير من الأنبياء مقاتل، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿مَعَهُۥ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿رِبِّيُّونَ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿كَثِيرٌ﴾ صفة له، والجملة في محل النصب حال من فاعل قاتل، والتقدير حال كون الربيين معه في القتال.

﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾ استئنافية. ﴿ما﴾ نافية. ﴿وَهَنُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لِمَآ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿وَهَنُوا۟﴾. ﴿أَصَابَهُمْ﴾ فعل ومفعول

والفاعل ضمير يعود على ﴿ما﴾ والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها. ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿أَصَابَهُمْ﴾. ﴿وَمَا ضَعُفُوا۟﴾ ﴿ما﴾ نافية. ﴿ضَعُفُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَهَنُوا۟﴾. وكذلك جملة ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ معطوفة على جملة ﴿وَهَنُوا۟﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ. ﴿يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فعل ومفعول، والفاعل ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة خبر عن الجلالة، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ما﴾ نافية. ﴿كَانَ﴾ فعل ماضٍ ناقص. ﴿قَوْلَهُمْ﴾ خبر ﴿كان﴾ مقدم على اسمها، ومضاف إليه. ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء مفرغ. ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿قَالُوا۟﴾ فعل وفاعل في محل النصب بأن المصدرية، وجملة ﴿قال﴾ من الفعل والفاعل، صلة ﴿أن﴾ المصدرية و﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿كان﴾، والتقدير: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ إلا قولهم هذا الدعاء، وهذا الوجه أولى من عكسه، كما سبق تعليله في بحث التفسير، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا۟﴾. ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ ﴿قالوا﴾، وإن شئت قلت: ﴿رَبَّنَا﴾ منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء مقول القول. ﴿ٱغْفِرْ﴾ فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾. ﴿لَنَا﴾ متعلق به. ﴿ذُنُوبَنَا﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب مقول القول ﴿وَإِسْرَافَنَا﴾ معطوف على ﴿ذُنُوبَنَا﴾ ﴿فِىٓ أَمْرِنَا﴾ متعلق بـ﴿إسرافنا﴾ ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ فعل ومفعول، ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على الله والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱغْفِرْ﴾ على كونها جواب النداء ومقول القول ﴿وَٱنصُرْنَا﴾ فعل ومفعول والفاعل ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿اغفر﴾ ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ جار ومجرور، وصفة متعلق بـ ﴿انصرنا﴾.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة سببية. ﴿ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ مفعول ثان ومضاف إليه؛ لأن آتى بعنى أعطى، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾؛ لأن هذه الجملة مسببة عن تلك الجملة ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأٓخِرَةِ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿حسن﴾ معطوف على ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو مضاف. ﴿ثَوَابِ ٱلْأٓخِرَةِ﴾ مضاف إليه، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف كما مر ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ جملة فعلية في محل الرفع خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ من باب فاعل والمفاعلة ليست على بابه، بل المراد منه أصل الفعل، والمسارعة إلى المغفرة والجنة؛ المبادرة إلى الأسباب الموصلة إليهما من الأعمال الصالحة، كالإقبال على الصدقات، وعمل الخيرات، والتوبة عن الآثام كالربا، ونحوه ﴿عَرْضُهَا﴾ والعرض: السعة بقطع النظر عن مقابل له، فليس العرض في مقابلة الطول، بل المراد به مطلق السعة، والعرب تقول: دعوى عريضة؛ أي: واسعة عظيمة. ولفظ العرض يطلق على هذا المعنى وعلى ما يقابل الطول، وهو أقصر الامتدادين، وكل من الإطلاقين حقيقيٌّ كما ذكره «القاموس».

﴿ٱلسَّرَّآءِ﴾ الحالة التي تسر ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ الحالة التي تضر ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾، وهو اسم فاعل من كظم من باب: ضرب يقال: كظم القربة أي ملأها وشد رأسها، وكظم الباب سدَّه، وكظم البعير جرته إذا ازدردها وكف عن الاجترار. والكظم الحبس يقال: كظم غيظه إذا حبسه فهو كاظمٌ وكظمه الغيظ، والغم إذا أخذ بنفسه فهو مكظومٌ وكظيم. قال تعالى: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ وأخذ فلانٌ بكظم فلان، إذا أخذ بمجرى نفسه. والغيظ ألم يعرض للنفس إذا هضم حقٌّ من حقوقها المادية، كالمال أو المعنوية كالشرف والعرض، فيزعجها ذلك، ويحفزها على التشفِّي والانتقام.

﴿وَٱلْعَافِينَ﴾ اسم فاعل من عفا يعفو من باب دعا. والعفو عن الناس: التجاوز عن ذنوبهم، وترك مؤاخذتهم مع القدرة على ذلك ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ﴾ من أصر

الرباعي يصر إصراراً. والإصرار اعتزام الدوام على الشيء، وترك الإقلاع عنه من صر الدنانير إذا ربط عليها، ومنه صرة الدنانير لما يربط منها ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أصل ﴿تَهِنُوا﴾ توهنوا حذفت الواو لوقوعها بين ياءٍ وكسرة في الأصل، ثم أجريت حروف المضارعة مجرى الياء، في ذلك يقال: وهن بالفتح في الماضي يهن بالكسر في المضارع، ونقل أنه يقال: وهن ووهن بضم الهاء وكسرها في الماضي، ووهن يستعمل لازماً ومتعدياً، يقال: وهن زيدٌ إذا ضعف قال تعالى: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ ووهنته إذا أضعفته. ومنه الحديث: «وهنتهم حمى يثرب»؛ أي: أضعفتهم، والمصدر على الوهن، والوهن بفتح العين وسكونها.

﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ ﴿ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ جمع أعلى، والأصل: أعليون فتحركت الياء، وانفتح ما قبلها، فانقلبت ألفاً، ثم حذفت لالتقاء الساكنين، وبقيت الفتحة لتدل عليها، وإن شئت قلت: استثقلت الضمة على الياء، فحذفت، فالتقى ساكنان أيضاً، الياء، والواو، فحذفت الياء لالتقاء الساكنين، وإنما احتجنا إلى ذلك؛ لأن واو الجمع لا يكون ما قبلها إلاّ مضموماً لفظاً أو تقديراً، وهذا مثال التقدير اهـ سمين.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ داول من باب فاعل، والمداولة المناوبة على الشيء، والمعاودة وتعهده مرةً بعد أخرى، يقال: داولت بينهم الشيء فتداولوه، كأن المفاعلة بمعنى أصل الفعل. وعبارة «الخازن»: المداولة نقل الشيء من واحد إلى واحد آخر، يقال: تداولته الأيدي إذا انتقل من واحد إلى آخر، والمعنى: إنَّ أيام الدنيا دول بين الناس، يوم لهؤلاء، ويوم لهؤلاء، فكانت الدولة للمسلمين يوم بدر، وللكفار يوم أحد. انتهى.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ أصل المحص كالفحص في اللغة: التنقية، والإزالة، لكن الفحصُ يقال: في إبراز الشيء عن خلال أشياء منفصلة عنه، والمحص في إبرازه عن أشياء متصلة به. وفي «القاموس»: محص الذهب بالنار ـ من باب منع ـ أخلصه مما يشوبه، والتمحيص الابتلاء، والاختبار: انتهى. وأصل المحق نقص الشيء قليلاً قليلاً.

﴿وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾ أصل هذا الفعل: استكن من السكون؛ لأن الخاضع يسكن لصاحبه ليصنع به ما يريد. والألف تولدت من إشباع الفتحة، وعبارة السمين في هذا الفعل ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه استفعل من السكون والسكون، الذل وأصله: استكون، فنقلت حركة الواو على الكاف ثم قلبت الواو ألفاً.

والثاني: قال الأزهري: وأبو عليّ ألفه: من ياء، والأصل استكين ففعل بالياء ما فعل بالواو.

والثالث: قال الفراء: وزنه افتعل من السكون، وإنّما أشبعت الفتحة فتولد منها ألف كقوله:

أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلْعَقْرَابِ ٱلشَّائِلاَتِ عُقَدَ ٱلأَذْنَابِ

يريد: العقرب الشائلة. انتهت.

البلاغة

﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾ فيه مجازٌ مرسلٌ؛ لما فيه من إطلاق المسبب، وإرادة السبب، أي: بادروا إلى سببهما، وهو الأعمال الصالحة.

﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾؛ أي: كعرضهما، فيه تشبيه بليغ، وهو ما حذفت فيه الأداة ووجه الشبه.

﴿ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ فيه من المحسنات البديعية: الطباق ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ والعدول فيه إلى صيغة الفاعل؛ للدلالة على الاستمرار والدوام. وأما الإنفاق، فلما كان أمراً متجدداً؛ عبر عنه بما يفيد التجدد والحدوث.

﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ الاستفهام فيه إنكاريٌّ: بمعنى النفي، ولذلك وقع بعده الاستثناء، والمعنى لا يغفر الذنوب إلا الله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم﴾ الإشارة بالبعيد للإشعار ببعد منزلتهم، وعلو طبقتهم في الفضل.

﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ليس المراد خصوص السير، بل المراد استعلام ما وقع للأمم الماضية بسيرٍ أو غيره، بل هو مجازٌ عن إجالة الخاطر في ذلك، ثم التأمل للتسلي والاتعاظ.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ فيه التفات من التكلم إلى الغيبة، والسر في هذا الالتفات تعظيم شأن الجهاد في سبيل الله.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ونفي المحبة فيه كنايةٌ عن البغض، وفي إيقاعه على الظالمين تعريض بمحبته تعالى لمقابليهم.

﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ فيه توبيخٌ لهم على أنهم تمنوا الحرب، وتسببوا فيها، ثم جبنوا وانهزموا عنها، أو توبيخٌ لهم على الشهادة، فإن في تمنيها تمني غلبة الكافرين، وفي إيثار الرؤية على الملاقاة، وتقييدها بالنظر مزيد مبالغةٍ في مشاهدتهم له.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ القصر فيه قصر قلب، للرد عليهم في اعتقادهم؛ أنه معبودٌ، وهم وإن لم يعتقدوا ذلك حقيقةً لكن نزلوا منزلة من اعتقد ألوهيته لا رسالته؛ حيث رجعوا عن الدين الحق؛ لما سمعوا بقتله فكأنهم اعتقدوه معبوداً، وقد مات فرجعوا عن عبادته.

﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ وهذا كنايةٌ عن الرجوع للكفر، لا حقيقة الانقلاب على الأعقاب الذي هو السقوط إلى خلف. قال في «تلخيص البيان»: هذه استعارةٌ، والمراد به الرجوع عن دينه، فشبه سبحانه الرجوع في الإرتياب بالرجوع على الأعقاب.

وقال أبو حيان[1]: وقد تضمنت هذه الآيات فنوناً من الفصاحة والبديع والبيان:

من ذلك: الاعتراض في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وفي قوله: ﴿وَمَن

(١) البحر المحيط.

﴿يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ومنها: تسمية الشيء باسم سببه في قوله: ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾، وقيل: هذه استعارة.

ومنها: الإضافة إلى الأكثر في قوله: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، وهي معدَّة لهم، ولغيرهم من العصاة.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾، وفي قوله: ﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾ و﴿ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾؛ لأن الوهن والعلو ضدان، وفي قوله: ﴿ءَامَنُواْ﴾ و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، لأن الظالمين هم الكافرون، وفي قوله: ﴿ءَامَنُواْ﴾ ﴿وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

ومنها: العامُّ الذي يراد به الخاصُّ في قوله: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ يعني: من ظلمهم أو المماليك.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ﴾ ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ﴾، وفي قوله: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ﴾ ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ﴾ ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ﴾، وفي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ﴾.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، و﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾، و﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾، و﴿وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، و﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، و﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، و﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، و﴿وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿فَسِيرُواْ﴾، على أنه من سير الفكر لا من سير القدم. و﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ إذ لم تكن من علو المكان، و﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا﴾، و﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ و﴿يمحق﴾.

ومنها: الإشارة في قوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ﴾، وفي قوله: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ﴾.

ومنها: إدخال حرف الشرط في الأمر المحقق في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، إذا علق عليه النهي.

ومنها: الاستفهام الذي معناه الإنكار في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ﴾ ﴿وَمَن يَنقَلِبْ﴾، و﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ﴾.

ومنها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾.

ومنها: تسمية الشيء باسم سببه في قوله: ﴿تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾؛ أي: الجهاد في سبيل الله. وفي قوله: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ فيمن فسَّر ذلك بالقلوب؛ لأنَّ ثبات الأقدام متسبَّب عن ثبات القلوب.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ﴾ ﴿ويعلم﴾ لاختلاف المتعلَّق، أو للتنبيه على فضل الصابر. وفي قوله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ لأنَّ العرف في الموت خلاف العرف في القتل، والمعنى مفارقة الروح الجسد فهو واحد، و﴿مَنْ﴾ في ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ﴾ الجملتين، وفي قوله: ﴿ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا﴾ في قول من سوى بينهما.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ...﴾ مناسبتها لما قبلها ظاهرةٌ، فإنه سبحانه وتعالى لمَّا رغَّب المؤمنين في الاقتداء بأنصار الأنبياء عليهم السلام ببيان مالهم من الفضل، وعظيم الأجر، وحسن العاقبة.. نهاهم عن متابعة الكفار ببيان سوء عاقبتها في دينهم، ودنياهم،

والخطاب فيها موجهٌ إلى كل من سمع من المؤمنين مقالة أولئك القائلين من المنافقين: ارجعوا إلى إخوانكم، ودينكم فإن الكفار لما أرجفوا أن النبيَّ ﷺ قد قتل، دعا المنافقون بعض ضعفة المسلمين إلى الكفر، فنهاهم الله عن الالتفات إلى كلامهم.

فبالجملة لا تزال الآيات الكريمة تنادي بذكر أحداث غزوة أحد، وما فيها من العظات، والعبر فهي تتحدث عن أسباب الهزيمة، وموقف المنافقين الفاضح في تلك الغزوة، وتآمرهم على الدعوة الإسلامية بتثبيط عزائم المؤمنين.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ...﴾ الآية، قال محمد بن كعب القرظي[1]: لمَّا رجع رسولُ الله ﷺ وأصحابه من أحد إلى المدينة، وقد أصابهم ما أصابهم قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا، وقد وعدنا الله النصر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ يعني بالنصر، والظفر؛ وذلك أنّ الظفر كان للمسلمين في الابتداء، وقيل: إنَّ الله وعد المؤمنين النصر بأحد فنصرهم، فلما خالفوا أمر رسول الله ﷺ، وطلبوا الغنيمة هزموا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا...﴾ الآية، سبب نزولها: ما رواه الترمذي عن أنس بن مالك عن أبي طلحة رضي الله عنهما قال: رفعت رأسي يوم أحد، فجعلت أنظر، وما منهم يومئذٍ من أحدٍ إلا يميد تحت حجفته من النعاس، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ وقال: هذا حديث حسن صحيح. وروى أيضاً عن هشام ابن عروة عن الزبير مثله، وقال: حديث حسن صحيح، وحديث الزبير هذا، أخرجه ابن راهويه ولفظه: قال الزبير: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ يوم أحد حين اشتدَّ علينا الخوف، وأرسل علينا النوم فما منا أحدٌ إلا وذقنه أو قال: ذقنه في صدره، فوالله إني لأسمع كالحلم قول معتب بن قشير: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا

---

(١) الخازن.

﴿هَٰهُنَا﴾ فحفظتها، فأنزل الله تبارك وتعالى في ذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ إلى قوله: ﴿مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ لقول معتب بن قشير قال: ﴿لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ حتى بلغ ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بالله، وصدقوا بما جاء به محمدٌ ﷺ ﴿إِن تُطِيعُوا۟﴾، وتمتثلوا ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وجحدوا، نبوة نبيكم محمد ﷺ فيما يأمرونكم به، وتقبلوا رأيهم، ونصيحتهم فيما يزعمون أنهم لكم فيه ناصحون، حيث قالوا لكم يوم أحد: إرجعوا إلى دين آبائكم، ولو كان محمد نبياً.. ما قتل ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾؛ أي: يرجعوكم عما كنتم عليه من الإيمان بالله ورسوله ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾، وأدباركم؛ أي: على ما كنتم عليه أولاً من الكفر والشرك بالله: أي: يحملوكم على الردة بعد الإيمان، والكفر بالله وآياته ﴿فَتَنقَلِبُوا۟﴾؛ أي: ترجعوا ﴿خَٰسِرِينَ﴾ في الدنيا والآخرة، وتكونوا مغبونين في الدين والدنيا، أما خسران الدنيا فبخضوعكم لسلطانهم، وذلتكم بين يديهم وحرمانكم من السعادة، والملك والتمكين في الأرض كما وعد الله المؤمنين الصادقين، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ فإن أشقَّ الأشياء على العقلاء في الدنيا الانقياد إلى العدو، وإظهار الحاجة إليهم.

وأما خُسران الآخرة: فبالحرمان من الثواب المؤيد، والوقوع في العذاب المخلد.

والمراد بالذين كفروا المنافقون كما تقدم. وقال السديُّ وغيره: المراد بهم أبو سفيان بن حرب؛ لأنه شجرة الكفر، وكبير القوم في ذلك اليوم. ومعنى الآية حينئذٍ: إن تخضعوا لأبي سفيان وأشياعه، وتستأمنوهم يردوكم إلى دينهم. وقيل: المراد عبد الله بن أبي، وأتباعه من المنافقين؛ لأنهم قالوا: لو كان محمد ﷺ نبياً.. ما وقعت له هذه الواقعة، فارجعوا إلى دينكم الذي كنتم فيه. وقال ابن عباس: المراد بهم اليهود كعبٌ وأصحابه، والمراد بالذين آمنوا حذيفة وعمار.

و﴿بل﴾ في قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ إضرابٌ عن مفهوم الجملة الأولى؛ أي: إن تطيعوا الكافرين يخذلوكم، ولا ينصروكم بل الله مولاكم، وناصركم، ووليكم، وحافظكم، فاستعينوا به لا غيره.

وقرأ[1] الحسن بنصب الجلالة على تقدير، بل أطيعوا الله، لأن الشرط السابق يتضمن معنى النهي؛ أي: لا تطيعوا الكفار، فتكفروا، بل أطيعوا الله مولاكم ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾؛ أي: أقواهم وأفضلهم؛ فلا يحتاج معه إلى نصرة أحد، ولا إلى ولاية غيره، فاكتفوا به عن ولاية غيره ونصره. وفي هذا دلالةٌ على أن من قاتل لنصر دين الله لا يخذل ولا يغلب، لأنَّ الله مولاه وناصره، وقال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾، ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾.

والمعنى[2]: لا تفكروا في ولاية أبي سفيان وشيعته، ولا عبدِ الله بن أُبَيٍّ وحزبه، ولا تأبهوا - لا تلتفتوا - لإغوائهم فإنهم لا يستطيعون لكم نصراً، وإنما الله هو الذي ينصركم بعنايته التي وعدكم بها، في قوله: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ فقد جرت سنته أن يتولى الصالحين، ويخذل الكافرين كما قال: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿١١﴾﴾.

ولما انصرف المشركون من أحدٍ.. هموا بالرجوع لاستئصال المسلمين، وخاف المسلمون ذلك، فوعدهم الله تعالى خذلان أعدائهم بقوله: ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾؛ أي: سنقذف في قلوب كفار مكة الخوف منكم حتى لا يرجعوا إليكم، وذلك أنَّ أبا سفيان، ومن معه ارتحلوا يوم أحد متوجهين إلى مكة، فلما بلغوا بعض الطريق ندموا، وقالوا: بئسما صنعنا، قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشريد.. تركناهم ارجعوا إليهم فاستأصلوهم؛ فلما عزموا على ذلك ألقى الله في قلوبهم الرعب، يعني الخوف الشديد، حتى رجعوا عما هموا

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

به. فعلى هذا القول: يكون الوعد بإلقاء الرعب في قلوب الكفار مخصوصاً بيوم أحد. وقيل: إنه عام، وإن كان السبب خاصاً لقوله ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر». فكأنه قال: سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب منكم حتى تقهروهم، ويظهر دينكم على سائر الأديان، وقد فعل الله ذلك بفضله وكرمه، حتى صار دين الإسلام ظاهراً على جميع الأديان والملل كما قال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

وقرأ[1] الجمهور ﴿سَنُلْقِى﴾ بالنون، وهو مشعرٌ بعظم ما يلقى إذ أسنده إلى المتكلم بنون العظمة. وقرأ أيوب السختياني ﴿سيلقى﴾ بالياء جرياً على الغيبة السابقة في قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ وقدم لفظ ﴿فِى قُلُوبِهِم﴾ وهو مجرور على المفعول، وهو الرعب للاهتمام بالمحل الملقى فيه قبل ذكر الملقى. وقرأ ابن عامر، والكسائي ﴿الرعب﴾ بضم العين، والباقون بسكونها فقيل: هما لغتان، وقيل: الأصل السكون، وضم إتباعاً كالصبح والصبح. وقيل: الأصل الضم، وسكن تخفيفاً كالرسل والرسل. والباء في قوله: ﴿بِمَآ أَشْرَكُوا۟﴾ سببية، و﴿ما﴾ مصدرية؛ أي: سنلقي في قلوبهم الرعب بسبب إشراكهم بالله ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾؛ أي: آلهةً ومعبوداً لم ينزل الله تعالى بعبادته ﴿سُلْطَٰنًا﴾؛ أي: برهاناً، وحجة، وكتاباً، وتسليط النفي على الإنزال، والمقصود نفي السلطان؛ أي: آلهةً لا سلطان في إشراكها، فينزل. وقال الشوكاني[2]: والنفي: يتوجه إلى القيد، والمقيد؛ أي: لا حجة، ولا إنزال، والمعنى: أنَّ الإشراك بالله لم يثبت في شيء من الملل انتهى.

وكان[3] الإشراك بالله سبباً لإلقاء الرعب؛ لأنهم يكرهون الموت، ويؤثرون الحياة، إذ لم تتعلق آمالهم بالآخرة، ولا بثوابٍ فيها، ولا عقابٍ، فصار اعتقادهم ذلك مؤثراً في الرغبة في الحياة الدنيا، كما قالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا

---

(١) البحر المحيط.
(٢) فتح القدير.
(٣) البحر المحيط.

﴿ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ وفي قوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۚ﴾ دليلٌ على إبطال التقليد؛ إذ لا برهان مع المقلد.

والمعنى: أنه سبحانه وتعالى سيحكم في أعدائكم الكافرين سننه، ويلقي في قلوبهم الرعب بسبب إشراكهم بالله أصناماً، ومعبوداتٍ لم يقم برهانٌ من عقلٍ، ولا نقل على ما زعموا من ألوهيتها، وكونها واسطة بين الله وبين خلقه، وإنما قلدوا في ذلك آباءهم الذين ضلوا من قبل، ومن ثم كانوا عرضة لاضطراب القلب، واتباع خطوات الوهم، فهم يعدون الوساوس أسباباً، والهواجس مؤثرات وعللاً، ويرجون الخير مما لا يرجى منه الخير، ويخافون مما لا يخاف منه الضير.

وفي الآية: إيماءٌ إلى بطلان الشرك وسوء أثره في النفوس، إذ طبيعته تورث القلوب الرعب باعتقادٍ؛ أن لبعض المخلوقات تأثيراً غيبياً وراء السنن الإلهية، والأسباب العادية، فالمشركون الذين جاهدوا الحق وأثروا مقارعة الداعي، ومن استجاب له بالسيف بغياً، وعدواناً يرتابون فيما هم فيه، ويتزلزلون إذا شاهدوا الذين دعوهم ثابتين مطمئنين، ولا يزال ارتيابهم يزيد حتى تمتلىء قلوبهم رعباً.

والخلاصة: أن طبيعة المشركين إذا قاوموكم أيها المؤمنون: أن تكون نفوسهم مضطربةً، وقلوبهم ممتلئةً رعباً وهلعاً منكم، فلا تخافوهم ولا تبالوا بقول من يدعوكم إلى موالاتهم، والالتجاء إليهم.

وبعد أن بين أحوال هؤلاء المشركين في الدنيا من وقوع الخوف، والهلع في قلوبهم . ذكر أحوالهم في الآخرة فقال: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ﴾؛ أي: مسكنهم، ومنزلهم، ومقرهم ﴿ٱلنَّارُ﴾ في الآخرة بسبب إشراكهم، ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: وقبح مسكن الذين ظلموا أنفسهم، بالإشراك، ومقرهم الذي يستقرون به، ويقيمون فيه، والمخصوص بالذم محذوفٌ تقديره: وبئس مثوى الظالمين النار، وفي جعلها مثواهم بعد جعلها مأواهم، رمزٌ إلى خلودهم فيها. فإن المثوى مكان الإقامة المنبئة عن المكث، وأما المأوى: فهو المكان الذي

يأوي إليه الإنسان. وقدم المأوى على المثوى؛ لأنه على الترتيب الوجودي؛ لأنَّ الإنسان يأوي إلى المكان ثم يثوي فيه.

والمعنى: إنَّ مسكنهم النار بسبب ظلمهم لأنفسهم بالكفر والجحود، ومعاندة الحق، ومقاومة أهله، وظلمهم للناس بسوء المعاملة، وفي التعبير بالمثوى المنبىء عن المكث الطويل دليلٌ على الخلود فيها كما مرَّ آنفاً.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد وفى الله سبحانه وتعالى، وحقق يوم أحد ما وعده لكم أيها المؤمنون على لسان رسوله محمدٍ ﷺ من النصر على أعدائكم ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾؛ أي: حين تقتلونهم قتلاً ذريعاً كثيراً في أوّل الحرب ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾؛ أي: بإرادته وتيسيره ومعونته، وكان رسول الله ﷺ وعدهم النصر يومئذٍ إن انتهوا إلى أمره.

وهذا جواب لمن رجع إلى المدينة من المؤمنين، قالوا: وعدنا الله بالنصر، والإمداد بالملائكة، فمن أيِّ وجه أُتينا؟ فنزلت إعلاماً أنه تعالى صدقهم الوعد، ونصرهم على أعدائهم أوّلاً، وكان الإمداد مشروطاً بالصبر والتقوى، واتفق من بعضهم من المخالفة ما نصَّ الله تعالى عليه في كتابه هنا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ وجبنتم عن قتال العدو ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ﴾؛ أي: اختلفتم في أمر الحرب بالثبات في المركز وعدمه، ﴿وَعَصَيْتُم﴾ أمر الرسول ﷺ؛ أي: ولقد صدقكم وعده بالنصر في أول الحرب إلى وقت أن وقع منكم الفشل، والتنازع والعصيان، وإذا مجردةٌ عن معنى الشرط، وقيل: وهو الصحيح فيها معنى الشرط، وجوابها محذوف تقديره: ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم في أول الحرب، حتى إذا فشلتم، وتنازعتم في أمر الحرب، وعصيتم أمر الرسول ابتلاكم الله، وامتحنكم بالهزيمة، ومنعكم النصر ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم﴾ الله سبحانه وتعالى في أول الحرب ﴿مَّا تُحِبُّونَ﴾ من الظفر، والغنيمة، وانهزام العدو.

والمعنى: صدقكم الله وعده حتى ضعفتم في الرأي والعمل، فلم تقووا على حبس أنفسكم عن الغنيمة، وتنازعتم فقال بعضكم: ما بقاؤنا هنا، وقد انهزم المشركون، وقال آخرون: لا نخالف أمر الرسول ﷺ وعصيتم رسولكم وقائدكم؛

بترك أكثر الرماة للمكان الذي أقامهم فيه، يحمون ظهور المقاتلة بدفع المشركين بالنبل من بعد ما أراكم ما تحبون من النصر، والظفر، فصبرتم على الضراء، ولم تصبروا على السراء.

وخلاصة القول: إنَّ الله نصركم على عدوكم إلى أن كان منكم الفشل، والتنازع، وعصيان أمر قائدكم صلى الله عليه وسلم، فانتهى النصر لأن الله تعالى: إنما وعدكم النصرة بشرط التقوى والصبر على الطاعة.

وفي قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ تنبيهٌ على عظم المعصية، لأنه كان من حقهم حين رأوا إكرام الله لهم بإنجاز الوعد أن يمتنعوا من عصيانه، فلما أقدموا عليه لا جرم سلبهم الله ذلك الإكرام، وأذاقهم وبال أمرهم، ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ﴾ بجهاده ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾، أي: الغنيمة، وهم الذين تركوا مقعدهم الذي أقعدهم فيه رسول الله ﷺ في الشعب من أحد، وذهبوا وراء الغنيمة، وكان الرماة أولاً خمسين، ذهب منهم نيف على أربعين للنهب، وعصوا أمر الرسول ﷺ ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ﴾ بجهاده ﴿ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾؛ أي: ثوابها، وهم الذين ثبتوا من الرماة مع قائدهم عبد الله بن جبير، وهم نحو عشرة قتلوا جميعاً، والذين ثبتوا مع النبي ﷺ، وهم ثلاثون رجلاً، وممن أراد الآخرة من ثبت بعد تخلخل المسلمين، فقاتل حتى قتل كأنس بن النضر، وغيره ممن لم يضطرب في قتاله ولا في دينه.

وهاتان الجملتان معترضتان بين المعطوف عليه الذي هو جواب إذا المقدر، والمعطوف الذي هو قوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ﴾؛ أي: ابتلاكم بالهزيمة، ثم صرفكم، وردكم، وكفكم أيها المؤمنون عن الكفار، وألقى الهزيمة عليكم، وسلط الكفار عليكم حتى تحولت الحال من النصرة إلى ضدها، ﴿لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ﴾؛ أي: ليمتحن صبركم على المصائب، وثباتكم على الإيمان عندها.

والخلاصة: أنَّ الله سبحانه وتعالى صدقكم وعده، فكنتم تقتلونهم بإذنه ومعونته قتل حسٍ واستئصالٍ، ثم صرفكم عنهم بفشلكم وتنازعكم وعصيانكم، وحال بينكم وبين تمام النصر ليمتحنكم بذلك؛ أي: ليكون ذلك ابتلاءً واختباراً

لكم يمحصكم به، ويميز الصادقين من المنافقين، والصابرين من الجازعين ﴿وَلَقَدْ عَفَا﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿عَنكُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد غفر الله لكم أيها المخالفون أمر الرسول ﷺ ما ارتكبتموه من المخالفة والهزيمة تفضلاً منه لما علم من ندمكم على المخالفة ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ذُو فَضْلٍ﴾ وطول، وإحسان ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: على أهل الإيمان به، وبرسوله، فيعفو عن كثير مما يستوجبون به العقوبة من الذنوب، ولا يذرهم على ما هم عليه من تقصيرٍ يهبط بنفوس بعض، وضعف يلم بآخرين، بل يمحص ما في صدورهم حتى يكونوا من المخلصين الطائعين المخبتين.

وفي الآية: دليلٌ[1] على أنَّ صاحب الكبيرة مؤمنٌ، وأنَّ الله تعالى يعفو بفضله وكرمه إن شاء؛ لأنه سمَّاهم مؤمنين مع ما ارتكبوه من مخالفة أمر رسول الله ﷺ وهي كبيرةٌ، وعفا عنهم بعد ذلك. والظرف في قوله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ إما متعلق بصرفكم، وهو أجود من جهة المعنى، أو بعفا، وهو أحسن من جهة القرب أو بعصيتم، أو تنازعتم أو باذكروا محذوفاً؛ أي: ثم صرفكم عنهم حين تبالغون في الذهاب في صعيد الأرض، والإبعاد في نواحيها، منهزمين منهم هاربين في الجبل، والإصعاد الذهاب في صعيد الأرض. ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ﴾؛ أي: ولا تلتفتون ﴿عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ وراءكم؛ أي: لا يلتفت بعضكم إلى بعض، ولا ينتظره لشدة الدهشة التي عرتكم، والخوف الذي فجأكم ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾؛ أي: والحال أنَّ الرسول محمدا ﷺ يناديكم من ورائكم و﴿فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾؛ أي: في[2] ساقتكم أو جماعتكم الأخرى، أي: واقفٌ في آخركم يقول: «إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله، أنا رسول الله من كَرَّ ـ رجع ـ فله الجنة» وأنتم لا تسمعون، ولا تنظرون، وقد كان لكم أسوةٌ بالرسول، فتقتدون به في الصبر والثبات.

وقرأ الجمهور[3] ﴿تُصْعِدُونَ﴾ بضم التاء مضارع أصعد الرباعي، والهمزة

---

(١) الخازن.

(٢) البيضاوي.

(٣) البحر المحيط.

في أصعد للدخول؛ أي: دخلتم في الصعيد ذهبتم فيه كما تقول: أصبح زيدٌ؛ أي: دخل في الصباح، فالمعنى: إذ تذهبون في الأرض، وتبين ذلك قراءة أبي ﴿إذ تصعدون في الوادي﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن، والحسن، ومجاهد، وقتادة، واليزدي ﴿يَصعَدونَ﴾ من صعد في الجبل إذا ارتقى إليه.

والجمع بين القراءتين: أنهم أوّلاً أصعدوا في الوادي، فلما ضايقهم العدو صعدوا في الجبل، وهذا على رأي من يفرق بين أصعد وصعد. وقرأ أبو حيوة ﴿تصعدون﴾ من تصعد في السلم، وأصله تتصعدون، فحذفت إحدى التائين على الخلاف في ذلك، أهي تاء المضارعة أم تاء تفعل؟.

وقرأ ابن محيصن، وابن كثير في رواية شِبْلٍ ﴿يَصْعَدُون﴾ ﴿ولا يلوون﴾ بالياء على الخروج من الخطاب إلى الغيبة. وقرأ الجمهور[1] ﴿تَلْوُنَ﴾ بفتح التاء، وضم الواو الأولى من لوى الثلاثي، وقرىء ﴿تَلْؤُون﴾ بإبدال الواو الأولى همزةً كراهية اجتماع واوين، وليس بقياس. وقياس هذه الواو المضمومة أن لا تبدل همزةً لأن الضمة فيها عارضةٌ.

وقرأ الأعمش وورش عن عاصم ﴿تُلْوون﴾ بضم التاء من أَلْوى الرباعي، وهي لغةٌ ففعل، وأفعل بمعنى.

وقرأ الحسن ﴿تَلُوْنَ﴾ بواو واحدةٍ، وخرَّجُوها على أنه أبدل الواو همزة، ثم نقلت حركة الهمزة على اللام، ثم حذفت الهمزة على القاعدة، فلم يبق من الكلمة إلا الفاء، وظاهر قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ بفتح الهمزة على قراءة الجمهور العموم، وقيل: المراد به النبيُّ ﷺ وعبر بأحد عنه تعظيماً له، وصوناً لاسمه أن يذكر عند ذهابهم عنه، قاله ابن عباس، والكلبيُّ، وقرأ حميد بن قيس ﴿على أحد﴾ بضم الهمزة، والحاء، وهو الجبل قاله ابن عطية، والقراءة المشهورة أقوى؛ لأنَّ النبي ﷺ لم يكن على الجبل إلا بعد ما فرَّ الناس عنه، وهذه الحال من إصعادهم، إنما كانت وهو يدعوهم انتهى.

---

(١) البحر المحيط.

﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ عطفٌ[1] على صرفكم؛ أي: ثم صرفكم عنهم فجازاكم غمًّا حصل لكم بسبب الانهزام، وقتل الأحباب، وفوت الغنائم بسبب غمٍّ حصل للرسول ﷺ بسبب عصيانكم أمره؛ أي: أذاقكم غمًّا بسبب غمٍّ، أذقتموه رسول الله ﷺ بسبب فراركم عنه ﴿لِّكَيْ﴾ تتمرنوا على تجرع الغموم وتتعودوا الصبر في الشدائد فـ ﴿لا تحزنوا﴾؛ أي: لا تتأسفوا فيما بعد ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من الظفر والغنيمة ﴿وَلَا﴾ تحزنوا على ﴿مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ ونالكم من القتل والجراح والهزيمة.

وقيل: الجار والمجرور متعلِّقٌ بـ ﴿عفا﴾ عنكم، والمعنى: ولقد عفا عنكم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم، ولا ما أصابكم؛ لأن عفوه يذهب كلَّ هم وحزن، وقيل: المعنى: فأثابكم غمًّا متواصلاً أنساكم الحزن على ما فاتكم، ولا ما أصابكم. وقد روي أنهم لما سمعوا بأن النبيَّ ﷺ قد قتل نسوا ما أصابهم، وما فاتهم. هذا على القول بأنَّ ﴿لا﴾ أصليةٌ. والقول الثاني: أنَّ ﴿لا﴾ زائدة، واللام متعلِّقة بـ﴿أثابكم﴾ أي: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ وأصابكم عقوبة لكم على مخالفتكم قال ابن عباس رضي الله عنهما الذي فاتهم الغنيمة، والذي أصابهم القتل والهزيمة. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: عالم بجميع أعمالكم، ومقاصدكم والدواعي التي حملتكم عليها قادرٌ على مجازاتكم عليها إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌّ، وفي هذه الجملة ترغيبٌ في الطاعة وترهيبٌ عن الإقدام على المعصية.

وخصَّ[2] العمل بالذكر، وإن كان تعالى خبيراً بجميع الأحوال من الأعمال والأقوال والنيَّات تنبيهاً على أعمالهم من تولية الأدبار والمبالغة في الفرار، وهي أعمال تخشى عاقبتها وعقابها.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ﴾ الله سبحانه وتعالى وأرسل ﴿عَلَيْكُم﴾ يا معشر المسلمين ﴿مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ﴾ الذي أصابكم بسبب الجراح والقتل والهزيمة ﴿أَمَنَةً﴾؛ أي: أمناً من

---

(١) البيضاوي. (٢) البحر المحيط.

العدو، وطمأنينةً في القلب وقوله: ﴿نُّعَاسًا﴾ بدلٌ من ﴿أمنة﴾ بدل كل من كل؛ أي: ثم وهبكم من بعد الغم الذي اعتراكم أمناً أزال عنكم الخوف الذي كان بكم، حتى نعستم، وغلبكم النوم لتستردوا ما فقدتم من القوة بما أصابكم من القرح، وما عرض لكم من الضعف. والنوم نعمةٌ كبرى لمن يصاب بمثل تلك المصائب، وعنايةٌ من الله يخص بها بعض عباده في مثل تلك المحن، ليخفف وقعها على النفوس. ومعنى الآية: امتنان الله عليهم بأمنهم بعد الخوف والغم بحيث صاروا من الأمن ينامون، وذلك أن شديد الخوف والغم لا يكاد ينام. قرأ الجمهور ﴿أَمَنَةً﴾ بفتح الميم على أنه بمعنى الأمن، أو جمع آمنٍ كبارٍ وبررة. وقرأ النخعيُّ، وابن محيصن ﴿أمنةً﴾ بسكون الميم بمعنى الأمن ﴿يَغْشَىٰ﴾؛ أي: يغطي، ويأخذ ذلك النعاس ﴿طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾؛ أي: جماعة منكم أيها المسلمون، قال ابن عباس: هم المهاجرون وعامَّةُ الأنصار، الذين كانوا على بصيرةٍ في إيمانهم. قرأ الجمهور ﴿يَغْشَىٰ﴾ بالياء إسناداً إلى ضمير النعاس، أي: يغشى هو، وقرأ حمزة، والكسائيُّ تغشى بالتاء إسناداً إلى ضمير، أمنة؛ أي: تغشى هي.

روى البخاري عن أنس عن أبي طلحة رضي الله عنهما قال: كنت فيمن يغشاهم النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط وآخذه ويسقط فآخذه.

﴿وَطَآئِفَةٌ﴾؛ أي: وجماعةٌ من المنافقين كعبد الله بن أبيٍّ، ومعتِّب بن قشير، وأصحابهما ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾؛ أي: قد أوقعتهم نجاة أنفسهم وخلاصها في الهموم فلا ينامون، لأن أسباب الخوف، وهي قصد العدو كانت حاصلةً لهم، والدافع لذلك، وهو الوثوق بوعد الله ورسوله غير معتبر عندهم؛ لأنهم كانوا مكذبين بالرسول في قلوبهم، فلذلك عظم الخوف في قلوبهم.

وخلاصة هذا: أنَّ المسلمين بعد انتهاء الموقعة صاروا فريقين:

الأول: فريقٌ ذكروا ما أصابهم، فعرفوا أنه كان بتقصير من بعضهم، وذكروا وعد الله بنصرهم فاستغفروا لذنوبهم، ووثقوا بوعد ربهم، وأيقنوا أنهم إن

غلبوا هذه المرة بسبب ما أصابهم من الفشل والتنازع وعصيان الرسول، فإن الله سينصرهم بعد، فأنزل الله عليهم النعاس أمنةً حتى يستردوا ما فقدوا من قوة، ويذهب عنهم ما عرض لهم من ضعف.

والثاني منهما: فريقٌ أذهلهم الخوف حتى صاروا مشغولين عن كل ما سواهم؛ إذ الوثوق بوعد الله، ووعد رسوله لم يصل إلى قرارة نفوسهم؛ لأنهم كانوا مكذِّبين بالرسول في قلوبهم، لا جرم عظم الخوف لديهم، وحقَّ عليهم ما وصفهم الله به من قوله: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ﴾، وهذه الجملة حالٌ من ضمير أهمتهم، أي: أهمتهم أنفسهم حالة كونهم يظنون، ويعتقدون في الله سبحانه وتعالى ظنًّا، سيئاً، فاسداً، وهو عدم نصر الله محمداً ﷺ ﴿غَيْرَ﴾ الظن ﴿ٱلْحَقِّ﴾ أي غير الصدق الذي يجب اعتقاده، وهو نصره محمداً ﷺ وقوله: ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ بدلٌ من غير الحق؛ أي: يظنون في الله ظن أهل الملة الجاهلية؛ إذ كانوا يقولون في أنفسهم: لو كان محمدٌ نبياً حقاً.. ما سلط الله عليه الكفار، وهذا ظن فاسدٌ، وقولٌ باطلٌ لا يقوله إلا أهل الجهل، والشرك بالله تعالى، والله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد لا اعتراض لأحدٍ عليه، فإن النبوة خلعةٌ من الله تعالى يشرف بها عبده، وليس يجب في العقل أنَّ الله تعالى إذا شرف عبداً بخلعةٍ أن يشرفه بخلعة أخرى بل له الأمر والنهي، كيف يشاء بحكم الإلهية.

وجملة قوله: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ بدلٌ من ﴿يَظُنُّونَ﴾، والاستفهام فيه للإنكار، ومن زائدة، أي: يقول بعضهم لبعض على سبيل الإنكار: هل لنا من النصر، والفتح، والظفر الذي وعدنا به محمدٌ نصيبٌ، يعنون أنه ليس لهم من ذلك شيء، قط لأن الله تعالى لا ينصر محمداً ﷺ.

فهم قد فهموا أنَّ النصر وحقيّة الدِّين متلازمان، فما حدث في ذلك اليوم دليلٌ على أنَّ هذا الدين ليس بحق، وهذا خطأٌ كبيرٌ، فإن نصر الله رسله لا يمنع أن تكون الحرب سجالاً، ولكن العاقبة للمتقين.

ثم أتى بجملةٍ معترضةٍ بين ما قبلها، وما بعدها، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المنافقين ﴿إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ﴾؛ أي: إنَّ النصر، والغلبة، والظفر، والقضاء،

والقدر جميعه ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، وبيده يصرفه كيف يشاء، ويدبره كيف يريد، فكل أمرٍ يقع في العالم فهو بحسب سننه تعالى في الخليقة، ووفق النظام الذي وضعه أولاً، وربط فيه الأسباب بالمسببات، ومن ذلك نصر من ينصره من المؤمنين كما وعد ذلك في قوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾. وهذه معترضةٌ كما مر آنفاً. وقرأ الجمهور[1] ﴿كله﴾ بالنصب تأكيداً للأمر، وقرأ أبو عمرو، ويعقوب ﴿كله﴾ بالرفع على أنه مبتدأ، ويجوز أن يعرب توكيداً للأمر على الموضع على مذهب من يجيز ذلك، وهو الجرميُّ والزجاج والفراء. قال ابن عطية: ورجح الناس قراءة الجمهور، لأن التأكيد أملك بلفظة كلٍّ انتهى. ولا ترجيح إذ كل من القراءتين متواترٌ، والابتداء بكلٍّ كثيرٌ، في لسان العرب، وجملة قوله: ﴿يُخۡفُونَ﴾ حال من ضمير يقولون، أي: يقولون: هل لنا من الأمر شيء حالة كونهم يخفون، ويضمرون ﴿فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ﴾، أي: ما لا يستطيعون إعلانه، وإظهاره لك، فهم يظهرون أنهم يسألون مسترشدين طالبين النصر بقولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ﴾ ويبطنون الإنكار والتكذيب. وجملة قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ مستأنفةٌ استئنافاً بيانياً لما يخفون واقعاً في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ما الذي يخفونه؛ فأجاب بقوله: يقول هؤلاء المنافقون في أنفسهم أو بعضهم لبعضٍ ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾ والتدبير والرأي والاختيار ﴿شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾؛ أي: ما قتل من قتل منا في هذه المعركة، وما غلبنا، يعنون أنهم أخرجوا كرهاً، ولو كان الأمر بيدهم ما خرجوا، أو المعنى يقولون: لو كان أمر النصر والظفر بأيدينا، كما ادَّعى محمد أنَّ الأمر كلَّه لله، ولأوليائه، وأنهم الغالبون لما غلبنا، ولما قتل من المسلمين من قتل في هذه المعركة. وهذا منهم تقريرٌ لرأيهم، واستدلالٌ عليه بما وقع لهم، وقد غفلوا عن أنَّ الآجال محدودةٌ، والأعمار موقوتة بوقت لا تعدوه، ومن ثم أمر الله نبيه ﷺ أن يجيبهم ويرد عليهم بقوله: ﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿لَّوۡ كُنتُمۡ﴾ ومكثتم ﴿فِي بُيُوتِكُمۡ﴾ ومنازلكم ولم تخرجوا من المدينة إلى أحدٍ للقتال كما تقولون ﴿لَبَرَزَ﴾

---

(١) البحر المحيط ج ٣ ص ٨٨.

وظهر وخرج من بينكم ﴿ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ﴾ في اللوح المحفوظ، وانتهت آجالهم، وثبت في علم الله أنهم يقتلون بسببٍ من الأسباب الداعية إلى البروز والخروج ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ وأماكنهم التي ماتوا فيها عند أحد ومصارعهم ومساقطهم ومقاتلهم التي قدر الله تعالى أنهم يقتلون فيها فتكون لهم مصارع ومضاجع وقتلوا هناك ألبتةَ، ولم تنفع العزيمة على الإقامة بالمدينة قطعاً، فإن قضاء الله لا يرد وحكمه لا يعقب.

والخلاصة: [1] أنَّ الحذر لا يدفع القدر، والتدبير لا يقاوم التقدير، فالذين قدر عليهم القتل لا بد أن يقتلوا على كل حال، وإلا انقلب علم الله جهلاً، وذلك محال فقتل من قتل إنما جاء لانتهاء آجالهم، كما قدر ذلك في اللوح المحفوظ، وكتب مع ذلك أنهم هم الغالبون، وأن العاقبة لهم، وأن دين الإسلام سيظهر على الدين كلِّه. وقرأ الجمهور ﴿برز﴾ بالفتح والتخفيف ويقرأ بالتشديد على ما لم يسم فاعله؛ أي: أخرجوا بأمر الله تعالى ذكره أبو البقاء. وقوله: ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ﴾ معطوف على علةٍ محذوفةٍ لمعلول محذوف تقديره: فرض الله عليكم القتال، ولم ينصركم يوم أحد وفعل بكم فيه ما فعل لحكمةٍ باهرة، ومصالح جمةٍ، وليبتلى الله سبحانه وتعالى، ويختبر ما في صدوركم من الإخلاص، والنفاق، ويظهر ما فيها من السرائر والاعتقادات، ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ الله سبحانه وتعالى ويصفي ويطهر ﴿مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾ من وساوس الشيطان، والشك والارتياب بما يريكم من عجائب صنعه في إلقاء الأَمَنَةِ وصرف العدو عنكم.

وخلاصة الكلام هنا: فعل الله سبحانه وتعالى بكم ما أصابكم يوم أحد من القتل والجراح ليكون القتل عاقبة من انتهت آجالهم، وليمتحن ما في صدور المؤمنين من الإخلاص وعدمه، فيظهر ما انطوت عليه من ضعف وقوة، ويمحص ما في قلوبهم من الوساوس، ويطهرها حتى تصل إلى الغاية القصوى من الإيقان، وفي المثل المشهور: «لا تكرهوا الفتن فإنها حصاد المنافقين». ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ﴾

---

(1) المراغي ج ٢ ص ١٠٥.

سبحانه وتعالى ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: عالم بالسرائر والضمائر الخفية التي لا تكاد تفارق الصدور، بل تلازمها وتصاحبها، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء. وفي هذا ترغيبٌ، وترهيبٌ، وتنبيهٌ، إلى أنَّ الله سبحانه وتعالى غنيٌّ عن الابتلاء، والامتحان، وإنما يظهر ذلك على هذه الصورة لحكم يعلمها كتمرين المؤمنين على الصبر، وتحمل المشاق وإظهار حال المنافقين؛ لأنَّ الحقائق قد تخفى على أربابها، فينخدعون للشعور العارض بدون تمحيصٍ، ولا ابتلاء كما انخدع الذين تمنوا الموت من قبل أن يلقوه كما تقدم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ﴾ وأدبروا، وهربوا، وانهزموا، ﴿مِنكُمْ﴾ أيّها المسلمون ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى﴾ والتحم، وتقاتل ﴿ٱلْجَمْعَانِ﴾؛ أي: جمع المسلمين، وجمع الكفار، وهو يوم أحد فهو خطاب لمن كان مع النبي ﷺ من المؤمنين يوم أحد بأحدٍ، وكان قد انهزم أكثر المسلمين، ولم يبق مع النبي ﷺ إلا ثلاثة عشر رجلاً، وقيل: أربعة عشر من المهاجرين سبعةٌ ومن الأنصار سبعةٌ، فمن المهاجرين: أبو بكر، وعمر، وعلي، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم والباقون من الأنصار، وهم سبعة: الحباب بن المنذر، وأبو دجانة، وعاصم بن ثابت، والحارث بن الصَّمَّةِ، وسهل بن حنيف، وأسيد بن حضير، وسعد بن معاذ.

﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ أي: إنما أوقعهم الشيطان في الزلل والخطيئة، بإلقاء الوسوسة في قلوبهم، لا أنه أمرهم بها ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾؛ أي: بسبب بعض ما كسبوا، وعملوا من الذنوب، والعصيان، وهو مخالفة أمر الرسول ﷺ بترك المركز والحرص على الغنيمة.

وخلاصة الكلام[1]: أنَّ الرماة الذين أمرهم الرسول ﷺ أن يثبتوا في أماكنهم ليدفعوا المشركين عن ظهور المؤمنين ما تركوا هذه المراكز إلا بإيقاع الشيطان لهم في الزلل، واستجراره لهم بالوسوسة؛ فإن الخطيئة الصغيرة إذا

---

(١) المراغي ج ٢ ص ١٠٦.

ترخص فيها الإنسان سهلت استيلاء الشيطان على نفسه، فهم قد انحرفوا عن أماكنهم بتأولٍ؛ إذ ظنوا أنه ليس للمشركين رجعةٌ من هزيمتهم؛ فلا يترتب على ذهابهم وراء الغنيمة فوات منفعة، ولا وقوعٌ في ضرر، ولكن هذا التأوُّل كان سبباً في كل ما جرى من المصائب التي من أجلها ما أصاب الرسول ﷺ والذنب يجر إلى الذنب، كما أن الطاعة تجر إلى الطاعة، وعلى هذا فالزلل الذي أوقعهم فيه الشيطان هو ما كان من الهزيمة والفشل بعد توليهم عن مكانهم طمعاً في الغنيمة، وهذا التولي هو بعض ما كسبوا.

وفي هذا إيماءٌ إلى سنة من سنن الله تعالى في أخلاق البشر، وأعمالهم وهي أن المصائب التي تعرض لهم في خاصة أنفسهم أو في شؤونهم العامة إنما هي آثارٌ طبيعية لبعض أعمالهم، ولكن الله قد يعفو عن بعض الأعمال التي لا أثر لها في النفس، وليست ملكةً ولا عادةً لها، بل صدرت هفوة غير متكررة، وهي التي عناها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ وإليها الإشارة بقوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

فهذه المصائب والعقوبات سواء: أكانت في الدنيا أم في الآخرة آثارٌ طبيعيةٌ للأعمال السيئة، ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد عفا الله سبحانه وتعالى، وسامح، وتجاوز عن تولي هؤلاء المتولين المنهزمين، وعقوبتهم عليه لتوبتهم واعتذارهم.

والمعنى: أنَّ ما صدر منهم من الذنوب في هذا اليوم، يستحق أن يعاقبوا عليه في الدنيا والآخرة، ولكن عفا الله عن عقوبتهم الأخروية، وجعل عقوبتهم في الدنيا تربية وتمحيصاً، وفي هذا دفعٌ لاستيلاء اليأس على نفوسهم، وتحسين لظنونهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ﴾ لمن تاب يغفر الذنوب جميعاً صغيرها وكبيرها بعد التوبة والإعتذار ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بعقوبة من عصاه، وهذه الجملة كالعلة للعفو عن هؤلاء المتولِّين، وقد كانوا أكثر المقاتلين، فإنه لم يبق مع النبي ﷺ يومئذٍ إلا ثلاثة عشر أو أربعة عشر كما مر. وقد بالغ بعض المنهزمين في الفرار حتى إنَّ بعضهم لم يرجعوا إلى رسول الله ﷺ إلاّ بعد ثلاثة أيام،

وبعضهم رجع في ذلك اليوم، واجتمعوا على الجبل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا بين فيما سبق لعباده المؤمنين أن الهزيمة التي حلَّت بهم يوم أحد، كانت بوسواسٍ من الشيطان استزلهم به، فزلوا، حذرهم هنا من مثل هذه الوسوسة التي أفسد بها الشيطان قلوب الكافرين، فقال: يا أيها الذين آمنوا، وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ لا تكونوا كالمنافقين الذين كفروا في نفس الأمر، كعبد الله بن أبي وأصحابه، وقالوا في شأن إخوانهم وأصدقائهم في النفاق ﴿إِذَا ضَرَبُواْ﴾ وسافروا ﴿فِى﴾ نواحي ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ للتجارة، والكسب فماتوا ﴿أَوْ كَانُواْ غُزًّى﴾؛ أي: غزاةً في وطنهم، أو في بلاد أخرى فقتلوا ﴿لَّوْ كَانُواْ﴾ مقيمين ﴿عِندَنَا﴾ في المدينة ﴿مَا مَاتُواْ﴾ في سفرهم، ﴿وَمَا قُتِلُواْ﴾ في غزواتهم لما تقدم من قول المنافقين[1] ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ وأخبر الله عنهم أنهم قالوا ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾، وكان قولاً باطلاً، واعتقاداً فاسداً نهى الله تعالى المؤمنين أن يكونوا مثلهم في هذه المقالة الفاسدة، والاعتقاد السيء، وهو أن من سافر في تجارة ونحوها، فمات، أو قاتل، فقتل، لو قعد في بيته لعاش، ولم يمت في ذلك الوقت الذي عرض نفسه للسفر فيه أو للقتال، وهو معتقدُ الكفار والمنافقين.

والمراد[2] بالأخوة هنا: أخوة النسب؛ إذ كان قتلى أحدٍ من الأنصار، وأكثرهم من الخزرج، ولم يقتل من المهاجرين إلا أربعةٌ، وقيل: خمسةٌ، ويكون القائلون منافقي الأنصار جمعهم أب قريبٌ أو بعيدٌ، أو المراد أخوة المعتقد، والنفاق كما مر.

وقرأ الجمهور ﴿غُزًّى﴾ بتشديد الزاي، وقرأ الحسن والزهري بتخفيف الزاي، ووجه على حذف أحد المضعفين تخفياً، وعلى حذف التاء، والمراد غزاةً.

---

(١) البحر المحيط ج ٣ ص ٩٢.

(٢) البحر ج ٣ ص ٩٢.

وقرأ الجمهور ﴿وَمَا قُتِلُوا۟﴾ بتخفيف التاء، وقرأ الحسن بتشديدها للتكثير في المحال، لا بالنسبة إلى محل واحد؛ لأنه لا يمكن التكثير فيه.

واللام في قوله: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ لام كي، متعلِّقة بمعلول محذوف دلَّ عليه السياق تقديره: أوقع الله ذلك القول، والمعتقد في قلوبهم ليجعل الله ذلك؛ أي: ظنهم أن إخوانهم لو لم يسافروا، ولم يحضروا القتال لعاشوا ﴿حَسْرَةً﴾ وندامةً ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾، وحزناً وغماً، وتأسفاً على فوات إخوانهم، والحسرة: الندامة على فوت المحبوب. والمعنى: لا تكونوا كالذين كفروا، وقالوا فيمن ماتوا، أو قتلوا ما قالوا؛ أي: لا تقولوا، ولا تعتقدوا، مقتضى هذا القول المذكور، فالمقصود النَّهْيُ عن هذا القول، واعتقاد مضمونه، فإنكم إذا كنتم مثلهم في ذلك يصيبكم من الحسرة مثل ما يصيبهم، وتضعفون عن القتال كما يضعفون، فلا يكون لكم ميزةٌ عنهم بالعقل الراجح الذي يهدي صاحبه إلى أنَّ الذي وقع كان لا بد أن يقع، فلا يتحسَّر عليه، ولا بالإيمان الصادق الذي يزيد صاحبه إيقاناً وتسليماً بكل ما يجري به القضاء.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ ردٌّ لقولهم: إن القتال يقطع الآجال، فالأمر بيده سبحانه وتعالى، فهو المؤثر وحده في الحياة والموت بمقتضى سننه في أسبابهما، وليس للإقامة والسفر مدخل فيهما؛ فإنَّ الله تعالى قد يحيي المسافر والغازي مع تعرضهما لأسباب الهلاك، ويميت المقيم والقاعد، وإن كان تحت ظلال النعيم. وقد أثر عن خالد بن الوليد أنه قال، عند موته: ما فيَّ موضع شبرٍ إلاَّ وفيه ضربة سيفٍ أو طعنة رمح، وها أنا ذا أموت كما يموت العير ـ الحمارُ ـ فلا نامت أعين الجبناء.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر ﴿بَصِيرٌ﴾؛ أي: مطلع عليه، فلا يخفى عليه شيءٌ مما تكنون في أنفسكم من المعتقدات التي لها أثرٌ في أقوالكم، وأفعالكم، فيجازيكم عليه، فاجعلوا نفوسكم طاهرةً من وساوس الشيطان حتى لا يصدر منها ما يصدر من الكفار.

وفي هذا تهديدٌ للمؤمنين حتى لا يماثلوا الكفار في أقوالهم، وأفعالهم،

وهذا على قراءة التاء في ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ خطاباً للمؤمنين، وهي قراءة غير ابن كثير، وحمزة، والكسائي.

والمعنى: فلا تكونوا أيها المؤمنون مثل المنافقين في قولهم المذكور؛ لأنَّ مقصدهم تنفير المؤمنين عن الجهاد بقولهم؛ لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، فإن الله تعالى هو المحيي والمميت، فمن قدر له البقاء لم يقتل في الجهاد، ومن قدر له الموت لم يبق، وإن أقام ببيته عند أهله، فلا تقولوا أنتم أيها المؤمنون لمن يريد الخروج إلى الجهاد: لا تخرج فتقتل، فلأن يموت في الجهاد فيستوجب الثواب، خيرٌ له من أن يموت في بيته بلا فائدة. وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي ﴿يعملون﴾ بالياء على الغيبة على أنه وعيدٌ للمنافقين؛ أي: مطلعٌ على عملهم فيجازيهم عليه.

ثم بشر سبحانه وتعالى من قتل، أو مات في سبيل الله بحسن المآل، فقال: ﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لئن قتلتم أيها المؤمنون ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في الجهاد ﴿أَوۡ مُتُّمۡ﴾ في سفركم للغزو مع الكفار، أو في بيوتكم، وكنتم مخلصين من النفاق. قرأ نافع، وحمزة، والكسائي بكسر الميم من مات يمات كخاف يخاف، وقرأ الباقون بضم الميم من مات يموت كقال يقول، والضم أقيس وأشهر، والكسر مستعملٌ كثيراً. ﴿لَمَغۡفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لذنوبكم ﴿وَرَحۡمَةٌ﴾ منه لكم ﴿خير مما تجمعون﴾ بالتاء خطاباً للمؤمنين؛ أي: مما تجمعونه، أنتم، لو لم تموتوا من الأموال التي تعد خيرات، وهذه قراءة الجمهور. وقرأ حفصٌ عن عاصم ﴿يَجۡمَعُونَ﴾ بياء الغيبة؛ أي: خير مما يجمعه هؤلاء الكفرة من منافع الدنيا، وطيباتها مدة أعمارهم.

أي: إن مغفرة الله ورحمته لمن يموت أو يقتل في سبيل الله، خير لكم من جميع ما يتمتع به الكفار من المال، والمتاع، في هذه الدار الفانية، فإن هذا ظلٌّ زائلٌ، وذاك نعيم خالد.

والخلاصة: أن ما ينتظره المؤمن المقاتل في سبيل الله من المغفرة التي تمحو ما كان من ذنوبه، والرحمة التي ترفع درجاته، خيرٌ له مما يجمع هؤلاء

الحريصون على الحياة الذين يتمتعون باللذات والشهوات.

فما أجدّ المؤمنين أن يؤثروا مغفرة الله ورحمته على الحظوظ الفانية، وأن لا يتحسروا على من يقتل منهم، أو يموت في سبيل الله، فإن ما يلقونه بعدهما خيرٌ لهم مما كانوا فيه قبلهما، ثم حثهم على العمل في سبيل الله تعالى، لأن المآل إليه فقال.

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ﴾ في حضرٍ أو سفر، ﴿أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ في الجهاد أو غيره ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ﴾ معبودكم الذي توجهتم إليه وبذلتم مهجتكم لوجهه الرحيم الواسع الرحمة والمغفرة المثيب العظيم الثواب لا إلى غيره، لا محالة ﴿تُحْشَرُونَ﴾ وتجمعون أيها المؤمنون في الحالين، فيوفى جزاءكم، ويعظم ثوابكم، فجميع العالمين يوقفون في عرصة القيامة، وبساط العدل، فيجتمع المظلوم مع الظالم، والمقتول مع القاتل والله تعالى يحكم بين عباده بالعدل.

والمعنى: أنكم بأيّ سببٍ كان هلاككم فإنكم إلى الله تحشرون، لا إلى غيره، فيجازي كلاً منكم بما يستحق من الجزاء، فيجازي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، ولا يرجى من غيره ثوابٌ، ولا يتوقع منه دفع عقاب، فآثروا ما يقربكم إليه، ويجلب لكم رضاه من العمل بطاعته، وعليكم بالجهاد في سبيله، ولا تركنوا إلى الدنيا ولذاتها، فإنها فانيةٌ، وتلك الحياة الأخرى باقيةٌ، خالدة، فقوله تعالى: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إشارة: إلى من يعبده خوفاً من عقابه، وقوله: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ إشارةٌ إلى من يعبده لطلب ثوابه، وقوله: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ إشارة: إلى من يعبده لمجرد الربوبية، والعبودية، وهذا أعلى المقامات، وأبعد النهايات في العبودية، في علو الدرجة، فهؤلاء الذين بذلوا أنفسهم وأبدانهم في طاعة الله، ومجاهدة عدوه يكون حشرهم إليه واستئناسهم بكرمه، وتمتعهم بشروق نور ربوبيته.

قال بعضهم:

لَيْسَ قَصْدِيْ مِنَ ٱلْجِنَانِ نَعِيْمَا   غَيْرَ أَنِّيْ أُرِيْدُهَا لأَرَاكَا

فائدة: وهنا ثلاثة مواضع ذكر الموت فيها، قدَّم الموت في الأول: منها: على القتل، وهو قوله: ﴿مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ لمناسبة ما قبله من قوله: ﴿إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى﴾ فرجع الموت لمن ضرب في الأرض، والقتل لمن غزا، وقدم القتل على الموت في الثاني منها، وهو قوله: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ لأنه محل تحريض على الجهاد، فقدم الأهم الأشرف، وقدَّم الموت على القتل في الثالث منها، وهو قوله: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ لأنه الأغلب.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

﴿يا﴾ حرف نداء. ﴿أيُّ﴾ منادى نكرة مقصودة. و﴿الهاء﴾ حرف تنبيه زائدٌ، تعويضاً عمَّا فات ﴿أيُّ﴾ من الإضافة، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول، في محل النصب صفةٌ لـ﴿أيُّ﴾. ﴿ءَامَنُوٓا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿إن﴾ حرف شرط جازم. ﴿تُطِيعُوا۟﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل النصب، مفعول به. ﴿كَفَرُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾ فعل، وفاعل ومفعول مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه جواب الشرط، وجملة الشرط مع جوابه جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾. ﴿فَتَنقَلِبُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. ﴿تنقلبوا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾ على كونه جواب الشرط. ﴿خَٰسِرِينَ﴾ حالٌ من ضمير الفاعل، أو خبر ﴿انقلب﴾ إن قلنا إنه من أخوات صار.

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾.

﴿بَلِ﴾ حرف إضراب عن محذوف معلوم من السياق، كما مر في بحث التفسير، تقديره: فليسوا أولياء لكم حتى تطيعوهم، بل الله الخ. ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ. ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾ خبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة أو

حالية. ﴿هو﴾ مبتدأ. ﴿خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ﴾ خبر ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة الإضراب أو حال من الجلالة.

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

﴿سَنُلْقِى﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة مستأنفة. ﴿فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿سَنُلْقِى﴾. ﴿كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿بِمَآ أَشْرَكُوا۟﴾ ﴿الباء﴾ حرف جر وسبب. (ما) مصدرية. ﴿أَشْرَكُوا۟﴾ فعل وفاعل. ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق به، والجملة صِلةٌ لـ ﴿ما﴾ المصدرية وما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بسبب إشراكهم، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿سَنُلْقِى﴾. ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾ ﴿ما﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول لـ﴿أشركوا﴾. ﴿لَمْ يُنَزِّلْ﴾ فعل مضارع وجازم، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿يُنَزِّلْ﴾ والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿بِهِۦ﴾. ﴿سُلْطَـٰنًا﴾ مفعول به لـ ﴿يُنَزِّلْ﴾. ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿مأواهم﴾ مبتدأ، ومضاف إليه. ﴿ٱلنَّارُ﴾ خبر، والجملة مستأنفة. ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿بئس﴾ فعل ماض من أفعال الذم. ﴿مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فاعل ومضاف إليه، والمخصوص بالذم محذوف وجوباً، تقديره: النار، وهو مبتدأٌ خبره جملة ﴿بئس﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ على كونها مستأنفةٌ، وفي المخصوص بالذم، أوجهٌ كثيرةٌ مذكورة في كتب النحو فراجعها إن شئت.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿اللام﴾ موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، ومفعول أول. ﴿وَعْدَهُۥٓ﴾ مفعول ثانٍ ومضاف إليه، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم

مستأنفة. وتعدَّت[1] كلمة ﴿صَدَقَ﴾ هنا إلى اثنين، ويجوز أن تتعدى إلى الثاني بحرف جر، تقول: صدقت زيداً الحديث، وصدقت زيداً في الحديث، ذكرها بعض النحويين في باب ما يتعدَّى إلى اثنين، ويجوز أن يتعدّى إلى الثاني بحرف الجر، فيكون من باب استغفر، ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى مبني على السكون والظرف متعلق بـ ﴿صدق﴾، ويجوز أن يتعلَّق بـ ﴿وعده﴾ كما ذكره أبو البقاء. ﴿تَحُسُّونَهُم﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بتحسونهم، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لإذ والتقدير: ولقد صدقكم الله وعده وقت حسكم، وقتلكم إياهم بإذنه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾.

﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرف جر وغاية بمعنى إلى. ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان خافضة لشرطها منصوبة بجوابها. ﴿فَشِلْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب المحذوف الذي سنبينه. ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض معطوفة على جملة ﴿فَشِلْتُمْ﴾. ﴿فِى ٱلْأَمْرِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿تنازعتم﴾. ﴿وَعَصَيْتُم﴾ فعل وفاعل في محل الخفض معطوفة على جملة ﴿فَشِلْتُمْ﴾ أيضاً. ﴿مِّنۢ بَعْدِ﴾ جار ومجرور، تنازع فيه الأفعال الثلاثة المذكورة قبله. ﴿مَآ﴾ مصدرية. ﴿أَرَىٰكُم﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾ ورأى هنا بصرية تعدَّت إلى مفعولين بالهمزة. ﴿مَّا تُحِبُّونَ﴾ ﴿مَّا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان لأرى. ﴿تُحِبُّونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلةٌ لـ ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: من بعد إراءته إياكم ما تحبون، وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف تقديره: منعكم النصر، وانهزمتم، وجملة ﴿إِذَا﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل الجر بـ﴿حتى﴾ بمعنى إلى المتعلِّقة بـ ﴿صدقكم﴾ والتقدير: ولقد صدقكم ﴿وعده﴾ إذ تحسونهم بإذنه،

---

(١) البحر المحيط ج ٣ ص ٧٨.

واستمر نصركم إلى منعه تعالى إياكم النصر، وانهزامكم وقت فشلكم، وتنازعكم في الأمر، وعصيانكم أمر الرسول ﷺ من بعد إراءته تعالى إياكم ما تحبون من النصر والظفر. وفي المقام أوجه كثيرة من الإعراب لا طائل تحتها، فراجع كتب المفسرين إن شئت.

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾.

﴿مِنكُم﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر. ﴿يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ والجملة الفعلية صلة ﴿مَّن﴾ الموصولة، والعائد ضمير الفاعل، والجملة من المبتدأ والخبر جملة معترضة، لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين المعطوف والمعطوف عليه. ﴿وَمِنكُم﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿منكم﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ ﴿مَّن﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، وجملة ﴿يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ صلة الموصول، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ على كونها معترضة لا محل لها من الإعراب.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف. ﴿صَرَفَكُمْ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَنْهُمْ﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية معطوفة على جواب ﴿إذا﴾ المقدَّر المذكور سابقاً على كونها جملةً جوابيةً لا محل لها من الإعراب ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل. ﴿يبتلي﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرةً جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿والكاف﴾ مفعول به، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل، تقديره: لابتلائه إياكم الجار والمجرور متعلقٌ بـ ﴿صَرَفَكُمْ﴾.

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿اللام﴾ موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿عَفَا﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾. ﴿عَنكُمْ﴾ متعلق بعفا، والجملة الفعلية جواب القسم المحذوف لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم

المحذوف مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿الله﴾ مبتدأ. ﴿ذُو فَضۡلٍ﴾ خبر، ومضاف إليه. ﴿عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ جار ومجرور، متعلق بفضل، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾.

﴿إِذۡ﴾ ظرف لما مضى من الزمان. ﴿تُصۡعِدُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر بإضافة ﴿إِذۡ﴾ إليها، والظرف متعلق بـ ﴿صرفكم﴾، وهو أجود من جهة المعنى، أو بـ ﴿عفا﴾ وهو أحسن بالنظر إلى قربه كما مر في بحث التفسير. ﴿وَلَا تَلۡوُۥنَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿لا﴾ نافية. ﴿تَلۡوُۥنَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿تُصۡعِدُونَ﴾. ﴿عَلَىٰٓ أَحَدٖ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿تلوون﴾. ﴿وَٱلرَّسُولُ﴾ ﴿الواو﴾ واو الحال ﴿الرسول﴾ مبتدأ. ﴿يَدۡعُوكُمۡ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الرسول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، أو الجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿تَلۡوُۥنَ﴾. ﴿فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿يَدۡعُوكُمۡ﴾ العائد إلى ﴿الرسول﴾.

﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

﴿فَأَثَٰبَكُمۡ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. ﴿أثابكم﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿غَمَّۢا﴾ مفعول ثان. ﴿بِغَمّٖ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أثابكم﴾ و﴿الباء﴾ فيه سببية، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿ثم صرفكم﴾. وقال الزمخشري[1]: ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ﴾ عطف على ﴿صرفكم﴾ انتهى. وفيه بعد لطول الفصل بين المتعاطفين، والذي يظهر أنه معطوف على ﴿تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ﴾ لأنه مضارع في معنى الماضي، لأنَّ إذ تصرف المضارع إلى الماضي إذ هي ظرفٌ لما مضى، والمعنى إذ صعدتم، ومالويتم على أحد فأثابكم. ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ﴾ ﴿اللام﴾ حرفٌ جر وتعليل. ﴿كي﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿لا﴾ نافية

---

(١) البحر المحيط ج ٣ ص ٨٤.

أو زائدة. ﴿تَحْـزَنُواْ﴾ فعل وفاعل منصوب بـ﴿كي﴾. ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿تَحْـزَنُواْ﴾. ﴿فَاتَكُمْ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾، وجملة ﴿فات﴾ صلةٌ لـ﴿ما﴾، أو صفة لها. ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْۗ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾ زائدة. ﴿مَآ﴾ موصولة أو موصوفة في محل الجر معطوفة على ﴿مَآ﴾ الأولى. ﴿أَصَٰبَكُمْۗ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿مَآ﴾، وجملة أصاب صلة لـ ﴿مَآ﴾، أو صفة لها، وجملة ﴿تَحْـزَنُواْ﴾ صلة كي المصدرية، وكي مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل المتعلقة بـ ﴿أثابكم﴾ والتقدير: فأثابكم غماً بغمٍ لتمرينكم على تجرع الغموم، وعدم حزنكم فيما بعد على ما فاتكم، ولا ما أصابكم. هذا إن قلنا إنَّ ﴿لا﴾ أصلية نافية، أو المتعلقة بـ ﴿عفا عنكم﴾، إن قلنا إنَّ ﴿لا﴾ زائدة، والتقدير: ولقد عفا عنكم لحزنكم على ما فاتكم، وما أصابكم. ﴿وَٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿الله﴾ مبتدأ. ﴿خَبِيرُۢ﴾ خبر، والجملة مستأنفة. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿خَبِيرُۢ﴾. ﴿تَعْمَلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلةٌ لـ ﴿مَآ﴾ أو صفةٌ لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: تعملونه.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِۖ﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف. ﴿أَنزَلَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿أثابكم﴾. ﴿عَلَيْكُم﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿أَمَنَةً﴾ مفعول به لـ﴿أنزل﴾. ﴿نُّعَاسًا﴾ بدل منه. ﴿يَغْشَىٰ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿نُّعَاسًا﴾ والجملة صفة لـ ﴿نُّعَاسًا﴾. ﴿طَآئِفَةً﴾ مفعول ﴿يَغْشَىٰ﴾. ﴿مِّنكُمْۖ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿طَآئِفَةً﴾. ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، أو حالية. ﴿طائفةٌ﴾ مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة وقوعه في معرض التفصيل. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿أَهَمَّتْهُمْ﴾ فعل ومفعول. ﴿أَنفُسُهُمْ﴾ فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدإ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿يَظُنُّونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿أَهَمَّتْهُمْ﴾. ﴿بِٱللَّهِ﴾ جار ومجرور

متعلق بـ ﴿يَظُنُّونَ﴾ على كونه مفعولاً ثانياً. ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ مفعول أول لـ ﴿يَظُنُّونَ﴾، ومضاف إليه. ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ مفعول مطلق، ومضاف إليه.

﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾.

﴿يَقُولُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب بدل من ﴿يظنون﴾ بدل كل من كل. ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ مقول محكي لـ ﴿يَقُولُونَ﴾ وإن شئت قلت: ﴿هل﴾: حرف للاستفهام الإنكاري. ﴿لَّنَا﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ جار ومجرور حال ﴿مِن شَيْءٍ﴾ المذكور بعده. ﴿مِن شَيْءٍ﴾ ﴿من﴾ زائدة. ﴿شَيْءٍ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ ﴿يَقُولُونَ﴾. وفي «الفتوحات» قوله ﴿مِن شَيْءٍ﴾ إما مبتدأ خبره ﴿لَّنَا﴾، أو فاعل بـ ﴿لَّنَا﴾ لاعتماده على الاستفهام و﴿مِنْ﴾ عليهما زائدةٌ، و﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ حال من المبتدأ، لأنه لو تأخر عن شيء.. لكان نعتاً له فيتعلق بمحذوف.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ مقول محكي لـ ﴿قُلْ﴾ وإن شئت قلت ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ اسمها. ﴿كُلَّهُۥ﴾ على قراءة النصب توكيد للأمر، وعلى قراءة الرفع مبتدأ. ﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور، خبر ﴿إن﴾، أو خبر المبتدأ وجملة ﴿إن﴾ من اسمها وخبرها في محل النصب مقولٌ لقل.

﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾.

﴿يُخْفُونَ﴾، فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يُخْفُونَ﴾. ﴿مَّا لَا يُبْدُونَ﴾ ﴿مَّا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يُخْفُونَ﴾. ﴿لَا﴾ نافية. ﴿يُبْدُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفةٌ لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: ما لا يبدونه. ﴿لَكَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ

﴿يبْدُونَ﴾.

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾.

﴿يَقُولُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية مستأنفة استئنافاً بيانياً، بيّن بها ﴿مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾، وهذا هو الأجود من جعلها بدلاً من ﴿يُخْفُونَ﴾ كما ذكره في «الكشّاف». ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ مقول محكي لـ﴿يَقُولُونَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَوْ﴾ حرف شرط غير جازم. ﴿لَنَا﴾ جار ومجرور خبر مقدم لـ ﴿كَانَ﴾ على اسمها. ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ جار ومجرور حال من ﴿شيء﴾، لأنه نعت نكرة قُدِّم عليها، فيعرب حالاً. ﴿شَىْءٌ﴾ اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخر، وجملة كان من اسمها وخبرها فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿مَّا قُتِلْنَا﴾ ﴿مَّا﴾ نافية. ﴿قُتِلْنَا﴾ فعل ماض مغير، ونائب فاعله. ﴿هَٰهُنَا﴾ اسم إشارة للمكان القريب في محل النصب على الظرفية، والظرف متعلق بـ ﴿قُتِلْنَا﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْ﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل النصب مقولٌ لـ ﴿يَقُولُونَ﴾.

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾.

﴿قُل﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي لـ ﴿قُل﴾، وإن شئت قلت: ﴿لَّوْ﴾ حرف شرط. ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿فِى بُيُوتِكُمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر ﴿كان﴾ أو متعلق بـ ﴿كان﴾ إن قلنا: إنها تامة، وجملة ﴿كان﴾ فعل شرط لـ ﴿لَّوْ﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَبَرَزَ﴾ ﴿اللام﴾ رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية. ﴿برز الذين﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لَّوْ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَّوْ﴾ الشرطية من فعل شرطها، وجوابها في محل النصب مقول لـ ﴿قُل﴾. ﴿كُتِبَ﴾ فعل ماضٍ مغير الصيغة. ﴿عَلَيْهِمُ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿كُتِبَ﴾. ﴿ٱلْقَتْلُ﴾ نائب فاعل لـ ﴿كُتِبَ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد ضمير عليهم. ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿يبتلي اللّه﴾.

﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾.

﴿وَلِيَبْتَلِيَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ليبتلى﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل. ﴿يبتلى اللَّه﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول لـ﴿يبتلي﴾. ﴿فِى صُدُورِكُمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف صلةٍ لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، وجملة ﴿يبتلي اللَّه﴾ صلة أن المضمرة وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل، تقديره: ولابتلاء الله ما في صدوركم، الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور المتعلق بمعلول محذوف تقديره: فعل الله بكم ما فعل بكم يوم أحد لحكمة باهرةٍ، ولابتلاء الله ما في صدوركم.

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ليمحص﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل. ﴿يمحِّص﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿مَّا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، وجملة ﴿يمحِّص﴾ صلة أن المضمرة أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: ولتمحيص الله ما. ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾ الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿وَٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿الله﴾ مبتدأ. ﴿عَلِيمٌ﴾ خبره. ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بعليم، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمها. ﴿تَوَلَّوْا۟﴾ فعل، وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿مِنكُمْ﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿تَوَلَّوْا۟﴾ ﴿يَوْمَ﴾ ظرف متعلق بـ﴿تَوَلَّوْا۟﴾. ﴿ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾. ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، بمعنى ما النافية، وإلا المثبتة. ﴿ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إن، وجملة ﴿إن﴾ من اسمها وخبرها مستأنفة. ﴿بِبَعْضِ مَا﴾ جار ومجرور،

ومضاف إليه متعلق بـ ﴿استزل﴾. ﴿كَسَبُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره ببعض ما كسبوه.

﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿اللام﴾ موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿عَفَا ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل. ﴿عَنْهُمْ﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ﴿إن﴾ حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها ﴿غَفُورٌ﴾ خبر أول، لـ﴿إنَّ﴾. ﴿حَلِيمٌ﴾ خبر ثان لها، وجملة ﴿إنَّ﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾.

﴿يا﴾ حرف نداء. ﴿أي﴾ منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾ حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل النصب صفة لـ﴿أي﴾ وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿لَا تَكُونُواْ﴾ ﴿لَا﴾ ناهية. ﴿تَكُونُواْ﴾ فعل ناقص واسمه مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية. ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور خبر ﴿تَكُونُواْ﴾، وجملة ﴿تَكُونُواْ﴾ جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿كَفَرُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿وَقَالُواْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿كَفَرُواْ﴾. ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿قالوا﴾. ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط، ولكنها بمعنى إذْ. ﴿ضَرَبُواْ﴾ فعل وفاعل. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾، والظرف متعلق بـ ﴿قالوا﴾ والتقدير: وقالوا لإخوانهم وقت ضربهم في الأرض. ﴿أَوْ كَانُواْ غُزًّى﴾ ﴿أَوْ﴾ حرف عطف وتفصيل. ﴿كَانُواْ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿غُزًّى﴾ خبره، وجملة ﴿كَانُواْ﴾ في محل الجر معطوفة على جملة ﴿ضَرَبُواْ﴾. ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ مقول محكي لـ ﴿قالوا﴾. وإن شئت: قلت ﴿لَّوْ﴾

حرف شرط غير جازم. ﴿كَانُواْ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿عِندَنَا﴾ ظرف، ومضاف إليه خبر ﴿كَانُواْ﴾، وجملة ﴿كَانُواْ﴾ فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾ لا محلَّ لها من الإعراب. ﴿مَا مَاتُواْ﴾ ﴿مَا﴾ نافية. ﴿مَاتُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْ﴾ من فعل شرطها، وجوابها في محل النصب مقول لـ ﴿قالوا﴾: وجملة قوله: ﴿وَمَا قُتِلُواْ﴾ معطوفة على جملة ﴿مَا مَاتُواْ﴾ على كونها جواباً لـ﴿لو﴾.

﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ﴾.

﴿لِيَجْعَلَ﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وعاقبة. ﴿يجعل الله﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرةً، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام العاقبة، تقديره: لجعل الله عاقبة ﴿ذلك حسرة في قلوبهم﴾ الجار والمجرور متعلق بـ ﴿قالوا﴾؛ أي: قالوا ذلك ليجعل عاقبة أمرهم الحسرة، والندامة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ مفعول أول لجعل؛ لأنه بمعنى صير. ﴿حَسْرَةً﴾ مفعول ثان له. ﴿فِي قُلُوبِهِمْۗ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يجعل﴾ وهو أبلغ في المعنى، أو صفةٌ لـ ﴿حَسْرَةً﴾ كما في «الفتوحات». ﴿وَٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿الله﴾ مبتدأ. وجملة ﴿يُحْيِۦ﴾ خبره، والجملة الاسمية مستأنفة. وجملة قوله: ﴿وَيُمِيتُۗ﴾ معطوفة على جملة ﴿يُحْيِۦ﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿الله﴾ مبتدأ. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿بَصِيرٌ﴾ الآتي. ﴿تَعْمَلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: بما تعملونه. ﴿بَصِيرٌ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ﴾ على كونها مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿وَلَئِن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿اللام﴾ موطئة للقسم. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿قُتِلْتُمْ﴾ فعل، ونائب فاعل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها.

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿قُتِلْتُمْ﴾. ﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ معطوف على ﴿قُتِلْتُمْ﴾. ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ ﴿اللام﴾ حرف ابتداء. ﴿مغفرة﴾ مبتدأ. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿مغفرة﴾. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ معطوف على مغفرة. ﴿خَيْرٌ﴾ خبر المبتدأ. ﴿مِّمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿خَيْرٌ﴾. ﴿يَجْمَعُونَ﴾ فعل، وفاعل صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: يجمعونه، والجملة من المبتدإ والخبر جواب القسم لا محل لها من الإعراب. وأما جواب الشرط فمحذوف على القاعدة المشهورة عندهم، كما قال ابن مالك:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وقَسَم ... جَوَابَ مَا أَخَّرتْ فَهُوَ مُلْتَزِمْ

وجملة القسم مع جوابه مستأنفة.

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

﴿وَلَئِن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿اللام﴾ موطئة للقسم. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿مُّتُّمْ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ معطوف على ﴿مُّتُّمْ﴾. ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ﴾ ﴿اللام﴾ رابطة لجواب القسم. ﴿إلى اللَّه﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿تُحْشَرُونَ﴾. ﴿تُحْشَرُونَ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعل، والجملة الفعلية جواب القسم، وجواب الشرط محذوف معلوم من جواب القسم تقديره: تحشرون إلى الله. وجملة القسم مع جوابه معطوفة على جملة القسم الأول.

وقال أبو البقاء[1] قوله: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ﴾ ﴿اللام﴾ جواب قسم محذوف، ولدخولها على حرف الجر.. جاز أن يأتي ﴿تُحْشَرُونَ﴾ غير مؤكد بالنون، والأصل: لتحشرن إلى الله.

قال أبو حيان[2]: ولم يؤكد الفعل الواقع جواباً للقسم المحذوف؛ لأنه فصل بين اللام المتلقى بها القسم وبينه بالجار والمجرور، ولو تأخر.. لكان لتحشرن إليه. قال أبو عليٍّ: الأصل دخول نون التوكيد فرقاً بين لام اليمين،

---

(١) العكبري. (٢) البحر المحيط.

ولام الابتداء. ولام الابتداء لا تدخل على الفضلات، فبدخول لام اليمين على الفضلة؛ ؛ وقع الفصل، فلم يحتج إلى النون، وبدخولها على سوف كقوله: ﴿فلسوف تعلمون﴾ وقع الفرق فلم يحتج إلى النون؛ لأن لام الابتداء لا تدخل على الفعل، إلا إذا كان حالاً أما إذا كان مستقبلاً . . فلا.

وإنما قُدِّمَ الجار والمجرور اهتماماً باسم الله تعالى، ولرعاية الفاصلة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ الرُّعب بضمتين، وبإسكان الثاني شدة الخوف التي تملأ القلب، وفي «المصباح». رعبت رعباً من باب: تفع خفت، ويتعدى بنفسه، وبالهمزة أيضاً يقال: رعبته فهو مرعوب، وأرعبته، والاسم الرعب بالضم، وبضم العين للإتباع، ورعبت الإناء إذا ملأته، ورعبت الحوض ملأته، وسيلٌ راعبٌ؛ أي: ملأ الوادي.

﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًاۖ﴾ السلطان[1]: الحجة والبرهان، ومنه قيل للوالي: سلطان، وقيل: اشتقاق السلطان من السليط، وهو ما يضيء به السراج من دهن السمسم، وقيل: السليط: الحديد، والسلاطة: الحدة، والسلاطة من التسليط، وهو القهر والسلطان من ذلك، فالنون زائدةٌ، والسليطة المرأة الصخابة، والسليط الرجل الفصيح اللسان.

﴿مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ المثوى: مفعلٌ من ثوى يثوي ثوياً إذا أقام، يكون للمصدر، والزمان، والمكان، والثواء الإقامة بالمكان الثابتة، أما المأوى: فهو المكان الذي يأوي إليه الإنسان كما مر في بحث التفسير.

﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ الحسُّ: القتل الذريع يقال: حسَّه يحسه من باب: رد حسًّا، إذا قتله قتلاً ذريعاً قال الشاعر:

حَسَسْنَاهُمْ بِٱلسَّيْفِ حَسَّاً فَأَصْبَحَتْ ... بَقِيَّتُهُمْ قَدْ شُرِّدُوْا وَتَبَدَّدُوْا

---

(١) البحر المحيط.

وجراد محسوسٌ قتله البرد، وسنةٌ حسوس إذا أتت على كل شيء. وفي «المختار» ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ أي: تستأصلونهم قتلاً، وبابه: ردَّ، فكأن القاتل أبطل حسه بالقتل، كما يقال: بطنه إذا أصاب بطنه، ورأسه إذا أصاب رأسه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ في «المصباح» فشل فشلاً، فهو فشلٌ من باب: تعب وهو الجبان الضعيف القلب.

﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ﴾ التنازع الإختلاف، وهو من النزع وهو الجذب يقال: نزع ينزع إذا جذب، وهو متعدٍّ إلى واحد؛ ونازع متعدٍ إلى اثنين وتنازع متعدٍ إلى واحد. قال الشاعر:

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت   هصرت بغصن ذي شماريخ ميال

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ بضم أوله على قراءة الجمهور من أصعد الرباعيّ، يقال: أصعدنا من مكة إلى المدينة، أي: ذهبنا، وبفتحه على قراءة غيرهم من صعد في الجبل إذا رقىٰ. وقال المفضل: صعد وأصعد بمعنى واحدٍ.

﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾؛ أي: لا تلتفتون إلى أحد من شدة الهرب، يقال: فلانٌ لا يلوي على شيء؛ أي: لا يعطف عليه، ولا يبالي به، وأصل تلوون تلويون استثقلت الحركة على الياء ثم حذفت، فالتقى ساكنان، ثم حذفت الياء، ثم ضمت واو عين الكلمة لمناسبة واو الضمير فصار تلوون.

﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ يقال: فات الشيء، أعجز إدراكه، وهو متعد، ومصدره فوتٌ وهو قياس فعل المتعدِّي.

﴿نُّعَاسًا﴾ النعاس[1]: النوم الخفيف، يقال: نعس ينعس من باب فتح، ونصر نعاساً، فهو ناعسٌ، ولا يقال: نعسان. وقال الفراء: قد سمعتها، ولكني لا أشتهيها، ويقال: نعس الرجل نعساً إذا أخذته فترةٌ في حواسه، فقارب النوم، فهو ناعسٌ.

﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ جمع مضجع، والمضجع: المكان الذي يتكأ فيه للنوم،

---

(١) البحر المحيط.

ومنه: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ والمضاجع المصارع، وهي أماكن القتل، سميت بذلك لضجعة المقتول فيها.

﴿أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى﴾ جمع[1] غاز، على حدِّ قوله:

وفُـعَّـلٌ لِـفـاعِـلٍ وفـاعِـلَـهْ   وَصْـفَـيْـنِ نَـحْـوُ عَـاذِلٍ وعَـاذِلَـهْ
ومِـثْـلُـهُ الـفُـعَّـالُ فِـيْـمَـا ذُكِـرَا   وَذَانِ فِـيْ الـمُـعَـلِّ لامَـاً نَـدَرَا

وهو منصوبٌ بفتحة مقدرة على الألف المنقلبة عن الواو، وحذفت لالتقاء الساكنين، وأصله غزو تحركت الواو وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، ثم حذفت لما ذكر. وفي «السمين» والجمهور على ﴿غزاً﴾ بالتشديد جمع غازٍ، وقياسه: غزاةٌ كـ: رامٍ، ورماةٍ، وقاضٍ وقضاةٍ، ولكنهم حملوا المعتل على الصحيح في نحو ضاربٍ، وضُرَّب، وصائمٍ، وصُوَّم. وقرأ الحسن ﴿غُزاً﴾ بالتخفيف، وفيه وجهان **أحدهما**: أنه خفَّف الزاي كراهية التثقيل في الجمع، **والثاني**: أن أصله غزاةٌ كقضاةٍ ورماة، ولكنه حذف تاء التأنيث؛ لأنَّ نفس الصيغة دالَّةٌ على الجمع، فالتاء مستغنى عنها.

﴿أَوۡ مُتُّمۡ﴾ بضم الميم من مات يموت من باب قال يقول، وأصل مات: موت تحركت الواو، وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً فصار مات. وأصل يموت يموت نقلت حركة الواو إلى الساكن قبلها فصار يموت. وأما بكسرها فمن: مات يمات كخاف يخاف، أصله في الماضي موت كخوف، تحركت الواو، وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، فصار مات فهو من باب علم وأصله في المضارع يموت بوزن يعلم نقلت فتحة الواو إلى الساكن قبلها، ثم قلبت ألفاً، فصار يمات مثل يخاف، فيقال في الماضي، عند إسناده لتاء الضمير: متم كما يقال: خفتم، وأصله موتم بوزن علمتم، نقلت كسرة الواو إلى الميم بعد سلب حركتها، ثم حذفت الواو لالتقاء الساكنين.

وأما ﴿مُتُّمۡ﴾ بالضم؛ فلأنَّ فَعَلَ بفتح العين من ذوات الواو، فقياسه إذا

---

(١) الفتوحات.

أسند إلى تاء المتكلم، وأخواتها: أن تضم فاؤه، إما من أوَّل وهلة، وإما أن تبدل الفتحة ضمةً، ثم تنقلها إلى الفاء على اختلافٍ بين الصرفيين.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة:

منها: الطِّباق في لفظ ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾، و﴿كَفَرُواْ﴾، وكذلك بين ﴿يخفون﴾ و﴿يبدون﴾، وبين ﴿فاتكم﴾ و ﴿أصابكم﴾، وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾، شبه الرجوع عن الدين بالراجع القهقرى؛ والذي حبط عمله بالكفر بالخاسر الذي ضاع ربحه، ورأس ماله، وبالمنقلب الذي يروح في طريق، ويغدو في أخرى، وفي قوله: ﴿سَنُلْقِى﴾، وقيل هذا كله استعارة.

ومنها: الالتفات[1] إلى التكلم في قوله: ﴿سَنُلْقِى﴾ من الغيبة في قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ﴾ وذلك للتنبيه على عظم ما يلقيه تعالى، وقرأ أيوب السختيانيُّ سيلقي بالغيبة جرياً على الأصل، وقدم المجرور على المفعول به اهتماماً بذكر المحل قبل ذكر الحال، والإلقاء هنا مجازٌ؛ لأنَّ أصله في الأجرام فاستعير هنا.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ حيث لم يقل، وبئس مثواهم بل وضع الظاهر مكان الضمير للتغليظ، وللإشعار بأنهم ظالمون لوضعهم الشيء في غير موضعه.

ومنها: التفخيم في قوله: ﴿ذُو فَضْلٍ﴾ حيث نكره.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ للتشريف، وللإشعار بعلة الحكم حيث لم يقل عليكم.

ومنها: الإبهام[2] في قوله: ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ فمن قال: هو

---

(١) الفتوحات. (٢) البحر المحيط.

الرسول أبهمه تعظيماً لشأنه؛ ولأن التصريح فيه هضمٌ لقدره.

ومنها: التجنيس المماثل في ﴿غَمًّا بِغَمٍّ﴾ ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾.

ومنها: التفسير بعد الإبهام في قوله: ﴿مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ﴾.

ومنها: الاحتجاج النظريُّ في قوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ﴾، وهو أن يذكر المتكلم معنى يستدل عليه بضروب من المعقول نحو قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ﴾ وبعضهم يسميه المذهب الكلامي، ومنه قول الشاعر:

جَرَى ٱلْقَضَاءُ بِمَا فِيْهِ فَإِنْ تَلُمِ ... فَلاَ مَلاَمَ عَلَى مَا خُطَّ بِٱلْقَلَمِ

ومنها: الاعتراض في ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾.

ومنها: الاختصاص في ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، وفي ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ومنها: الإشارة في قوله: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً﴾.

ومنها: الاستعارة في ﴿إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تشبيهاً[1] للمسافر في البرِّ بالسابح الضارب في البحر؛ لأنه يضرب بأطرافه في غمرة الماء شقًّا لها، واستعانةً على قطعها.

ومنها: التكرار في ﴿مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ وما بعدهما

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) تلخيص البيان ص ٢٢.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾.

المناسبة

مناسبة هذه الآيات لما قبلها: لمَّا أرشد[1] الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين في الآيات المتقدمة إلى ما ينفعهم في معاشهم، ومعادهم، وكان من جملة ذلك أن عفا عنهم.. زاد في الفضل والإحسان إليهم، في هذه الآيات بأن مدح الرسول ﷺ على عفوه عنهم، وتركه التغليظ عليهم، وقد نزلت هذه الآيات عقب وقعة أحد، التي خالف فيها النبيَّ ﷺ بعض أصحابه، وكان من جراء ذلك ما كان من الفشل، وظهور المشركين عليهم، حتى أصيب النبيُّ ﷺ مع من أصيب، فصبر، وتجلَّدَ، ولان في معاملة أصحابه، وخاطبهم بالرِّفْق، ولم

(١) المراغي.

يعاتبهم اقتداء بكتاب الله تعالى؛ إذ أنزل في هذه الواقعة آيات كثيرةً بيَّن فيها ما كان من ضعف بعض المسلمين، وعصيانهم، وتقصيرهم حتى ذكر الظنون والهواجس النفسية، لكن مع العتب المقترن بذكر العفو والوعد بالنصر وإعلاء الكلمة.

والآيات تتحدَّث عن أخلاق النبوَّةِ، وعن المِنَّةِ العظمى ببعثةِ الرسولِ الرحيم، والقائد الحكيم، وعن بقية الأحداث الهامة في تلك الغزوة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ...﴾ الآية، مناسبةُ هذه الآية لما قبلها[1]: من حيث إنها تضمَّنت حكماً من أحكام الغنائم في الجهاد، وهو من المعاصي المتوعَّد عليها بالنار، كما جاء في قصة مُدْعِمٍ[2] فحذَّرهم عن ذلك.

قوله تعالى:[3] ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لمَّا ذكر الفريقين فريق الرضوان، وفريق السخط، وأنهم درجاتٌ عند الله مجملا من غير تفصيل، فصل أحوالهم. وبدأ بالمؤمنين وذكر ما امتن عليهم به من بعث الرسول إليهم تالياً لآيات الله، ومبيِّناً لهم طريق الهدى، ومطهِّراً لهم من أرجاس الشرك، ومنقذاً لهم من غمرة الضلالة بعد أن كانوا فيها، وسلاَّهم عمَّا أصابهم يوم أحد من الخِذلان، والقتل، والجراح، لما أنالهم يوم بدر من الظفر والغنيمة، ثم فصَّل حالَ المنافقين الذين هم أهل السخط بما نصَّ عليه تعالى.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ...﴾ الآية، أخرج[4] أبو داود والترمذي وحسَّنه، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في قطيفةٍ حمراء، فقدت يوم بدر، فقال بعض الناس لعلَّ رسولَ الله ﷺ أخذها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن

---

(١) البحر المحيط.

(٢) مدعم: اسم عبد للنبي ﷺ وهبه له رجل من بني جذام يدعى رفاعة بن زيد كما سيأتي بيانه في أحاديث الغلول. اهـ مؤلفه.

(٣) البحر المحيط.

(٤) لباب النقول.

﴿يَغُلَّ . . .﴾ إلى آخر الآية.

وأخرج[1] الطبراني في الكبير بسندٍ رجاله ثقات، عن ابن عباس قال: بعث رسولُ الله ﷺ جيشاً، فردت، رايته ثم بعث، فردت، ثم بعث فردت بغلول رأس غزال من ذهب، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ . . .﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ . . .﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما رواه الإمام أحمد رحمه الله /ج ١ ص ٣٠/) عن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر، قال: نظر النبي ﷺ إلى أصحابه، وهم ثلاث مئة ونيف، ونظر إلى المشركين، فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبيُّ ﷺ القبلة، ثم مد يديه، وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: «اللهم أين ما وعدتني، اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام. . فلا تعبد في الأرض أبداً، قال: فما زال يستغيث ربَّه عز وجل، ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر رضي الله عنه فأخذ رداءه فرداه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبيَّ الله، كفاك مناشدتك ربَّك، فإنه سينجز لك ما وعدك، وأنزل الله عز وجل: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾ فلما كان يومئذٍ، والتقوا، فهزم الله عز وجل المشركين، فقتل منهم سبعون رجلاً، وأسر منهم سبعون رجلاً، فاستشار رسولُ الله ﷺ أبا بكرٍ وعلياً، وعمر رضي الله عنهم فقال أبو بكر رضي الله عنه يا رسول الله: هؤلاء بنو العم، والعشيرة، والإخوان، فإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذنا منهم قوةً لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً، فقال رسول الله ﷺ ما ترى يا ابن الخطاب؛ قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكنّي أرى أن تمكنني من فلان قريباً لعمر، فأضرب عنقه، وتمكِّن عليًّا رضي الله عنه عن عقيل، فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا موادَّةٌ للمشركين،

---

(١) لباب النقول. (٢) مسند أحمد.

هؤلاء صناديدهم، وأئمتهم، وقادتهم، فهوى رسولُ الله ﷺ ما قال أبو بكر رضي الله عنه ولم يهو ما قلت، فأخذ منهم الفداء، فلما أن كان من الغد، قال عمر رضي الله عنه: غدوت إلى رسول الله ﷺ فإذا هو قاعدٌ، وأبو بكر رضي الله عنه: وإذا هما يبكيان، فقلت: يا رسول الله، أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاءً بكيت، فإن لم أجد تباكيت لبكائكما، قال: فقال النبي ﷺ: الذي عرض عليَّ أصحابك من الفداء، لقد عُرِضَ عليّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة، لشجرةٍ قريبةٍ، وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ من الفداء ثم أحل لهم الغنائم، فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، وفرَّ أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ وكسرت رباعيته، هشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، وأنزل الله عز وجل: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ بأخذ الفداء».

الحديث رجاله رجال الصحيح، وقد عزاه ابن كثير، والسيوطي لابن أبي حاتم مختصراً، وإنما سقته بتمامه لما فيه من العبر.

التفسير وأوجه القراءة

والباء في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ سببيةٌ، وما زائدة؛ أي: فسبب رحمةٍ عظيمةٍ من الله، لنت وسهلت[1] لهم أخلاقك، وكثرت احتمالك إياهم، ولم تسرع إليهم بتعنيف على ما وقع منهم يوم أحد. ومعنى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: هو توفيق الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ للرفق، والتلطُّف بهم، وأنَّ الله تعالى ألقى في قلب نبيه ﷺ داعية الرحمة، واللطف حتى فعل ذلك معهم.

وقال[2] أبو حيان: متعلَّق الرحمة المؤمنون، فالمعنى فبرحمة من الله عليهم، لِنْتَ لهم، فتكون الرحمة امْتَنَّ بها عليهم؛ أي: سهلت أخلاقك، ولان

---

(١) الخازن.

(٢) البحر المحيط ج ٣ ص ٩٧.

جانبك لهم بعد ما خالفوا أمرك، وعصوك في هذه الواقعة، وذلك برحمة الله إياهم. وقيل: متعلق الرحمة المخاطب ﷺ؛ أي: برحمة الله إياك، جعلك لين الجانب، موطأ الأكناف، فرحمتهم، ولنت لهم، ولم تؤاخذهم بالعصيان، والفرار وإفرادك للأعداء، ويكون ذلك امتناناً على رسول الله ﷺ.

والخلاصة: أنه قد كان من أصحابك ما يستحق الملامة والتعنيف بمقتضى الطبيعة البشرية؛ إذ صدروا عنك حين اشتداد الأهوال، وشمروا للهزيمة، والحرب قائمة على قدم وساق، ومع ذلك لنت لهم، وعاملتهم بالحسنى بسبب الرحمة التي أنزلها الله على قلبك، وخصك بها؛ إذ أمدَّك بآداب القرآن العالية، وحكمه السامية حتى هانت عليك المصائب، وعلمتك مالها من المنافع، وحسن العواقب، وقد مدح الله نبيَّه ﷺ بحسن الخلق في مواضع من كتابه، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ وقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾، وقال ﷺ: «لا حِلْمَ أحبَّ إلى الله تعالى من حِلْمِ إمامٍ ورِفْقهِ، ولا جَهْلَ أَبْغَضَ إلى الله من جَهْلِ إمامٍ وخُرْقِهِ».

﴿وَلَوْ كُنتَ﴾ يا محمد ﴿فَظًّا﴾؛ أي: سيىء اللِّسان بذيّه ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾، أي: جافيه، وقاسيه ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾؛ أي: ولو لم تكن كذلك، وكنت فظًّا غليظاً ﴿لَٱنفَضُّواْ﴾؛ أي: لتفرقوا من عندك، ونفروا عنك، ولم يسكنوا إليك حتى لا يبقى أحدٌ منهم عندك، ولا يتم أمرك من هدايتهم وإرشادهم إلى الصراط المستقيم، إذا انفضوا من عندك. وذاك أنَّ المقصود من بعثة الرسل تبليغهم شرائع الله إلى الخلق، ولا يتم ذلك إلاّ إذا مالت قلوبهم إليهم، وسكنت نفوسهم لديهم، وذلك إنما يكون إذا كان الرسول رحيما كريماً، يتجاوز عن ذنب المسيء، ويعفو عن زلاته، ويخصه بوجوه البر، والمكرمة، والشفقة.

﴿فَٱعْفُ﴾ يا محمد ﴿عَنْهُمْ﴾ وسامح لهم ما وقع منهم يوم أحد فيما يختصُّ بك، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾؛ أي: واطلب المغفرة لهم من الله سبحانه وتعالى فيما يختص بحقوق الله تعالى إتماماً للشفقة عليهم، وإكمالاً للبر لهم، ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ يا

محمد ﴿فِي ٱلْأَمْرِ﴾ الذي يرد[1] عليك، أي أمر كان مما يشاور في مثله، أو في أمر الحرب خاصَّةً، كما يفيده السِّياقُ، لما في ذلك من تطييب خواطرهم، واستجلاب مودَّتهم، فإن المشاورة تقتضي شدَّة محبتهم له ﷺ؛ لأنها تدل على رفعة درجتهم، فترك المشاورة معهم أهانة لهم، وروي أنه ﷺ قال: «ما شاور قومٌ قطُّ إلا هدوا لأرشد أمورهم» وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما رأيت أحداً أكثر مشاورةً من أصحاب النبي ﷺ ولتعريف الأمة بمشروعية ذلك حتى لا يأنف منه أحدٌ بعدك، وقرأ ابن عباس ﴿في بعض الأمر﴾.

فائدة: وللمشاورة فوائد جمة[2]:

منها: أنها تبين مقادير العقول والأفهام، ومقدار الحب والإخلاص للمصالح العامة.

ومنها: أن عقول الناس متفاوتة وأفكارهم مختلفةٌ، فربما ظهر لبعضهم من صالح الآراء ما لا يظهر لغيره، وإن كان عظيماً.

ومنها[3]: أن الآراء فيها تقلب على وجوهها، ويختار الرأي الصائب من بينها.

ومنها: أنه يظهر فيها اجتماع القلوب على إنجاح المسعى الواحد، واتفاق القلوب على ذلك مما يعين على حصول المطلوب، ومن ثم شرعت الاجتماعات في الصلوات، وكانت صلاة الجماعة أفضل من صلاة المنفرد بسبع وعشرين درجة.

ومنها: أنه قد يعزم الإنسان على أمرٍ فيشاور فيه، فيتبين له الصواب في غيره، فيعلم بذلك عجز نفسه عن الإحاطة بفنون المصالح.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي ج ٢ ص ١١٤.

(٣) النسفي.

ومنها: أنه إذا لم ينجح أمره.. علم أن امتناع النجاح محض قدرٍ، فلم يلم نفسه. وقال بعضهم: يجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون، وفيما أشكل عليهم من أمور الدنيا، ومشاورة وجه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ووجه الناس فيما يتعلق بالمصالح، ووجوه الكتاب والعمال والوزراء فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها. وحكى القرطبيُّ عن ابن عطية: أنه لا خلاف في عزل من لا يستشير بأهل العلم، والدِّين. ذكره الشوكاني. وقال بعضهم في مدح المشاورة:

وَشَاوِرْ إِذَا شَاوَرْتَ كُلَّ مُهَذَّبٍ ... لَبِيْبٍ أَخِيْ حَزْمٍ لِتَرْشَدَ فِيْ ٱلأَمْرِ

وَلاَ تَكُ مِمَّنْ يَسْتَبِدُّ بِرَأْيِهِ ... فَتَعْجَزَ أَوْ لاَ تَسْتَرِيْحَ مِنَ ٱلْفِكْرِ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ قَالَ لِعَبْدِهِ ... وَشَاوِرْهُمْ فِيْ ٱلأَمْرِ حَتْمَاً بِلاَ نُكْرِ

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ وجزمت، وصممت نفسك بعد المشاورة على شيء من أمورك، وقصدت إمضاءه ﴿فَتَوَكَّلْ﴾، واعتمد ﴿عَلَى﴾ معونة ﴿ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى واستعن به في إمضائه لا على المشاورة، والمقصود: أن لا يكون للعبد اعتمادٌ على شيء إلا على الله تعالى، في جميع أموره، فالمشورة لا تنافي التوكل، فإنه ليس التوكل هو إهمال التدبير بالكلية، وإلا لكان الأمر بالمشاورة منافيا للأمر بالتوكل، بل التوكل هو: أن يراعي الإنسان الأسباب الظاهرة، ولكن لا يعول بقلبه عليها بل يعول بقلبه على عصمة الله ومعونته فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُحِبُّ﴾، ويثيب ﴿ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ والمعتمدين عليه في جميع أمورهم الواثقين به، فينصرهم، ويرشدهم إلى ما فيه خيرٌ لهم وصلاحٌ. فالتوكل: هو الاعتماد على الله، والتفويض في الأمور إليه. وقال ذو النون: التوكل: خلع الأرباب، وقطع الأسباب، والصحيح: أن التوكل إنما يكون مع الأخذ في الأسباب، وبدونها يكون دعوى التوكل جهلاً بالشرع، وفساداً في العقل.

وقرأ الجمهور[1] ﴿عزمْت﴾ على الخطاب كالذي قبله، وقرأ عكرمة، وجابر بن زيد، وأبو نهيك، وجعفر الصادق، ﴿عَزَمْتُ﴾ بضم التاء على أنها

---

(١) البحر المحيط.

ضميرٌ لله تعالى، والمعنى: فإذا عزمت لك على شيء؛ أي: أرشدتك إليه، وجعلتك تقصده، فتوكل على الله، ويكون قوله: على الله من باب الالتفات؛ إذ لو جرى على نسق ضم التاء.. لقال فتوكل عليَّ. ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: إن يعطكم الله النصر ويعنكم بنصره، ويمنعكم من عدوكم كما نصركم يوم بدر ﴿فَلَا غَالِبَ﴾ وقاهر لكم من الناس؛ أي: فلا أحد يغلبكم، وإنما يدرك نصر الله من تبرأ من حوله وقوته، واعتصم بربه، وقدرته ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ ويترك نصركم، ووكلكم إلى أنفسكم، لمخالفتكم أمره وأمر رسوله ﷺ كما فعل بكم يوم أحد ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم﴾؛ أي: فمن الذي ينصركم ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: من بعد خذلانه إياكم؛ أي: فلا أحد يملك لكم نصراً، ويدفع عنكم الخذلان فالذي وقع لكم من النصر كما في يوم بدر، أو من الخذلان كما في يوم أحد بمشيئته سبحانه وتعالى، فالأمر كلُّه لله بيده العزَّة، والنصرة، والإذلال، والخذلان. وقرأ الجمهور ﴿يَخْذُلْكُمْ﴾ من خذل الثلاثي، وقرأ عبيد بن عمير ﴿يَخْذِلْكُم﴾ من أخذل الرباعي، والهمزة فيه للجعل؛ أي: يجعلكم مخذولين. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ القاهر الغالب سبحانه وتعالى لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: فليخصوه بالتوكل؛ لأنه لا ناصر لهم سواه.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب»، قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «هم الذين لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»، فقام عكاشة بن محصن رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: أنت منهم، فقام آخر، فقال: يا نبيَّ الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عكاشة». رواه الشيخان وأحمد.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لو أنكم تتوكَّلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً». أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ قرأ ابن عباس، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم

بفتح الياء، وضم الغين؛ أي: وما[1] كان لنبيٍّ أن يخون؛ أي: ما جاز له أن يخون أمته في شيء من الغنائم؛ لأن النبوة، والخيانة لا يجتمعان؛ لأنَّ منصب النبوة أعظم المناصب، وأشرفها وأعلاها، فلا تليق به الخيانة؛ لأنها في نهاية الدناءة والخسة، والجمع بين الضدين محال، فثبت بذلك أن النبي ﷺ لم يخن أمته في شيء، لا من الغنائم، ولا من الوحي. وقيل: المراد به: الأمة؛ لأنه قد ثبت براءة ساحة النبي ﷺ من الغلول، والخيانة، فدلَّ ذلك على أن المراد بالغلول غيره. وقيل: اللام فيه منقولة معناه ما كان النبيُّ ليغل على نفي الغلول عن الأنبياء. وقيل: معناه ما كان لنبي الغلول يعني ما غل نبيٌّ قط، فنفى عن الأنبياء الغلول. وقيل: معناه، وما كان يحل لنبي الغلول، وإذا لم يحل له... لم يفعله. وحجة هذه القراءة أنهم نسبوا النبي ﷺ إلى الغلول في بعض الروايات، فبين الله تعالى بهذه الآية، أنَّ هذه الخصلة، لا تليق به، ونفى عنه ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾.

وقرأ ابن مسعود، ونافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، ويعقوب ﴿يغل﴾ بضم الياء وفتح الغين بالبناء للمفعول، ولها معنيان:

أحدهما: أن يكون من الغلول أيضاً، ومعناه: وما كان لنبي أن يخان؛ أي: ما جاز له أن تخونه أمته، لأن الوحي يأتيه حالا فحالاً، فمن خانه.. فربما نزل الوحي فيه، فيحصل له مع عذاب الآخرة فضيحة الدنيا؛ ولأن الخيانة في حقه ﷺ أفحش؛ لأنه أفضل البشر، ولأن المسلمين في ذلك كانوا في غاية الفقر.

والثاني: أن يكون من الإغلال، ومعناه: وما كان لنبي أن يخون؛ أي: ينسب إلى الخيانة والغلول، أو ما صحَّ له أن يوجد غالاً.

ومعنى الكلام: أيْ ما كان[2] من شأن، أي نبيٍّ، ولا من سيرته أن يغلَّ؛ لأنَّ الله تعالى عصم أنبياءه منه، فهو لا يليق بمقامهم، ولا يقع منهم؛ لأن النبوة أعلى المناصب الإنسانية، فصاحبها لا يرغب فيما فيه دناءةٌ، وخسةٌ. ﴿وَمَن

---

(١) الخازن.　　(٢) المراغي.

﴿يَغْلُلْ﴾؛ أي: ومن يأخذ من الغنيمة خفية، وخيانة ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾؛ أي: يجيء بالذي غله وأخذه من الغنيمة بعينه يحمله على عنقه ﴿يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ فضيحةً له على رؤوس الأشهاد، وزيادة له في تعذيبه ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ﴾؛ أي: ثم بعد جمع الخلائق في عرصات القيامة، والحال أن الغال فيهم حاملاً بما غل على عنقه، تعطي، وتوفر وتجازى ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ غالةٍ وغيرها جزاء ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ واقترفت من خير أو شر، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ أي: والحال أن الخلائق لا يظلمون في جزاء أعمالهم بنقص ثواب عنهم، أو زيادة عقاب عليهم.

فصل في ذكر الأحاديث الواردة في الغلول ووعيد الغال

والغلول: لغة: أخذ الشيء خفية، والخيانة فيه. وشرعاً: الخيانة في الغنيمة، وبهذا وردت الأحاديث.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم فذكر الغلول فعظمه، وعظم أمره حتى قال: «لا ألفينَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعيرٌ له رغاء يقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرسٌ له حمحمةٌ، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد أبلغتك لا ألفينَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء، يقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفسٌ لها صياحٌ، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاعٌ تخفق، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامتٌ، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك». متفق عليه، وهذا لفظ مسلم.

الرغاء: صوت البعير، والثغاء. صوت الشاة، والرقاع: الثياب، والصامت: الذهب والفضة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر،

ففتح الله علينا، فلم نغنم ذهباً، ولا ورقاً غنمنا المتاع، والطعام، والثياب، ثم انطلقنا إلى الوادي، يعني وادي القرى، ومع رسول الله ﷺ عبدٌ له وهبه رجلٌ من جذام يدعى رفاعة بن زيد من بني الضبيب، فلما نزلنا الوادي، قام عبدُ رسول الله ﷺ يحل رحله، فرمي بسهم فكان فيه حتفه، فقلنا: هنيئاً له، شملته الشهادة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: كلا، والذي نفس محمد بيده، إن الشملة لتلتهب عليه ناراً، أخذها من الغنائم يوم خيبر، لم تصبها المقاسم قال: ففزع الناس، فجاء رجل بشراك، أو شراكين، فقال: أصبتها يوم خيبر، فقال رسول الله ﷺ شراكٌ من نارٍ، أو شراكان من نار». متفق عليه.

وفي رواية نحوه، وفيه «ومعه عبدٌ يقال له: مدعمٌ أهداه له أحد بني الضبيب، وفيه إذ جاءه سهمٌ عائر.

والشراك: سير النعل الذي يكون على ظهر القدم، ومثله شسع النعل، والسهم العائر، هو: السهم الذي لا يدرى من رماه.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: كان على ثِقَل رسول الله ﷺ رجل، يقال له: كركرة، فمات، فقال رسول الله ﷺ، «هو في النار» فذهبوا ينظرون إليه، فوجدوا عباءة قد غلَّها». رواه البخاري.

وعن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ توفِّي، فذكروه لرسول الله ﷺ فقال: «صلوا على صاحبكم، فتغيرت وجوه الناس لذلك، فقال: إن صاحبكم غل في سبيل الله»، ففتشنا متاعه فوجدنا خرزاً من خرز اليهود، لا يساوي درهمين. أخرجه أبو داود، والنسائي.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ غَلَّ فأحرقوا متاعه، واضربوه». أخرجه أبو داود، والترمذي.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ، وأبا بكر، وعمر أحرقوا متاع الغال، وضربوه. زاد في رواية، ومنعوه سهمه. أخرجه أبو داود.

وقد أردف الله سبحانه وتعالى توفية ما كسبته كل نفس بالتفصيل الآتي ليبين

أن جزاء المطيعين ليس كجزاء المسيئين، فقال: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أفمن اتبع كتاب الله ورسوله، وسعى في تحصيل رضا الله سبحانه وتعالى بفعل الطاعات، وترك الغلول، وغيره من الفواحش والمنكرات ﴿كَمَنۢ﴾ غلَّ و ﴿بَآءَ﴾ ورجع ﴿بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بغضب شديد كائن من الله سبحانه وتعالى ﴿و﴾ كمن كان ﴿مأواه﴾ ومسكنه، ومنزله ﴿جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: وقبح وساء المرجع مرجعه. والاستفهام هنا: إنكاري، أي: ليس جزاء من اتقى، وسعى في تحصيل مرضات الله تعالى بامتثال المأمورات، واجتناب المنهيات، وترك الغلول كجزاء من غل، وارتكب الفواحش والمحرمات، وانتهى أمره إلى سخط الله تعالى، وعظيم غضبه، وكان مأواه الذي يأوي إليه جهنم، ولا مرجع له غيره؛ لأن مأوى الأول الجنة، ومأوى هذا: النار، فيا بوناً بائناً بين المنزلين.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾.

﴿هُمۡ﴾، أي: الفريقان المذكوران ﴿دَرَجَٰتٌ﴾؛ أي: أصحاب درجات وطبقات، أي: إنَّ كلا ممن اتبع رضوان الله، ومن باء بسخط من الله أصحاب طبقات ومراتب مختلفة عند الله، ومنازل متفاوتة في حكمه، وبحسب علمه بشؤونهم، وبما يستحقون من الجزاء، فهم مختلفون في درجات الثواب، والعقاب في حكم الله وعلمه باختلاف مراتب الطاعات والمعاصي.

والخلاصة: أنَّ الناس يتفاوتون في الجزاء عند الله كما يتفاوتون في الفضائل، والمعرفة في الدنيا، وما يترتب على ذلك من الأعمال الحسنة، أو السيئة، وهذا التفاوت على مراتب ودرجات يعلو بعضها بعضاً من الرفيق الأعلى الذي طلبه النبيُّ ﷺ في مرض موته إلى الدرك الأسفل.

وقرأ الجمهور ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ بالجمع، فهي مطابقة للفظ هم، وقرأ النخعي ﴿درجةٌ﴾ بالإفراد. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: عالم بأعمالهم، ودرجاتها، فمجازيهم على حسبها.

وبعد أن نفى الغلول والخيانة عن النبي ﷺ على أبلغ وجه، أكد ذلك بهذه الآية ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد منَّ الله سبحانه وتعالى وأنعم ﴿على المؤمنين﴾، وأحسن إليهم، وتفضَّل عليهم نعمة عظيمة التي هي بعثة محمد ﷺ إليهم، ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ﴾ وأرسل إليهم ﴿رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وجنسهم عربياً مثلهم، ولد ببلدهم، ونشأ بينهم يفهمون كلامه بسهولة، ويعرفون حاله بالصدق، والأمانة من أول العمر إلى آخره، ولو كان من غير جنسهم بأن كان ملكاً أو جنًّا لم يتأنسوا به، ولو كان من غير نسبهم بأن كان أعجمياً لم يفهموا كلامه بسهولة.

وهو صار شرفاً للعرب، وفخراً لهم، وذلك لأن الافتخار بإبراهيم عليه السلام كان مشتركاً فيه اليهود، والنصارى، والعرب، ثم إن اليهود يفتخرون بموسى، والتوراة، والنصارى يفتخرون بعيسى، والإنجيل، فما كان للعرب ما يقابل ذلك، فلما بعث الله محمداً ﷺ؛ وأنزل القرآن صار شرف العرب بذلك زائداً على شرف الجميع، فهذا وجه الفائدة في قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وخص المؤمنين؛ لأنهم هم المنتفعون بمبعثه ﷺ بالإيمان بما جاء به. وقرىء شاذاً[1] ﴿لِمَنْ مَنِّ الله على المؤمنين﴾ بمن الجارة، و﴿منّ﴾ مجرورٌ بها بدل ﴿قد من﴾ والمعنى لمن من الله على المؤمنين منه، أو بعثه إذ بعث فيهم، فحذف المبتدأ لدلالة السياق عليه. وقرأ الجمهور ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ بضم الفاء، جمع نفس، وقرأت فاطمة، وعائشة، والضحاك، وأبو الجوزاء ﴿مِنْ أَنْفَسِهِم﴾ بفتح الفاء من النفاسة، والشيء النفيس. وروي عن أنس رضي الله عنه أنه سمعها كذلك، من رسول الله ﷺ. وروى عليٌّ عنه عليه السلام «أنا من أنفسكم نسباً، وحسباً، وصهراً، ولا في أبائي من آدم إلى يوم ولدت سفاحٌ، كلها نكاح والحمد لله».

وقال ابن عباس: ما خلق الله نفساً هي أكرم على الله من محمد رسوله ﷺ وما أقسم بحياة أحد غيره، فقال: ﴿لعمرك﴾.

والخلاصة: أن هذا الرسول ولد في بلدهم، ونشأ بين ظهرانيهم، ولم يروا

---

(١) البحر المحيط.

منه طول حياته، إلا الصدق، والأمانة، والدعوة إلى الله، والإعراض عن الدنيا، فكيف يظن بمن هذه حاله خيانةٌ وغلولٌ، وقد وصفه الله سبحانه وتعالى بأوصافٍ كل منها يقتضي عظيم المنة وجسيم النعمة:

الأول: أنه من أنفسهم؛ أي: إنه عربي من جنسهم، وبذا يكونون أسرع الناس إلى فهم دعوته، والاهتداء بهديه، وأقرب إلى الثقة به من غيرهم.

والثاني: أنه ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أي: يقرأ عليهم كتابه، وقرآنه الذي أنزل عليه بعد أن كانوا أهل جاهلية، لم يطرق أسماعهم شيءٌ من الوحي السماوي.

والثالث: أنه ﴿يزكيهم﴾ ويطهرهم من العقائد الزائغة، ووساوس الوثنية، وأدرانها إذ أن العرب وغيرهم قبل الإسلام كانوا فوضى في أخلاقهم، وعقائدهم، وآدابهم، فكان محمد ﷺ يقتلع منهم جذور الوثنية، ويدفع عنهم العقائد الباطلة كاعتقادهم أن وراء الأسباب الطبيعية التي ارتبطت بها المسببات منافع ترجى ومضار تخشى من بعض المخلوقات، فيجب تعظيمها، والالتجاء إليها دفعاً لشرها، وجلباً لخيرها، وتقرباً إلى خالقها، ولا شك أن من يعتقد مثل هذا يكون أسير الأوهام، وعبيد الخرافات يخاف في موضع الأمن، ويرجو حيث يجب الحذر والخوف.

والرابع: أنه ﴿يعلمهم الكتاب﴾؛ أي: يعلمهم معاني القرآن وتفسيره ﴿و﴾ يعلمهم ﴿الحكمة﴾؛ أي: السنة، والحديث، فتعليم الكتاب[1] اضطرَّهم إلى تعلم الكتابة، وأخرجهم من الأمية إلى نور العلم، والعرفان، فقد طلب إليهم كتابة القرآن، واتخذ كتبة للوحي وكتب كتباً دعا بها الملوك، والرؤساء إلى الإسلام، في سائر الأقطار، المعروفة، فانتشرت الكتابة بينهم، وعظمت مدينتهم، وامتدت سلطتهم، فملكوا الأمم التي كان لها السلطان، والصولة، والنفوذ في تلك الحقبة.

وكذلك علمهم الحكمة وأرشدهم إلى البصر بفهم الأشياء، ومعرفة أسرارها وفقه أحكامها، وبيان ما فيها من المصالح، والحكم، وهداهم إلى طريق

---

(١) المراغي.

الاستدلال، ومعرفة براهينها، فكان ذلك من أكبر البواعث على العمل بها، والتمسك بأهدابها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

والخلاصة: أن تعليم الكتاب إشارةً إلى معرفة ظواهر الشريعة، وتعليم الحكمة إشارة إلى فهم أسرارها، وعللها، وبيان منافعها.

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبۡلُ﴾؛ أي: والحال أنهم كانوا من قبل بعثة محمد ﷺ ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ﴾، وغيٍّ وجهل ﴿مُّبِينٍ﴾: أي: بين واضحٍ بعيدٍ عن الحق، ولا ضلال أظهر من ضلال قوم يشركون بالله، ويعبدون الأصنام ويسيرون وراء الأوهام، وهم على ذلك أميون، لا يقرؤون، ولا يكتبون حتى يعرفوا حقيقة ما هم فيه من الضلال. وإنما جعلها منة لكونها وردت بعد محنةٍ، فكان موقعها أعظم إذ أن بعثة الرسول جاءت بعد جهلٍ، وبُعدٍ عن الحق، فكانت أعم نفعاً وأتم وقعاً.

وهذا على كون إن مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن المحذوف، واللام فارقةٌ بين المخففة، والنافية، وهو مذهب سيبويه. وقال الكوفيون: إنها النافية، واللام بمعنى إلا، والمعنى[1]: وما كانوا من قبل مجيء محمد، ونزول القرآن، إلاّ في ضلال بيّن، وذلك لأنَّ دين العرب قبل ذلك كان أرذل الأديان، وهو عبادة الأوثان، وأخلاقهم أرذل الأخلاق، وهو الغارة والنهب، والقتل، وأكل الأطعمة الرديئة، ثم لما بعث الله تعالى سيدنا محمداً ﷺ إليهم انتقلوا ببركته من تلك الدرجة التي هي أخس الدرجات إلى أحسنها، وصاروا أفضل الأمم في العلم، والزهد والعبادة، وعدم الالتفات إلى الدنيا، وطيباتها، ولا شك أن هذا أعظم المنة.

وبعد أن حكى الله سبحانه وتعالى عن المنافقين أنهم نسبوا إلى النبي ﷺ الغلول، والخيانة، ثم برأه منه وبين ما بعث لأجله عاد هنا إلى كشف الشبهات التي عرضت للغزاة قبل الواقعة وبعدها، وبين خطأهم، وضلالهم في أقوالهم، وأفعالهم فقال: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ الهمزة فيه:

---

(١) المراح.

للاستفهام الإنكاري، داخلةٌ على محذوف، والواو عاطفة لـ﴿قلتم﴾ الآتي على ذلك المحذوف ولما حينية متعلقة بـ ﴿قُلْتُمْ﴾، وجملة ﴿أَصَٰبَتْكُم﴾ مضاف إليه، لـ ﴿لَمَّآ﴾ كما سيأتي لك في بحث الإعراب.

والمعنى: أنسيتم فضل الله عليكم، ونصره لكم يوم بدر، وقلتم متعجِّبين حين أصابتكم مصيبةٌ يوم أحد قد أصبتم مثليها، وضعفها يوم بدر من المشركين، أنّى هذا؟ أي: أقلتم متعجبين كيف حصل لنا هذا الخذلان من القتل والهزيمة، ونحن مسلمون، ورسول الله ﷺ فينا، ونحن ننصر دين الإسلام الحقَّ، وهم ينصرون دين الشرك الباطل فكيف صاروا منصورين علينا، ونحن أحقُّ بالنصر!.

والمراد بالمصيبة: ما أصاب المسلمين يوم أحد من ظهور المشركين عليهم، وقتل سبعين منهم. والمراد بمثليها ما أصاب به المسلمون من المشركين يوم بدر بقتل سبعين منهم، وأسر سبعين.

أي: لا ينبغي لكم أن تعجبوا مما حل بكم في هذه الواقعة؛ فإن خذلانكم فيها لم يبلغ مبلغ ظفركم في بدر، فقد كان نصركم في تلك الواقعة ضعف انتصار المشركين في هذه.

فلماذا نسيتم فضل الله عليكم في بدر، فلم تذكروه، وأخذتم تعجبون مما أصابكم في أحد، وتسألون عن سببه.

وفائدة قوله: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ التنبيه على أن أمور الدنيا لا تدوم على نهج واحدٍ، فأنتم هزمتموهم مرتين، فكيف تستبعدون أن يهزموكم مرة واحدة.

وقد أجاب الله سبحانه وتعالى عن شبهة تعجبهم بجوابين: أحدهما: قوله: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾، والثاني قوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿هُوَ﴾؛ أي: إنَّ هذا الخذلان الذي وقع بكم يوم أحد، وتعجبتم منه، وسألتم عن سببه، ﴿مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: إنما وقع بشؤم معصيتكم، ومخالفة أنفسكم أمر الرسول ﷺ؛ لأنكم عصيتم الرسول في أمور كثيرة:

منها: أن الرسول ﷺ قال: المصلحة في البقاء في المدينة، فلا نخرج إلى أحد فأبيتم إلا الخروج، وكان الرأي ما رآه الرسول، حتى إذا ما دخلها

المشركون قاتلوهم على أفواه الأزقة، والشوارع، وترميهم النساء، والصبيان بالأحجار من سطوح المنازل.

ومنها: أنكم فشلتم وضعفتم في الرأي.

ومنها: أنكم تنازعتم، وحصلت بينكم مهاترة[١] كلاميةٌ.

ومنها: أنكم عصيتم الرسول ﷺ وفارقتم المكان الذي أمركم بالوقوف فيه، لحماية ظهوركم بنضح عدوكم بالنبل إذا أرادوا أن يكونوا من ورائكم، ولا شك أن العقوبات آثارٌ لازمةٌ للأعمال، والله إنما وعدكم النصر بشرط ترك المعصية، كما قال: ﴿إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أراده (قدير)؛ أي: قادرٌ، فإنه قادر على نصركم، لو ثبتم وصبرتم كما هو قادرٌ على التخلية بينكم وبين عدوكم إذا خالفتم، وعصيتم، وهو سبحانه وتعالى قد ربط الأسباب بالمسببات، ولا يشذ عن ذلك مؤمنٌ، ولا كافرٌ، فوجود الرسول بينكم وأنتم قد خالفتم سنن الله في البشر، لا يحميكم مما تقتضيه هذه السنن. ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ﴾؛ أي: وكل ما أصابكم، ونالكم أيها المؤمنون من القتل والجراحة والهزيمة ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾؛ أي: يوم تقابل وتقاتل فيه جمع المسلمين، وجمع المشركين، وهو يوم أحد ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فهو واقعٌ بكم بإذن الله، وإرادته، وقضائه، السابق بجعل المسببات نتائج لأسبابها، فكل عسكر يخطىء الرأي، ويعصى قائده، ويخلي بين العدو وظهره، يصاب بمثل ما أصبتم به، أو بما هو أشد، وأنكى منه، وفي ذلك تسليةٌ للمؤمنين بما حصل لهم يوم أحد من القتل والهزيمة، ولا تقع التسلية إلا إذا علموا أن ذلك واقعاً بقضاء الله تعالى، وقدره، وحينئذٍ يرضون بما قضى الله عليهم.

وقوله ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوف[٢] على قوله ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ عطف مسببٍ على سببٍ. وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ عطفٌ على ما قبله قيل: أعاد الفعل

---

(١) فتح القدير. (٢) المراغي.

لقصد تشريف المؤمنين عن أن يكون الفعل المسند إليهم، وإلى المنافقين واحداً.
والمعنى؛ أي: وما أصابكم يوم التقى الجمعان فكائنٌ بإذن الله تعالى، وإرادته، وكائن ليظهر الله صبر الذين آمنوا، وصبروا، وثبتوا، ولم يتزلزلوا، وقوة إيمانهم، وليظهر نفاق الذين نافقوا كعبد الله بن أبيٍّ، وأصحابه الذين انخذلوا يوم أحد عن رسول الله ﷺ ورجعوا، كانوا نحواً من ثلاث مئة رجل ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾؛ أي: قال لهم بعض المسلمين قيل: هو عبد الله بن عمرو بن حرام، والد جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ﴿تَعَالَوْاْ﴾ معنا إلى أحد، و﴿قَـٰتِلُواْ﴾ معنا المشركين ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إن كنتم ممن يؤمن بالله واليوم الآخر ﴿أَوِ ٱدْفَعُواْ﴾؛ أي: أو قاتلوا المشركين دفعاً عن أنفسكم، وأهليكم، وأموالكم، وبلدكم إن لم تكونوا مؤمنين؛ أي: كونوا إمَّا من المجاهدين في سبيل الله، أو من الدَّافعين عن الأنفس والأموال والبلاد.

والخلاصة: قاتلوا ابتغاء مرضاة الله وإقامة دينه أو قاتلوا للدنيا ودافعوا عن أنفسكم وأهليكم ووطنكم لكنهم راوغوا وقعدوا وتكاسلوا.

﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال المنافقون للمؤمنين ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا﴾؛ أي: لو نعرف قتالاً، ونحسنه ونقدر عليه ﴿لَّاتَّبَعْنَـٰكُمْ﴾؛ أي: لذهبنا معكم إلى أحد، وقاتلنا معكم، ولكنا لا نقدر على ذلك، ولا نحسنه. وقيل: معناه لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالا لاتبعناكم، ولكن ما أنتم بصدده ليس بقتالٍ، ولكنه إلقاءٌ بالنفس إلى التهلكة لعدم القدرة منا ومنكم، على دفع ما ورد من الجيش بالبروز إليهم، والخروج من المدينة. وقيل: المعنى لو نعلم أنكم تلقون قتالاً في خروجكم.. ما أسلمناكم، بل كنا نتبعكم، لكنا نرى أن الأمر سينتهي بدون قتال، ولا شك أن هذا الجواب منهم يدل على كمال النفاق، وأنه ما كان غرضهم منه إلا التلبيس والاستهزاء إذ ذهاب المشركين وهم مدججون بسلاحهم إلى أحد من أقوى الأمارات على أنهم يريدون قتالاً ﴿هُمْ﴾؛ أي: هؤلاء المنافقون ﴿لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ﴾؛ أي: هم يوم إذ قالوا فيه ما قالوا، وانخذلوا فيه عن المؤمنين أقرب للكفر من قربهم إلى الإيمان عند من كان يظن أنهم مسلمون؛ لأنهم قد بينوا حالهم وهتكوا أستارهم، وكشفوا عن نفاقهم إذ ذاك، فإنهم كانوا

قبل هذه الواقعة يظهرون الإيمان من أنفسهم، وما ظهرت منهم أمارةٌ تدل على كفرهم، فلما رجعوا عن عسكر المسلمين تباعدوا بذلك عن أن يظن بهم كونهم مؤمنين، وأيضاً: قولهم ذلك يدل على كفرهم؛ لأنه إما على السخرية بالمسلمين، وإما على عدم الوثوق بقول النبي ﷺ وكل واحد منهما كفرٌ. وقيل[1]: المعنى: أنهم لأهل الكفر يومئذٍ أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ جملةٌ مستأنفة مقررة لمضمون ما تقدمها؛ أي: يظهرون بألسنتهم الإيمان الذي ليس في قلوبهم، بل الذي في قلوبهم الكفر، والنفاق، هذه صفة المنافقين لا صفة المؤمنين؛ لأن صفة المؤمن المخلص مواطأة القلب اللسان على شيء واحد، وهو التوحيد. وقال ابن عطية: ذكر الأفواه للتأكيد مثل قوله: يطير بجناحيه.

والمعنى: أنهم أظهروا أمرين ليس في قلوبهم واحدٌ منهما:

أحدهما: عدم العلم بالقتال.

والآخر: الاتباع على تقدير العلم به، وقد كذبوا فيهما، فإنهم عالمون بالقتال غير ناوين للاتباع، بل كانوا مصرين على الانخذال عازمين على الارتداد.

ثم أكد كفرهم ونفاقهم، وبين اشتغال قلوبهم بما يخالف أقوالهم من فنون الشر والفساد، فقال: ﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه تعالى ﴿أَعْلَمُ﴾؛ أي يعلم ﴿بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من تفاصيل الأحوال ما لا يعلمه غيره من الكفر، والكيد للمسلمين، وتربص الدوائر بهم، فهو في كل حين يبين مخبآت أسرارهم، ويكشف أستارهم ثم يعاقبهم على ذلك في الدنيا والآخرة.

والخلاصة: أنه لا ينفعهم النفاق، فالله أعلم بما تكنه سرائرهم، وقلوبهم.

وبعد أن ذكر قولاً قالوه قبل القتال، وبين بطلانه، أردفه قولاً قالوه بعده، وبين فساده وقال: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾؛ أي: هم الذين قالوا لأجل إخوانهم الذين قتلوا في هذه الواقعة، يعني من قتل يوم أحد من أقاربهم المؤمنين، أو من

---

(١) الشوكاني.

أمثالهم المنافقين ﴿وَقَعَدُواْ﴾؛ أي: والحال أن المنافقين القائلين قد قعدوا وجلسوا عن الخروج للقتال مع النبي ﷺ ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾؛ أي: لو أطاع المقتولون إيانا فيما أمرناهم به من القعود، ووافقونا في ذلك، ولم يخرجوا للقتال كما لم نخرج ﴿مَا قُتِلُواْ﴾؛ أي: لما قتلوا يومئذٍ كما أنا لم نقتل.

وقرأ الحسن وهشام: ﴿قُتِّلوا﴾ بتشديد التاء، وفي هذا إيماءٌ إلى أنهم أمروهم بالانخذال، حين انخذلوا.

أخرج ابن جرير عن السدي قال: خرج رسول الله ﷺ في ألف رجلٍ وقد وعدهم الفتح إن صبروا، فلما خرجوا رجع عبد الله بن أبي في ثلاث مئة، فتبعهم أبو جابر السلمي يدعوهم، فقالوا: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم، ولئن أطعتنا لترجعن معنا فنعى الله عليهم ذلك بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ الآية.

وقد دحض الله تعالى حجتهم، وأبان لهم كذبهم، ووبخهم على ما قالوا، فقال لنبيه ردًّا عليهم. ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المنافقين القائلين ذلك ﴿فَٱدْرَءُواْ﴾؛ أي: فادفعوا ﴿عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أن القعود ينجي من الموت.

يعني أن[1] صدور هذا القول الجازم منكم يدل على أنكم قد أحطتم علماً بأسباب الموت في هذه الواقعة، وإذا جاز فيها جاز في غيرها، وحينئذٍ يمكنكم درء الموت ودفعه عن أنفسكم، فادفعوا عنها إن كنتم صادقين.

والخلاصة: أنكم إن كنتم صادقين في أن الحذر يغني عن القدر، وأن سلامتكم كانت بسبب قعودكم عن القتال لا بغيره من أسباب النجاة، فادفعوا سائر صنوف الموت عن أنفسكم، فإنه أحرى بكم.

والمعنى[2]: أن القعود غير مغنٍ عن الموت، فإن أسباب الموت كثيرةٌ، وكما أن القتال يكون سبباً للهلاك، والقعود يكون سبباً للنجاة قد يكون الأمر بالعكس، فلا تغتروا بما قلتم.

---

(١) المراغي. (٢) البيضاوي.

وروي[1] أنه أنزل الله بهم الموت، فمات منهم يوم قالوا هذه المقالة سبعون منافقاً، من غير قتال، ومن غير خروج، لإظهار كذبهم، والله أعلم.

الإعراب

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ﴾.

﴿فَبِمَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت مما سبق لك أنهم يستحقون الملامة، والتعنيف، ولا يستحقون اللين، والسهولة، وأردت بيان سبب لينك لهم فأقول لك: ﴿بما رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم﴾. ﴿الباء﴾ حرف جر. ﴿ما﴾ زائدة. ﴿رَحْمَةٍ﴾ مجرور بـ﴿الباء﴾ الجار والمجرور متعلق بـ ﴿لِنتَ﴾. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿رَحْمَةٍ﴾. ﴿لِنتَ﴾ فعل وفاعل. ﴿لَهُمْۖ﴾ جار ومجرور متعلّق به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿لو﴾ حرف شرط غير جازم. ﴿كُنتَ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿فَظًّا﴾ خبرٌ أول لـ ﴿كان﴾. ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ خبر ثان لها، ومضاف إليه، وجملة ﴿كان﴾ فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾ لا محلَّ لها من الإعراب. ﴿لَٱنفَضُّواْ﴾ ﴿اللام﴾ رابطةٌ لجواب ﴿لو﴾. ﴿انفضوا﴾ فعل وفاعل. ﴿مِنْ حَوْلِكَۖ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلّق به، والجملة الفعلية جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب وجملة ﴿لو﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل النصب معطوفة على جملة ﴿لِنتَ﴾ على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة.

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ﴾.

﴿فَٱعْفُ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنهم يستحقون الملامة والعتاب، وأردت بيان ما هو الأصلح لهم

(١) المراح بالنسفي.

فأقول لك: أعف عنهم. ﴿أعف﴾: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً يعود على محمد ﷺ. ﴿عَنْهُمْ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ جملة فعلية معطوفة على جملة ﴿فَٱعْفُ﴾ وكذلك جملة ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ معطوفة عليها على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن المشاورة معهم عزيمةٌ عليك ليقتدي بك، وأردت بيان ما هو اللائق بك بعد المشاورة، والعزم على شيء فأقول لك ﴿إذا عزمت﴾. ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿عَزَمْتَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، والظرف متعلِّق بالجواب، وهو قوله: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطةٌ لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً. ﴿توكَّل﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا من فعل شرطها، وجوابها في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ﴿إنَّ﴾ حرف نصب وتوكيد. ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها. ﴿يُحِبُّ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنَّ﴾ وجملة ﴿إنَّ﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ﴾.

﴿إن﴾ حرف شرط جازم. ﴿يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية ﴿فَلَا غَالِبَ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة اسمية. ﴿لا﴾ نافية للجنس تعمل عمل ﴿إنَّ﴾ ﴿غَالِبَ﴾ في محل النصب اسمها. ﴿لَكُمْ﴾ جار ومجرور خبر ﴿لا﴾، وجملة ﴿لا﴾ في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿إن﴾ حرف شرط جازم. ﴿يَخْذُلْكُمْ﴾ فعل ومفعول مجزوم بـ ﴿إن﴾ وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى﴾ ﴿الفاء﴾ رابطةٌ لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً. ﴿من ذا﴾ ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام إنكاريٌ في محل الرفع مبتدأ. ﴿ذَا﴾ اسم إشارة في محل الرفع خبر ﴿مَنْ﴾ ﴿ٱلَّذِى﴾ نعت لـ ﴿ذا﴾ أو بدل منه، أو عطف بيان. ﴿يَنصُرُكُم﴾ فعل ومفعول مرفوع؛ وفاعله ضمير يعود على الموصول. ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿ينصر﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول. قال أبو البقاء: ولا يجوز أن يكون من وذا بمنزلة اسم واحد، كما كانت ماذا؛ لأنَّ ما أشدُّ إبهاماً من من إذا كانت مَنْ لمن يعقل. انتهى. والجملة الاسمية في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ على كونها مستأنفة.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَعَلَى﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿على الله﴾ جار ومجرور متعلق بما بعده. ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ ﴿الفاء﴾ زائدة و﴿اللام﴾: حرف طلب وجزم ﴿يتوكل﴾ فعل مضارع مجزوم ﴿باللام﴾. ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾ نافية. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص. ﴿لِنَبِيٍّ﴾ جار ومجرور خبر مقدم لـ ﴿كَانَ﴾ على اسمها. ﴿أَن يَغُلَّ﴾ ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿يَغُلَّ﴾ فعل مضارع منصوب بـ ﴿أن﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿نبي﴾ وجملة ﴿يَغُلَّ﴾ صلة ﴿أن﴾. ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخراً تقديره؛ وما كان الغلول لائقاً لنبي، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة.

﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿من﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما كما مَرَّ مراراً. ﴿يَغْلُلْ﴾ فعل مضارع

مجزوم بمن على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿يَأْتِ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿من﴾ بحذف حرف العلة على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ وجملة من الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾. ﴿بِمَا غَلَّ﴾ ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَأْتِ﴾. ﴿غَلَّ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يَأْتِ﴾ وجملة ﴿غَلَّ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: بما غلَّه.

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف. ﴿تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعل، ومضاف إليه، والجملة الفعلية معطوفة على جملة الشرط. ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ ﴿مَّا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان. ﴿كَسَبَتْ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على كل نفس، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما كسبته. ﴿وَهُمْ﴾ ﴿الواو﴾ حالية. ﴿هم﴾ مبتدأ. وجملة ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾؛ لأنها بمعنى الخلائق.

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾.

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الإنكاري داخلةٌ على محذوف على مذهب الزمخشري، تقديره: هل عرفت الفرق بين الضالّ، والمهتدي؟ والجملة المحذوفة جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب. ﴿فمن﴾ ﴿اتبع﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. ﴿من﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ. ﴿ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ فعل ومفعول، ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿كَمَنۢ﴾ جار ومجرور خبر ﴿من﴾ الموصول، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة المحذوفة. وعلى مذهب الجمهور الفاء استئنافية، والجملة مستأنفة. ﴿بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿بَآءَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، الجملة صلة الموصول. ﴿بِسَخَطٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿بَآءَ﴾ أو حال

من ضمير الفاعل تقديره: حالة كونه ملتبساً بسخط من الله. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور صفة لسخط. ﴿وَمَأْوَىٰهُ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿مأواه﴾ مبتدأ، ومضاف إليه. ﴿جَهَنَّمُ﴾ خبر له، والجملة معطوفة على جملة الصلة، عطفاً للجملة الاسمية على الجملة الفعلية؛ أي: وكمن مأواه جهنم فيكون قد وصل الموصول بجملتين: فعلية، واسمية، ويحتمل كونها مستأنفة، وعلى كلا الاحتمالين لا محل لها من الإعراب. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿بئس﴾ فعل ماض من أفعال الذم. ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر للمخصوص بالذم المحذوف، تقديره: هي، يعود على جهنم، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ ظرف، ومضاف إليه صفة لـ ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ تقديره: هم أصحاب درجات كائنات عند الله. وقال أبو[1] البقاء عند الله ظرف لمعنى درجات، كأنه قال: هم متفاضلون عند الله، ويجوز أن يكون صفة لـ ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ انتهى. ﴿وَٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ. ﴿بَصِيرٌۢ﴾ خبر له، والجملة مستأنفة. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿بَصِيرٌۢ﴾. ﴿يَعْمَلُونَ﴾ جملة فعلية صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: بما يعملونه. ﴿اللام﴾ موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿مَنَّ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة جوابٌ لقسم محذوف، وجملة القسم المحذوف مستأنفة. ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿مَنَّ﴾.

﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى متعلّقٌ بـ ﴿مَنَّ﴾. ﴿بَعَثَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه. ﴿فِيهِمْ﴾: جار ومجرور

---

(١) العكبري.

متعلقان بالفعل ﴿بَعَثَ﴾. ﴿رَسُولًا﴾ مفعول به. ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ جار ومجرور صفة أولى لـ ﴿رَسُولًا﴾. ﴿يَتْلُوا۟﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على رسولاً. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَتْلُوا۟﴾، وجملة ﴿يَتْلُوا۟﴾ في محل لنصب صفة ثانية لـ ﴿رَسُولًا﴾ تقديرها: رسولاً كائناً، منهم تالياً عليهم. ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿يزكيهم﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿رَسُولًا﴾، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يَتْلُوا۟﴾ على كونها صفة لـ ﴿رَسُولًا﴾، وكذلك جملة قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ معطوفة على جملة ﴿يَتْلُوا۟﴾ على كونها صفة ثانية وثالثة لـ ﴿رَسُولًا﴾. ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ الواو حالية. ﴿إن﴾ مخففة، من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن تقديره: وإنهم. ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿مِن قَبْلُ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿كَانُوا۟﴾. ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿اللام﴾ لام الابتداء فارقة بين إن المخففة، وإن النافية. ﴿في ضلال﴾ جار ومجرور خبر ﴿كان﴾. ﴿مُّبِينٍ﴾ صفة لـ ﴿ضَلَٰلٍ﴾ وجملة ﴿كان﴾ الناقصة في محل الرفع، خبر إن المخففة تقديره: وإنهم لكائنون في ضلال مبين، وجملة ﴿إن﴾ المخففة في محل النصب حال من ضمير المفعول في ﴿يعلمهم﴾.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾.

﴿أَوَ﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الإنكاري، داخلة في التقدير على قوله: ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾. و﴿الواو﴾ استئنافية على مذهب الجمهور. وقال الزمخشري: ﴿الهمزة﴾ داخلة على محذوف تقديره: أنسيتم فضل الله عليكم يوم بدر، ونصره لكم فيه. و﴿الواو﴾ عاطفة لجملة ﴿قُلْتُمْ﴾ على ذلك المحذوف. ﴿لَمَّآ﴾ ظرف بمعنى حين في محل النصب على الظرفية مبنية على السكون، والظرف متعلق بـ ﴿قُلْتُمْ﴾. ﴿أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه. ﴿قَدْ أَصَبْتُم﴾ قد حرف تحقيق. ﴿أَصَبْتُم﴾ فعل وفاعل. ﴿مِّثْلَيْهَا﴾ مفعول به ومضاف إليه والجملة في محل الرفع صفة لـ ﴿مُّصِيبَةٌ﴾. ﴿قُلْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة على مذهب الجمهور، ومعطوفة على محذوف على مذهب الزمخشري كما مرَّ آنفاً. ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ ﴿أَنَّىٰ﴾ اسم استفهام في محل الرفع خبر مقدم. ﴿هَٰذَا﴾ اسم إشارة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل

النصب مقول لـ ﴿قُلْتُمْ﴾ والمعنى على مذهب الزمخشري: أنسيتم فضل الله عليكم يوم بدر، وقلتم حين أصابتكم يوم أحد مصيبةٌ قد أصبتم مثليها يوم بدر، كيف أصابتنا هذه المصيبة، ومن أين لنا هذا الخذلان، والجملة المحذوفة على مذهبه مستأنفة، كما أن المذكورة مستأنفة على مذهبهم.

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿هو﴾ مبتدأ. ﴿مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ جار ومجرور، ومضافان إليه خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقولٌ لـ ﴿قُلْ﴾. ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿قَدِيرٌ﴾. ﴿قَدِيرٌ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾ موصولة في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَصَٰبَكُمْ﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾، الجملة صلة الموصول. ﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ ﴿أَصَٰبَكُمْ﴾. ﴿ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾. ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الخبر بالمبتدأ جوازاً لشبه المبتدأ بالشرط في الإبهام نحو قولهم: الذي يأتيني فله درهم. ﴿بإذن الله﴾ جار ومجرور ومضاف إليه خبر المبتدأ، ولكنه على إضمار تقديره: فهو بإذن الله، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل. ﴿يعلم﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام ﴿كي﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾. ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مفعول به؛ لأن علم هنا بمعنى أظهر يتعدى إلى مفعول واحد، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: ولعلمه المؤمنين الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ على كونه خبر المبتدأ، تقديره: وما أصابكم يوم التقى الجمعان، فكائنٌ بإذن الله، وكائنٌ

لإظهاره صبر المؤمنين.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ۚ﴾.

﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل. ﴿يعلم﴾ منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مفعول به ليعلم. ﴿نَافَقُوا۟ۚ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، وجملة يعلم في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره، ولعلمه الذين نافقوا، الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ﴾.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ۖ﴾.

﴿وَقِيلَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿قيل﴾ فعل ماض مغير الصيغة. ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور متعلق به. ﴿تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ۖ﴾ نائب فاعل محكي لقيل، وجملة ﴿قيل﴾ معطوفة على جملة ﴿نَافَقُوا۟ۚ﴾ على كونها صلة الموصول، وإن شئت قلت ﴿تَعَالَوْا۟﴾ فعل أمر، وفاعل، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لِـ ﴿قيل﴾. وكذلك جملة ﴿قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿قَٰتِلُوا۟﴾. ﴿أَوِ ٱدْفَعُوا۟ۖ﴾ ﴿أَوِ﴾ حرف عطف، وتفصيل. ﴿ٱدْفَعُوا۟ۖ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿قَٰتِلُوا۟﴾. وقال أبو حيان[1]: و﴿أَوْ﴾ على بابها من أنها لأحد الشيئين. وقيل: يحتمل أن تكون بمعنى الواو، فطلب منهم الشيئين القتال في سبيل الله، والدفع عن الحريم والأهل، والمال، فكفار قريش لا تفرق بين المؤمن، والمنافق في القتل، والسبي، والنهب. والظاهر أن قوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ كلامٌ مستأنف قسم الأمر عليهم فيه بين أن يقاتلوا للآخرة أو يدفعوا عن أنفسهم وأهليهم، وأموالهم، حكى الله عنهم ما يدل على نفاقهم في هذا السؤال، والجواب، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ معطوفاً على ﴿نَافَقُوا۟ۚ﴾ فيكون من الصلة انتهى.

وفي «الفتوحات»: قوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟﴾ هذه الجملة[2] تحتمل وجهين:

---

(١) البحر المحيط.   (٢) الجمل.

أحدهما: أن تكون استئنافية، أخبر الله أنهم مأمورون إما بالقتال، وإما بالدفع؛ أي: تكثير سواد المسلمين.

والثاني: أن تكون معطوفة على ﴿نَافَقُوا۟ۚ﴾ فتكون داخلة في حيز الموصول؛ أي: ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ الذين حصل منهم النفاق، والقول المذكور و﴿تَعَالَوْا۟﴾ و﴿قَـٰتِلُوا۟﴾ كلاهما قائم مقام الفاعل، لـ ﴿قيل﴾؛ لأنه هو المقول. قال أبو البقاء:[1] وإنما لم يأت بحرف العطف بين ﴿تَعَالَوْا۟﴾ و﴿قَـٰتِلُوا۟﴾ لأنه أراد أن تكون كل من الجملتين مقصودةً بنفسها، ويجوز أن يقال: إن المقصود هو الأمر بالقتال، و﴿تَعَالَوْا۟﴾ ذكر ما لو سكت عنه.. لكان في الكلام دليلٌ عليه، وقيل: الأمر الثاني حالٌ انتهى.

﴿قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ﴾.

﴿قَالُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ﴾ مقول محكي لـ ﴿قَالُوا۟﴾ وإن شئت قلت: ﴿لو﴾ حرف شرط غير جازم. ﴿نَعْلَمُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على المنافقين. ﴿قِتَالًا﴾ مفعول به؛ لأن علم بمعنى عرف. ﴿لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ﴾ ﴿اللام﴾ رابطة لجواب لو. ﴿اتبعناكم﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب وجملة لو من فعل شرطها وجوابها في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾.

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ﴾

﴿هُمْ﴾ مبتدأ. ﴿لِلْكُفْرِ﴾ جار ومجرور متعلّقٌ بأقرب الآتي. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلّقٌ بأقرب أيضاً كما ذكره أبو حيان. ﴿أَقْرَبُ﴾ خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿مِنْهُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بأقرب. ﴿لِلْإِيمَـٰنِ ۚ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَقْرَبُ﴾ أيضاً، و﴿أَقْرَبُ﴾ تعلقت به هنا أربع ظروفات.

فإن قلت: من المعلوم أنه لا يتعلق حرفا جرٍّ متحدان لفظاً ومعنًى بعامل واحد، إلا أن يكون أحدهما معطوفاً على الآخر، أو بدلاً منه؛ فكيف تعلقا هنا بـ ﴿أَقْرَبُ﴾؟

---

(١) العكبري.

قلتُ: هذا من خواصِّ أفعل التفضيل، فإنه يتعلق به حرفا جر من جنس واحد، وليس أحدهما معطوفاً على الآخر، ولا بدلاً منه بخلاف سائر العوامل؛ فإنه لا يتعلق به حرفا جر من جنس واحد، إلا بالعطف أو على سبيل البدل.

وقال أبو البقاء:[1] وجاز أن يعمل أقرب فيهما لأنهما يشبهان الظرف، وكما عمل أطيب في قولهم: هذا بسرا أطيب منه رطباً في الظرفين المقدرين؛ لأن أفعل يدل على معنيين: على أصل، وزيادته، فيعمل في كل واحد منهما بمعنى غير الآخر، فتقديره يزيد قربهم إلى الكفر على قربهم إلى الإيمان. واللام هنا على بابها، وقيل هي بمعنى إلى. انتهى.

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

﴿يَقُولُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿أقرب﴾، أي قربوا إلى الكفر قائلين قاله أبو البقاء. ﴿بِأَفْوَاهِهِم﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿مَّا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿لَيْسَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿مَّا﴾. ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه خبر ﴿لَيْسَ﴾، وجملة ﴿لَيْسَ﴾ صلةٌ لما أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المستتر في ﴿لَيْسَ﴾. ﴿وَاللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿الله﴾ مبتدأ. ﴿أَعْلَمُ﴾ خبر، والجملة مستأنفة. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَعْلَمُ﴾. وجملة ﴿يَكْتُمُونَ﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: يكتمونه.

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ﴾.

﴿الَّذِينَ﴾ في إعرابه أوجه: الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هم الذين قالوا، والجملة مستأنفة أو على أنه بدل من الذين نافقوا، أو نعت له، أو على أنه مبتدأ خبره ﴿قل﴾ الآتي، تقديره: الذين قالوا لإخوانهم، قل لهم: فادرؤوا الخ والنصب على الذم، والجر بدلاً من المجرور في ﴿أفواههم﴾ أو

---

(١) العكبري.

﴿قُلُوبِهِمْ﴾. ﴿قَالُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿قَالُواْ﴾. ﴿وَقَعَدُواْ﴾ فعل، وفاعل يجوز أن يكون معطوفاً على ﴿قَالُواْ﴾ على كونه صلة الموصول معترضاً بين ﴿قَالُواْ﴾ ومعموله، وهو قوله: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾، ويجوز أن يكون حالاً من ﴿قَالُواْ﴾ وقد مقدرة، أي: وقد ﴿قعدوا﴾ ومجيء الماضي حالاً مقترناً بالواو وقد أو بدونهما ثابت في «لسان العرب». ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ مقولٌ. محكي لـ ﴿قَالُواْ﴾، وإن شئت قلت ﴿لو﴾ حرف شرط. ﴿أَطَاعُونَا﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿مَا﴾ نافية. ﴿قُتِلُواْ﴾ فعل مغير ونائب فاعل، والجملة جواب ﴿لو﴾ الشرطية لا محلَّ لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾.

﴿قُلْ فَادْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿فَادْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ مقول محكي لـ ﴿قُلْ﴾ وإن شئت.. قلت ﴿فَادْرَءُواْ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط محذوف معلوم من السياق تقديره: إن كنتم رجالاً دفاعين لأسباب الموت ﴿فَادْرَءُواْ﴾ جميع أسبابه عن أنفسكم حتى لا تموتوا. ﴿ادرؤوا﴾ فعل وفاعل. ﴿عَنْ أَنفُسِكُمُ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿ادرءوا﴾. ﴿الْمَوْتَ﴾ مفعول به وجملة ﴿ادرؤوا﴾ في محل الجزم على كونها جواباً لشرط محذوف، وجملة الشرط المحذوف في محل النصب مقولٌ لـ ﴿قُلْ﴾. ﴿إِن﴾ حرف شرط. ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿صَادِقِينَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ في محل الجزم بـ ﴿إِنْ﴾ على كونها فعل شرط لها وجواب ﴿إِن﴾ معلوم مما قبله تقديره: إن كنتم صادقين في دعواكم أن التحيل والتحرز ينجي من الموت، ﴿فَادْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾، ولن تجدوا إلى ذلك سبلاً، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية في محل النصب، مؤكدةٌ للشرط المحذوف على كونها مقولاً لـ ﴿قُلْ﴾ والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ﴾ من لان يلين ليناً من باب باع، واللين في المعاملة الرفق والتلطف فيها.

﴿فَظًّا﴾ يقال: فظَّ يَفظُّ، ويَفِظُّ فظاً وفظاظةً وفِظاظاً: إذا كان فظاً، والفظ: الغليظ السيء الخلق، الخشن الكلام، يجمع على فظاظٍ، وفظوظ ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ يقال: غلظ وغلظ بالكسر، والضم، والغلظة ضد الرقة فالفظاظة الجفوة في المعاشرة قولاً وفعلاً، والغلظة التكبر ثم تجوز به عن عدم الشفقة وكثرة القسوة في القلب، فغلظ القلب عبارة عن كونه خلق صلباً لا يلين، ولا يتأثر ﴿لَٱنفَضُّواْ﴾ الانفضاض التفرق من الأجزاء، وانتشارها يقال: نفض القوم إذا تفرقوا، وهو من باب انفعل الخماسيِّ من مزيد الثلاثي، وبناؤه للمطاوعة يقال: فضضتهم فانفضوا؛ أي: فرقتهم فتفرقوا، وأصل الفض الكسر، ومنه قولهم: لا يفضض الله فاك.

والمعنى[1]: لو كنت فظاً غليظ القلب لا ترفق بهم لتفرقوا من حولك هيبةً لك واحتشاماً منك بسبب ما كان من توليهم، وإذا كان الأمر كما ذكر فاعف عنهم الخ ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ قال أهل اللغة: الاستشارة مأخوذةٌ من قول العرب شرت الدابة، وشورتها إذا علمت خبرها، وقيل من قولهم: شرت العسل إذا اجتنيته، واستخرجته، وأخذته من موضعه، وثلاثيه أجوف واوي من باب قال.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ التوكل: إظهار العجز، والاعتماد على غيرك، والاكتفاء به في فعل ما تحتاج إليه.

﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ في «المصباح» خذلته وخذلت عنه من باب قتل، والاسم: الخذلان إذا تركت نصرته وإعانته وتأخرت عنه.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ يقال: غل الشي يغله غلاً وغلولاً، من باب شد إذا أخذه خفيةً، ودسَّهُ في متاعه، فهو من المضاعف المعدى، فقياسه: ضم مضارعه. والغل: الأخذ خفية كالسرقة، ثم غلب استعماله في السرقة من المغنم قبل القسمة، ويسمى الغلول أيضاً.

﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ السخط بفتحتين: مصدر قياسي لسخط من باب فرح، والسخط بضم فسكون، مصدر سماعيٌّ له، قال ابن مالك:

---

(١) الشوكاني.

وَفَـعِـلَ ٱلـلاَّزِمُ بَـابُـهُ فَـعَـلْ ... كَـفَـرِحِ وَكَـجَـوَىً وَكَـشَـلَـلْ

ثم قال:

وَمَـا أَتَـىٰ مُـخَـالِـفـاً لِـمَـا مَـضَـىٰ ... فَـبَـابُـهُ ٱلـنَّـقْـلُ كَـسُـخْـطٍ وَرِضَـا

والسخط على كلا الضبطين الغضب الشديد.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقال: من يمن بالضم منًّ، ومنيني عليه بكذا إذا أنعم عليه به من غير تعب، فهو من المضاعف، اللازم فقياسه: الكسر فالضم فيه شاذ، ولم يأت فيه إلاّ الضمّ.

﴿فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ يقال: درأه يدرؤُهُ بالفتح، من باب منع درءاً، ودرأةً إذا دفعه دفعاً شديداً، ودرأ السيل عليه اندفع، ودرأ الرجل علينا إذا طرأ فجأة، تدارأ القوم إذا تدافعوا في الخصومة.

البلاغة

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فيه مجازٌ بالزيادة؛ لأن ﴿ما﴾ زائدةٌ للتأكيد.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ﴾ ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ فيهما من المحسنات البديعية: المقابلة والالتفات؛ إذ هو خروج من الغيبة إلى الخطاب، وتنويع الكلام؛ لأنه جاء في جواب ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ بصريح النفي العام حيث قال: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ وفي جواب ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ بالنفي المضمن في الاستفهام حيث قال: فمن ذا الذي ينصركم، وإفادة الحصر في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بتقديم المعمول على العامل.

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فيه استعارةٌ بديعية، حيث جعل ما شرعه الله كالدليل الذي يتبعه من يهتدي به، وجعل العاصي كالشخص الذي أمر بأن يتبع شيئاً، فنكص عن اتباعه، ورجع بدونه.

﴿بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ التنكير فيه للتهويل؛ أي: بسخط عظيم لا يكاد يوصف

﴿هُمْ دَرَجَـٰتٌ﴾ فيه مجازٌ بالحذف؛ أي: ذَوُو درجات متفاوتةٍ متخالفةٍ.

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ﴾ بين الكفر والإيمان الطباق.

﴿أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ﴾ فيه من المحسنات البديعية: جناس الاشتقاق.

وقال أبو حيان[1]: وتضمنت هذه الآيات من صنوف البلاغة والفصاحة:

منها: الطباق في قوله: ﴿يَنصُرۡكُمُ﴾ و﴿يَخۡذُلۡكُمۡ﴾ وفي قوله: ﴿رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ و﴿بِسَخَطٖ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿يَنصُرۡكُمُ﴾ و﴿يَنصُرُكُم﴾؛ وفي الجلالة في مواضع.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿يَغُلَّۚ﴾، وما ﴿غَلَّ﴾.

ومنها: الاستفهام الذي معناه النفي في قوله: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ﴾ الآية.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، وفي قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾، وفي ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ خص العمل دون القول؛ لأن العمل جل ما يترتب عليه الجزاء.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ﴾ الآية، إذ التقدير من الله عليهم بالهداية، فيكون في هذا المقدر، وفي قوله: ﴿لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ وفي ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم﴾ والقول ظاهر و ﴿يَكۡتُمُونَ﴾، وفي قوله: ﴿قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ﴾ إذ التقدير حين خرجوا، وقعدوا هم.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾ لاختلاف متعلق العلم.

ومنها: الاستفهام الذي يراد به الإنكار في قوله: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم﴾.

ومنها: الاحتجاج النظري في قوله: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾.

ومنها: الحذف في عدة مواضع، لا يتم المعنى إلا بتقديرها.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾.

المناسبة

لمَّا ذكر[١] الله سبحانه وتعالى تثبيط المشركين للراغبين في الجهاد بتحذيرهم عواقبه، وأنه مفضٍ إلى القتل، كما حدث يوم أحد، والقتل بغيضٌ إلى النفوس مكروه لها، ثم أردفه بيان أن القتل إنما يحدث بقضاء الله وقدره، كما يحدث الموت، فمن كتب عليه أن يقتل، لا يمكنه أن يبتعد من القتل، ومن لم يقدر له لا خوف عليه من الجهاد.. ذكر هنا ما يحبب الجهاد في سبيل الله،

(١) المراغي.

فأبان أن المقتولين شهداء أحياءٌ عند ربهم، قد خصَّهم الله بالقرب منه والكرامة لديه، وأعطاهم أفضل أنواع الرزق، وأوصلهم إلى مراتب الفرح والسرور.

وأخرج الامام أحمد في جماعة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لمَّا أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا، فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله هؤلاء الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ..﴾ الآيات، لمَّا كان من فوز المشركين في أُحد ما كان، وأصاب النبيَّ ﷺ والمؤمنين شيءٌ كثير من الأذى أظهر بعض المنافقين كفرهم، وصاروا يخوفون المؤمنين، ويؤيسونهم من النصر، والظفر بعدوهم، ويقولون لهم: إنَّ محمداً طالب ملك، فتارة يكون الأمر له، وتارةً عليه، ولو كان رسولاً من عند الله.. ما غلب إلى نحو هذه المقالة، مما ينفر المسلمين من الإسلام، فكان الرسول يحزن لذلك، ويسرف في الحزن فنزلت هذه الآيات تسليةً له كما سلاه عما يحزن من إعراض الكافرين عن الإيمان، أو طعنهم في القرآن، أو في شخصه ﷺ كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ﴾، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ..﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: لمَّا ذكر الله سبحانه وتعالى فيما سبق ما يحرض المؤمنين على الجهاد في سبيل الله، وبذل أنفسهم فيه بذكر ما يلاقيه المجاهدون من الكرامة عند ربهم في جنات النعيم، شرع هنا يحث على بذل المال في الجهاد، والمال شقيق الروح، فذكر أشد أنواع الوعيد لمن يبخل بماله في هذه السبيل، وأرشد إلى أن المال ظل زائلٌ، وأن مدى الحياة قصيرٌ، وأن الوارثين والموروثين سيموتون، ويبقى الملك لله وحده.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ . . .﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه الإمام أحمد. (ج ١ ص ٢٦٥) حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني إسماعيل بن أمية، عن أبي الزبير المكي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله عز وجل أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها، وتهوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم، ومأكلهم، وحسن منقلبهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون بما صنع الله بنا؛ لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله عز وجل: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات على رسوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ . . .﴾.

وأخرج الترمذي وحسَّنه (ج ٤ ص ٨٤) عن جابر رضي الله عنه قال: لقيني رسولُ الله ﷺ فقال يا جابر «مالي أراك منكسراً» فقلت يا رسول الله: استشهد أبي وترك عيالاً، وديناً، فقال: «ألا أبشرك بما لقي الله به أباك»، قال: بلى يا رسول الله، قال: «ما يكلم الله أحداً قط إلا من وراء حجابه، وأحيا أباك، فكلَّمه كفاحاً[1] فقال: تمن عليَّ أعطيك قال: يا رب تحييني، فأقتل فيك ثانيةً، قال الربُّ تعالى علواً كبيراً: إنه قد سبق أنهم لا يرجعون»، قال: وأنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ . . .﴾ قال الشوكاني في «تفسيره»: وعلى كلِّ حال، فالآية باعتبار عمومها تعم كل شهيد.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ سبب نزولها: ما روي[2] عن ابن عباس قال: لما انصرف أبو سفيان، والمشركون من

---

(١) **كفاحاً**: أي مواجهةً بدون حجاب ولا رسول.

(٢) مجمع الزوائد ولباب النقول.

أحد، وبلغوا الروحاء، قال أبو سفيان: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، بئس ما صنعتم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فندب الناس فانتدبوا حتى بلغوا حمراء[1] الأسد، أو بئر أبي عتبة، فأنزل الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ وذلك أن أبا سفيان قال للنبي ﷺ: موعدك موسم بدر، حيث قتلتم أصحابنا، فأما الجبان: فرجع، وأما الشجاع: فأخذ أهبة القتال والتجارة، فأتوه، فلم يجدوا به أحداً، وتسوقوا، فأنزل الله عز وجل: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ رواه الطبراني.

وأخرج[2] ابن مردويه عن أبي رافع، أنَّ النبيَّ ﷺ وجه علياً في نفر معه في طلب أبي سفيان، فلقيهم أعرابيٌّ من خزاعة، فقال: إن القوم قد جمعوا لكم، قالوا ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ فنزلت فيهم هذه الآية.

وأخرج[3] ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس قال: إن الله قذف الرعب في قلب أبي سفيان يوم أحد بعد الذي كان منه، فرجع إلى مكة، فقال النبي ﷺ: إن أبا سفيان، قد أصاب منكم طرفا، وقد رجع، وقذف الله في قلبه الرعب، وكانت وقعة أحد في شوال، وكان التجار يقدمون المدينة في ذي القعدة، فينزلون ببدر الصغرى، وأنهم قدموا بعد وقعة أحد، وكان أصاب المؤمنين القرح، واشتكوا ذلك فندب النبيُّ ﷺ لينطلقوا معه، فجاء الشيطان فخوف أولياءه، فقال: إن الناس قد جمعوا لكم، فأبى عليه الناس أن يتبعوه، فقال: «إني ذاهب»، وإن لم يتبعني أحد فانتدب معه أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والزبير، وطلحة، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وأبو عبيدة بن الجراح، في سبعين رجلاً، فساروا في طلب أبي سفيان، فطلبوه حتى بلغوا الصفراء فأنزل الله ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ. . .﴾ الآية.

---

(١) **حمراء الأسد**: مكان على ثمانية أميال من المدينة المنورة.

(٢) لباب النقول.

(٣) لباب النقول.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ولا تظنن يا محمد، أو أيها السامع لقول المنافقين الذين ينكرون البعث، أو يرتابون، فيؤثرون الدنيا على الآخرة، كون الذين استشهدوا في سبيل الله، لإعلاء دينه، ﴿أَمْوَٰتًۢا﴾ قد فقدوا الحياة، وصاروا عدماً لا يحسون، ولا يتنعمون ﴿بَلْ﴾ هم ﴿أَحْيَآءٌ﴾ في عالم آخر غير هذا العالم هو خيرٌ للشهداء، لما فيه من الكرامة، والشرف مكرمون ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ من نعيم الجنة غدوّاً وعشيا، كما روى عن النبي ﷺ «أنَّ أرواحهم في أجواف طيور خضر، وأنهم يرزقون، ويتنعمون من ثمار الجنة يجدون ريحها، وليسوا فيها» وهذه الحياة[1] التي أثبتها القرآن الكريم للشهداء حياة محققة غيبية عنا لا ندرك حقيقتها، ولا نزيد على ما جاء به الوحي. قوله: ﴿يُرْزَقُونَ﴾ تأكيد لكونهم أحياءً، وتحقيق لهذه الحياة.

وقرأ الجمهور[2] ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالتاء، والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل سامع، وقرأ حميد بن قيس، وهشام بخلاف عنه ﴿ولا يحسبن﴾ بالياء؛ أي: لا يحسبن حاسبٌ أيًّا كان.

وقد اختلف[3] أهل العلم في الشهداء المذكورين في هذه الآية، من هم؛ فقيل: شهداء أحد، وقيل: شهداء بدر، وقيل: شهداء بئر معونة، وعلى فرض أنها نزلت في سبب خاص، فالاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب. وقرأ الحسن[4] وابن عامر ﴿قُتِّلوا﴾ بالتشديد، وروي عن عاصم ﴿قاتلوا﴾ وقرأ الجمهور ﴿قُتِلُوا۟﴾ مخففاً، وقرأ الجمهور ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: بل هم أحياء. وقرأ ابن أبي عبلة ﴿أحياءً﴾ بالنصب على تقدير فعل؛ أي: بل أحسبهم أحياءً، كما قاله الزمخشري، وتبعه الزجاج.

قوله: ﴿فَرِحِينَ﴾ حالٌ من الضمير في ﴿يُرْزَقُونَ﴾ و﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني.
(٤) البحر المحيط.

﴿فَضْلِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿فَرِحِينَ﴾ وقرأ ابن السميفع ﴿فارحين﴾ وهُما لغتان: كالفره، والفاره، والحذر، والحاذر. والمراد ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ ما ساقه الله إليهم من الكرامة بالشهادة، وما صاروا فيه من الحياة، وما يصل إليهم من رزق الله سبحانه وتعالى، والمعنى: مسرورين بما أعطاهم الله تعالى من قربه، ودخول جنته، ورزقهم فيها إلى سائر ما أكرمهم به. ولا تعارض[1] بين فرحين، وبين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ في قصة قارون؛ لأن ذاك بالملاذ الدنيوية، وهذا بالملاذ الأخروية ولذلك جاء ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾، وجاء ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾.

والمراد بفضل الله شرف الشهادة، والفوز بالحياة الأبدية، والزلفى من الله تعالى، والتمتع بالنعيم المخلد عاجلاً، والواو في قوله: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ عاطفة على قوله: ﴿يُرْزَقُونَ﴾؛ أي: يرزقون، ويستبشرون، ويسرون (بـ) ما تبين لهم من حسن حال إخوانهم المجاهدين ﴿بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم﴾ في القتل، والشهادة، ولم يقتلوا إذ ذاك وتركوهم ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ ووراءهم في الدنيا، بل سيلحقون بهم من بعد؛ أي: إنهم بقوا في الدنيا بعدهم، وهم قد تقدموهم يعني من إخوانهم الذين تركوهم أحياءً في الدنيا على منهج الإيمان، والجهاد، فعلموا أنهم إذا استشهدوا لحقوا بهم، ونالوا من الكرامة مثلهم.

وقيل[2]: المراد بإخوانهم هنا جميع المسلمين الشهداء وغيرهم؛ لأنهم لما عاينوا ثواب الله، وحصل لهم اليقين بحقية دين الإسلام؛ استبشروا بذلك لجميع أهل الإسلام الذين هم أحياء لم يموتوا، وهذا أقوى؛ لأن معناه أوسع، وفائدته أكثر، واللفظ يحتمله، بل هو الظاهر، وبه قال الزجاج، وابن فورك.

وقوله[3]: ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ إشارة إلى أنهم وراءهم، يقتفون أثرهم، ويحذون حذوهم قدماً بقدمٍ، وفي ذكر حال الشهداء، واستبشارهم بمن خلفهم حث

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

للباقين بعدهم على زيادة الطاعة، والجد في الجهاد، والرغبة في نيل منازل الشهداء، وإصابة فضلهم كما فيه إخمادٌ لحال من يرى نفسه في خير، فيتمنى مثله لإخوانه، في الدين، وفيه بشرى للمؤمنين بالفوز بالمآب.

وقوله: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بدلٌ من ﴿الَّذِينَ﴾؛ أي: يستبشرون بعدم الخوف، والحزن على إخوانهم الذين تركوهم أحياءً، وأنهم عند قتلهم يفوزون بحياة أبدية، لا يكدرها خوفٌ من وقوع مكروه من أحوالها، ولا حزنٌ من فوات محبوب من نعيمها.

والمعنى[1]: يستبشرون بأن لا خوف من المتخلِّفين على أنفسهم، فهم آمنون، ولا هم يحزنون، فهم فرحون هذا ما أدركه لهم إخوانهم المتقدمون، وليس المراد أنهم؛ أي: المتقدمين لا يخافون على المتخلِّفين كما هو ظاهر.

والحاصل[2]: أن الشهداء المتقدمين: يقول بعضهم لبعض: تركنا إخواننا فلاناً وفلاناً في صف المقاتلة مع الكفار، فيقتلون إن شاء الله، فيصيبون من الرزق والكرامة ما أصبنا؛ أي: يفرحون بحسن حال إخوانهم الذين تركوهم في الدنيا، بدوام انتفاء الخوف والحزن، وبلحوقهم بهم؛ لأن الله تعالى بشَّرهم بذلك.

والخوف: غم[3] يلحق الإنسان بما يتوقعه من السوء، والحزن غمٌّ يلحقه من فوات نافع، وحصول ضار، فمن كانت أعماله مشكورةً.. فلا يخاف العاقبة، ومن كان متقلِّباً في نعمة من الله، وفضل.. فلا يحزن أبداً.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ لمَّا[4] بيَّن الله سبحانه وتعالى أنَّ الشهداء يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، ذكر أنهم أيضاً يستبشرون لأنفسهم بما رزقوا من النعيم والفضل، فالاستبشار الأول كان لغيرهم، والاستبشار الثاني

---

(١) الجمل.
(٢) مراح.
(٣) كرخي.
(٤) الخازن.

لأنفسهم خاصة؛ أي: يفرحون بنعمة من الله؛ أي: بثواب أعمالهم وفضل؛ أي: زيادة عظيمة من الكرامة على ثواب أعمالهم، نظير قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وتنكيرها للتعظيم فالنعمة هي الثواب الذي يلقاه العامل جزاءً على عمله، والفضل هو التفضل الذي يمن الله به على عباده الطائعين المخبتين إليه.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ويفرحون بأن الله تعالى لا يبطل، ولا يبخس أجر المؤمنين من الشهداء، وغيرهم. قرأ الكسائي[1] بكسر الهمزة من ﴿إنَّ﴾ على أنه مستأنف. وفيه دلالة على أن الله لا يضيع أجر شيء من أعمال المؤمنين، ويؤيده قراءة ابن مسعود، ومصحفه ﴿والله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ وقرأ باقي السبعة، والجمهور بفتح الهمزة عطفاً على فضل، فهو داخل في جملة ما يستبشرون به، قال[2] أبو علي يستبشرون: بتوفير ذلك عليهم، ووصوله إليهم؛ لأنه إذا لم يضعه وصل إليهم، ولم يبخسوه، ولا يصح الاستبشار بأن الله لا يضيع أجر المؤمنين؛ لأن الاستبشار إنما يكون بما لم يتقدم به علم، وقد علموا قبل موتهم أنَّ الله لا يضيع أجر المؤمنين، فهم يستبشرون بأنَّ الله ما أضاع أجورهم، حتى اختصهم بالشهادة ومنحهم أتم النعمة، وختم لهم بالنجاة، والفوز، وقد كانوا يخشون على إيماهم، ويخافون سوء الخاتمة المحبطة للأعمال، فلما رأوا ما للمؤمنين عند الله من السعادة، وما اختصَّهم به من حسن الخاتمة التي تصح معها الأجور، وتضاعف الأعمال استبشروا؛ لأنهم كانوا على وجل من ذلك. انتهى كلامه، وفيه تطويلٌ شبيهٌ بالخطابة.

وفي ذلك كله تحريضٌ للمؤمنين على الجهاد، وترغيبٌ لهم في الشهادة، وحث على ازدياد الطاعة، وبشرى للمؤمنين بالفوز العظيم.

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

فصلٌ في ذكر الأحاديث الواردة في فضل الجهاد والشهادة في سبيل الله

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تضمَّن الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاداً في سبيلي، وإيماناً وتصديقاً برسلي، فهو عليَّ ضامن ـ أي: مضمون ـ أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلاً ما نال من أجرٍ، أو غنيمةٍ، والذي نفس محمد بيده، ما من كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين يكلم، لونه لون دم، وريحه ريح مسك، والذي نفس محمد بيده، لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سعةً فأحملهم، ولا يجدون سعةً، ويشق عليهم أن يتخلَّفوا عني، والذي نفسُ محمد بيده، لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل» متفق عليه، وهذا لفظ مسلم.

وعن أنس رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لَغَدْوَةٌ في سبيل الله، أو رَوْحَةٌ خير من الدنيا وما فيها» متفق عليه.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم في سبيل الله، خير من الدنيا، وما عليها، وموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا، وما عليها». متفق عليه.

وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله، فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة، ويأمن من فتنة القبر». أخرجه أبو داود، والترمذي.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ قاتل في سبيل الله فواق ناقةٍ، وجبت له الجنة، ومن سأل الله القتل في سبيل الله صادقاً من نفسه، ثم مات أو قتل؛ كان له أجر شهيد، ومن جرح جرحاً في سبيل الله، أو نكب نكبةً. . فإنها تجيء يوم القيامة كأغزر ما كانت، لونها لون الزعفران، وريحها ريح المسك، ومن خرج به خراج في سبيل الله، فإن عليه

طابع الشهداء». أخرجه أبو داود، والنسائي، وأخرجه الترمذي مفرقاً في موضعين.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: أتى رجلٌ رسول الله ﷺ فقال: «أيُّ الناس أفضل؟ قال: مؤمن مجاهد بنفسه، وماله في سبيل الله، قال: ثم من؟ قال: رجل في شعب من الشعاب يعبد الله»، وفي رواية: «يتقي الله ويدع الناس من شره». متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً، واحتساباً، وتصديقاً بوعده.. فإن شبعه، وريه، وروثه، وبوله، في ميزانه يوم القيامة يعني حسنات». أخرجه البخاري. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما أحدٌ يدخل الجنة فيحب أن يرجع إلى الدنيا، وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا، فيقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة»، وفي رواية «لما يرى من فضل الشهادة». متفق عليه.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين». أخرجه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من القرصة». أخرجه الترمذي وللنسائي نحوه.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «يَشْفَعُ الشهيد في سبعين من أهل بيته». أخرجه أبو داود.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ مبتدأ خبره، قوله الآتي ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾؛ أي: هؤلاء المؤمنون الذين أجابوا دعوة الله، ورسوله إياهم للخروج إلى الغزو ثانياً في اليوم التالي ليوم أحد ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ﴾، ونالهم ﴿ٱلْقَرْحُ﴾، والجراح في يوم أحد، ولبوا نداءهما من غير توانٍ ولا تباطؤ. وكان هذا الدعاء في يوم الأحد التالي ليوم أحد الذي هو يوم السبت لست عشرة مضت، أو لثمان

عشرة خلون من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً من الهجرة، كما في المواهب. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ﴾ بإجابة الرسول إلى الخروج للغزو ثانياً على ما هم عليه من جراح، وآلام أصابتهم يوم أحد ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ مخالفة الرسول، وعاقبة تقصيرهم، وأتوا بالعمل على أكمل وجوهه ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، وثواب جزيل، وهو الجنة على ما أتوا به من جليل الأعمال، وصالح الأفعال.

وفي قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ إشارة إلى أن من دعوا لبوا، واستجابوا له ظاهراً، وباطناً، ولكن عرض لبعضهم موانع في أنفسهم أو أهليهم فلم يخرجوا، وخرج الباقون.

روي أن أبا سفيان وأصحابه لمَّا رجعوا من أحد، فبلغوا الروحاء موضع بين مكة والمدينة، ندموا، وهموا بالرجوع حتى يستأصلوا، من بقي من المؤمنين، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأراد أن يرهبهم، ويريهم من نفسه وأصحابه قوةً، فندب أصحابه للخروج في إثر أبي سفيان، وقال: «لا يَخْرُجَنَّ معنا يومنا إلا من حضر بالأمس»، فخرج رسولُ الله ﷺ مع جماعة من أصحابه يوم الأحد اليوم التالي، يوم أُحد حتى بلغوا حمراء الأسد ـ موضعٌ على ثمانية أميال من المدينة، على يسار الطريق لمن أراد ذا الحليفة ـ وكان بأصحابه الجراح والآلام، فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر، وألقى الله الرعب في قلوب المشركين، فذهبوا إلى مكة مسرعين، وأقام بها رسول الله ﷺ الاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة يوم الجمعة، وقد غاب عنها خمساً، فنزلت هذه الآية وتسمي هذه الغزوة غزوة حمراء الأسد، وهي متصلة بغزوة أحد.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره: أمدح المؤمنين الذين قال لهم الناس: أي؛ قال لهؤلاء المؤمنين نعيم ابن مسعود الأشجعي، ومن وافقه، وهم أربعة؛ أي: قالوا للمؤمنين تثبيطاً لهم ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: إن أبا سفيان، وكفار قريش ﴿قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾؛ أي: لقتالكم واستئصالكم، أيها المؤمنون في مجنة، وهي سوق بقرب مكة جموعاً كثيرةً، وأعواناً عديدةً ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾، أي: فخافوا أيها المؤمنون هؤلاء الجموع، واحذروهم ولا تخرجوا

إليهم، فإنه لا طاقة لكم بهم، وقلنا لكم ذلك نصيحةً لكم أيها المؤمنون، فإنا رأينا تلك الجنود المجندة لكم.

روي عن[1] ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة أن الآية نزلت في غزوة بدر الصغرى، وذلك أن أبا سفيان، قال: حين أراد أن ينصرف من أحد: يا محمد موعدنا موسم بدر القابل، إن شئت، فقال النبي ﷺ: «ذلك بيننا وبينك إن شاء الله تعالى». فلما كان العام القابل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مِجنَّة من ناحية مر الظهران، فألقى الله الرعب في قلبه فبدا له الرجوع، فلقي نعيم ابن مسعود، وقد قدم معتمراً، فقال له أبو سفيان: إني واعدت محمداً وأصحابه أن نلتقي بموسم بدر، وإن هذا عام جدب، ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر، ونشرب فيه اللبن، وقد بدا لي أن أرجع، وأكره أن يخرج محمد، ولا أخرج فيزيدهم ذلك جرأةً، فالحق بالمدينة، فثبطهم ولك عندي عشرةٌ من الإبل، أضعها في يدي سهيل بن عمرو. فأتى نعيم المدينة، فوجد المسلمين يتجهزون لميعاد أبي سفيان، فقال لهم: ما هذا الرأي؟ أتوكم في دياركم، وقراركم، ولم يفلت منكم إلا شريد، فتريدون أن تخرجوا إليهم، وقد جمعوا لكم الجموع عند الموسم، فوالله لا يفلت منكم أحد، فكان لكلامه وقع شديد في نفوس قوم منهم، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لأخرجن، ولو وحدي فخرج، ومعه سبعون راكباً يقولون: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ حتى وافى بدراً الصغرى ـ بدر الموعد ـ فأقام بها ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان، فلم يلق أحداً؛ لأن أبا سفيان رجع بجيشه إلى مكة، وكان معه ألفا رجلٍ، فسماه أهل مكة جيش السويق، وقالوا لهم: إنما خرجتم لتشربوا السويق». ووافى المسلمون سوق بدرٍ، وكانت معهم نفقاتٌ وتجاراتٌ، فباعوا، واشتروا أدماً، وزبيباً، فربحوا، وأصابوا بالدرهم درهمين، وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين كما قال تعالى.

﴿فَزَادَهُمْ﴾؛ أي: فزاد المؤمنين ذلك القول والتثبيط ﴿إِيمَٰنًا﴾ وتصديقاً

---

(١) المراغي.

بوعده، وثقةً به، وقوةً في دينهم، وثبوتاً على نصر نبيهم ﷺ ولم يلتفتوا إلى تخويفهم، بل حدث في قلوبهم عزمٌ وتصميمٌ على محاربة هؤلاء الكافرين، وطاعة للرسول في كل ما يأمر به، وينهى عنه، وإن أضناهم ذلك، وثقل عليهم لما بهم من جراحات عظيمة، وقد كانوا في حاجة إلى قسط من الراحة، وشيء من التداوي، لكن وثوقهم بنصر الله وتغلبهم على عدوهم، أنساهم كل هذه المصاعب، فلبوا الدعوة سراعاً.

والخلاصة: أن هذا القول الذي سمعوه زاد شعورهم بعزة الله، وعظمته وسلطانه، ويقينهم بوعد الله، ووعيده، وتبع ذلك زيادةٌ في العمل، ودأبٌ على إنفاذ ما طلب الرسول ﷺ، ولولا ذلك ما أقدموا على الاستجابة إلى ما كاد يكون وراء حدود الإمكان.

ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

﴿وقالوا﴾؛ أي: قال المؤمنون معبرين عن صادق إيمانهم، ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: كافينا ومحسبنا الله، فهو الذي يكفينا ما يهمنا، من أمر هؤلاء الذين جمعوا لنا الجموع العديدة، فهو سبحانه وتعالى لا يعجزه أن ينصرنا على قلتنا، وكثرتهم، أو يلقي في قلوبهم الرعب، فيكفينا شر بغيهم، وكيدهم، وقد كان الأمر كما ظنوا، فألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان، وجيشه، على كثرة عددهم، وتوافر عُددهم، فولوا مدبرين، وكان النصر في ذلك لله ولرسوله وللمؤمنين.

﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾؛ أي: ونعم وحسن الموكول إليه أمورنا، كلها ديناً، ودنيا، ونصراً على أعدائنا، والمخصوص بالمدح الله سبحانه وتعالى.

وأخرج البخاري عن ابن عباس ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم جموعاً.

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ إذا وقعتم في الأمر العظيم، فقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل». وأخرج ابن أبي الدنيا، عن عائشة رضي الله عنها أنَّ النبي ﷺ كان إذا اشتد غمه مسح بيده على رأسه، ولحيته، ثم تنفس الصعداء، وقال: «حسبي الله ونعم الوكيل».

وأخرج أبو نعيم عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ «حسبي الله ونعم الوكيل، أمان كل خائف». وقوله: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟﴾ معطوف على محذوف تقديره: أي: فخرجوا للقاء عدوهم، ولم يلقوا منه كيداً، ولا همًّا، وانقلبوا؛ أي: رجعوا إلى أهليهم حالة كونهم ملتبسين ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ وسلامةٍ وثواب ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَفَضْلٍ﴾؛ أي: وزيادةٍ، وربح في تجارتهم، وهو ما أصابوا في سوق بدر من الربح، وقيل: النعمة منافع الدنيا، والفضل ثواب الآخرة، وحالة كونهم ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ﴾؛ أي: لم يصبهم في الذهاب، والإياب ﴿سُوٓءٌ﴾؛ أي: قتل ولا جراحٌ من عدوهم.

﴿وَٱتَّبَعُوا۟﴾؛ أي: وامتثلوا رسول الله في كل ما به أمر ونهى عنه لينالوا ﴿رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى في كل ما أتوا به من قول أو فعل؛ أي: ليفوزوا برضا الله الذي هو وسيلة النجاة، والسعادة في الدنيا، والآخرة، ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ ومَنٍّ جسيم عليهم إذ تفضل عليهم بزيادة الإيمان، والتوفيق بالمبادرة إلى الجهاد والجرأة على العدو وحفظهم من كل ما يسوءهم.

وفي هذا إلقاء للحسرة في قلوب المتخلِّفين منهم، وإظهارٌ لخطأ رأيهم، إذ حرموا أنفسهم ما فاز به هؤلاء. ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ﴾ المخوف المثبط القائل لكم: إن الناس قد جمعوا لكم، وهو نعيم بن مسعود هو ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ سماه الله شيطاناً؛ لأنه كان تابعاً للشيطان، ولوسوسته ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾؛ أي: يخوفكم أيها المؤمنون عن لقاء أوليائه، ومقاتلتهم، وعن الخروج إليهم؛ أي: ليس ذلك الذي قال لكم: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم إلا الشيطان يخوفكم أيها المؤمنون، عن قتال أوليائه وأنصاره، وأحزابه المشركين، ويوهمكم أنهم عدد كثر، وأولو قوة، وبأس شديد، وأن من مصلحتكم أن تقعدوا عن لقائهم، وتجبنوا عن مدافعتهم.

قرأ ابن عباس وابن مسعود ﴿يخوفكم أولياءَه﴾ وقرأ أبي بن كعب، والنخعي ﴿يخوفكم بأوليائه﴾.

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾؛ أي: فلا تخافوا أولياء الشيطان، ولا تقعدوا عن قتالهم، ولا تجبنوا عنهم، ولا تحفلوا بقولهم ﴿وَخَافُونِ﴾ في مخالفة أمري بالجلوس، فجاهدوا في سبيلي، مع رسولي؛ لأنكم أوليائي، وأنا وليكم وناصركم، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: مصدقين بوعدي لكم النصر، والظفر، أو راسخي الإيمان قائمين بحقوقه، فإن من حقه إيثار خوف الله تعالى على خوف غيره، والأمن من شر الشيطان، وأوليائه وأثبت أبو عمرو ياء ﴿وَخَافُونِ﴾ وهي ضمير المفعول، والأصل الإثبات، ويجوز حذفها للوقف على نون الوقاية بالسكون، فتذهب الدلالة على المحذوف.

وخلاصة ذلك: أنه إذا عرضت لكم أسباب الخوف فاستحضروا في نفوسكم قدرة الله الذي بيده كل شيء، وهو يجير، ولا يجار عليه، وتذكروا وعده بنصركم، وإظهار دينكم على الدين كله، وأن الحق يدمغ الباطل، فإذا هو زاهق، واذكروا قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ثم خذوا أهبتكم، وتوكلوا على ربكم، فإنه لا يدع لخوف غيره مكاناً في قلوبكم.

ولما نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن خوف أولياء الشيطان، وأمرهم بخوفه وحده تعالى نهى رسوله ﷺ عن الحزن لمسارعة من سارع في الكفر، فقال: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾؛ أي: لا يهمنك أيها الرسول مسارعة ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ﴾ ويبادرون ﴿فِي﴾ نصرة دين ﴿الْكُفْرِ﴾، والشرك، ومظاهرة أهله على النبي ﷺ قيل: هم كفار قريش، وقيل: هم المنافقون، وقيل: هو عام في جميع الكفار، والمعنى: ولا يحزنك من يسارع في الكفر بنصرته بأن يقصد جمع العساكر لمحاربتك، وإبطال هذا الدين وإزالة هذه الشريعة، وهذا المقصود لا يحصل لهم، بل يضمحل أمرهم، وتزول شوكتهم، ويعظم أمرك، ويعلو شأنك فـ ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ﴾؛ أي: إن هؤلاء المسارعين لن يضروا دين الله ورسوله بهذا الصنيع

﴿شَيْـًٔا﴾ من الضرر، وإنما يضرون أنفسهم بأن لا حظ لَّهم في الآخرة، ولهم عذاب عظيم.

قرأ نافع[١] ﴿يُحزِنك﴾ بضم الياء وكسر الزاي، من أحزن الرباعي هنا، وفي جميع القرآن حيثما وقع إلا قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ في سورة الأنبياء فقرأه بفتح الياء، وضم الزاي من حزن الثلاثي كباقي القراء في جميع ما في القرآن، فإنهم قرؤوه بفتح الياء وضم الزاي حيثما وقع، وهما لغتان: يقال حزنني الأمر، وأحزنني، والأول أفصح وقرأ ابن محيصن بضم الياء، والزاي من أحزن على النفي.

وقرأ [٢] طلحة بن مصرف النحويُّ ﴿يسرعون﴾ من أسرع الرباعي في جميع القرآن، قال ابن عطية، وقراءة الجمهور أبلغ؛ لأن من يسارع غيره أشد اجتهاداً من الذي يسرع وحده.

وفي ضمن قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ دلالةٌ على أن وبال ذلك عائد عليهم ولا يضرون إلا أنفسهم، وفي توجيه الخطاب إلى النبي ﷺ في قوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ تسليةٌ له، وإيذان بأنه الرئيس المعتنى بشؤونه، ثم علل هذا النهي، وأكمل التسلية بتحقيق نفي ضررهم أبداً بقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: إنهم لن يضروا أولياء الله، وهم النبي وصحبه شيئاً من الضرر، فعاقبة هذه المسارعة في الكفر، وبالٌ عليهم لا عليك، ولا على المؤمنين، فإنهم لا يحاربونك، فيضروك، وإنما هم يحاربون الله تعالى، ولا شك أنهم من أن يفعلوا ذلك عاجزون، فهم إذاً لا يضرون إلا أنفسهم، وفي جعل مضرتهم؛ أي: المؤمنين مضرة لله تعالى تشريف لهم، ومزيد مبالغة في تسليته ﷺ.

ثم بين أنهم لا يضرون إلاّ أنفسهم فقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: إنما سارعوا في الكفر؛ لأن الله سبحانه وتعالى أراد ﴿أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا﴾؛ أي: نصيباً ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ أي: في الجنة؛ فلذلك خذلهم حتى سارعوا في

---

(١) مراح وفتح القدير.
(٢) البحر المحيط.

الكفر، وانهمكوا فيه، وقضى الله بذلك حرمانهم من نعيم الآخرة على وفق ما تقتضيه سنة الله، وإرادته، وفي تعبيره بصيغة الاستقبال دلالةٌ على تمادي طغيانهم وموتهم على الكفر.

﴿وَلَهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء المسارعين مع حرمانهم من الثواب ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: شديد في النار بسبب مسارعتهم في الكفر، فكان ضرر كفرهم عائداً عليهم جالبا لهم عدم الحظ في الآخرة، ومصيرهم في العذاب العظيم.

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى حكم أولئك المسارعين إلى نصرة الكفر، والدفاع عنه، ومقاومة المؤمنين لأجله، وأرشد أنه لا يؤبه بهم، ولا يهتم بشأنهم، فهم إنما يحاربون الله، والله غالب على أمره، أشار إلى أن هذا حكم عام يشمل كل من آثر الكفر على الإيمان، واستبدله به فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾؛ أي: الذين أخذوا الكفر بدلاً عن الإيمان، رغبة فيما أخذوا وإعراضاً عما تركوا ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾ باستبدالهم الكفر عن الإيمان ﴿شَيْـًٔا﴾ من الضرر، ولن ينقصوه شيئا باختيارهم الكفر، وإنما يضرون أنفسهم بما لهم من العذاب الأليم، كما قال: ﴿وَلَهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء المشترين الكفر بالإيمان في الأخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: وجيع يخلص وجعه إلى قلوبهم وفي هذا الكلام إيماء إلى شيئين:

أحدهما: تأكيد عدم إضرارهم بالنبي ﷺ.

وثانيهما: بيان سخافة عقولهم، وغباوة آرائهم إذ هم كفروا أوّلاً، ثم آمنوا، ثم كفروا، بعد ذلك، وهذا دليل على شدة اضطرابهم، وعدم ثباتهم ومثل هؤلاء لا يخشى منهم شيء مما يحتاج إلى أصالة الرأي، وقوة التدبير.

ثم بين سبحانه وتعالى أن رغبة الكافرين عن الجهاد حباً في الحياة ليس من الخير لهم فقال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾؛ أي: ولا يظنن هؤلاء الكافرون أن إمهالنا لهم بتأخير الأجل، وإطالة أعمارهم ﴿خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ فإنه لا يكون كذلك إلا إذا ازدادوا فيه عملاً صالحاً ينتفعون به في أنفسهم، بتزكيتها، وتطيهرها من شوائب الأدران، وسيء الأخلاق، وينتفع به الناس في تهذيبهم،

وتحسين معاشهم ﴿إِنَّمَا نُمْلِي﴾ ونمهل ﴿لَهُمْ﴾ في أعمارهم ونعطيهم الأموال والأولاد ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ وذنباً وطغياناً في أنفسهم، وإضلالاً لغيرهم في الدنيا، ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ أي: ذو إهانة، وإذلال لهم يهانون به يوماً فيوماً وساعة بعد ساعة.

والخلاصة[1]: أن هذا الإمهال والتأخر ليس عنايةً من الله بهم، وإنما هو قد جرى على سننه في الخلق بأن ما يصيب الإنسان من خير أو شر، فإنما هو ثمرة عمله، ومن مقتضى هذه السنة أن يكون الإمهال للكافر علة لغروره، وسبباً لاسترساله في فجوره، ونتيجة ذلك الإثم الذي يكتسبه: العذاب المهين.

وفي الآية من العبرة شيئان:

أحدهما: أن من شأن الكافر أن يزداد كفراً بطول عمره، ويتمكن من العمل بحسب استعداده.

وثانيهما: أن من شأن المؤمن إذا أنسأ الله أجله أن تكثر حسناته، وتزداد خيراته، فليجعل المؤمن هذا دستوراً فيما بينه وبين ربه، ويحاسب نفسه على مقتضاه، فإذا فقهه وعمل به خرج من الظلمات إلى النور، وكان من ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ﴾.

قال[2] الفخر الرازي: بين الله تعالى في هذه الآية أن بقاء هؤلاء المتخلِّفين عن القتال، ليس خيراً من قتل أولئك الذين قتلوا في أحد، لأن هذا البقاء صار وسيلة إلى الخزي في الدنيا، والعقاب الدائم في الآخرة، وقتل أولئك الذين قتلوا في أحد صار وسيلةً إلى الثناء الجميل في الدنيا، والثواب الجزيل في الآخرة فترغيب أولئك المثبطين في مثل هذه الحياة، وتنفيرهم عن مثل ذلك القتل لا يقبله إلا جاهل انتهى.

وروى[3] البغوي بسنده عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه رضي الله

---

(١) المراغي.

(٢) الفخر الرازي.

(٣) الخازن.

عنهما قال: سئل رسول الله ﷺ أي الناس خير؟ قال: «من طال عمره، وحسن عمله»، قيل: فأي الناس شر؟ قال: «من طال عمره، وساء عمله».

قرأ[1] ابن كثير، وأبو عمرو في الأربعة ﴿ولا تحسبن الذين كفروا﴾ ﴿ولا تحسبن الذين يبخلون﴾ ﴿ولا تحسبن الذين يفرحون﴾ ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ بتاء الخطاب، وضم الباء في قوله ﴿تَحْسَبُنَّهُم﴾ وقرأ نافع وابن عامر بالياء إلا قوله فلا ﴿تحسبنهم﴾ فإنه بالتاء. وقرأ حمزة كلّها بالتاء، وقرأ[2] يحيى بن وثاب ﴿إنما نملي﴾ بكسر النون في الموضعين، وهي قراءة ضعيفة في العربية. وقال أبو حيان:[3] قرأ يحيى بن وثاب ﴿ولا يحسبن﴾ بالياء ﴿وإنما نملي﴾ بالكسر انتهى.
قوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ كلام مستأنف بين فيه أن الشدائد هي محك صدق الإيمان، والخطاب[4] فيه عند جمهور المفسرين للكفار، والمنافقين؛ أي: ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه من الكفر، والنفاق ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، وقيل: الخطاب للمؤمنين، والمنافقين، **والمعنى**: أي: ما كان الله سبحانه وتعالى ليترك المؤمنين المخلصين على الحال التي كنتم عليها أيها الناس في غزوة أحد من اختلاط المنافقين بالمخلصين، وإظهارهم أنهم من أهل الإيمان ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ﴾ ويفرق ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾، والمنافق ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، والمؤمن ويظهر حال كل منهما بإلقاء المحن والمصائب والقتل والهزيمة، لأن الشدائد هي التي تميز قوي الإيمان من ضعيفه وتزيل الالتباس بين الصادقين، والمنافقين فمن كان مؤمناً ثبت على إيمانه، وتصديق الرسول ﷺ ومن كان منافقاً ظهر نفاقه وكفره أو بالقرائن، فإن المؤمنين كانوا يفرحون بنصرة الإسلام وقوته، والمنافقون كانوا يغتمون بذلك.

أمَّا تكليف ما لا مشقة فيه، كالصلاة، والصدقة، القليلة، وغيرهما، فيقبلها المنافق كما يقبلها صادق الإيمان لما فيها من حسن الأحدوثة، والتمتع بمزايا الإسلام.

---

(١) مراح.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.
(٤) الشوكاني.

وفي الشدائد من الفوائد أشياء كثيرة:

منها: إتقاء المنافق إذا علم نفاقه، فقد يفضى صادق الإيمان ببعض أسرار الملة إلى المنافق لما يغلب عليه من حسن الظن به، حين يراه يؤدي الواجبات الظاهرة، ويشارك الصادقين في سائر الأعمال، فإذا هو أفشاها عرف حاله، وحذره الصادقون.

ومنها: أن تَزوَرَ الجماعة حالها إذ بتكشف أمر المنافقين تعرف أنهم عليها لا لها، وكذلك تعرف حال ضعاف الإيمان، الذين لم تربهم الشدائد.

ومنها: أنها تدفع الغرور عن النفس إذ قد يغتر المؤمن الصادق فلا يدرك ما في نفسه من ضعف في الاعتقاد والأخلاق حتى تمحصه الشدائد، وتبين له حقيقة أمره.

وقرأ الأخوان[(١)]: حمزة والكسائي ﴿يميز﴾ من ميز، وباقي السبعة ﴿يَمِيزَ﴾ من ماز، وفي رواية عن ابن كثير ﴿يُمِيْزَ﴾ من أماز، والهمزة ليست للنقل كما أن التضعيف ليس للنقل، بل أفعل، وفعل بمعنى الثلاثي المجرد، كحزن وأحزن وقدر الله وقدَّر.

ولمَّا كان يدور بخلد بعض الناس أن أقرب وسيلةٍ لتمييز المؤمن الصادق من المنافق أن يطلع المؤمنين على الغيب، حتى يعرفوا حقائق أنفسهم، وحقائق الناس الذين يعيشون بين ظهرانيهم، فيعرفوا أن فلاناً من أهل الجنة، وفلاناً من أهل النار، أجاب الله تعالى عن هذا فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لِيُطْلِعَكُمْ﴾ ويظهركم أيها الناس، وقيل: الخطاب فيه لكفار قريش فقط، ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾، أي: على ما شأنه أن يغيب ويختفي عنكم حتى تميزوا بين الخبيث والطيب، فإن الله سبحانه وتعالى هو المستأثر بعلم الغيب لا يظهر على غيبه أحداً ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَجْتَبِى﴾، ويختار ﴿مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، ويريد إطلاعه على الغيب، فيطلعه على ما يشاء من بعض المغيبات كما وقع لنبينا

---

(١) البحر المحيط.

محمد ﷺ من تعيين كثيرٍ من المنافقين، فإن ذلك كان بتعليم من الله له، لا لكونه يعلم الغيب. وقيل[1] المعنى. وما كان الله ليطلعكم على الغيب في من يستحق النبوة، حتى يكون الوحي باختياركم. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى﴾ الخ هذا استدراكٌ على معنى الكلام، المتقدم؛ لأنه لما قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ توهم أنه لا يطلع أحداً على غيبه لعموم الخطاب، فاستدراك بالرسل إزالةً لذلك الوهم، كأنه قال: إلا الرسل فإنه يطلعهم على الغيب.

والحاصل: أنه لم يكن[2] من شأنه تعالى أن يطلع عامة الناس على الغيب؛ إذ لو فعل ذلك.. لأخرج الإنسان من طبيعته، فإنه تعالى خلقه يحصل رغائبه، ويدفع المكاره عنه بالعمل الكسبيّ، الذي تهدي إليه الفطرة، وترشد إليه النبوة.

ومن ثم جرت سنته بأن يزيل هذا اللبس، ويميز الخبيث من الطيب بالامتحان بالشدائد، والتضحية بالنفس، وبذل المال في سبيل الحق، والخير، كما ابتلي المؤمنون في وقعة أحد بخروج العدو بجيش عظيم لمقاتلتهم، وابتلي الرماة منهم بالمخالفة، وإخلاء ظهور قومهم لعدوّهم وابتلوا بظهور العدو عليهم جزاء ما فعلوا من المخالفة، فظهر نفاق المنافقين، وزلزل ضعفاء المؤمنين زلزالاً شديداً، وثبت كملة المؤمنين، وصاروا كالجبال الرواسي التي لا تزعزعها الرياح والأعاصير.

ولكن الله يختار من رسله من يشاء فيطلعه على ما في قلوب المنافقين من كفر ونفاق، وعلى ما ظهر منهم من أقوال وأفعال.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾.

وفي التعبير بالاجتباء إشارة إلى أنَّ الوقوف على أسرار الغيب منصبٌ جليلٌ تتقاصر عنه الهمم، ولا يؤتيه الله إلا لمن اصطفاه لهداية الأمم.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

وبعد أن رد الله على ما طعن به المنافقون في نبوة محمد ﷺ من وقوع الحوادث التي حصلت في أحد، وبين أن فيه كثيراً من الفوائد كتمييز الخبيث من الطيب، أمرهم بالإيمان به وبرسله فقال: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾؛ أي: إذا ثبت أنه تعالى يختار من رسله من يشاء، فيطلعه على بعض المغيبات، ومنهم محمد ﷺ إذ ثبتت نبوته بإطلاع الله تعالى له على بعض المغيبات، وإخباره لكم بها في غير ما موطن، فآمنوا بالله ورسله الذين ذكرهم الله في كتابه، وقص علينا قصصهم؛ لأنه هو المطلوب منكم، ودعوا الاشتغال بما ليس من شأنكم من التطلع لعلم الله سبحانه وتعالى، ومعنى الإيمان بالله: بأن تقدروه حق قدره، وتعلموا أنه وحده هو العالم بالغيوب، ومعنى الإيمان بالرسل: أن تنزلوهم منازلهم، بأن تعلموا أنهم عبادٌ مجتبون، لا يعلمون إلا ما علمهم الله تعالى، ولا يخبرون إلا بما أخبر الله به من الغيوب، وليسوا من علم الغيب في شيء. قاله الزمخشري. وعمم الأمر بالإيمان بالرسل جميعاً، مع أن سوق الكلام في الإيمان بالنبي ﷺ للإيماء إلى أن الإيمان به يقتضي الإيمان بهم؛ لأنه ﷺ مصدق لما بين يديه من الرسل، وهم شهداء على صحة نبوته.

﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟﴾ بما جاؤوا به من أخبار الغيب ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿فَلَكُمْ﴾ أيها المؤمنون بما ذكر ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وثواب جسيم، لا يستطاع الوصول إلى معرفة قدره.

وقل أن ذكر القرآن الإيمان، إلا قرن به التقوى؛ كما قل أن ذكر الصلاة إلا قرن بها الزكاة حثاً على عمل البرّ، والرأفة بالفقراء والبائسين، وإشارة إلى أن الإيمان لا يكمل إلا بهما.

وقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ الموصول فيه فاعل على قراءة الياء التحتانية والمفعول الأول محذوف لدلالة يبخلون عليه، والمعنى: ولا يظنن الذين يبخلون بما أعطاهم الله من فضله، وعطائه، بخلهم إياه هو خيراً لهم ﴿بَلْ هُوَ﴾؛ أي: بخلهم إياه ﴿شَرٌّ لَّهُمْ﴾ وضررٌ عليهم، لأن أموالهم ستزول عنهم، ويبقى عليهم، وبال البخل، والمعنى: لا

يحسبن البخلاء أن جمعهم المال، وبخلهم بانفاقه ينفعهم بل هو مضرةٌ عليهم في دينهم ودنياهم. وأما على قراءة من قرأ بالتاء الفوقانية، فالفعل مسند إلى ضمير النبي ﷺ والمفعول الأول محذوف أيضاً، والمعنى: ولا تحسبن يا محمد بخل الذين يبخلون هو خيراً لهم، بل هو شر، وضرر لهم.

وحاصل المعنى: ولا يظنن أحدٌ أن بخل الباخلين بما أعطاهم من فضله ونعمه هو خيراً لهم؛ لأنهم مطالبون بشكران النعم، والبخل بها كفرانٌ، لا ينبغي أن يصدر من عاقل، وقال القرطبي: والبخل في اللغة: أن يمنع الإنسان الحق الواجب عليه، فأما من منع ما لا يجب عليه.. فليس ببخيل.

وقال المراغي: والمراد من البخل بالفضل البخل به في أداء الزكاة المفروضة، وفي الأحوال التي يتعين فيها بذل المال كالإنفاق لصد عدو يجتاح البلاد، ويهدد استقلالها، ويصبح أهلها أذلة بعد أن كانوا أعزةً أو إنقاذ شخصٍ من مخالب الموت جوعاً.

ففي كل من هذه الأحوال يجب بذل المال؛ لأنه يجري مجرى دفع الضرر عن النفس.

وليس الذم والوعيد على البخل بما يملك الإنسان من فضل ربه، إذ أن الله أباح لنا الطيبات؛ لنستمتع بها، ولأن العقل قاضٍ بأن الله لا يكلف الناس، ببذل كل ما يكسبون، ويبقون عراةً جائعين، ومن ثم قال في حق المؤمنين المهتدين: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

وجاءت الآية بطريق التعميم ترغيباً في بذل المال بدون تحديد، ولا تعيين، ووكل أمر ذلك إلى اجتهاد المؤمن الذي يتبع عاطفة الإيمان التي في قلبه، وما تحدثه في النفس من بذل الواجب، والزيادة عليه إذا هو تذكر أن في ماله حقاً للسائل والمحروم. وقرأ حمزة ﴿تحسبن﴾ بالتاء الفوقانية، وقرأ باقي السبعة بالياء كما مرّ. وقرأ الأعمش بإسقاط ﴿هو﴾ من قوله: ﴿هُوَ خَيْرًا﴾.

وقوله: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾، أي: هو شر عظيم لهم، وقد نفى أوّلاً أن يكون خيراً، ثم أثبت كونه شراً؛ لأن المانع للحق إنما يمنعه؛ لأنه يحسب أن في

منعه خيراً له لما في بقاء المال، في يده من الانتفاع به، في التمتع باللذات، وقضاء الحاجات، ودفع الغوائل، والآفات.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: «إيّاكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشحّ، أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالفجور ففجروا». أخرجه أبو داود.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خصلتان لا يجتمعان في مؤمن: البخل، وسوء الخلق»، أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب.

وقوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ تفسير لقوله: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾؛ أي: سيجعل ما بخلوا به من المال طوقاً في أعناقهم، يوم القيامة، ويلزمهم ذنبه، وعقابه، ولا يجدون إلى دفعه سبيلاً، أو المعنى سيلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق.

وقال مجاهد: إن المعنى سيكلفون أن يأتوا بمثل ما بخلوا من أموالهم يوم القيامة عقوبةً لهم، فلا يستطيعون ذلك، ويكون ذلك توبيخاً لهم على معنى: هلا فعلتم ذلك حين كان ممكناً ميسوراً، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

وقال بعضهم: إن التطويق حقيقي وأنهم يطوقون بطوق يكون سبباً لتعذيبهم؛ فتصير تلك الأموال حيات تلتوي في أعناقهم، فقد روى البخاري، والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من آتاه الله مالاً.. فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع - أي: ثعباناً عظيماً - له زبيبتان - نكتتان سوداوان فوق عيني الحية - فيأخذ بلهزمتيه - يعني شدقيه - ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ الآية».

وقيل: المراد البخل: بالعلم؛ وذلك لأن اليهود كانوا يكتمون نعت

محمد ﷺ فكان ذلك الكتمان بخلاً، فحينئذٍ يكون معنى سيطوقون أنَّ الله تعالى يجعل في رقابهم طوقاً من نار، قال ﷺ: «من سئل عن علم يعلمه، فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار». والمعنى: أنهم عوقبوا في أفواههم، وألسنتهم بهذا اللجام؛ لأنهم لم ينطقوا بأفواههم، وألسنتهم بما يدل على الحق.

﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى وحده، لا لأحد سواه ﴿مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾، أي: جميع ما يتوارث به أهل السموات والأرض، بعضهم من بعض من مال أو غيره، كجاه، وعلم، وقوة، فينقل من واحد إلى آخر لا يستقر في يد واحد، ولا يسلم التصرف فيه لأحد إلى أن يفنى الوارثون، والموروثون، ويبقى مالك الملك رب العالمين، فما لهؤلاء القوم البخلاء يبخلون بملكه عليه، ولا ينفقونه في سبيله وابتغاء مرضاته، وهو لله تعالى لا لهم، وإنما كان عندهم عاريةً مستردةً، والميراث في الأصل هو: ما يخرج من مالك إلى آخر، ولم يكن مملوكاً لذلك الآخر قبل انتقاله إليه بالميراث، ومعلوم أن الله تعالى هو المالك بالحقيقة لجميع مخلوقاته.

وفي الآية إيماء إلى أنَّ كل ما يعطاه الإنسان من مال، وجاه، وقوة، وعلم، فإنه عرض زائل، وصاحبه فان غير باق، فلا ينبغي أن يستبقي الفاني ما هو مثله في الفناء، بل عليه أن يضع الأشياء في مواضعها، التي تصلح لها، وبذا يكون خليفة الله في أرضه محسناً للتصرف فيما استخلف فيه ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من البخل والسخاء ﴿خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه، أو فيجازيهم عليه، أي: والله سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية من أعمالكم، ولا ما تنطوي عليه جوانحكم، فيجازي كل عامل بما عمل بحسب تأثير عمله في تزكية نفسه، أو تدسيسها ونيته في فعله كما في الحديث «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى».

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو ﴿يعملون﴾ بالياء على الغيبة جرياً على ﴿يَبْخَلُونَ﴾ و﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾، وقرأ الباقون بالتاء على الالتفات، فيكون ذلك خطاباً للباخلين.

الإعراب

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿لا﴾ ناهية جازمة. ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ فعل مضارع في محل الجزم ﴿بلا﴾ الناهية، مبني على الفتح لاتصاله بـ﴿نون﴾ التوكيد، و﴿نون﴾ التوكيد حرف لا محل له من الإعراب مبني على الفتح، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: أنت يعود على محمد، أو على كل مخاطب، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول للجمع المذكر في محل النصب مفعول أول لـ﴿تحسبن﴾. ﴿قُتِلُوا۟﴾ فعل مغير ونائب فاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿قتلوا﴾. ﴿أَمْوَٰتًۢا﴾ مفعول ثان لـ﴿حسب﴾. ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ ﴿بَلْ﴾ حرف عطف واضراب. ﴿أَحْيَآءٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم أحياء، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية. ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ﴿يرزقون﴾. وفي «الفتوحات»[1] قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فيه خمسة أوجه:

أحدها: أن يكون خبراً ثانياً لـ﴿أحياء﴾ على قراءة الجمهور.

الثاني: أن يكون ظرفاً لـ﴿احياء﴾ لأن المعنى يحيون عند ربهم.

الثالث: أن يكون ظرفاً لـ﴿يرزقون﴾، أي: يقع رزقهم في هذا المكان الشريف.

الرابع: أن يكون صفة لـ﴿أحياء﴾ فيكون في محل رفع على قراءة الجمهور، ونصب على قراءة ابن أبي عبلة.

الخامس: أن يكون حالاً من الضمير المستكن في ﴿أَحْيَآءٌ﴾، والمراد بالعندية المجاز عن قربهم بالتكرمة انتهى. ﴿يُرْزَقُونَ﴾ فعل مغير، ونائب فاعل، والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿أحياء﴾، ويجوز أن تكون حالاً من الضمير، في

---

(١) الجمل.

﴿أَحْيَآءٌ﴾، أي: يحيون مرزوقين.

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

﴿فَرِحِينَ﴾ حال من الضمير في ﴿يُرْزَقُونَ﴾. وفي «الجمل»[1] قوله: ﴿فَرِحِينَ﴾ فيه خمسة أوجه:

أحدها: أن يكون حالاً من الضمير في ﴿أَحْيَآءٌ﴾.

الثاني: أن يكون حالاً من الضمير في الظرف.

الثالث: أن يكون حالاً من الضمير في ﴿يُرْزَقُونَ﴾.

الرابع: أنه منصوب على المدح.

الخامس: أنه صفة لـ﴿أحياء﴾ وهذا يختص بقراءة ابن أبي عبلة. ﴿فَرِحِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿فَرِحِينَ﴾. ﴿ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول أول وفاعل، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: آتاهموه؛ لأن أتى هنا بمعنى أعطى. ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه حال من ضمير المفعول الثاني المحذوف، والجملة الفعلية صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير المفعول المحذوف.

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ الواو عاطفة. ﴿يستبشرون﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على ﴿فَرِحِينَ﴾ على كونها حالاً من ضمير ﴿يُرْزَقُونَ﴾ لأن ﴿فَرِحِينَ﴾ اسم فاعل يشبه الفعل المضارع فيجوز عطف الفعل عليه. ﴿بِٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يستبشرون﴾ ﴿لَمْ يَلْحَقُوا۟﴾ جازم وفعل وفاعل ﴿بِهِم﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿يَلْحَقُوا۟﴾ تقديره: حال كونهم

---

(١) الجمل.

متخلفين عنهم في الزمان أو متعلق بـ﴿يلحقوا﴾. ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن تقديره أنه. ﴿لا﴾ نافية تعمل عمل ليس. ﴿خَوْفٌ﴾ اسمها مرفوع. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿لا﴾، تقديره: أنه لا خوف موجوداً عليهم، وجملة لا من اسمها، وخبرها في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ المخففة، وجملة ﴿أن﴾ المخففة في تأويل مصدر مجرور على كونه بدلاً من الموصول في قوله ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم﴾ بدل اشتمال تقديره، يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم بعدم خوفهم. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الواو عاطفة. ﴿لا﴾ زائدة زيدت لتأكيد نفي ما قبلها. ﴿هُمْ﴾ مبتدأ. ﴿يَحْزَنُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿لا﴾ الأولى على كونها خبراً؛ لـ﴿أن﴾ المخففة، والتقدير: يستبشرون بعدم وجود خوفهم، وبعدم حزنهم.

﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية مستأنفة مكررة لتأكيد الجملة السابقة. ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ جار، ومجرور متعلق بـ﴿يستبشرون﴾. ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿نعمة﴾ تقديره: بنعمة كائنة من الله. ﴿وَفَضْلٍ﴾ معطوف على ﴿نعمة﴾. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ الواو عاطفة. ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿اللَّهَ﴾ اسمها. ﴿لَا يُضِيعُ﴾ ﴿لا﴾ نافية. ﴿يضيع﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهَ﴾. ﴿أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مجرور على كونه معطوفاً على ﴿نعمة﴾ تقديره: يستبشرون بنعمة من الله وفضل، وبعدم إضاعة الله أجر المؤمنين.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾.

﴿الَّذِينَ﴾ اسم موصول للجمع المذكر في محل الجر صفة لـ﴿المؤمنين﴾، أو في محل النصب على إضمار أعني، أو في محل الرفع على إضمارهم، أو على كونه مبتدأ خبره جملة ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾. ﴿اسْتَجَابُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة

الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿استجابوا﴾. ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ معطوف على الجلالة. ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ جار ومجرور متعلق باستجابوا. ﴿مَآ﴾ مصدرية. ﴿أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية صلة ما المصدرية وما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من بعد إصابة القرح إياهم. ﴿لِلَّذِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بواجب الحذف لوقوعه خبراً مقدماً. ﴿أَحْسَنُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿مِنْهُمْ﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿أَحْسَنُوا۟﴾. ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿أَحْسَنُوا۟﴾. ﴿أَجْرٌ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة له، والجملة من المبتدأ المؤخر، والخبر المقدم، مستأنفة لا محل لها من الإعراب، أو في محل الرفع خبر لقوله ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟﴾ إن قلنا إنه مبتدأ.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول للجمع المذكر في محل النصب مفعول لفعل محذوف، تقديره: أمدح الذين قال لهم الناس، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض. ﴿لَهُمُ﴾ متعلق به. ﴿ٱلنَّاسُ﴾ فاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير لهم. ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ مقول محكي لـ﴿قال﴾ وإن شئت قلت ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿ٱلنَّاسَ﴾ اسمها. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿جَمَعُوا۟﴾ فعل وفاعل. ﴿لَكُمْ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إن، وجملة إن في محل النصب مقول لـ﴿قال﴾. ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة تفريعية. ﴿اخشوهم﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿قَدْ جَمَعُوا۟﴾. ﴿فَزَادَهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. ﴿زادهم﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير مستتر فيه، تقديره: هو يعود على القول المذكور ﴿إِيمَـٰنًا﴾ مفعول ثان، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ على كونها صلة الموصول. ﴿وَقَالُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾. ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ مقول محكي لقالوا، وإن شئت قلت: ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ

مؤخر. ﴿حَسْبُنَا﴾ خبر مقدم، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قالوا﴾. ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ والمخصوص بالمدح محذوف وجوباً تقديره: هو يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾.

﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿فَٱنقَلَبُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة على محذوف تقديره: وخرجوا مع النبي ﷺ إلى سوق بدر، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ ﴿انقلبوا﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على ذلك المحذوف. ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ جار ومجرور حال من ﴿واو﴾ ﴿انقلبوا﴾ تقديره حالة كونهم ملتبسين بنعمة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿نعمة﴾. ﴿وَفَضْلٍ﴾ معطوف على ﴿نعمة﴾. ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ جازم وفعل، ومفعول، وفاعل والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿انقلبوا﴾ ﴿وَٱتَّبَعُوا۟﴾ الواو عاطفة. ﴿اتبعوا﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟﴾ أو في محل النصب حال من فاعل ﴿انقلبوا﴾. ﴿رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ. ﴿ذُو فَضْلٍ﴾ خبر ومضاف إليه. ﴿عَظِيمٍ﴾ صفة لـ﴿فضل﴾، والجملة مستأنفة.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر ونفي بمعنى ما النافية، وإلا المثبتة حرف لا محل له من الإعراب. ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ مبتدأ. ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ خبره، والجملة مستأنفة. ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ فعل ومفعول ثان، ومضاف إليه، وفاعله ضمير مستتر يعود على اسم الإشارة، أو على الشيطان، والمفعول الأول محذوف، تقديره: يخوفكم أولياءه؛ أي: أصحابه الكفار، والجملة مستأنفة، أو في محل النصب حال من ﴿الشيطان﴾، والعامل فيه اسم الإشارة. ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أن ذلك المخوف هو الشيطان، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم فأقول: ﴿لا تخافوهم﴾ ﴿لا﴾ ناهية جازمة. ﴿تَخَافُوهُمْ﴾ فعل وفاعل

ومفعول، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَخَافُونِ﴾ الواو عاطفة. ﴿خافوا﴾ فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل. و﴿النون﴾ للوقاية، ﴿وياء﴾ المتكلم المحذوفة اجتزىء عنها بكسرة نون الوقاية في محل النصب مفعول به. وفي «الفتوحات»: هذهِ الياء التي بعد النون اختلف القراء السبعة في إثباتها لفظاً، واتفقوا على حذفها في الرسم؛ لأنها من ياءات الزوائد، وكلها لا ترسم، وجملتها في القرآن اثنان وستون اهـ شيخنا. والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿فلا تخافوا﴾ على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة. ﴿إِن كُنتُم﴾ ﴿إن﴾ حرف شرط جازم. ﴿كُنتُم﴾ فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بإن على كونه فعل شرط لها. ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ خبر كان، وجواب ﴿إن﴾ محذوف معلوم مما قبله تقديره: إن كنتم مؤمنين، فخافون، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾.

﴿وَلَا﴾ الواو استئنافية. ﴿لا﴾ نافية. ﴿يَحْزُنكَ﴾ فعل، ومفعول به. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿فِى ٱلْكُفْرِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يسارعون﴾. ﴿إِنَّهُمْ﴾ ﴿إن﴾ حرف نصب. و﴿الهاء﴾ اسمها. ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ ناصب وفعل وفاعل ومفعول. ﴿شَيْـًٔا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، أي: ضرراً شيئاً، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَلَّا يَجْعَلَ﴾ ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿لا﴾ نافية. ﴿يَجْعَلَ﴾ فعل مضارع منصوب بأن المصدرية، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور في محل المفعول الأول لـ﴿جعل﴾. ﴿حَظًّا﴾ مفعول ثان لـ﴿جعل﴾. ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ صفة لـ﴿حظاً﴾ أو متعلق بـ﴿جعل﴾، وجملة ﴿جعل﴾ صلة أن المصدرية وأن مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿يريد﴾ تقديره: يريد الله عدم جعل حَظّهم في

الآخرة. ﴿ولهم﴾ الواو استئنافية. ﴿لهم﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة له، والجملة مستأنفة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمها. ﴿ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ متعلق بـ﴿اشتروا﴾. ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾ ناصب وفعل وفاعل ومفعول به. ﴿شَيْـًٔا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة ﴿وَلَهُمْ﴾ الواو استئنافية. ﴿لهم﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة له، والجملة مستأنفة.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿لا﴾ ناهية جازمة. ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿لا﴾، مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد، و﴿نون﴾ التوكيد حرف لا محل له، مبني على الفتح، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿كَفَرُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿أَنَّمَا﴾ ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿ما﴾ مصدرية، فهي كلمة مستقلة، وكان المناسب أن تكتب مفصولة من ﴿أن﴾ لكن طريقة المصحف كتابتها موصولة. ﴿نُمْلِي﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية صلة ما المصدرية ما مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على كونه اسم ﴿أن﴾ تقديره أن إملاءنا. ﴿خَيْرٌ﴾ خبر ﴿أن﴾. ﴿لِّأَنفُسِهِمْۚ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بخير، وجملة ﴿أن﴾ من اسمها وخبرها، في تأويل مصدر ساد مسدّ مفعولي ﴿حسب﴾، تقديره: ولا يحسبن الذين كفروا خيرية إملائنا لهم، أو ساد مسد المفعول الثاني على قراءة التاء في ﴿تحسبن﴾، والمفعول الأول ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ والفاعل ضمير المخاطب، وهو النبي ﷺ أو غيره، والتقدير: ولا تحسبن يا محمد الذين كفروا خيرية إملائنا لهم. ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ ﴿إنما﴾ أداة حصر. ﴿نُمْلِي﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة

استئنافاً بيانياً كأنه قيل: ما بالهم يحسبون الإملاء خيراً، فقيل: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا﴾. ﴿لِيَزْدَادُوٓا﴾ ﴿اللام﴾ لام كي. ﴿يزدادوا﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي والواو فاعل. ﴿إِثْمًا﴾ مفعول به والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المضمرة. وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل، تقديره: إنما نملي لهم لإرادة ازديادهم إثماً، الجار والمجرور متعلق بنملي، ﴿وَلَهُمْ﴾ الواو استئنافية. ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿مُّهِينٌ﴾ صفة له والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾.

﴿مَّا﴾ نافية. ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿لِيَذَرَ﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وجحود. ﴿يذر﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرةً وجوباً بعد لام الجحود، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام الجحود، تقديره: ما كان الله ليترك المؤمنين على ما أنتم عليه، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة، وإنما أولنا كذلك، لأن ﴿يذر﴾ فعل جامد، لا مصدر له فأخذنا مصدر ما هو بمعناه، وهو ترك. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذه ﴿اللام﴾: تسمى لام الجحود، وينصب المضارع بعدها بإضمار أن، ولا يجوز إظهارها، والفرق بينها وبين لام كي أن هذه على المشهور شرطها أن تكون بعد كون منفي بما، إن كان ماضياً، أو بلم إن كان مضارعاً، وعرفها بعضهم في بيت واحد فقال:

وَكُلُّ لاَمٍ قَبْلَهُ مَا كَانَا ... أَوْ لَمْ يَكُنْ فَلِلْجُحُوْدِ بَانَا

وفي خبر ﴿كَانَ﴾ في هذا الموضع، وما أشبهه قولان، أحدهما: وهو قول البصريين، أنه محذوف، وأن اللام مقوية لتعدية ذلك الخبر المقدر لضعفه، والتقدير: ما كان الله مريداً، لأن ﴿يذر﴾، فأن يذر، هو مفعول مريداً، والتقدير: ما كان الله مريداً ترك المؤمنين على ما أنتم عليه. والثاني: قول الكوفيين أن ﴿اللام﴾ زائدة لتأكيد النفي، وأن الفعل بعدها هو خبر ﴿كَانَ﴾ و﴿اللام﴾ عندهم هي العاملة النصب في الفعل بنفسها، لا بإضمار أن، والتقدير: عندهم: ما كان

الله يذر المؤمنين. وضعف أبو البقاء مذهب الكوفيين؛ لأن ما بعدها قد انتصب، فإن كان النصب باللام نفسها فليست زائدة، وإن كان النصب بأن فسد المعنى؛ لأن أن وما في حيزها في تأويل مصدر، والخبر في باب كان هو الاسم في المعنى، فيلزم أن يكون المصدر الذي هو معنى من المعاني صادقاً على اسمها، وهو محال، انتهت بتصرف وزيادة. وقد أشبعنا الكلام في لام الجحود على كلا المذهبين بما لا مزيد عليه في كتابنا «الخريدة البهية في إعراب أمثلة الآجرومية» فراجعه.

﴿عَلَىٰ مَآ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يذر﴾ ﴿أَنتُمْ﴾ مبتدأ ﴿عَلَيْهِ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿عليه﴾. ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر، وغاية. ﴿يَمِيزَ﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حتى﴾ بمعنى إلى، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ مفعول به. ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ متعلق بـ﴿يميز﴾، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حتى﴾ بمعنى إلى تقديره: إلى ميزه أو تمييزه الخبيث من الطيب، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يذر﴾.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ما﴾ نافية. ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿لِيُطْلِعَكُمْ﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وجحود. ﴿يطلعكم﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾. ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ متعلق بـ﴿يطلع﴾، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: وما كان الله لإطلاعكم الجار والمجرور متعلق بواجب الحذف لوقوعه خبراً لـ﴿كان﴾ تقديره: وما كان الله مريداً لإطلاعكم على الغيب، وجملة ﴿كان﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ الواو عاطفة. ﴿لكن﴾ حرف استدراك على ما فهم من قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ من أنه لا يطلع أحداً على الغيب حتى الأنبياء؛ لعموم الخطاب فيه. ولفظ الجلالة اسمها. ﴿يَجْتَبِى﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، ﴿مِن رُّسُلِهِۦ﴾ جار

ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يجتبى﴾. ﴿مَن يَشَآءُ﴾ ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به ﴿يَشَآءُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة صلة من الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من يشاء اجتباءه، وجملة ﴿يَجۡتَبِي﴾ في محل الرفع خبر لكن، وجملة لكن معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾.

﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أن الله لا يطلع على غيبه إلا من اجتبى من رسله، وأردتم بيان ما الأصلح لكم؛ فأقول ﴿أمنوا﴾. ﴿أمنوا﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿بِٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق ﴿بأمنوا﴾. ﴿وَرُسُلِهِۦۚ﴾ معطوف على الجلالة. ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ﴾ الواو استئنافية. ﴿إن﴾ حرف شرط، ﴿تُؤۡمِنُواْ﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾. ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ معطوف عليه. ﴿فَلَكُمۡ﴾ الفاء رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً. ﴿لكم﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿أَجۡرٌ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿عَظِيمٞ﴾ صفة له، والجملة الاسمية في محل الجزم بأن على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ﴾.

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ﴾ الواو استئنافية. ﴿لا﴾ ناهية. ﴿يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَبۡخَلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿بِمَآ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يبخلون﴾. ﴿ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل، ومفعول أول وفاعل، والمفعول الثاني محذوف تقديره: إياه، لأن آتى بمعنى: أعطى يتعدى إلى مفعولين. ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه حال من الضمير المحذوف، وجملة ﴿آتى﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط الضمير المحذوف، ﴿هُوَ خَيۡرٗا﴾ هو ضمير فصل. ﴿خَيۡرٗا﴾ مفعول ثان لـ﴿حسب﴾؛ والمفعول الأول محذوف تقديره: ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من

فضله بخلهم هو خيراً لهم. ﴿لَّهُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿خيراً﴾ هذا على قراءة الياء، وأما على قراءة التاء: فالفاعل ضمير المخاطب يعود على النبي ﷺ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مفعول أول، ولكنه على تقدير مضاف تقديره: ولا تحسبن يا محمد بخل ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم.

فائدة: وكون ﴿هو﴾ هنا ضمير فصل متعين؛ لأنه لا يخلو إما أن يكون مبتدأ، أو بدلاً، أو توكيداً، والأول منتف لنصب ما بعده، وهو خيراً، وكذا الثاني؛ لأنه كان يلزم أن يوافق ما قبله في الإعراب، فكان ينبغي أن يقال: إياه لا هو، وكذا الثالث. اهـ «سمين» ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ ﴿بَلْ﴾ حرف ابتداء وإضراب، ﴿هُوَ﴾ مبتدأ. ﴿شَرٌّ﴾ خبر. ﴿لَّهُمْ﴾ جار ومجرور متعلق به.

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ فعل ونائب فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مَا بَخِلُوا بِهِۦ﴾ ﴿ما﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان لـ﴿طوق﴾. ﴿بَخِلُوا﴾ فعل وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير به. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ﴿يطوقون﴾ ﴿وَلِلَّهِ﴾ الواو استئنافية. ﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ مبتدأ مؤخر، ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو استئنافية. ﴿الله﴾ مبتدأ. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿خبير﴾. ﴿تَعْمَلُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: بما تعملونه. ﴿خَبِيرٌ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ من باب استفعل من الاستبشار، والاستبشار السرور الحاصل بالبشارة، وأصله: من البشرة؛ لأن الإنسان إذا فرح ظهر أثر السرور في وجهه، وقال ابن عطية: وليس استفعل هنا بمعنى طلب البشارة، وإنما هو بمعنى الفعل

المجرد، كقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ بمعنى غني، ويقال: بشر الرجل بكسر الشين. فيكون استبشر بمعناه، ولا يتعين هذا المعنى بل يجوز أن يكون مطاوعاً لأفعل، وهو الأظهر، أي: أبشره الله فاستبشر، كقولهم: فأكانه فاستكان، وأراحه فاستراح، وإنما كان هذا الأظهر هنا؛ لأنه من حيث المطاوعة يكون منفعلاً عن غيره، فحصلت له البشرى بإبشار الله له بذلك، ولا يلزم هذا المعنى. إذا كان بمعنى المجرد؛ لأنه لا يدل على المطاوعة ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ ﴿استجاب﴾ من باب استفعل الـ﴿سين﴾ و﴿التاء﴾ فيه زائدتان، فهو بمعنى ﴿أجابوا﴾ ﴿القرح﴾ بفتح ﴿الفاء﴾، وسكون ﴿العين﴾ مصدر قرح من باب فتح يقال: قرحه إذا جرحه، قرحاً يجمع على قروح، والقرح أثر السلاح بالبدن، والقرحة بضم أوله، وفتحه مع سكون ثانيه فيهما الجراحة المتقادمة التي اجتمع فيها القيح.

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ حسب في الأصل مصدر حسبه حسباً إذا كفاه. فهو مصدر أريد به اسم الفاعل، فهو بمعنى المحسب؛ أي: الكافي، وقال في «الكشاف» والدليل على أنه بمعنى المحسب أنه يوصف به، فتقول: مررت برجل حسبك من رجل، أي: كافيك منه، فتصف به النكرة إذ إضافته غيرُ محضة؛ لكونه بمعنى اسم الفاعل غير الماضي المجرد من أل، قال الشاعر:

فَتَمْلأُ بَيْتَنَا أُقْطاً وَسَمْنَا وَحَسْبُكَ مِنْ غِنَىً شِبَعٌ وَرِيُّ

والوكيل فعيل، بمعنى مفعول؛ أي: الموكول إليه الأمور؛ أي: نعم الموكول إليه أمورنا، أو الكافي، أو الكافل.

﴿حَظًّا﴾ ﴿الحظ﴾ النصيب: ويستعمل في الخير، والشر، وإذا أطلق يكون للخير ﴿نُمْلِي﴾ الإملاء التأخير، والإمهال. قال القرطبي: والمراد بالإملاء هنا طول العمر، ورغد العيش. وفي «المصباح» أمليت له في الأمر، أخرت، وأمليت للبعير في القيد، أرخيت له، ووسعت ﴿لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿يذر﴾ فعل جامد، لا يتصرف كيدع استغناء عنه بتصرف مرادفه، وهو يترك، ولم يستعمل منه ماض استغناء عنه بترك، وأصل يذر: يوذر، فحذفت الواو منه من غير موجب تصريفي،

تشبيهاً له بيدع إذ لم تقع الواو في ﴿يذر﴾ بين ياء وكسرة، ولا ما هو في تقدير الكسرة؛ إذ الواو فيه، وقعت بين ياء وفتحة أصلية، بخلاف يدع، فإن الأصل فيه يودع، فحذفت الواو، لوقوعها بين الياء، وبين ما هو في تقدير الكسرة، إذ أصله يودع مثل يوعد، وإنما فتحت الدال منه؛ لأن لامه حرف حلقي، فيفتح له ما قبله، ومثله يطأ، ويسع، ويقع، ونحو ذلك.

﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ﴾ يقرأ بالتخفيف من ماز يميز، من باب باع، وبالتشديد من ميز من باب فعل، وهما بمعنى واحد، بمعنى فصل الشيء من الشيء، وقيل: لا يكون ماز إلا في كثير من كثير، فأما واحد من واحد، فيتميز على معنى يعزل، ذكره أبو حيان، وليس التشديد لتعدي الفعل مثل فرح، وفرحته، لأن ماز وميز يتعديان إلى مفعول واحد ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى﴾ ﴿اجتبى﴾ من باب افتعل من جبوت الماء أو المال وجبيته، وهما لغتان؛ فـ﴿الياء﴾ في ﴿يَجْتَبِى﴾ تحتمل أن تكون على أصلها، وأن تكون منقلبة من واوٍ لانكسار ما قبلها. ﴿مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أصل ﴿ميراث﴾ موراث فقلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها، والميراث مصدر ميمي كالميعاد. قال ابن الأنباري: يقال ورث فلان إذا انفرد به بعد أن كان مشاركاً فيه، و قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ لأنه انفرد بذلك بعد أن كان داود مشاركاً له فيه.

البلاغة

قال أبو حيان[1]: وقد تضمنت هذه الآيات فنوناً من البلاغة والبديع:

منها: الاختصاص في قوله: ﴿أجر المؤمنين﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ و﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ وفي اسمه في عدة مواضع، و﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ وفي ذكر الإملاء.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ و﴿لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾.

---

(١) البحر المحيط.

ومنها: الاستعارة في ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ و﴿ٱشۡتَرَوُاْ﴾ و﴿نُمۡلِي﴾، و﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ﴾، و﴿الخبيث﴾ و﴿الطيب﴾.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ﴾.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿أنتم﴾ إن كان خطاباً للمؤمنين، إذ لو جرى على لفظ المؤمنين لقال على ما هم عليه، وإن كان خطاباً لغيرهم. كان من تلوين الخطاب، وفي ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ فيمن قرأ بتاء الخطاب.

ومنها: الحذف في مواضع انتهى.

قوله[1]: ﴿إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾ تعليل للنهي، وتكميل للتسلية بتحقيق نفي ضررهم؛ أي: لن يضروا بفعلهم ذلك أولياء الله ألبتة، وتعليق نفي الضرر به تعالى لتشريفهم، وللإيذانِ بأن مضارتَهم بمنزلة مضارته تعالى، وفيه مزيد مبالغة في التسلية.

ووصف تعالى[2] عذابه في مقاطع هذه الآيات الثلاث بـ﴿عظيم﴾، و﴿أليم﴾ و﴿مهين﴾، ولكل من هذه الصفات، مناسبة تقتضي ختم الآية بها:

أما الأولى: فإن المسارعة في الشيء، والمبادرة في تحصيله، والتحلي به يقتضي جلالة ما سورع فيه، وأنه من النفاسة، والعظم، بحيث يتسابق فيه، فختمت الآية بعظم الثواب، وهو جزاؤهم على المسارعة في الكفر، إشعاراً بخساسة ما سابقوا فيه.

وأما الثانية: فإنه ذكر فيها اشتراء الكفر بالإيمان، ومن عادة المشتري الاغتباطُ بما اشتراه، والسرورُ به عند كون الصفقة رابحةً، وتألمه عند كونها خاسرة فناسبها وصف العذاب بالأليم.

وأما الثالثة: فإنه ذكر الإملاء، وهو الامتاع بالمال، والبنين، والصحة،

---

(١) الجمل.

(٢) الجمل والبحر المحيط.

وكان هذا الإمتاع سبباً للتعزز، والتمتع، والاستطالة، فختمت الآية بإهانة العذاب لهم، وأنّ ذلك الإملاءَ المنتج عنه في الدنيا التعزز، والاستطالة، مآله في الآخرة إلى إهانتهم بالعذاب الذي يهين الجبابرة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (١٨١) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢) ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٨٣) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ (١٨٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ (١٨٥) لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ (١٨٦) وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: لما ذكر الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة معركة أحد، وما فيها من الأحداث العجيبة، وتناولت تلك الآيات ضمن ما تناولت مكائدَ المنافقين، ودسائسهم، وما انطوت عليه نفوسهم من الكيد للإسلام، والغدر بالمسلمين، وتثبيط عزائمهم عن الجهاد في سبيل الله.. أعقبَ سبحانه وتعالى ذلك بذكر دسائس اليهود، وأساليبهم الخبيثة في مُحاربة الدعوة الإسلامية، بطريق التشكيك، والبلبلة، والكيد، والدس ليحذر المؤمنين من خطرهم كما حذرهم من المنافقين، والآيات الكريمة، تتحدث عن اليهود، وموقفهم المخزي من الذات الإلهية، واتهامهم لله عز وجل بأشنع الاتهامات بالبخل والفقر، ثم نقضهم للعهود، وقتلهم

للأنبياء، وخيانتهم الأمانة التي حملهم الله تعالى إياها إلى آخر ما هنالك من جرائمَ وشنائعَ اتصف بها هذا الجنسُ الملعونُ.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ...﴾ الآيات، مناسبتُها[1] لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما سلى نبيه ﷺ فيما سلف عن تكذيب قومه له بأن كثيراً من الرسل قبلك، قد كذبوا كما كذبت، ولاَقُوا من أقوامهم من الشدائد مثلَ ما لاقيتَ بل أشد مما لاقيت، فقد قتلوا كثيراً منهم كيحيى، وزكرياء عليهما السلام.. زاده هنا تسلية، وتعزية أخرى، فأبان أن كل ما تراه من عنادهم فهو منته إلى غاية، وكل آت قريب، فلا تضجَرْ ولا تحزَن على ما تَرى منهم، وأنهم سيجازون على أعمالهم في دار الجزاء، كما تجازى، وحسبك ما تصيب من حسن الجزاء، وحسبهم ما أصيبوا به، وما يُصابون به من الجزاء في الدنيا، وسيوفون الجزاء كاملاً يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ...﴾ الآية، مناسبتها[2] لما قبلها أن الله سبحانه وتعالى لما حكى عن اليهود شبهاً، ومطاعنَ في نبوة محمد ﷺ وأجاب عنها بما علمتَ فيما سلف.. أردفه هذه الآية لبيان عجيب حالهم، وغريب أمرهم، وأنه لا يليق بهم أن يطعنوا في نبوته، ولا أن يوجهوا شبهاً لدينه ذاك أن اليهود، والنصارى، أمروا بشرح ما في التوراة، والإنجيل، وبيان ما فيهما من الدلائل الناطقة بنبوة محمد ﷺ وصدق رسالته، فكيف يليق بهم بعد هذا إيراد تلك المطاعن، والشبه، وكانوا أجدر الناس بدفعها، وأحقهم بتأييده، والذود عن دينه لما في كتابيهما من البشارة به، وتوكيد دعوته فالعقل قاض بأن يظاهروه ودينهم حاكم بأن يؤيدوه، ومن العجب العاجب أن يطرحوا حكم العقل والنقل وراءهم ظهرياً، وهل مثل هؤلاء يجدي معهم الحجاج والجدال، أو تقنعهم قوة الدليل والحجة.

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[1] ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «دخل أبو بكر بيت المدراس، فوجد يهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له: فنحاص فقال له: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، ولو كان غنياً عنا.. ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، فغضب أبو بكر فضرب وجهه، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا محمد أنظر ما صنع صاحبك بي فقال: «يا أبا بكر ما حملك على ما صنعت»؟ قال يا رسول الله، قال قولاً عظيماً، يزعم أن الله فقير، وأنهم عنه أغنياء فجحد فنحاص فأنزل الله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟...﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أتت اليهود النبي ﷺ حين أنزل الله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فقالوا: يا محمد افتقر ربك، يسأل عبادهُ، فأنزل الله ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟...﴾ الآية.

قوله تعالى[2]: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟...﴾ الآيةَ، روى ابن أبي حاتم، وابن المنذر بسند حسن، عن ابن عباس، أنها نزلت فيما كان بين أبي بكر، وفنحاص من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾.

وأخرج أبو داود[3] رحمه الله (ج ٣ ص ١١٤) بسنده إلى الزهري عن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه - وكان أحد الثلاثة الذين تيب عليهم - وكان كعب بن الأشرف يهجو النبي ﷺ ويحرض عليه كفار قريش، وكان النبي ﷺ حين قَدِمَ المدينةَ، وأهلها أخلاط منهم المسلمون، والمشركون يعبدون الأوثان، واليهود، وكانوا يؤذون النبي ﷺ وأصحابه، فأمر الله عز وجل نبيه ﷺ

---

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

(٣) الصحيح المسند.

بالصبر، والعفو، ففيهم أنزل الله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ...﴾ الآية.

فلما أبى كعب بن الأشرف أن ينزع عن أذى النبي ﷺ.. أمر النبي ﷺ سَعْدَ بن معاذ أن يبعث رَهْطاً يقتلونه، فبعث محمدَ بن مسلمة، وذَكَر قصة قتله، فلما قتلوه فزعت يهود، والمشركون، فغدوا على النبيِّ ﷺ فقالوا: طرق صاحبنا، فقتل، فذكر لهم النبي ﷺ الذي كان يقول، ودعاهم النبي ﷺ إلى أن يكتب بينه، وبينهم كتاباً ينتهون إلى ما فيه، فكتب النبي ﷺ بينه وبينهم، وبين المسلمين عامةً صحيفة. الحديث.

وقال المنذري[1]: قوله عن أبيه فيه نظر، فإن أباه عبد الله بن كعب ليست له صحبة، ولا هو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، ويكون الحديث على هذا مرسلاً، ويحتمل أن يكون أراد بأبيه جده، وهو كعب بن مالك، فيكون الحديث على هذا مسنداً، إذ قد سمع عبد الرحمٰن من جده كعب بن مالك، وكعب: هو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، وقد وَقَع مثل هذا في الأسانيد في غير موضع اهـ من «عون المعبود» بتصرف.

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟...﴾ الآية. سبب نزولها: ما أخرجه البخاري عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن رجالاً من المنافقين على عهد الرسول ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خِلافَ رسول الله ﷺ وإذا قدم رسول الله ﷺ اعتذروا إليه، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ الحديث، أخرجه مسلم أيضاً.

ولها أيضاً سبب آخر، وهو ما أخرجه البخاري عن ابن أبي مليكة، أن علقمة بن وقاص أخبره، أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل

---

(١) عون المعبود.

له: لئن كان كل امرىء فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً. لنعذبن أجمعون، فقال ابن عباس: مالك ولهذه الآية، إنما دعا النبي ﷺ يهود، وسألهم عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى قوله: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾.

ويُمكن الجمعُ بين الحديثين بأن تكون الآية نزلَتْ في الفريقين معاً، قاله الحافظ ابن حجر في «الفتح» ولو رجح حديث أبي سعيد، لكان أولى، لأن حديث ابن عباس مما أنتقد على الشيخين، كما في مقدمة «الفتح».

وأخرج[1] عبد الرزاق في تفسيره عن زيد بن أسلم أن رافع بن خديج، وزيدَ بن ثابت كانا عند مروان، فقال مروان: يا رافع في أيِّ شيء نزلَتْ هذه الآية: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ قال رافع: أنزلت في أناس من المنافقين كانوا إذا خرج النبي ﷺ اعتذروا، وقالوا: ما حَبَسَنا عنكم إلا شغل، فلوددنا أنا كنا معكم، فأنزل الله فيهم هذه الآية، وكان مروان أنكر ذلك، فجَزِعَ رافع من ذلك، وقال لزيد بن ثابت: أنشدك بالله هل تعلم ما أقول؟ قال: نعم، قال الحافظ ابن حجر: يجمع بين هذا، وبين قول ابن عباس بأنَّه يمكن أن تكون الآية نزلت في الفريقين معاً. قال: وحَكَى الفراء أنها نزلت في قول اليهود نحن أهلُ الكتاب الأول، والصلاة، والطاعة، ومع ذلك لا يقرون بمحمد، وروى ابن أبي حاتم من طرق عن جماعة من التابعين نحوَ ذلك، ورجحه ابن جرير، ولا مانع أن تكون نزلت في كل ذلك. انتهى.

التفسير وأوجه القراءة

وعزتي، وجلالي ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ وعلم، وأحصى ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾ وهو فنحاص بن عازوراء، كما قاله ابن عباس، والسدي أو حيي بن أخطب، كما قاله

---

(١) لباب النقول.

قتادة، أو كعبُ بن الأشرف، كما نقله ابن عساكر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى علواً كبيراً عما قالوا ﴿فَقِيرٌ﴾؛ أي: محتاج إلينا يطلب منا القرض على لسان محمد ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ لا نحتاج إلى قرضه، قالوا: هذه المقالة تمويهاً على ضعفائهم؛ لا أنهم يعتقدون ذلك؛ لأنهم أهل الكتاب، بل أرادوا أنه تعالى إن صح ما طلبه منا من القرض على لسان محمد، فهو فقير، ليشككوا على إخوانهم في دين الإسلام، والمقصود من هذا تهديد القائلين ما ذكر، وإعلامهم أنهم لا يفوتهم من جزائه شيء ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ من هذه المقالة الشنيعة في صحائف[1] الملائكة ليقرأوا ذلك يومَ القيامة، أو سنحفظه، ونثبته في علمنا، لا ننساه ولا نهمله، أو المراد: سنكتب عنهم هذا الجهلَ في القرآن حتى يعلم الخلق إلى يوم القيامة شدةَ جهلهم وطعنهم، في نبوة محمد ﷺ بكل ما قدروا عليه، وقيل: إن معنى سنكتب: سنوجب عليهم في الآخرة جزاءَ ما قالوه في الدنيا ﴿و﴾ نكتب ﴿قتلهم﴾؛ أي: قتل آبائهم ﴿ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾، وإنما نسِبُ القتل إليهم مع أنه لم يقع منهم، ووعدوا العذابَ عليه لرضاهم بصنع آبائهم، والراضي بشيء، ينسب إليه ذلك الشيء، ويعاقب عليه إن كان شراً.

وإنما[2] جعل ذلك القول قريناً لقتل الأنبياء تنبيهاً على أنه من العظَم، والشناعة بمكان يعدل قتل الأنبياء ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ حتى في اعتقادهم كما في نفس الأمر، فكانوا يعتقدون أن قتلهم لا يجوز، ولا يحل، وحينئذ فيناسب شن الغارة عليهم؛ أي: نكتب عليهم رضاهم بقتل آبائهم الأنبياءَ بغير جرم، أو المعنى: سنحفظ عن الفريقين معاً أقوالهم، وأفعالهم ﴿وَنَقُولُ﴾ معطوف على ﴿سنكتب﴾ أي: نقول لهم عند الموت، أو عند الحشر، أو عند قراءة الكتاب، أو عند الإلقاء في النار؛ أي: ننتقم منهم بعد الكتابة بهذا القول الذي نقوله لهم، ويحتمل أن يكون هذا القول كنايةً عن حصول الوعيد، وإن لم يكن هناك قول ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾؛ أي: باشروا وادخلوا العذابَ المحرق البالغ النهاية في

---

(١) المراح.

(٢) الشوكاني.

الحرق، والحريق[1] المحرق فهو فعيل بمعنى مفعل، كأليم بمعنى مؤلم، وقيل: الحريق طبقة من طباق جهنم، وقيل: الحريقُ الملتهبُ من النار، والنار تشمل الملتهبة، وغير الملتهبةِ، والملتهبة: أشدها. وإطلاق الذوق على إحساس العذاب فيه مبالغة بليغة.

وقرأ الجمهور: ﴿سَنَكۡتُبُ﴾ ﴿وَقَتۡلَهُمُ﴾ بالنصب و﴿نقول﴾ بنون المتكلم المعظم، أو تكون للملائكة، وقرأ الحسن، والأعرج، ﴿سيكتب﴾ بالياء على الغيبة، وقرأ حمزة ﴿سيكتب﴾ بالياء مبنياً للمفعول، ﴿وقتلهم﴾ بالرفع عطفاً على ﴿ما﴾ إذ هي مرفوعة بـ﴿سيكتب﴾ و﴿يقول﴾ بالياء على الغيبة، وقرأ طلحة بن مصرف ﴿سنكتب ما يقولون﴾. وحكى الداني عنه ﴿ستكتب ما قالوا﴾ بتاء مضمومة على معنى مقالتهم. وقرأ ابن مسعود ﴿ويقال ذوقوا﴾ ونقلوا عن أبي معاذ النحوي أن في حرف ابن مسعود ﴿سنكتب ما يقولون، ونقول: لهم ذوقوا﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب المحرق الذي تذوقون حَرارَتَهُ ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾؛ أي: بسبب ما اقترفتموه، وعملتموه في الدنيا من الأفعال القبيحة، والأقوال الشنيعة كقتل الأنبياء، ووصف الله بالفقر وجميع ما كان منكم من ضروب الكفر، وفنون الفسق، والعصيان ﴿و﴾ بسبب ﴿أن الله ليس بظلام للعبيد﴾؛ أي: بذي ظلم لعباده، فيعذبهم بغير ذنب؛ أي: إن ذلك العذاب الذي أصابكم بسبب عملكم، وبسبب كونه تعالى عادلاً في حكمه، وفعله لا يجور، ولا يظلم، فلا يعاقب غير المستحق للعقاب، ولا يجعل المجرمين كالمتقين، والكافرين كالمؤمنين، وإنما أضاف العمل إلى الأيدي؛ لأن أكثر أعمال الإنسان تزاول باليد، وليفيدَ أن ما عذبوا عليه هو من عملهم على الحقيقة، لا أنهم أمروا به، ولم يباشروه.

والخلاصة[2]: أن ترك عقاب أمثالكم مساواة بين المحسن والمسيء ووضع للشيء في غير موضعه، وهو ظلم كبير لا يصدر إلا ممن كان كثيرَ الظلم مبالغاً فيه ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ إما منصوب على الذم، أو مجرور على أنه نعت ﴿للذين﴾

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

قبله، أي: لقد سمع قول الذين قالوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾؛ أي: أمرنا في التوراة وأوصانا ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ﴾؛ أي: بأن لا نصدق ﴿لِرَسُولٍ﴾؛ أي: رسول كان في دعواه الرسالة ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾؛ أي: حتى يأتينا بهذه المعجزة الخاصة التي كانت لأنبياء بني إسرائيل، وهي أن يقرب بقربان فيقوم النبي فيدعو فتنزل نار سماوية، فتأكله، أي: تحرقه، والقربان كل ما يتقرب به العبد إلى الله عز وجل من أعمال البر من نسك، وصدقة، وذبح، وكل عمل صالح. وقرأ عيسى بن عمر ﴿بقربان﴾ بضم الراء قال ابن عطية: إتباعاً لضمة القاف، وليس بلغة، لأنه ليس في الكلام فعلان بضم الفاء والعين.

وكانت[1] القرابين، والغنائم لا تحل لبني إسرائيل، وكانوا إذا قربوا قرباناً، أو غنموا غنيمة جمعوا ذلك، وجاءت نار بيضاء من السماء، لا دخان لها، ولها دوي فتأكل ذلك القربان، أو الغنيمة، وتحرقه فيكون ذلك دليلاً، وعلامة على القبول، وإذا لم يقبل بقي على حاله، ولم تنزل نار.

والمعنى: لن نؤمن لك يا محمد حتى تأتينا بنار تأكل القربان، كما كانت في زمن الأنبياء الأول، فإن جئتنا بها صدقناك في رسالتك.

قال ابن عباس[2]: نزلت هذه الآية في حق كعب بن الأشرف، وكعب بن أسد، ومالك بن الصيف، ووهب بن يهوذ، وزيد بن التابوت، وفنحاص بن عازوراء، وحييّ بن أخطب، وغيرهم أتوا رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد: تزعم أنك رسول الله، وأنه تعالى أنزل عليك الكتاب، وقد عهد الله إلينا في التوراة أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، ويكون لها دوي خفيف تنزل من السماء، فإن جئتنا بهذا صدقناك فنزلت الآية، لكن دعواهم هذا العهد من مفترياتهم وأباطيلهم، وأكل النار للقربان لم يوجب الإيمان إلا لكونه معجزةً فهوَ وسائر المعجزات سواء، وما مقصدهم من تلك المفترَيات إلا عدمَ الإيمان برسول الله ﷺ؛ لأنه لم يأت بما قالوه، ولو أتى به لآمنوا فرد الله عليهم بقوله:

---

(١) الخازن. (٢) المراح.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد موبخاً لهم، ومكذباً ﴿قَدْ جَآءَكُمْ﴾ وأتاكم يا معشر اليهود ﴿رُسُلٌ﴾ كثير ﴿مِّن قَبْلِي﴾ كزكريا، ويحيى، وغيرهما ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالمعجزات الواضحة الدالة على صدقهم، وبكل ما تقترحونه منهم ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾؛ أي: وبالقربان الذي تأكله النار ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في مقالتكم إنكم تؤمنون لرسول يأتيكم بما اقترحتموه، فإن زكريا ويحيى، وعيسى، وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام قد جاؤوكم بما قتلم في معجزات أخرَ، فما بالكم لم تؤمنوا بهم بل اجترأتم على قتلهم، وهذا دليل على أنكم قوم غلاظ الأكباد ـ وبذلك وصفوا في التوراة ـ قساة القلوب لا تفقهون الحق، ولا تذعنون له، وإنكم لم تطلبوا هذه المعجزة استرشاداً، بل تعنتاً وعناداً.

وقد نسب هذا الفعل إلى ما كان في عصر النبي ﷺ وقد وقع من أسلافهم؛ لأنهم راضون بما فعلوه، معتقدون أنهم على حق في ذلك، والأمة في أخلاقها العامة، وعاداتها كالشخص الواحد، وقد كان هذا معروفاً عند العرب، وغيرهم، يلصقون جريمةَ الشخص بقبيلته، ويؤاخذونها بها.

والخلاصة: أن أسلافكم كانوا متعنتين، وما أنتم إلا كأسلافكم، فلم يكن من سنة الله إجابتكم إلى ملتمسكم بالإتيان بالقربان، إذ لا فائدة منه.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ يا محمد في أصل النبوة والشريعة بعد أن جئتَهم بالبينات الساطعة، والمعجزات الواضحة، والكتاب الهادي إلى سواء السبيل مع استنارة الحجة، والدليل ﴿فـ﴾ تسل يا محمد على تكذيبك، ولا تأس عليهم، ولا تحزن لعنادهم وكفرهم، ولا تعجب من فساد طويتهم، وعظيم تعنتهم فتلكَ سنة الله في خليقته؛ لأنه ﴿قد كذب رسل من قبلك﴾؛ أي: كذبتهم أممهم حينما ﴿جَآءُو﴾ هم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالمعجزات الواضحات، ﴿و﴾ بـ﴿الزبر﴾؛ أي: وبالصحف المشتملة على الترغيب، والترهيب، والزواجرَ، والعظات كصحف إبراهيم، وموسى، وغيرهما، والزبر: جمع زبور، وهو الكتاب المقصور على الحكم من زبرت الشيء إذا حبسته، وسمي الكتاب الذي فيه الحكمة زبوراً، لأنه يزبر عن الباطل، ويدعو إلى الحق ﴿و﴾ بـ﴿الكتاب المنير﴾؛ أي: المضيء الذي أضاء،

وأنار سبيل النجاة، وهو التوراة، والزبور، والإنجيل، وإنما عطف الكتاب المنير على الزبر لشرفه، وفضله باشتماله على الأحكام.

والمعنى: فقد كذب رسل من قبلك جَاءُوا بمثل ما جئت من باهر المعجزات، وهزوا القلوبَ بالزواجر، والعظات، وأناروا بالكتاب سبيلَ النجاة، فلم يغن ذلك عنهم شيئاً، فصبروا على ما نالهم من الأذى، وما نالهم من السخرية، والاستهزاء، فلك أسوة بهم. وفي هذا تسلية للنبيّ ﷺ وبيان بأن طباع البشر في كل الأزمنة سواء، فمنهم من يتقبل الحق، ويقبل عليه بصدر رحب ونفس مطمئنة، ومنهم من يقاوم الحقَ، والداعي إليه ويسفه أحلام معتنقيه؛ فليس بالعجيب منهم أن يقاوموا دعوتك، ولا أن يفندوا حجتك، فإن نُفُوسَهم منصرفة عن طلب الحق، وتحري سبل الخير.

وقر الجمهور[1] ﴿والزبور والكتاب﴾ بغير الباء فيهما، وقرأ ابن عامر، ﴿وبالزبر﴾ بإعادة ﴿الباء﴾ كقراءة ابن عباس، للدلالة على أنها مغايرة للبينات بالذات، وكذا هي في مصاحف أهل الشام، وقرأ هشام بخلاف عنه، ﴿وبالكتاب﴾ بإعادة ﴿الباء﴾ وإعادة حرف الجر في المعطوف للتأكيد.

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾؛ أي: كل روح من حيوان حاضر في دار التكليف ﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾؛ أي: ذائقة موت[2] أجسادها إذ النفس بمعنى الروح، لا تموت، ولو ماتت لما ذاقت الموت في حال موتها؛ لأن الحياة شرط في الذوق، وسائر الإدراكات. وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾؛ أي: حين موت أجسادها، والمعنى كل نفس تذوق طعمَ مفارقة البدن، وتحس به. وقرأ الجمهور[3] ﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ بالإضافة، وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثاب، وابن أبي إسحاق، ﴿ذائقةٌ الموتَ﴾ بالتنوين، ونصب الموت، وقرأ الأعمش فيما نقله الزمخشري ﴿ذائقة﴾ بغير تنوين الموت بالنصب، وخرج على حذف التنوين لالتقاء

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الجمل.

(٣) البحر المحيط والشوكاني.

الساكنين، كقراءة من قرأ ﴿هل هو الله أحد الله الصمد﴾ بحذف التنوين من أحد، وقرىء أيضاً شاذاً ﴿ذائقة الموت﴾ على جعل الهاء ضمير ﴿كل﴾ على اللفظ، وهو مبتدأ وخبر كما ذكره أبو البقاء ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾؛ أي: وإنما تعطون جزاء أعمالكم كاملاً، وافياً ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ أي: يوم قيام الخلق من القبور، وذلك عند النفخة الثانية، وفي ذكر لفظ التوفية إشارة إلى أن بعض أجورهم يصل إليهم قبل يوم القيامة، ويؤيده ما أخرجه الترمذي، والطبراني مرفوعاً «القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران» ﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾ وأبعد ﴿عَنِ النَّارِ﴾ يوم القيامة ﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾؛ أي: فقد ظفر بالمحبوب، ونجا من المكروه؛ أي: فمن نجا، وخلص من العذاب والنار يوم القيامة، ووصل إلى الثواب والجنة، فقد ظفر بالمقصد الأسنى، والغاية القصوى، التي لا مطلبَ بعدها.

وقد روي[1] عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلتدركه منيته، وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليؤت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه». رواه وكيع بن الجراح في تفسيره، عن عبد الله بن عمرو بن العاص وقد رواه الإمام أحمد في «مسنده» عن وكيع بسنده.

والخلاصة[2]: أن هناك جنة وناراً، وإن من الناس من يلقى في هذه، ومنهم من يلقى في تلك، وإن هوَل النار عظيم، وعبر عن النجاة عنها بالزحزحة، كأن كلَّ شخص كان مشرفاً على السقوط فيها؛ لأن أعمالهم سائقةٌ لهم إلى النار؛ لأنها أعمال حيوانية، تسوق إليها، ولا يدخل الجنة أحدٌ إلا إذا زحزح، فالزحزحة عنها فوز عظيم، فأولئك المزحزحون هم الذين غلبت صفاتهم الروحية على الصفات الحيوانية، فأخلصوا في إيمانهم، وجاهدوا في الله حق جهاده، ولم يبق في نفوسهم شائبة من إشراك غير الله معه في عمل من أعمالهم.

والمعنى: فمن بعد عن النار يومئذ ونحي عنها. فقد فاز؛ أي: ظفر بما يريد، ونجا مما يخاف، وهذا هو الفوز الحقيقي الذي لا فوزَ يقاربه، فإن كل

---

(١) ابن كثير. (٢) المراغي.

فوز وإن كان بجميع المطالب دون الجنة، ليس بشيء بالنسبة إليها، اللهم لا فوز إلا فوز الآخرة، ولا عيش إلا عيشها، ولا نعيم إلا نعيمها، فاغفر ذنوبنا، واستر عيوبنا، وارض عنا رضاً لا سخط بعده أبداً، واجمع لنا بين الرضا منك علينا والجنة.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾؛ أي: وما حياتنا القربى إلى الزوال، أو الدنيئة التي نحن فيها، ونتمتع بلذاتها الحسية من مأكل، ومشرب، أو المعنوية كالجاه والمنصب، والسيادة ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ ومواعين الخداع؛ لأنَّ صاحبَها دائماً مغرور بها، مخدوع لها تشغله كل حين بجلب لذاتها، ودفع آلامها، فهو يتعب لما لا يستحق التعب به، ويشقى لتوهم السعادة فيها.

والمتاع: كل ما يتمتع به الإنسان، وينتفع به، ثم يزول، ولا يبقى، والغرور ما يغرُّ الإنسان مما لا يدوم، وقيل: الغرور الباطل الفاني، الذي لا يدوم.

ومعنى الآية[1] أن منفعةَ الإنسان بالدنيا كمنفعته بهذه الأشياء التي يستمتع بها، ثم تزول عن قريب، وقيل: هي متاع متروك، يوشك أن يضمحل ويزولَ، فخذوا من هذا المتاع، واعملوا فيه بطاعة الله ما استطعتم. قال سعيد بن جبير: هي متاع الغرور، لمن لم يشتغل بطلب الآخرة، وأما من اشتغل بطلب الأخرة فهي له متاع، وبلاغ إلى ما هو خير منها.

والخلاصة: أن الدنيا ليست إلا متاعاً من شأنه أن يغرَ الإنسانَ، ويشغله عن تكميل نفسه بالمعارف، والأخلاق التي ترقى بروحه إلى سعادة الآخرة. فينبغي له أن يحذر من الإسراف في الاشتغال بمتاعها عن نفسه، وإنفاق الوقت فيما لا يفيد إذ ليس للذاتها غاية تنتهي إليها، فلا يبلغ حاجةً منها إلا طلب أخرى.

فَمَا قَضَىٰ أَحَدٌ مِنْهَا لُبَانَتَهُ ... وَلاَ انْتَهَىٰ أَرَبٌ إلاَّ إِلَىٰ أَرَبِ

فعليه أن يسعى لكسب علم يرقى به عقله، أو عمل صالح ينتفع به، وينفع عباده مع إصلاح السريرة، وخلوص النية، وقد قال بعضهم: عليك بنفسك إن لم

---

(١) الجمل.

تشغلها شغلتك.

ولما سلى الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ والمؤمنين بما سبق آنفاً.. زاد في تسليتهم بهذه الآية فقال: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ وأبان لهم أنه كما لقي هو ومن معه من الكفار أذى يوم أحد، فسيلقون منهم أذى كثيراً بقدر ما يستطيعون من الإيذاء في النفس أو في المال.

والمقصود من هذا الإخبار: أن يوطنوا أنفسَهم على الصبر، وترك الجزع حتى لا يشق عليهم البلاء عند نزوله بهم. والمعنى: وعزتي، وجلالي لتمتحنن، ولتختبرن في أموالكم بذهابها بالمهلكات، والآفات، كالغرق، والحرق والبرد، وبالتكاليف كالزكاة، والإنفاق في الجهاد، وبذلِها في جميع وجوه البر، التي ترفع شأنَ الأمة الإسلامية وتدفع عنها أعداءها، وترد عنها المكارهَ، وتدفع عنها غوائلَ الأمراض والأوبئة، ولتختبرَن في أنفسكم بما يصيبها من البلايَا كالأمراض، والأوجاع، والقتل، والضرب، ومن التكاليف كالصلاة وبذلها في الجهاد في سبيل الله، والصبر فيهما، وبموت من تحب من الأهل، والأصدقاء ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لتسمعن أيها المؤمنون ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: من اليهود والنصارى ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾؛ أي: ومن مشركي العرب، والمراد بهم سائر الطوائف الكفرية من غير أهل الكتاب ﴿أَذًى كَثِيرًا﴾؛ أي: أنواعاً كثيرةً من الإيذاء كالطعن في أعراضكم، والطعن في الدين الحنيف، والقدح في أحكام الشرع الشريف، وصد من أراد أن يؤمن وتخطئة من آمن، وما كان من كعب بن الأشرف، وأضرابه من هجاء المؤمنين، وتشبيب[1] نسائهم وتحريض المشركين على معاندة رسول الله ﷺ ونحو ذلك مما لا خير فيه.

وفائدة الابتلاء[2]: تمييز الخبيث من الطيب وفائدة الإخبار كما مر آنفاً، أن

---

(١) تشبيب: هو ذكر أوصاف الجمال للنساء بالقصائد والمسجعات، وكان كعب بن الأشرف يفعل ذلك بنساء المؤمنين.

(٢) المراغي.

نعرف السننَ الإلهيةَ، ونهيىءَ أنفسَنا لمقاومتها، فإن من تقع به المصيبة فجأةً على غير انتظار يعظم عليه الأمر، ويحيط به الغمُّ حتى كاد ليقتله في بعض الأحايين، لكنه إذا استعد لها اضطَلَع بها وقويَ على حملها.

﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ﴾ أيها المؤمنون على ما سيحل ويقع بكم من البلاء في أموالكم، وأنفسكم، وعلى ما تسمعون من أهل الكتاب، والمشركين من الأذى ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ ما يجب اتقاؤه، وتحترزوا عما لا ينبغي كالمداهنة مع الكفار، والسكوت عن إظهار الإنكار ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الصبرَ والتقوى ﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾؛ أي: من معزومات الأمور؛ أي: من الأمور الواجبة التي ينبغي أن يعزمَها ويفعلَها كل أحد لما فيه من كمال المزية والشرف، أو مما عزم الله تعالى عليه، وأمر به، وبالغ فيه، وأوجب، يعني أن ذلك عزمة من عزمات الله، وواجب من واجبات الله التي أوجبها على عباده.

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ أي: واذكر يا محمد لأمتك قصة إذ أخذ الله العهدَ المؤكدَ باليمين من الذين أوتوا الكتاب؛ أي: من علماء اليهود، والنصارى على لسان أنبيائهم ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾ بالتاء حكاية لمخاطبتهم؛ أي: لتبينن ذلك الكتاب الذي أوتيتم للناس، ولتظهرن جميع ما فيه من الأحكام، والأخبار التي من جملتها نبوة محمد ﷺ للناس ﴿وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾؛ أي: والحال أنكم لا تكتمون، ولا تخفون ذلك الكتاب عن الناس، ولا تؤولونه، ولا تلقون الشبه الفاسدة، والتأويلات المزيفة إليهم، وذلك بأن يوضحوا معانيه كما هي، ولا يؤولوه ولا يحرفوه عن مواضعه التي وضع لتقريرها، ويذكروا مقاصده التي أنزل لأجلها حتى لا يقع اضطراب ولا لبس في فهمه.

فإن لم يفعلوا ذلك.. فإما أن يبينوه على غير وجهه، ولا يكون هذا بياناً، ولا كشفاً لأغراضِه ومقاصده، وأما أن لا يبينوه أصلاً، ويكون هذا كتماناً له.

وتبيين الكتاب على ضربين:

الأول: تبيينه لغير المؤمنين به لدعوتهم إليه.

الثاني: تبيينه للمؤمنين به لهدايتهم، وإرشادهم بما أنزل إليهم من ربهم،

وكل منهما واجب على العلماء لا هوادة[1] فيه، وكفى بهذه الآية حجة عليهم، وهي آكد من قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ الآية.

﴿فَنَبَذُوهُ﴾؛ أي: نبذ علماؤهم ذلك الكتابَ، أو الميثاقَ وطرحوه ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾؛ أي: خَلْفَ ظهورهم، فلم يعملوا به، ولم يبالوا به، ولم يهتموا بشأنه، وقد كان من الواجب عليهم أن يجعلوه نصب أعينهم، لا شيئاً ملقى مرمياً وراء الظهور، لا ينظر إليه، ولا يفكر في أمره، فقد كان منهم الذين لا يستفيدون منه شيئاً، ويحملونه كما يحمل الحمار الأسفار، ومنهم الذين يحرفونه عن مواضعه، ومنهم الذين لا يعلمونه إلا أماني يتمنونها، وقراءة يقرؤونها.

وإن هذا والله لينطبق على المسلمين اليوم أتمَ الانطباق، فهم قد اتبعوا سنن من قبلهم، ونهجوا نهجهم حذو القذة بالقذة، فما بالهم عن التذكرة معرضين، وكتاب الله بين أيديهم شاهد عليهم، وهو يتلى بين ظهرانيهم، فإنهم مع حفظهم لكتابهم، وتلاوتهم إياه في كل مكان في الشوارع، والأسواق، ومجتمعات الأفراح والأحزان، تركوا تبيينه للناس والعمل به، ففقدوا هدايته وعميت عليهم عظاته، وزواجره وحكمه وأسراره، واعترفوا بأنهم انحرفوا عنه، وصار القابض على دينه بينهم كالقابض على الجمر، والضمير في قوله: ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ﴾ عائد إلى الكتاب الذي أمروا ببيانه، ونهوا عن كتمانه؛ أي: وأخذوا بكتمانه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وعوضاً يسيراً من حطام الدنيا، وأغراضها من المآكل والمشارب، والرشا التي كانوا يأخذونها من عوامهم، وسفلتهم يعني أخذوا عوضاً منه فائدة دنيويةً حقيرة، فغبنوا في هذا البيع والشراء، وهذا الثمن هو ما كان يستفيده الرؤساء من المرؤسين من حطام الدنيا، ليتمتعوا بلذاتها الفانية، وشهواتها الفاسدة، وكانوا يؤولون الكتابَ، ويحرفونه، لأغراض كثيرة كالخوف من الحكام، أو الرجاء فيهم، فيصرفون نصوصه إلى معان توافق هوى الحاكم ليأمنوا شره، أو لإرضاء

---

(١) **الهوادة**: الرفق واللين والمحاباة، ومنه قوله: لأبعثن إلى رجل لا تأخذه فيك هوادة؛ أي: إلى رجل يحابيك الرخصة. اهـ.

العامة، أو الأغنياء بموافقة أهوائهم لاستفادة جاههم ومالهم، وهذا كله أيضاً مما ابتلي به علماء المسلمين الآن، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾؛ أي: قبح ذلك الثمن شيئاً يشترونه، والمخصوص بالذم ذلك الثمن فكل من لم يبين الذي علم للناس، وكتم شيئاً منه لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة، وتطييب قلوبهم، أو لجر منفعة، أو لحياء، أو لبخل للعلم، فهو داخل تحت هذا الوعيد. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ «من سئل علماً يعلمه، فكتمه، ألجم بلجام من نار». أخرجه الترمذي، ولأبي داود «من سئل عن علم فكتمه، ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة». وقال قتادة: طوبى لعالم ناطق، ومستمع واع، هذا علم علماً فبذله، وهذا سمع خيراً فقبله ووعاه.

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخَذَ على أهل العلم أن يُعلِّموا، وقال أبو هريرة: لولا ما أخذ الله تعالى على أهل الكتاب ما حدثتكم، وتلا هذه الآية. وعن الحسن أنه قال: لولا الميثاقُ الذي أخَذَه الله تعالى على أهل العلم، ما حدثتكم بكثير مما تسألون عنه.

وقرأ ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم، وأبو عمرو بالياء على الغيبة في الفعلين أعني ﴿ليبيننه﴾ ﴿ولا يكتمونه﴾ إسناداً لأهل الكتاب إذ قبله الذين أوتوا الكتاب وبعده، فنبذوه. وقرأ باقي السبعة بالتاء للخطاب حكايةً لمخاطبتهم. وقرأ عبد الله ﴿ليبنونه﴾ بغير نون التوكيد، وقرأ ابن عباس ﴿ميثاق النبيين لتبيننه للناس﴾ فيعود الضمير في ﴿فنبذوه﴾ على الناس، إذ يستحيل عوده على النبيين، أي: فنبذه الناس المبين لهم الميثاق.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾؛ أي: لا تظنن يا محمد أو أيها المخاطب اليهودَ الذين يسرون بما فعلوا من تحريف نصوص التوراة، وتفسيرها بتفسيرات باطلة ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟﴾، ويُوصفوا ﴿بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾؛ أي: بقول الناس لهم علماء، وليسوا بأهل علم؛ أي: يحبون أن يصفهم الناس ويمدحوا لهم بما ليس فيهم من الصدق، والعفاف، والفضل، والدين؛ أي: لا تحسبنهم

ناجينَ من العذاب الدنيوي، وهو العذاب الذي يصيب الأمم التي فسدت أخلاقها، وساءت أعمالها، وألفت الفسادَ، والظلمَ وهو ضربان[1]:

الأول: عذاب هو أثر طبيعي للحال التي يكون عليها المبطلون بحسب سنة الله في الاجتماع البشري بخذلان أهل الباطل، والإفساد وذهاب استقلالهم، ونصرة أهل الحق عليهم، وتمكينهم من رقابهم، وديارهم وأموالهم ليحل الإصلاح محل الإفساد، والعدل مكان الظلم ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

والضرب الثاني: عذاب يكون سخطاً سماوياً، كالزلازل، والخسف، والطوفان وغير ذلك من الجوائح المدمرة التي نزلت ببعض أقوام الأنبياء الذين كفروا بربهم، وكذبوهم، وآذوهم عند اشتداد عتوهم، وإيذائهم لرسلهم.

روي أن رسول الله ﷺ سأل اليهود عن شيء في التوراة فكتموا الحق، وأخبروه بخلافه، وأروه أنهم قد صدقوا، واستحمدوا إليه، وفرحوا بما فعلوا، فأطلع الله رسوله على ذلك، وسلاه بما أنزل من وعيدهم. وهذا المعنى على قراءة التاء، فالمفعول الأول عليها الموصول، والثاني قوله الآتي: ﴿بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾. وقرىء بالياء فعلى هذه القراءة يكون الموصول فاعلاً، والمفعول الأول محذوف، وهو فَرحهم، والمفعول الثاني ﴿بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾. والمعنى: عليها لا يحسبن الفارحون فرحَهم منجياً لهم من العذاب وقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ تأكيد للفعل الأول على القراءتين. وقد عهد هذا في الأساليب العربية من إعادة الفعل، إذا طال الفصل بينه وبين معموله. قال الزجاج: العرب إذا أطالت القصة تعيد حسبت، وما أشبهها إعلاماً بأن الذي جرى متصل بالأول، فتقول: لا تظنن زيداً إذا جاءك، وكلمك بكذا، وكذا، فلا تظننه صادقاً، فيفيد لا تظنن توكيداً، وتوضيحاً والفاء زائدة كما في قوله:

فَإِذَا هَلَكْتُ فَعِنْدَ ذَلِكَ فَٱجْزَعِيْ

---

(١) المراغي.

وقوله: ﴿بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ مفعول ثان على القراءتين، أي: فلا تظنهم بمنجاة؛ أي: فائزين بالنجاة من العذاب الذي أعده الله لهم في الدنيا من القتل، والأسر، وضرب الجزية، والذلة، والصغار، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: وجيع في الآخرة. وناسبَ وصفه بـ﴿أليم﴾ لأجل فرحهم، ومحبتهم المحمدة على ما لم يفعلوا.

وهذه الآية[1] وإن كانت قد نزلت في اليهود، أو المنافقين خاصةً فإن حكمَها عام في كل من أحب أن يحمد بما لم يفعل من الخير والصلاح، ويُنسَب إلى العلم، وليس كذلك، فيفرح به فَرح إعجاب، ويود أن يمدحه الناس بما هو عار منه من سَدَاد السيرة، واستقامة الطريقة، والزهد والإقبال على طاعة الله.

وفي الحديث الصحيح: «المتشبع بما ليس فيه، كلابس ثوبي زور». وقرأ حمزة، وعاصم[2]، والكسائي ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ ﴿وتحسبنهم﴾ بالتاء الفوقية، وكلاهما إما بفتح الباء، والتقدير: لا تحسبن يا محمد، أو أيها المخاطب، وإما بضم الباء، والخطاب للمؤمنين، والمفعول الأول: ﴿ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾، والثاني: ﴿بِمَفَازَةٍ﴾. وقوله ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ تأكيد، والفاء مقحمة، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر بالياء التحتية، وكلاهما إما بفتح الباء والفاعل للرسول، وإما بضمها، والفاعل من يتأتى منه الحسبان، أو بفتح الباء في الأول، وضمها في الثاني، وهي قراءة أبي عمرو. والفاعل: هو الموصول، والمفعول الأول محذوف، والتقدير ولا يحسبن الذين يفرحون أنفسهم بمفازة من العذاب. ويجوز أن يحمل الفعل الأول على حذف المفعولين معاً اختصاراً لدَلاَلة مفعولي الفعل الثاني عليهما، أي: لا يحسبن هؤلاء أنفسهم فائزين، أو على أن الفعل الأول مسند للرسول، أو لكل حاسب، ومفعوله الأول الموصول، والثاني محذوف لدلالة مفعول الفعل الثاني عليه، والفعل الثاني مسندٌ إلى ضمير الموصول، والفاء للعطف لظهور تفرع عدم حسبانهم على عدم حسبانه ﷺ، ومفعولاه ما بعده. وقرأ النخعي، ومروان بن الحكم، والأعمش ﴿بما آتوا﴾ بالمد، أي: يفرحون بما

---

(١) الخازن. (٢) المراح.

أعطوا. وقرأ جمهور القراء السبعة وغيرهم ﴿أَتَوا﴾ بالقصر. وقرأ ابن جبير، والسلمي ﴿بما أُوتُوا﴾ مبنياً للمفعول. ﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وتدبيرهما، وخزائنهما فكيف يكون من له ملك السموات والأرض فقيراً، وفيه تكذيب لمن قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ ﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ شاءه، ومنه عقاب هؤلاء الكفرة ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر على تعجيل العقوبة لهم على ذلك القول؛ لكنه تفضل على خلقه بإمهالهم، وعلى إظهار دينكم ونصركم عليهم.

والمعنى: لا تحزنوا[1] أيها المؤمنون، ولا تضعفوا، وبينوا الحق، ولا تكتموا منه شيئاً، ولا تشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، ولا تفرحوا بما عملتم، فإن الله يكفيكم ما أهمكم، ويغنيكم عن هذه المنكرات التي نهيتم عنها، فإن لله ملك السموات والأرض، يعطي من يشاء، وهو على كل شيء قدير، لا يعز عليه نصركم على من يؤذونكم بأيديهم، وألسنتهم من أهل الكتاب والمشركين.

وفي هذا إيماء إلى أن الخير في اتباع ما أرشد إليه، وفيه تسلية للنبي ﷺ وللمؤمنين، ووعد له بالنصر، وفيه تعريض بذم أولئك المخالفين، ووصفهم بأنهم لا يؤمنون إيماناً صحيحاً يظهر أثره في أخلاقهم وأعمالهم؛ إذ لو كانوا كذلك، ما تركوا العمل بكتابه، وآثروا عليه ما يستفيدونه من حطام الدنيا.

الإعراب

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾.

﴿لَقَدْ﴾ اللام موطئة للقسم. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿سَمِعَ اللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية جواب للقسم المحذوف، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوفة مستأنفةٌ. ﴿قَوْلَ الَّذِينَ﴾ مفعول به ومضاف إليه. ﴿قَالُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ مقول محكي لـ﴿قالوا﴾ وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿اللَّهَ﴾

---

(١) المراغي.

اسمها منصوب ﴿فَقِيرٌ﴾ خبرها مرفوع، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قالوا﴾. ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على جملة ﴿إن﴾.

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

﴿سَنَكْتُبُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿ما﴾ اسم موصول، أو نكرة موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿قالوا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿لما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: ما قالوه، ويصح كون ﴿ما﴾ مصدرية، والمصدر المؤول منها مفعول به لـ﴿نكتب﴾ تقديره: سنكتب قولهم ذلك. ﴿وَقَتْلَهُمُ﴾ بالنصب معطوف على ﴿ما﴾ أو على المصدر المؤول منها على كونه مفعولاً لـ﴿نكتب﴾. وبالرفع معطوف على ﴿ما﴾ أيضاً على كونه نائب فاعل لـ﴿كتب﴾ على قراءة الياء ﴿قتل﴾ مضاف. والهاء مضاف إليه، وهو من إضافة المصدر إلى فاعله. ﴿ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ مفعول المصدر أعني ﴿قتلهم﴾ منصوب به. ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿قتلهم﴾ أو حال منه.

﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

﴿وَنَقُولُ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿نقول﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿نكتب﴾. ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ مقول محكي لـ﴿نقول﴾، وإن شئت قلت ﴿ذُوقُوا۟﴾: فعل، وفاعل. ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿نقول﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ. ﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾ حرف جر وسبب. ﴿ما﴾: موصولة أو موصوفة في محل الجر بالباء، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: ذلك كائن بسبب الذي قدمته أيديكم، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿قَدَّمَتْ﴾: فعل ماض، وتاء تأنيث. ﴿أَيْدِيكُمْ﴾: فاعل، والجملة صلة لـ﴿مَآ﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما قدمته أيديكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾: الواو

عاطفة. ﴿أن﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿لَيْسَ﴾: فعل ناقص، واسمها ضمير يعود على الله. ﴿بِظَلَّامٍ﴾: ﴿الباء﴾: زائدة في خبر ﴿لَيْسَ﴾. ﴿ظلام﴾ خبر ﴿لَيْسَ﴾: منصوب بفتحة مقدرة. ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ جار ومجرور متعلق ﴿بِظَلَّامٍ﴾ وجملة ﴿لَيْسَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر معطوف على ﴿ما﴾ في قوله ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾ تقديره: ذلك العذاب كائن بسبب الذي قدمته أيديكم، وبسبب عدم كون الله ظلاماً للعبيد.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ نعت[1] للذين في قوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾. فالسماع مسلط عليه، والتقدير: لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله عهد إلينا إلخ، أو منصوب على الذم بفعل محذوف تقديره: أذم الذين قالوا إن الله عهد إلينا إلخ. والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ إلى قوله ﴿تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾ مقول محكي لـ﴿قالوا﴾. وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها. ﴿عَهِدَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿إِلَيْنَآ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿عهد﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول لـ﴿قالوا﴾. ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ﴾ ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر، ويجوز أن تكتب أن مفصولة وموصولة، ومنهم من يحذفها في الخط اكتفاءً بالتشديد. قاله العكبري. ﴿لا﴾ نافية. ﴿نُؤْمِنَ﴾ منصوب بـ﴿أن﴾، وفاعله ضمير يعود على الكفار القائلين. ﴿لِرَسُولٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿نؤمن﴾ والجملة الفعلية صلة أن المصدرية، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: بعدم إيماننا لرسول، والجار المحذوف متعلق بـ﴿عهد﴾. ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا﴾ ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية بمعنى إلى ﴿يأتي﴾ فعل

---

(١) الخازن.

مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد حتى. بمعنى: إلى. و﴿نا﴾ ضمير المتكلمين في محل النصب مفعول به، وفاعله ضمير يعود على ﴿رسول﴾. ﴿بِقُرْبَانٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يأتى﴾، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حتى﴾، بمعنى إلى تقديره: إلى إتيانه إياناً. ﴿بِقُرْبَانٍ﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿نؤمن﴾. ﴿تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ فعل ومفعول به، وفاعل، والجملة في محل الجر، صفة لـ﴿قربان﴾ ولكنها صفة سببية.

﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ، والجملة مستأنفة. ﴿قَدْ جَآءَكُمْ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق. ﴿جَآءَكُمْ رُسُلٌ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾ ﴿مِّن قَبْلِى﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف صفة لـ﴿رسل﴾. ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿جاء﴾. ﴿وَبِٱلَّذِى﴾ جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾. ﴿قُلْتُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره، قلتموه، والخطاب في قوله ﴿قَدْ جَآءَكُمْ﴾ وبقوله: ﴿قُلْتُمْ﴾ وبقوله: ﴿قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ وبقوله: ﴿إِن كُنتُمْ﴾ لمن في عصر نبينا ﷺ، وإن كان الفعل لأجدادهم، لرضاهم به. ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ الفاء زائدة. ﴿لم﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر. ﴿م﴾ اسم استفهام في محل الجر باللام مبني، بسكون على الألف المحذوفة فرقاً بينها وبين ما الموصولة. الجار والمجرور متعلق بما بعده، أعني ﴿قَتَلْتُمُوهُمْ﴾، ﴿قَتَلْتُمُوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قل﴾. ﴿إِن كُنتُمْ﴾ إن حرف شرط جازم. ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه، في محل الجزم ﴿بإن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿صَٰدِقِينَ﴾ خبر ﴿كان﴾ وجواب ﴿إن﴾ معلوم ما قبله، تقديره: إن كنتم صادقين، فلم قتلتموهم، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾.

﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا قلت لهم يا محمد ما أمرتك به، وكذبوك، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: ﴿إن كذبوك﴾ ﴿إن﴾ حرف شرط جازم. ﴿كَذَّبُوكَ﴾ فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بإن على كونه فعلَ شرط لها، وجواب الشرط محذوف جوازاً دل عليه السياق تقديره: فاصبر، وتسل على تكذيبهم إياك، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿فَقَدْ كُذِّبَ﴾ ﴿الفاء﴾ تعليلية. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿كُذِّبَ رُسُلٌ﴾ فعل ونائب فاعل. ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿رسل﴾، والجملة الفعلية في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بالفاء التعليلية المتعلقة بمعلول محذوف تقديره: وإنما أمرتك يا محمد بالصبر على تكذيبهم لتكذيب رسل من قبلك، وصبرهم على إذاية قومهم. ﴿جَآءُو﴾ فعل وفاعل. ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿جاؤوا﴾. ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ معطوف على البينات. وكذلك ﴿والكتاب﴾ معطوف عليه. ﴿ٱلْمُنِيرِ﴾ صفة للكتاب، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿رُسُلٌ﴾ وصح مجيء الحال منه لتخصصه بالصفة أعني الجار والمجرور، أو في محل الرفع صفة ثانية لـ﴿رسل﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مبتدأ، ومضاف إليه. ﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ خبر ومضاف إليه، وإنما أُنث الخبر لاكتساب المبتدأ التأنيث من المضاف إليه والجملة من المبتدأ والخبر مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ﴾ الواو استئنافية. ﴿إنما﴾ أداة حصر بمعنى ﴿ما﴾ النافية وإلاّ المثبتة، والمعنى: وما توفون أجوركم إلا يوم القيامة. ﴿تُوَفَّوْنَ﴾ فعل مغير، ونائب فاعل. ﴿أُجُورَكُمْ﴾ مفعول ثان، ومضاف إليه، والمفعول الأول جعل نائباً عن الفاعل، والأصل: وإنما يوفيكم الله. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ﴿توفون﴾. ﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أن توفية الأجور يوم

القيامة، وأردتم بيان من فاز فيه، ومن لم يفز.. فأقول لكم: من زحزح. ﴿من زحزح﴾ ﴿من﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب أو هما. ﴿زُحْزِحَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة في محل الجزم، بـ﴿من﴾ الشرطية، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿عَنِ ٱلنَّارِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿زحزح﴾. ﴿وَأُدْخِلَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿أدخل﴾ فعل ماض مغير الصيغة في محل الجزم معطوف على ﴿زُحْزِحَ﴾ على كونه فعل شرط لمن، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿أدخل﴾ أو منصوب على التوسع بإسقاط الخافض. ﴿فَقَدْ فَازَ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب من الشرطية وجوباً لكون الجواب مقروناً بـ﴿قد﴾. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿فَازَ﴾ فعل ماض في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وجملة من الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾ نافية. ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾ مبتدأ. ﴿ٱلدُّنْيَآ﴾ صفة له. ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ إلا أداة استثناء مفرغ. ﴿مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ خبر، ومضاف إليه، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾.

﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ ﴿اللام﴾ موطئة للقسم. ﴿تبلون﴾ فعل مضارع مغير الصيغة، مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، وإنما أعرب مع اتصال نون التوكيد به لِعَدَمِ مباشَرَتِها له لفصلها عنه بضمير الفاعل، والواو ضمير لجماعة الذكور المخاطبين في محل الرفع نائب فاعل. و﴿نون التوكيد﴾ الثقيلة حرف لا محل لها من الإعراب، وسيأتي الإعلال الجاري فيه في مبحث التصريف إن شاء الله تعالى. والجملة الفعلية جواب للقسم المحذوف لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوف مستأنفة ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تبلون﴾. ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ معطوف على ﴿أَمْوَٰلِكُمْ﴾.

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. و﴿اللام﴾ موطئة للقسم. ﴿تسمعن﴾ فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين مع نون التوكيد في محل الرفع فاعل ونون التوكيد الثقيلة: حرف لا محل لها من الإعراب، والجملة الفعلية جواب للقسم المحذوف، والقسم المحذوف معطوف على جملة القسم المحذوف في قوله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿تسمعن﴾ ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾. ﴿أُوتُوا۟﴾ فعل، ونائب فاعل. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ مفعول ثان لـ﴿أوتوا﴾ لأنه بمعنى أعطوا. ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿أوتوا﴾ والجملة الفعلية صلة الموصول لا محلَ لها من الإعراب.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾. ﴿أَشْرَكُوٓا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿أَذًى﴾ مفعول ﴿تسمعن﴾ منصوب بفتحة مقدرة على الألف المحذوفة للتخلص من التقاء الساكنين ﴿كَثِيرًا﴾ صفة لـ﴿أذى﴾.

﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟﴾ الواو استئنافية. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿تَصْبِرُوا۟﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿تَصْبِرُوا۟﴾. ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة اسمية. ﴿إن﴾ حرف نصب وتوكيد. ﴿ذَٰلِكَ﴾ في محل النصب اسمها. ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف، والأصل: فإن ذلك من الأمور المعزومة؛ أي: المفروضة. الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿إن﴾، وجملة إن في محل الجزم بإن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة إن الشرطية مستأنفة.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ﴾ الواو استئنافية. ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف تقديره: واذكر يا محمد قصة إذا أخذ الله. ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل. ﴿مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، والتقدير: واذكر يا محمد لأمتك قصة وقت أخذ الله ميثاق الذين ﴿أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾. ﴿أُوتُواْ﴾ فعل ونائب فاعل. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ مفعول ثان لـ﴿أوتوا﴾ والجملة صلة الموصول. ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾ ﴿اللام﴾ واقعة في جواب قسم دل عليه أخذ الميثاق؛ لأن الميثاق العهد المؤكد باليمين، تقديره: وعزتي وجلالي لتبيننه للناس. ﴿تبينن﴾ فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة للتخلص من التقاء الساكنين، في محل الرفع فاعل؛ لأن أصله لتبينوننه كما سيأتي لك في بحث التصريف إن شاء الله تعالى. و﴿الهاء﴾ ضمير الغائب في محل النصب مفعول به. ﴿لِلنَّاسِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿تبينن﴾، والجملة الفعلية جواب للقسم المقدر لا محلَ لها من الإعراب، وجملة القسم المقدر جملة معترضة لا محلَ لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين المعطوف والمعطوف عليه. ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ الواو عاطفة. ﴿لا﴾ نافية. ﴿تَكْتُمُونَهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾ على كونها جوابَ القسم المقدر. ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. ﴿نبذوه﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة قوله: ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ﴾ على كونها مضافاً إليه. ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ ﴿وَرَآءَ﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿نبذوه﴾، وهو مضاف. ﴿ظهور﴾ مضاف إليه ﴿ظهور﴾ مضاف. و﴿الهاء﴾ ضمير الغائبين في محل الجر مضاف إليه. ﴿وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ﴾ الواو عاطفة. ﴿وَٱشْتَرَوْاْ﴾ فعل وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾ متعلق به. ﴿ثَمَنًا﴾ مفعول به لـ﴿اشتروا﴾. ﴿قَلِيلًا﴾ صفة لـ﴿ثمنا﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿نبذوه﴾. ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ ﴿فَبِئْسَ﴾ ﴿الفاء﴾ استئنافية. ﴿بئس﴾ فعل ماض من أفعال الذم، وفاعله ضمير مستتر فيه، وجوباً لشبهه بالمثل تقديره: هو يعود على الثمن القليل. ﴿ما﴾ نكرة موصوفة في محل النصب تمييز لفاعل ﴿بئس﴾. ﴿يَشْتَرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صفة لما، والرابط محذوف، تقديره: فبئس هو أي ذلك

الثمن شيئاً يشترونه. وجملة ﴿بئس﴾ في محل الرفع خبر للمخصوص بالذم المحذوف وجوباً، تقديره: فبئس شيئاً يشترونه، هو، أي: ذلك الثمن، والجملة الاسمية مستأنفة، ويحتمل كون ﴿مَا﴾ مصدرية، وجملة ﴿يَشْتَرُونَ﴾ صلتها، و﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية، لبئس تقديره: فبئس شراؤهم، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: شراؤهم هذا.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾.

﴿لَا﴾ ناهية جازمة. ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ فعل مضارع. في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية مبني على الفتح، لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة. ونون التوكيد: حرف لا محل له من الإعراب، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: أنت: يعود على محمد ﷺ، أو على كل من يصلح للخطاب، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول أول لـ﴿حسب﴾ والثاني: محذوف دل عليه قوله الآتي ﴿بِمَفَازَةٍ﴾؛ تقديره: لا تحسبن الذين يفرحون فائزين ناجينَ من العذاب ﴿يَفْرَحُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿بِمَآ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يَفْرَحُونَ﴾. ﴿أَتَوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: بما أتوه، وفعلوه. ﴿وَّيُحِبُّونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَفْرَحُونَ﴾ على كونها صلة الموصول. ﴿أَن يُحْمَدُوا۟﴾ ﴿أن﴾ حرف مصدر. ﴿يُحْمَدُوا۟﴾ فعل مغير، ونائب فاعل، والجملة صلة ﴿أن﴾ المصدرية و﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: ويحبون حمد الناس إياهم. ﴿بما﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يحمدوا﴾. ﴿لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ فعل وفاعل وجازم، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صلة لها، والعائد، أو الرابط محذوف، تقديره: بما لم يفعلوه. ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ ﴿الفاء﴾ زائدة. ﴿لا﴾ ناهية جازمة. ﴿تَحْسَبَنَّهُم﴾ فعل ومفعول أول في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على محمد ﷺ. ﴿بِمَفَازَةٍ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف مفعول ثان لـ﴿حسب﴾ تقديره: فلا تحسبنهم كائنين بمنجىً من العذاب، والجملة الفعلية

مؤكدة لجملة حسب الأولى. ﴿مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿مفازة﴾. ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿لهم﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة له، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿تحسبن﴾ الأولى، وهنا أوجه كثيرة من الإعراب، تتعدد بتعدد القراءات، أعرضنا عنها صفحاً؛ لئلا يطول الكلام، وفيما ذكرنا كفاية لمن له عناية.

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿للَّه﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مُلۡكُ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مضاف إليه. ﴿وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ معطوف على السموات والجملة الاسمية مستأنفة ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواو عاطفة. ﴿اللَّه﴾ مبتدأ. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾ وهو خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على كونها مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ يقال: ذاق الطعام، إذا أدرك طعمه من حلاوة، أو حموضة، أو مرارة. وأصل الذوق: وجود الطعم في الفم، ثم استعمل في إدراك سائر المحسوسات. ﴿ٱلۡحَرِيقِ﴾ المحرق، فهو فعيل بمعنى: مفعل، كأليم بمعنى مؤلم، وإضافة العذاب إليه من إضافة الموصوف إلى الصفة، كمسجد الجامع. ﴿بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾؛ أي: بذي ظلم، فـ﴿ظلام﴾ من صيغ النسب على حد قول ابن مالك:

ومع فاعل وفعال وفعل   في نسب أغنى عن اليا فقبل

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ﴾ يقال: عهد إليه بكذا، إذا أمره به، وأوصاه إليه. ﴿بِقُرۡبَانٖ﴾ و﴿القربان﴾: مصدر بمعنى اسم المفعول، وهو ما يتقرب به إلى الله من حيوان، ونقد، وغيرهما. ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ جمع زبور[1] كرسول ورسل، وهو

(١) البحر المحيط.

الكتاب مأخوذ من الزبر، وهو الكتابة يقال: زبرت بكذا إذا كتبته، فالزبور فعول بمعنى مفعول؛ أي: مزبور بمعنى مكتوب، كالركوب بمعنى المركوب، وقال امرؤ القيس:

لِـمَـنْ طَـلَـلٌ أَبْـصَـرْتُـهُ فَـشَـجَـانِـيْ   كَـخَـطِّ زَبُـوْرٍ فِـيْ عَـسِـيْـبِ يَـمَـانِ

ويقال: زبرته إذا قرأته، وزبرته إذا حسنته، وتزبرته إذا زجرته، وقال الزجاج: الزبور كل كتاب ذي حكمة. وقيل: أصله[1] من الزبر بمعنى الزجر، وسمي الكتاب الذي فيه الحكمة زبوراً؛ لأنه يزبر أي يزجر عن الباطل ويدعو إلى الحق. وفي المختار الزبرُ الزجرُ والانتهار، وبابه نَصَر والزبرُ أيضاً الكتابة، وبابه ضرب انتهى.

﴿وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾؛ أي: الواضح المعنى من أنار الشيء إذا وضح.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ تطلق النفس على الروح، وعلى مجموع الجسد، والروح الذي هو الحيوان، وهذا المعنى الثاني هو الأقرب المتبادر هنا. وفي المختار: النفس الروح، يقال: خرجت نفسه، والنفس الجسد، ويقولون: ثلاثة أنفس فيذكرونه لأنهم يريدون به الإنسان انتهى. وفي المصباح أن النفس تطلق على جملة الحيوان والنفس إن أريد بها الروح تؤنث وإن أريد بها الشخص تذكر انتهى. والموت أمر وجودي يضاد الحياة.

﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾ الزحزحة الإبعاد والتنحية وهو من ملحق الرباعي على وزن فعلل أصله من الزح وهو الجذب بعجلة ﴿فَقَدْ فَازَ﴾ يقال: فاز فوزاً من باب قال إذا ظفر، والفوز: النجاة مما يحذر والظفر بما يؤمل.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾ العيش، وهي المعيشة. والمعيشة: كسب الإنسان، وتحصيله ما يعيش به من مطعم ومشرب وملبس وغيرها. ﴿ٱلدُّنْيَآ﴾: بمعنى القربى، وهي صفة مؤنث مذكره أدنى؛ لأنه من دنا يدنو دنواً فهو أدنى، وهي دنيا بوزن فعلى. ﴿إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ والمتاع: كل ما استمتع به الإنسان من مال وغيره، وفي «السمين» يجوز أن يكون الغرور فعولاً بمعنى مفعول؛ أي: متاع

---

(١) الخازن.

المغرور؛ أي: المخدوع. وأصل الغرور الخِداع انتهى. والغرور في الأصل: إما مصدر غره يغره غروراً إذا خدعه، وإما جمع غار.

﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ أصله لتبلوونن بواوين أولاهما لام الكلمة؛ لأنه من بلا يبلو من باب غزا، وثانيهما: واو الضمير فحذفت النون الأولى التي هي علامة الرفع، لتوالي الأمثال مع نون التوكيد، وتحركت الواو الأولى التي هي لام الكلمة، وانفتح ما قبلَها، فقلبت ألفاً، فالتقى ساكنان، الألف وواو الضمير، فحذفت الألف لئلا يلتقيَ ساكنان، وضمت الواو دلالةً على المحذوف، وإن شئت قلت استثقلت الضمة على الواو الأولى، فحذفت فالتقى ساكنان، وهما: الواوان فحذفت الواو الأولى، وحركت الواو الثانية التي هي واو الضمير بحركة مجانسة دلالةً على المحذوف، فعلم من مجموع هذين التصريفين: أن الواوَ المحذوفةَ هي لام الكلمة، وأن هذه الواوَ الموجودةَ هي ضمير الجمع، وهي نائب الفاعل.

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ﴾ أصله لتسمعونن حذفت نون الرفع لتوالي الأمثال، وواو الضمير لالتقاء الساكنين مع نون التوكيد ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ والصبر تلقي المكروه بالاحتمال، وكظم النفس عليه مع دفعه بروية، ومقاومة ما يحدث من الجزع، والتقوى الابتعاد عن المعاصي ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ مأخوذ من قولهم: عزمت عليك أن تفعل كذا؛ أي: ألزمتك إياه على وجه لا يجوز الترخص فيه، وهو هنا مصدر بمعنى اسم المفعول؛ أي: المعزوم عليه بمعنى أنه يجب العزم عليه، والتصميم للقلب عليه، وأصله ثبات في الرأي على الشيء إلى إمضائه ﴿مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الميثاق العهد المؤكد باليمين، وأصله: موثاق قلبت الواو ياء لوقوعها بعد كسرة؛ لأنه من وثق يثق وثوقاً وميثاقاً ﴿بِمَفَازَةٍ﴾ المفازة المفعلة من فَازَ بمعنى مكان الفوز؛ أي: النجاة من المكروه، وأصلها مفوزة تحركت الواو بحسب الأصل، وانفتح ما قبلها بحسب الآن، فقلبت ألفاً فصار مفازةً. ﴿لله ملك﴾ الملك بضم الميم ما يملكه الإنسان، ويتصرف به، والعظمة، والسلطَة يجمع على أملاك، وملوك.

البلاغة

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ أكدت اليهود الجملة التي نسبوها إلى الله بـ﴿إن﴾ واسمية الجملة، مبالغةً في نسبة الفقر إلى الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ولم يؤكدوا في الجملة التي نسبوها إلى أنفسهم، كأنهم خرجوا تلك الجملة مخرج ما لا يحتاج إلى تأكيد، كأن الغنى وصف لازم لهم، لا يمكن فيه نزاع فيحتاج إلى تأكيد، وهذا دليل على تعنتهم وتعمقهم في الكفر والطغيان.

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ فيه مجاز عقلي من الإسناد إلى الآمر، لأنه تعالى لا يكتب ذلك بنفسه، بل يأمر الملائكة بالكتابة.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ فيه مجاز مرسل من إطلاق اسم الجزء على الكل لعلاقة الجزئية.

﴿تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ فيه استعارة تصريحية تبعية؛ لأنه شبه الإحراق بالأكل، لأن الأكل إنما يكون في الإنسان والحيوان. ﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ فيه استعارة تبعية؛ لأن حقيقة الذوق ما يكون بحاسة اللسان.

﴿مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ قال الزمخشري: شبه الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على المستام، ويغر به حتى يشتريه، والشيطان هو المدلس الغرور فهو من باب الاستعارة.

﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فيه استعارة تصريحية تبعية؛ لأنه شبَّه عدمَ التمسك، والعمل به، بإلقاء شيء مرمي خَلْفَ ظهر الإنسان. وفي «الفتوحات» نَبَذَ الشيء وراء الظهر مثل في الاستهانة به، والإعراض عنه بالكلية، وشبه أيضاً أخذ عوض حقير من حطام الدنيا على كتم آيات الله باشتراء ثمنٍ قليلٍ على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

وقال أبو حيان[1]: لقد تضمنت هذه الآياتُ من ضروب الفصاحة والبلاغة

---

(١) البحر المحيط.

والمحسنات البديعية:

منها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿قَالُوٓاْ﴾، و﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ و﴿كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿فَقِيرٌ﴾ و﴿أَغْنِيَآءُ﴾، و﴿ٱلْمَوْتِ﴾ و﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾ و﴿زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ﴾.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿سَنَكْتُبُ﴾ و﴿نَقُوْل﴾ و﴿أجوركم﴾، إذ تقدمه كل نفس.

ومنها: التكرار في لفظ الجلالة، وفي البينات.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿سَنَكْتُبُ﴾ على قول من لم يجعل الكتابة حقيقةً، و﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ و﴿تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾، و﴿ذوقوا﴾ ﴿وذائقة﴾.

ومنها: المذهب الكلامي في قوله: ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿أيديكم﴾.

ومنها: الإشارة في قوله: ﴿ذلك﴾ والشرط المتجوز فيه.

ومنها: الزيادة للتوكيد في قوله: ﴿بالزبر﴾ و﴿بالكتاب﴾ في قراءة من قرأ كذلك.

ومنها: الحذف في مواضع انتهى.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥) لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية، مناسبة[١] هذه الآية لما قبلها واضحة؛ لأنه تعالى لما ذكر أنه مالك السموات والأرض، وذكر قدرتَه، ذكرَ أن في خلقهما دلالات واضحةً لذوي العقول.

قال الرازي: واعلم أنه لما كان المقصود من هذا الكتاب الكريم جَذبَ القلوب، والأرواح من الاشتغال بالخلق إلى الاستغراق في معرفة الإله الحق، وطال الكلامُ في تقرير الكلام، والجواب عن شبهات المبطلين، عاد إلى إثارةِ

---

(١) لباب النقول.

القلوب بذكر ما يدلُّ على التوحيد، والألوهية والكبرياء والجلال، فذكر هذه الآية.

وأيضاً في ختم هذه السورة بهذه الأية مناسبة لمبدئها؛ لأنه سبحانه وتعالى لمَّا بَدأ هذه السورةَ الكريمة بذكر أدلة التوحيد، والألوهية، والنبوة.. خَتَمَها بذكر دلائل الوحدانية، والقدرة ودلائل الخلق، والإيجاد؛ ليستدل منها الإنسان على البعث والنشور، فكان ختامها مسكاً، كابتدائها، فيتأمل الإنسان في كتاب الله المنظور ـ الكون الفسيح ـ بعد أن تأمل في كتاب الله المسطور القرآن العظيم.

قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦﴾. مناسبتها لما قبلها: أنه لما وعد الله المؤمنين بالثواب العظيم، وكانوا في الدنيا في غاية الفقر، والشدة، والكفار كانوا في رخاء ولَيْنِ عيش ذَكر في هذه الآية ما يسليهم، ويصبرهم على تلك الشدة، فبين لهم حقارةَ ما أُوتيَ هؤلاء من حظوظ الدنيا، وذَكَر أنها متاعٌ قليل زائل، فلا ينبغي للعاقل أن يوازن بينه وبين النعيم الخالد المقيم، قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾ الآية مناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما ذكر أحوالَ الكفار وأحوالَ أهل الكتاب، وأن مصيرهم إلى النار، ذَكَرَ حَالَ من آمن من أهل الكتابِ، وأنَّ مصيرَهم إلى الجنة فقال: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الآية.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه الطبراني، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: أتت قريش اليهودَ فقالوا بمَ جاءكم موسى من الآيات؟ قالوا: عصاه، ويده بيضاء للناظرين، وأتوا النصارى، فقالوا: كيف كان عيسى؟ قالوا: كان يبرىء الأكمه، والأبرص، ويحيي الموتى، فأتوا النبيَّ ﷺ فقالوا: ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً، فدعا ربَّه فنزلت الآية ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾ والمعنى: تفكروا واعتبروا أيها الناس: فيما خلقته وأنشأته من

السموات، والأرض لمعاشكم، وأرزاقكم.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ . . .﴾ الآية[1]، سبب نزولها: ما أخرجه عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، والترمذي والحاكم، وابن أبي حاتم، عن أم سلمة أنها قالت: يا رسول الله: لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله عز وجل: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ . . .﴾ إلى آخر الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ . . .﴾ الآية، سبب نزولها: ما روى النسائي عن أنس قال: لما جاء نعي النجاشي قال رسول الله ﷺ «صلوا عليه، فقالوا: يا رسول الله نصلي على عبد حبشي، فأنزل الله عز وجل ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ . . .﴾ الآية. وروى ابن جرير نَحوه عن جابر. وفي المستدرك عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت في النجاشي هذه الآية ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ وقيل[2]: نزلت في أربعين رجلاً من أهل نجران، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية من الروم، كانوا على دين عيسى عليه السلام فآمنوا بالبني ﷺ وصدقوه. وقيل: نزلت في عبد الله بن سلام، وأصحابه الذين آمنوا بالنبيِّ ﷺ. وقيل: نزلت في جميع مؤمني أهل الكتاب، وهذا القول أولى وأشمل.

قوله تعالى[3]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ . . .﴾ أخرج ابن مردويه عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن عن أبي هريرة قال: أما إنه لم يكن في زمن النبي ﷺ غزو يرابطون فيه، ولكنها نزلت في قوم يعمرون المساجدَ، يصلون الصلوات في مواقيتها، ثم يذكرون الله فيها.

وقد ثبت في «الصحيح» وغيره من قول النبي ﷺ «ألا أخبركم بما يمحوا الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات، إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا

---

(١) لباب النقول.
(٢) الخازن.
(٣) الشوكاني.

إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباطُ فذلكم الرباط، فذلكم الرباط».

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ أي: إن فيما خلقَ في السموات من الملائكة، والشمس والقمر، والنجوم، والسحاب ﴿و﴾ فيما خلق في ﴿الأرض﴾ من الجبال، والبحور، والشجر، والدواب، هذا إن جعلنا ﴿خَلْقِ﴾ مصدراً بمعنى اسم المفعول، والمعنى: إن في مخلوقات السموات، والأرض، ويصح إبقاؤه على مصدريته، والمعنى حينئذ: إن في إيجاد السموات والأرض، وإنشائهما على ما هما عليه في ذواتهما، وصفاتهما من إبداع وإحكام، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾ وبالجملة:

فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ ٱلْوَاحِدُ

﴿و﴾ في ﴿اختلاف الليل والنهار﴾ وتعاقبهما في وجه الأرض بكون كل منهما خلفة عن الآخر، بمجيء الليل عقبَ النهار، والنهار عقبَ الليل، فليس أحد يقدر على الإتيان بالليل في النهار، ولا العكس أو في اختلافهما بزيادة أحدهما بقدر ما نَقَصَ من الآخر بحسب اختلاف حال الشمس بالنسبة إلينا قرباً، وبعداً ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ واضحةً وبراهينَ قطعيةً ودلالات دالة على وجوده تعالى، وباهر قدرته، ووحدانيته، وعظيم علمه، وسلطانه.

﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: لأصحاب العقول الكاملة الخالصة عن شوائب النقص الذين[1] خلص عقلهم عن الهوى خلوص اللب عن القشر، فيرون أن العرض المحدث في الجواهر يدل على حدوث الجواهر؛ لأنَّ جوهراً ما لا ينفك عن عرض حادثٍ؛ وما لا يخلو عن الحادث فهو حادث، ثم حدوثها يدل على محدثها، وذا قديم، وإلا لاحتاج إلى محدث آخر إلى ما لا يتناهى، وحسن

---

(١) النسفي.

صنعه يدل على علمه، وإتقانه يدل على حكمته، وبقاؤه يدل على قدرته، وروي أنه ﷺ قال: «ويل لمن قرأ هذه الآية ولم يتفكر فيها».

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ نعت ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ ويجوز قطعه إلى الرفع، أو إلى النصب، بتقدير أمدح مثلاً؛ أي: أولو الألباب هم الذين يكررون ذكر الله من التهليل، والتسبيح، والتحميد، مثلاً بألسنتهم، ويستحضرون عظمة الله في قلوبهم، ويتذاكرون حكمته وفضله وجليلَ نعمه في جميع أحوالهم في حال كونهم ﴿قِيَٰمًا﴾؛ أي: قائمين ﴿و﴾ في حال كونهم ﴿قعوداً﴾؛ أي: قاعدين، ﴿و﴾ في حال كونهم مضطجعين ﴿على جنوبهم﴾ جمع جنب ومستلقين على ظهورهم

والخلاصة: أنهم هم الذين لا يغفلون عنه تعالى في عامة أوقاتهم باطمئنان قلوبهم بذكره، واستغراق سرائرهم بمراقبته. وفي الحديث «من أحب أن يرتعَ في رياض الجنة، فليكثر ذكرَ الله».

وأخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يذكر الله عز وجل في كل أحيانه».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «من قعد مقعداً لم يذكر الله فيه، كانت عليه من الله ترةً، وما مشى أحد ممشىً لا يذكر الله فيه، إلا كانت عليه من الله ترة». أخرجه أبو داود. والترة: النقص، وقيل: هي هنا: التبعة.

وقال[1] علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهم، وقتادة: هذا في الصلاة؛ يعني هم الذين يصلون قياماً، فإن عجزوا فقعوداً، فإن عجزوا.. فعلى جنوبهم، والمعنى: أنهم لا يتركون الصلاةَ في حال من الأحوال، بل يصلون في كل حال، ويدومون عليها.

وأخرج البخاري عن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ قال: كانت بي

---

(١) الخازن.

بواسير، فسألت النبي ﷺ عن الصلاة فقال: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب». وأخرجه الترمذي، وقال فيه: سألته عن صلاة المريض، وذكر نحوه.

وذكر الله وحده لا يكفي في الاهتداء، بل لا بد معه من التفكر في بديع صنعه، وأسرار خليقته، ومن ثمَ قال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على قوله: ﴿يَذْكُرُونَ﴾. وأصل الفكر: إعمالُ الخاطر في الشيء، وتردد القلب في ذلك الشيء، وهو قوة متطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكُّر جريان تلك القوة بحسب نظر العقل، ولا يمكن التفكر إلا فيما له صورة في القلب، ولهذا قيل: تفكروا في ألاء الله، ولا تفكروا في ذات الله تعالى، إذ الله منزه أن يوصف بصورة؛ أي: ويتفكرون إستدلالاً، واعتباراً في بديع صنعهما، وإتقانهما، مع عِظَمِ أجرامهما، وما أبدع الله فيهما من عجائب مصنوعاته، وغرائب مبتدعاته، ليدلهم ذلك على كمال قدرة الصانع سبحانه وتعالى، ويعلموا أن لهما خالقاً، قادراً، مدبراً، حكيماً؛ لأن عظم آثاره، وأفعاله، تدل على عظم خالقه سبحانه وتعالى.

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ ٱلْوَاحِدُ

وإنما ذَكَر[1] التفكرَ في خلق الله؛ لورود النهي عن التفكر في الخالق؛ لعدم الوصول إلى حقيقة ذاته، وصفاته، فقد أخرج الأصبهاني، عن عبد الله بن سلام، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، وهم يتفكرون، فقال: «تفكروا في الخلق، ولا تفكروا في الخالق».

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «تفكروا في آلاءِ الله، ولا تفكروا في الله تعالى». وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ هو على تقدير القول؛ أي: يقولُ الذاكرون المتفكرون: ربنا ما خلقت هذا الذي نشاهده من العوالم العلوية، والأرضية باطلاً، ولا أبدعته عبثاً سبحانك رَبَّنا، تنزهت عن

---

(١) المراغي.

الباطل والعبث، بل كل خلقك حق مشتمل على حكَم جليلةٍ، ومصالحَ عظيمة، والإنسان بعض خلقك، لم يخلق عبثاً، فإن لحقه الفناءُ، وتفرقت منه الأجزاء بعد مفارقة الأرواح للأبدان. فإنما يهلك منه كونه الفاسدَ؛ أي: الجسم، ثم يعود بقدرتك في نشأة أخرى، كما بدأته في النشأة الأولى، فريق أطاعَكَ، واهتدى، وفريقٌ حقت عليه الضلالة، فالأول يدخل الجنة؛ بصالح أعماله، والآخر يكب في النار، بما اجترح من السيئات، وما عمل من الموبقات جزاءً وفاقاً.

وقيل معناه[1]: ويتفكرون في خلق السموات والأرض قائلينَ ﴿رَبَّنَا﴾ ويا مالك أمرنا ﴿مَا خَلَقْتَ﴾، وأوجدت ﴿هَٰذَا﴾ الخلق، وأخرجته إلى الوجود من العدم ﴿بَٰطِلًا﴾ وعبثاً ضائعاً بلا حكمة بل خلقتَهُ دليلاً على وحدانيتك، وكمال قدرتك ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾؛ أي: تنزيهاً لك عن أن تخلق شيئاً عبثاً لغير حكمة، وهو اعتراض، وقوله: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ الفاء[2] دخلت فيه لمعنى الجزاء، تقديره: إذا نزهناك. فقنا عذاب النار؛ لأنه جزاء من عصى، ولم يُطع، والمعنى: فوفقنا بعنايتك لصالح العمل بما فهمنا من الدلائل، حتى يكون ذلك وقايةً لنا من عذاب النار. والمقصود من قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ تعليم عباده كيفيةَ الدعاء، فمن أراد أن يدعو.. فليقدم الثناء على الله أولاً، ويدل عليه قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، وبعد ذلك الثناء يأتي بالدعاء، ويدل عليه قوله: ﴿فَقِنَا﴾ ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

واعلم[3]: أنه تعالى لما حَكَى عن هؤلاء العباد المخلصين أن ألسنتهم مستغرقة بذكر الله... وأبدانَهم في طاعة الله، وقلوبهم في التفكر في دلائل عظمة الله؛ ذكَر أنهم مع هذه الطاعة يطلبون من الله أن يقيهَم عذاب النار؛ لأنه يجوز على الله تعذيبهم؛ لأنه لا يقبحُ من الله شيء أصلاً.

واعلم[4]: أن دلائلَ التوحيد في خلق هذا العالم محصورة في قسمين: دلائل الآفاق، ودلائلُ الأنفس، ولا شك أن دَلائل الآفاق أعظمُ وأعجب، فلو أن الإنسان نظَر إلى ورقة صغيرة من أوراق شجرة. رأى في تلك الورقة عرقاً

---

(١) الخازن.
(٢) النسفي.
(٣) مراح.
(٤) مراح.

واحداً ممتداً في وسطها، ثم يتشعب من ذلك العرق، عروق كثيرة إلى الجانبين، ثم يتشعب منها عروق دقيقة، ولا يزال يتشعب من كل عرق عروق أخرى حتى تصير في الدقة بحيث لا يراها البصرُ، وعند هذا يعلم أن للخالق في تدبير تلك الورقة على هذه الخلقة حكماً بالغة، وأسراراً عجيبة، ولو أراد الإنسان أن يعرف كيفية خلقة تلك الورقة.. لعجز، فإذا عرف أن عقله قاصر عن الوقوف على كيفية خلقه تلك الورقةَ الصغيرة، فإذا قاس تلك الورقة إلى السموات مع ما فيها من الشمسِ، والقمر، والنجوم، وإلى الأرض مع ما فيها من البحار، والجبال، والمعادن، والنبات والحيوان.. عَرفَ أن تلك الورقةَ بالنسبة إلى هذه الأشياءِ كالعدم، فإذا عرف قصور عقله عن معرفة ذلك الشيء الحقير.. عرف أنه لا سبيل له إلى الاطلاع على عجائب حكمة الله تعالى في خلق السموات والأرض، وإذا عرف بهذا البرهان قصور عقله.. لم يبقَ معه إلا الاعتراف بأن الخالق أجل من أن يحيط به، وصف الواصفين، ومعارف العارفين، بل يسلم أن في كل ما خلقه الله تعالى حكماً بالغةً، وأسراراً عظيمةً، ولا سبيل له إلى معرفتها، فعند هذا يقول ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا﴾ الخلق العجيب ﴿بَٰطِلًا﴾؛ أي: بغير حكمة بل خلقته بحكمة عظيمة، وهي أن تجعلها مساكنَ للمكلفين الذين اشتغلوا بطاعتك، وتحرزوا عن معصيتك، ومداراً لمعايش العباد، ومناراً يرشدهم إلى معرفة أحوال المبدأ والمعاد ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ وهذا إقرار بعجز العقول عن الإحاطة، بآثار حكمة الله تعالى في خلق السموات والأرض؛ أي: إن الخلق إذا تفكروا في هذه الأجسام العظيمة. لم يعرفوا منها إلا هذا القدر، وهو أن خالِقَها ما خلقَها باطلاً، بل خلقها لحكم عجيبةٍ، وأسرار عظيمةٍ، وإن كانت العقول قاصرةً عن معرفتها ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ للإخلال[1] بالنظر فيه، والقيام بما يقتضيه، وفائدة هذه الفاء: هي الدلالة على أن علمهم بما لأجله خلقتَ السموات والأرض، حملهم على الاستعاذة.

ثم إنهم بعد أن يدعو ربهم أن يقيهم دخولَ النار يتوجهون إليه قائلين:

---

(١) البيضاوي.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ وأهنته بياناً للسبب الذي حملهم على دعائه، بأن يقيهم عذاب النار، وهو أن من أدخله النار.. فقد أخزاه؛ أي: أذله، وأهانه غايةَ الإذلال، ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: الكافرين ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ يمنعونهم من عذاب الله تعالى. والظالم: هو الذي يتنكب الطريقَ المستقيم، وقد وصف الله سبحانه وتعالى من يدخل النار بالظلم؛ للدلالة على أن سبب دخوله إياها: هو جوره، وظلمه، وللتشنيع عليه بهذا العمل القبيح؛ أي: إن هؤلاء المتفكرين الذاكرين، ينظرون إلى هيبة ذلك الرب العلي الذي خلق تلك الأكوان المملوءة بالأسرار، والحكم، فيعلمون أنه لا يمكن أحداً أن ينتصر عليه، وأن من عاداه. فلا ملجأ له إلا إليه، ويقولون: ﴿رَّبَّنَآ﴾؛ أي: يا مالك أمرنا ﴿إِنَّنَا سَمِعْنَا﴾، وأصغينا ﴿مُنَادِيًا﴾؛ أي: نداء مناد ﴿يُنَادِى﴾، ويدعو ﴿لِلْإِيمَٰنِ﴾؛ أي: إلى الإيمان والتوحيد ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾؛ أي: ينادي بأن آمنوا وصدقوا، ووحدوا بمتولي أموركم، وامتثلوا أوامره، واجتنبوا نواهيه ﴿فَـَٔامَنَّا﴾؛ أي: سمعنا نداءه فأجبناه، وصدقناه، واتبعناه فيما دعانا إليه من التوحيد والطاعة.

قال ابن عباس(١) وأكثر المفسرين: المنادي هو محمد ﷺ ويدل على صحة هذا القول. قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ قال محمد بن كعب القرظي: المنادي هو القرآن، قال: إذ ليس كل أحد لقي النبي ﷺ. ووجه هذا القول أنَ كل أحد يسمع القرآن، ويفهمه فإذا وفقه الله تعالى للإيمان به. فقد فاز به، وذلك لأن القرآن مشتمل على الرشد، والهدى، وأنواع الدلائل الدالة على الوحدانية فصار كالداعي إليها.

وفي توطئة الدعاء بالنداء إشارة إلى كمال توجههم إلى مولاهم، وعدم غفلتهم عنه مع إظهار كمال الضراعة، والابتهال إلى من عودهم الإحسانَ والأفضالَ.

﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ﴾؛ أي: فاسترلنا ﴿ذُنُوبَنَا﴾ الكبائرَ، أو الماضية، ولا تفضحنا

---

(١) الخازن.

بها ﴿وَكَفِّرْ﴾؛ أي: وغط وامح بفضلك ورحمتك ﴿عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ الصغائر، أو المستقبلة. وقيل: المراد[1] بالأول ما يزول بالتوبة، وبالثاني ما تكفره الطاعة العظيمة، وقيل: المراد بالأول ما أتى به الإنسان مع العلم بكونه معصيةً، وبالثاني ما أتى به الإنسان مع جهله بذلك. والظاهر[2]: عدمُ اختصاص أحد اللفظين بأحد الأمرين، والآخر بالآخر، بل يكون المعنى في الذنوب والسيئات واحداً، والتكرير للمبالغة، والتأكيد كما أن معنى الغفر، والتكفير واحد. والغفران: الستر، والتغطية، يقال: رجل مكفر بالسلاح؛ أي: مغطى به، قال لبيد:

فِيْ لَيْلَةٍ كَفَرَ ٱلنُّجُوْمَ ظَلامُهَا

وكذلك التكفير معناه الستر، فهما بمعنى واحد، وإنما ذكرَهما للتأكيد؛ لأن الإلحاحَ في الدعاء، والمبالغةَ فيه مندوب إليه، ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾؛ أي: أمتنا مصاحبين وملتبسينَ بأعمال الأبرار والأخيار المتمسكين بالسنة والطريقة المستقيمة من الأنبياء، والمرسلين، والصديقين، والصالحين، حتى نكون في درجاتهم يوم القيامة، أو المعنى: وتوفنا على الإيمان، واجمعنا مع أرواح النبيينَ والصالحين.

والحاصل: أنهم طلبوا من الله تعالى في هذا الدعاء ثلاثةَ أشياء: غفرانَ الذنوب المتقدمة، وتكفيرَ السيئات المستقبلة، وأن تكون وفاتهم مع الأبرار؛ بأن يموتوا على مثل أعمالهم حتى يكونوا في درجاتهم يوم القيامة، كما يقال: فلان في العطاء مع أصحاب الألوف؛ أي: هو مشارك لهم في أنه يعطي ألفاً، قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ وفي هذا رمز إلى أنهم كانوا يحبون لقاء الله، ومن أحب لقاء الله. أحب الله لقاءه.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا﴾؛ أي: أعطنا ﴿مَا وَعَدتَّنَا﴾ من حسن الجزاء كالنصر في الدنيا، والنعيم في الآخرة جزاءً ﴿عَلَىٰ﴾ تصديق ﴿رُسُلِكَ﴾ واتباعهم، فالجار والمجرور، إمَّا متعلق بوعدتنا؛ أي: وعدتنا على تصديق رسلك، أو متعلق بمحذوف صفة لمصدر محذوف مؤكد للعامل، تقديره: وعدتنا وعداً كائناً على ألسنة رسلك.

---

(١) المراح.
(٢) الشوكاني.

وخلاصة ذلك[1]: أنهم قالوا: أعطنا ذلك بتوفيقنا للثبات على ما نستحق به ذلك، إلى أن تتوفانا مع الأبرار. وفي هذا استشعار بتقصيرهم، وعدم الثقة بثباتهم، إلا بتوفيق الله، ومزيد عنايته. وقرأ الأعمش على ﴿رسْلك﴾ بإسكان السين. ﴿وَلَا تُخۡزِنَا﴾؛ أي: لا تهنا، ولا تفضحنا، ولا تهتك سترنا ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ بإدخالنا النارَ التي يخزى من دخلها، ﴿إِنَّكَ﴾ يا إلهي ﴿لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾؛ أي: لا تخلف ما وعدتَ به على الإيمان، وصالح العمل، فقد وعدتَ المؤمنين بسيادة الدنيا في قولك: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وقلت: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ ووعدت بسعادة الآخرة، فقلت: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

فإن قلتَ[2]: كيف سألوا الله إنجازَ ما وَعَد، والله لا يخلف الميعاد؟

قلتُ: معناه أنهم طلبوا من الله تعالى التوفيقَ فيما يحفظ عليهم أسبابَ إنجاز الميعاد، وقيل: هو من باب اللجاء إلى الله تعالى، والتذلل له، وإظهار الخضوع والعبودية؛ كما أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يستغفرون الله مع علمهم أنهم مغفور لهم، يقصدون بذلك التذللَ لربهم سبحانه وتعالى، والتضرعَ إليه، واللجاء إليه، الذي هو سيما العبودية. وقيل: معناه ربنا، واجعلنا ممن يستحق ثوابكَ، وتؤتيهم ما وعدتَهم على ألسنة رسلك؛ لأنهم لم يتيقنوا استحقاقَهم لتلك الكرامة؛ فسألوه أن يجعلَهم مستحقين لها. وقيل: إنما سألوه تعجيلَ ما وعدهم من النصر على الأعداء، قالوا: قد علمنا أنك لا تخلف الميعاد، ولكن لا صَبْرَ لنا على حلمِك فعجلِ هلاكهم، وأنصرنا عليهم.

قال العلماء[3]: ويستحب لمن انتبه من نومه أن يمسح على وجهه، ويستفتح قيامه بقراءة هذه العشر آيات، اقتداء بالنبي ﷺ ثبت ذلك في «الصحيحين»، وغيرهما ثم يصلي ما كتب له، فيجمع بين التفكر والعمل. وفي الآثار عن جعفر الصادق: من حزبه أمرٌ فقال: ربنا خمس مرات أنجاه الله مما يخاف، وأعطاه ما

---

(1) المراغي.
(2) الخازن.
(3) البحر المحيط.
(4) البحر المحيط.

أراد، واستدل بهذه الآية: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾؛ أي: أجاب لهم ربهم سبحانه وتعالى دَعاءهم بـ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ﴾، ولا أبطل، ولا أحبط ﴿عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ أيها المؤمنون، سواء كان ذلك العامل ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بل أثيبكم على ما فعلتم من الخيرات؛ فلا تفاوت في الإجابة، وفي الثواب بين الذكر والأنثى إذا كانا في التمسك بالسنة والعمل بالطاعة على السواء ﴿بَعْضُكُم﴾ أيها المؤمنون والمؤمنات ﴿مِّنۢ بَعْضٍ﴾؛ أي: كبعض في الثواب على الطاعة، والعقاب على المعصية؛ لأن تكليفي عام لكل من النوعين. وقيلَ: بعضُكم من بعض في الدين، والنصرة، والموالاة. وقيل: الذكر من الأنثى، والأنثى من الذكر، فكلكم من آدَمَ وحواء.

وهذه الجملة معترضة، بيَّن الله سبحانه وتعالى بها شركةَ النساءَ الرجالَ فيما وعده الله عبادَه العاملين.

وقرأ الجمهور(1) ﴿أَنِّي﴾ بفتح الهمزة، وإسقاط الباءِ، أي: بأني، وهو مطرد إذا أمن اللبس كما قال ابن مالك:

نَقْلاً وَفِيْ أَنَّ وَأَنْ يَطَّرِدُ مَعْ أَمْنِ لَبْسٍ كَعَجِبْتُ أَنْ يَدُوْا

وقرأ أبي ﴿بأنى﴾ بإثبات الباء، وهي للسببية؛ أي: فاستجاب لهم ربهم؛ بسبب أنه لا يضيع عملَ عامل منهم، والمراد بالإضاعة تركُ الإثابة، وقرأ عيسى بن عمر ﴿إنّي﴾ بكسر الهمزة، فيكون على إضمار القول على قول البصريين، أو على الحكاية بقوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ﴾ لأن فيه معنى القول على طريقة الكوفيين. وقرأ الجمهور ﴿أُضِيعُ﴾ من أضاع الرباعي، وقرأ بعضهم ﴿أُضيِّع﴾ بالتشديد من ضيع المضعف، والهمزة، والتشديد فيه: للنقل.

ويستنبط من هذه الآية أمور كثيرة:

منها: أن الاستجابة يصح أن تكون بغير ما طلبَ، فقد سألوه غفرانَ الذنوب وتكفيرَ السيئات، والوفاةَ مع الأبرار، فأجابهم بأن كل عامل سيوفَى جزاءَ

---

(1) المراغي.

عمله، وفي ذلك تنبيه على أن العبرةَ في النجاة من العذاب والفوز بحسن الثواب إنما تكون بإحسان العمل، والإخلاص فيه.

ومنها: أن الذكر والأنثى متساويان عند الله في الجزاء متى تساويَا في العمل، حتى لا يغتر الرجل بقوته، ورياسته على المرأة، فيظن أنه أقربُ إلى الله منها.

ومنها: أن الله قد بين علة هذه المساواة بقوله: بعضكم من بعض، فالرجل مولود من المرأة، والمرأة مولودة من الرجل، فلا فرق بينهما في البشرية، ولا تفاضل إلا بالأعمال.

ومنها: أنها رفعَتْ قَدْر النساء المسلمات في أنفسهن، وعند الرجال المسلمين.

ومنها: أن هذا التشريع قد أصلح معاملةَ الرجل للمرأة، واعترَفَ لها بالكرامة، وأنكرَ تلك المعاملةَ القاسيةَ التي كانت تعاملها بها بعض الأمم، فقد كان بعضها يعدها كالبهيمة المسخرة لمصلحة الرجل، وبعضُها يعدها غير أهل للتكاليف الدينية؛ إذ زعموا أنه ليس لها روح خالد، فما زعمه الإفرنج من أنهم السباقون إلى الاعتراف بكرامة المرأة، ومساواتها للرجل؛ ليس مبنياً على أساس صحيح، فالإسلام هو الذي سبق كل الشرائع في هذا، ولا تزال شرائعهم الدينيةُ، والمدنية تميز الرجل من المرأة، نعم إن المسلمين قصروا في تعليم النساء، وتربيتهن، لكن هذا لا يصلح حجةً على الدين نفسه.

ومنها: أن ما يفضل به الرجالُ النساء من العلم والعقل، وما يقومون به من الأعمال الدنيوية التي جرى عرف المجتمع على إسنادها إلى الرجال، وجعل حظ الرجل في الإرث مثلَ حظ الانثيين؛ لأنه يتحمل نفقة امرأته؛ فلا دخل لشيء منه في التفاضل عند الله بثواب ولا عقاب.

ثم فصل الله سبحانه وتعالى العملَ الذي أجمله في قوله: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ﴾ بقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ وارتحلوا معه ﷺ أو بعده من مكة إلى

المدينة، وفارقوا أوطانَهم التي ولدوا فيها طلباً لرضا الله ورسوله ﷺ ﴿وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾؛ أي: ألجأهم الكفار إلى الخروج من منازلهم التي تربوا فيها ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ وديني، وطاعتي؛ أي: آذاهم وأضرهم المشركون بسبب إيمانهم بالله، وعملهم بما شرعه الله تعالى لعباده، وهم المهاجرون الذين أخرجهم المشركون من مكة، فهاجر طائفة إلى الحبشة، وطائفة إلى المدينة قبل هجرة رسول الله ﷺ وبعد هجرته. فلما استقر رسول الله ﷺ في المدينة رجع إليه من كان هاجر إلى الحبشة من المسلمين ﴿وَقَـٰتَلُواْ﴾ الكفار أعداءَ الله، وجاهدوهم لإعلاء كلمة الله، ونصر دينه مع رسوله ﷺ ﴿وَقُتِلُواْ﴾ بالبناء للمفعول؛ أي: واستشهدوا في جهاد الكفار.

وقرأ[1] جمهورُ السبعة ﴿وَقَـٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي ﴿وقتلوا وقاتلوا﴾ يبدآنِ بالمبني للمفعول، ثم بالمبني للفاعل فتتخرَّج هذه القراءة على أن الواو لا تدل على الترتيب، فيكون الثاني وقع أولاً، ويجوز أن يكون ذلك على التوزيع، فالمعنى قتل بعضهم، وقاتل باقيهم. وقرأ عمر بن عبد العزيز ﴿وقتلوا وقتلوا﴾ ببناء الأول للفاعل، وبناء الثاني للمفعول، وهي قراءة حسنة في المعنى مستوفية للحالين على الترتيب المتعارف، وقرأ محارب بن دثار ﴿وقتلوا﴾ بفتح القاف ﴿وقاتلوا﴾ وقرأ طلحة بن مصرف ﴿وقتلوا وقاتلوا﴾ بضم القاف الأولى، وتشديد التاء، وهي في التخريج كالقراءة الأولى. وقرأ أبو رجاء والحسن ﴿وقاتلوا وقتلوا﴾ بتشديد التاء، والبناء للمفعول؛ أي: قطعوا في المعركة.

واللام في قوله ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ جواب قسم محذوف، والقسم وجوابه خبر عن قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾؛ أي: لأمحون عنهم ذنوبهم، ولأغفرنها لهم؛ أي: وعزتي وجلالي، لأسترن ذنوبَ هؤلاء الموصوفين بالصفات السابقة بمحض فضلي ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ﴾ وبساتينَ ﴿تَجْرِى﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ أي من تحت أشجارها وقصورها ﴿ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾؛ أي: أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من

---

(١) البحر المحيط.

لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من عسل مصفى، وأنهار من خمر لذة للشاربين. وقوله: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لمعنى قوله: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ﴾ والمعنى: ولأثيبن هؤلاء المذكورين بالثواب المذكور إثابةً كائنةً من عند الله؛ أي: من فضل الله وإحسانه إليهم، لا وجوباً عليه ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾؛ أي: الثواب الحسن، والجزاء الموفر، وهي الجنة التي فيها ما لاعين رأت، ولا أذن سمعَت، ولا خطرَ على قلب بشر، وهذا تأكيد لكون ذلك الثواب الذي أعطاهم من فضله، وكرمه؛ لأنه جواد كريم.

وقد وعد[1] الله تعالى هؤلاء الموصوفينَ بالصفات السابقة بأمور ثلاثة:

الأول: محو السيئات، وغفران الذنوب، ودل على ذلك بقوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ وذلك ما طلبوه بقولهم: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾.

الثاني: إعطاء الثواب العظيم، وهو قوله: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وهذا ما طلبوه بقولهم ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾.

والثالث: أن يكون هذا الثواب عظيماً مقروناً بالتعظيم والإجلال، وهو قوله: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وهذا ما طلبوه بقولهم، ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾. والمعنى: لأكفرن عنهم سيئاتهم، ولأدخلنهم الجنات، ولأثيبنهم بذلك ثواباً من الله لا يقدر عليه غيره. ولما قال بعض المؤمنين: إن أعداء الله فيما نرى من الخير، والسعة، والتمتع، والتقلب في البلاد في أسفارهم للتجارة، والمكاسب، ونحن في الجهد، والضيق، والفقر، والجوع.. نزل قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾، والخطاب فيه لرسول الله ﷺ والمراد غيره من الأمة؛ لأنه ﷺ معصوم عن الاغترار بذلك، والمعنى: لا يخدَعَنَّك، ولا يغرنك أيها المخاطب ﴿تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: تنقلهم وضَرْبهُم في البلاد، وأرجاء الأرض، وأَمْنهم في تقلباتهم للتجارات، وطلب الأرباح، والمكاسب وتَبسُّطهم في المعاش والملاذ.

وخلاصة المعنى: لا يغرنكم أمنهم على أنفسهم وتصرفهم ﴿فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ كيف

---

(١) المراغي.

شاؤوا، وأنتم معاشرَ المؤمنين خائفون محصورون، فإنَّ ذلك لا يبقى إلا مدةً قليلة، ثم ينتقلون إلى أشدِّ العذاب؛ فعلى المؤمن أن يجعل مرمى طرفه ذلك الثواب الذي وعده الله، فهو النعيم الحقيقي الباقي.

وقرأ[1] ابن أبي إسحاق، ويعقوب لا يغرنك، ولا يصدنك، ولا يصدنكم، ولا يغرنكم، وشبهه بالنون الخفيفة ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ خبر لمحذوف تقديره؛ ذلك التقلب، والتبسط شيء قليل، متعوا به، ومنفعة يسيرة زائلة، لا تدوم لا قدرَ لها في مقابلة ما أعد الله للمؤمنين من الثواب، قال ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعَه في اليم، فلينظر بم يَرجع». رواه مسلم. ﴿ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ﴾؛ أي: ثم المكان الذي يأوون إليه، وينزلون فيه إنما هو ﴿جَهَنَّمُۚ﴾، وعبر بالمأوى إشعاراً بانتقالهم عن الأماكن التي تقلبوا فيها، وكان البلاد التي تقلبوا فيها إنما كانت لهم أماكن انتقال من مكان إلى مكان لا قرارَ لهم، ولا خلودَ، ثم المأوى الذي يأوون إليه، ويستقرون فيه هو جهنم ﴿وَبِئۡسَ﴾ وقبح ﴿ٱلۡمِهَادُ﴾ والفراش لهم، والمخصوص بالذم جهنم ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ﴾ لما تضمن[2] ما تقدم أن ذلك التقلب والتصرف في البلاد، هو متاع قليل، وإنهم يأوون بعد إلى جهنم، فدل على قلة ما متعوا به؛ لأن ذلك منقض بانقضاء حياتهم، ودل على استقرارهم في النار.. استدركَ بلكن الإخبارَ عن المتقين بمقابل ما أخبر به عن الكافرين، وذلك شيئان:

أحدهما: مكان استقرار، وهي الجنات.

والثاني: ذكر الخلود فيها، وهو الإقامة دائماً، والتمتع بنعيمها سرمداً فقابل جهنم بالجنات، وقابل قلة متاعهم بالخلود. الذي هو الديمومة في النعيم، فوقعت لكن هنا أحسن موقع؛ لأنه آل معنى الجملتين إلى تعذيب الكفار، وإلى تنعيم المتقين فهي واقعة بين الضدين. وقرأ الجمهور ﴿لكن﴾ خفيفةَ النون، وقرأ أبو جعفر بالتشديد، ولم يظهر لها عمل؛ لأن اسمها مبني؛ أي: لكن المؤمنون

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

الذين اتقوا، وخافوا عقاب ربهم بفعل المأمورات، واجتناب المنهيات، وإن أخذوا في التجارات، والمكاسب لهم جنات وبساتين ﴿تَجْرِي﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها وقصورها ﴿الْأَنْهَارُ﴾ من الماء، واللبن، والخمر، والعسل حالة كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الجنات أبداً لا يموتون، ولا يخرجون منها، فلا يضرهم التبسط في الدنيا، إذا كان على الوجه المعروف في الشرع، فذم الدنيا ومعيشتها للكافر خاصة كما قال بعضهم:

مَا أَحْسَنَ الدِّيْنَ وَالدُّنْيَا إِذَا اجْتَمَعَا   لاَ بَارَكَ اللَّهُ فِيْ دُنْيَا بِلاَ دِيْنِ

حالة كون تلك الجنات ﴿نُزُلًا﴾؛ أي: جزاء وثواباً، وعطاءً، وإكراماً، واقعاً لهم ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ ضيافة معدةً لهم من فضله، وكرمه سبحانه وتعالى. والنزل في الأصل ما يهيأ للضيف النازل من القِرَى والطعام، والشراب النفيس، وفي الآية: إيماء إلى أن النازلينَ فيها ضيوف عند ربهم، يحفهم بلطفه، ويخصهم بكرمه، وجوده، وهذه الجنات نعيم جسماني لهم، وهناك نعيم روحاني أعطاه الله بمحض الفضل والإحسان، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى من الكرامة فوق ما تقدم كرؤية الله عز وجل، أو من الثواب الدائم ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل ﴿لِّلْأَبْرَارِ﴾؛ أي: للموحدين مما يتقلب فيه الكفار، والفجار في الدنيا من المتاع القليل السريع الزوال.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: جئت رسول الله ﷺ فإذا هو في مشربة، وإنه لعلَى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدم، حشوها ليف، وعند رجليه قرظ مصبور، وعند رأسه أُهَبٌ معلقة، فرأيت أثَر الحصير في جنبه، فبكيت فقال: «ما يبكيك»؟ قلت: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هم فيه، وأنت رسول الله. فقال: «أمَا ترضَى أن تكون لهم الدنيا، ولنا الآخرة». متفق عليه. وهذا لفظ البخاري. والمشربة الغرفة والعليةُ والمشاربُ العلالي.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾؛ أي: وإن من اليهود والنصارى ﴿لَمَن يُؤْمِنُ﴾ ويصدق ﴿بـ﴾ وحدانية ﴿الله﴾ تعالى كعبد الله بن سلام، وأصحابه، والنجاشي، وأصحابه ﴿و﴾ يؤمن بـ﴿ما أنزل إليكم﴾ من القرآن ﴿و﴾ يؤمن بـ﴿ما أنزل إليهم﴾

من التوراة، والإنجيل، والزبور حالةَ كونهم ﴿خَٰشِعِينَ﴾؛ أي: متواضعين ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى بامتثال المأمورات، واجتناب المنهيات ﴿لَا يَشْتَرُونَ﴾ أي: لا يأخذون (بـ) كتمان ﴿آيات الله﴾ من أمر محمد ﷺ ونعته من سَفَلتهم ﴿ثَمَنًا قَلِيلًاۚ﴾؛ أي: عوضاً يسيراً من الدنيا؛ كما يفعله غيرهم من أهل الكتاب، يعني لا يغيرون كتبهم، ولا يحرفونها، ولا يكتمون صفة محمد ﷺ لأجل الرئاسة، والمآكل، والرشا كما يفعلُه رؤساء اليهود.

والحاصلُ[1]: أنه سبحانه وتعالى لما بين حال المؤمنين، وما أعد لهم من الثواب، وحالَ الكافرين، وما هيأ لهم من العقاب.. ذكر هنا حالَ فريق من أهل الكتاب يهتدون بهذا القرآن، وكانوا من قبله مهتدين بما عندهم من هديِ الأنبياءِ، وقد وصفهم الله تعالى بصفات كلها تستحق المزيَّةَ والشرفَ:

الأولى: الإيمان بالله إيماناً لا تشوبه نزعات الشرك، ولا يفارقه الإذعانُ الباعثُ على العمل، لا كمن قال الله فيهم: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

الثانية: الإيمان بما أنزل إلى المؤمنين، وهو ما أوحاه الله تعالى إلى نبيه محمد ﷺ.

الثالثة: الإيمان بما أنزل إليهم، وهو ما أوحاه الله تعالى إلى أنبيائهم، والمراد به: الإيمان به إجمالاً وما أرشد إليه القرآن تفصيلاً فلا يضيرُ في ذلك ضياع بعضه، ونسيان بعضه الآخر.

الرابعة: الخشوع، وهو الثمرة للإيمان الصحيح؛ فإن الخشوع أثر خشية الله في القلب، ومنه تفيض على الجوارح والمشاعر، فيخشعُ البصر بالانكسار، ويخشع الصوت بالخفوت والتهدج[2].

---

(١) المراغي.

(٢) **تهدج الصوت**: تقطُّعه في ارتعاش.

الخامسة: عدم اشتراء شيء من متاع الدنيا بآيات الله، وهذا أثر لما قبله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الصفات الحميدة المذكورة ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾؛ أي: لهم ثواب أعمالهم، وأجر طاعتهم حالَ كونه مدخراً لهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بنعمه، وهداهم إلى الحق، وإلى الصراط المستقيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ أي: سريع لإيصال الأجر الموعود إليهم من غير حاجة إلى تأمل؛ لكونه عالماً بجميع الأشياء، فيعلم ما لكل واحد من الثواب والعقاب، فهو يحاسب الناسَ جميعَهم في وقت قصير، فيتمثل لهم ما كسبته أيديهم، وانطوت عليه جوانحهم، وهو مكتوب في صحائف أعمالهم، فما أحرانا أن نشبهها بالصور المتحركة الأفلام التي تعرض فيها الحوادث والوقائع في عصرنا الحاضر، وقد ختم الله سبحانه وتعالى هذه السورةَ بوصية للمؤمنين، إذا عملوا بها كانوا أهلاً لاستجابة الدعاء، وأحق بالنصر في الدنيا وحسن المثوبة في الآخرة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ﴾ على[1] شدائد الدنيا وآلامها من مرض، وفقر، وخوف، أو على تكاليف دينكم، وأدائها، وعلى مشقة الاحتراز عن المنهيات ﴿وَصَابِرُواْ﴾؛ أي: تحملوا المكارهَ التي تلحقكم من غيركم، ويدخل في ذلك احتمالُ الأذى من الأهل والجيران، وترك الانتقام ممن يسيء إليكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وايثار غيركم على أنفسكم كما قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ والعفو عمن ظلمكم كما قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ودفع شبه المبطلين، وحل شكوكهم، والإجابة عن شبههم.

﴿وَرَابِطُواْ﴾؛ أي: اربطوا خيلكم في الثغور كما يربط العدو خيله استعداداً للقتال، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ ويدخل في هذا كل ما ولده العلم في هذا العصر من وسائل الدفاع من طائرات، وقاذفات للقنابل، ودبابات، ومدافع رشاشة، وبنادق، وأساطيل بحرية، ونحو

(١) المراغي

ذلك مما صار الآن ضرورياً من آلات الحروب الحديثة، وصار من فقدها يشبه أن يكون أعزلَ من السلاح، وإن كان مدججاً به، ويلزم هذا أن يكونوا عالمين بفنون الحرب، والخطط العسكرية بارعين في العلوم الطبيعية، والرياضية، فكل ذلك واجب على المسلمين في هذا العصر؛ لأن الاستعدادَ المأمور به في الآية لا يتم إلا به.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله، أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها». متفق عليه.

وعن سلمان الخير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم وليلة، خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه. جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه، وأمن الفتان». رواه مسلم.

وفي سنن أبي داود قال: «كل الميت يختم على عمله، إلا المرابط، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتاني القبر». وقيل: المراد بالمرابطة: انتظار الصلاة بعد الصلاة، قال أبو سلمة بن عبد الرحمٰن: لم يكن في زمن النبي ﷺ غزو يرابط فيه، ولكنه انتظار الصلاة خلف الصلاة.

ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات» قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط». أخرجه مسلم.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفة أمره ونهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: لكي تظفروا السعادةَ الأبديةَ في الدنيا والآخرة، قال[1] محمد بن كعب القرظي يقول الله عز

---

(١) الخازن.

وجل: واتقوا الله فيما بيني وبينكم، لعلكم تفلحون غداً إذا لقيتموني. وقال[1] بعضهم في معنى هذه الآية: يا أيها الذين آمنوا اصبروا على بلائي، وصابروا على نعمائي، ورابطوا على مجاهدة أعدائي، واتقوا محبة سوائي لعلكم تفلحون بلقائي. وقيل: اصبروا على النعماء، وصابروا على البأساء، والضراء، ورابطوا في دار الأعداء، واتقوا إله الأرض والسماء، لعلكم تفلحون في دار البقاء. وقيل: اصبروا على الدنيا ومحنها، رجاءَ السلامة، وصابروا عند القتال بالثبات والاستقامة، ورابطوا على مجاهدة النفس اللوامة، واتقوا ما يعقبكم الندامةَ لعلكم تفلحون غداً في دار الكرامة، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

ولقد[2] أكثر الله تعالى في كتابه من ذكر التقوى، ويراد بها الوقاية من سخط الله وغضبه، ولا يكون هذا إلا بعد معرفته، ومعرفة ما يرضيه وما يسخطه، ولا يعرف هذا إلا من فهم كتاب الله، وعَرَفَ سنةَ نبيه وسيرة السلف الصالح من الأمة الإسلامية، ومن فعل كل ما تقدم فصبرَ، وصابَرَ، ورابطَ لحماية الحق، وأهله، ونشَرَ دعوته، واتقى ربه في سائر شؤونه فقد أفلح، وفاز بالسعادة عند ربه.

الإعراب

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب وتوكيد. ﴿فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الجار والمجرور متعلق بواجب الحذف لوقوعه خبراً مقدماً لـ﴿إن﴾ تقديره: إن آيات دالات على وحدانية الله لكائنة لأولي الألباب في خلق السموات ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة. ﴿وَٱخْتِلَٰفِ﴾ معطوف على ﴿خَلْقِ﴾، وهو مضاف. ﴿ٱلَّيْلِ﴾ مضاف إليه. ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾

(١) الخازن. (٢) المراغي.

معطوف على الليل. ﴿لَآيَٰتٍ﴾ اللام حرف ابتداء. ﴿آيات﴾ اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر منصوب بالكسرة. ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف صفة ﴿لَآيَٰتٍ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل الجر صفة ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿قِيَٰمًا﴾ حال من فاعل ﴿يذكرون﴾. ﴿وَقُعُودًا﴾ معطوف عليه. ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ الواو عاطفة. ﴿على جنوبهم﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف معطوف على ﴿قِيَٰمًا﴾ على كونه حالاً من فاعل ﴿يَذْكُرُونَ﴾، تقديره: وحالة كونهم مضطجعين على جنوبهم، ففي الآية عطف الحال المؤولة على الحال الصريحة عكسَ قوله تعالى: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾، و﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على جملة ﴿يَذْكُرُونَ﴾ على كونه صلة الموصول. ﴿فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿يتفكرون﴾. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. وقوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ مقول محكي لقول محذوف تقديره: يقولون: ربنا ما خلقت هذا باطلاً، وجملة القول المحذوف حال من فاعل ﴿يتفكرون﴾، تقديره: ويتفكرون في خلق السموات والأرض حالةَ كونهم قائلينَ ربنا ما خلقت هذا باطلاً. ﴿رَبَّنَا﴾ رب منادى مضاف. ﴿نا﴾ مضاف إليه، وجملة النداء في محل النصب مقول للقول المحذوف كما سبق آنفاً. ﴿مَا خَلَقْتَ﴾ ﴿ما﴾ نافية. ﴿خَلَقْتَ﴾ فعل وفاعل. ﴿هَٰذَا﴾ مفعول به ﴿بَٰطِلًا﴾ حال من اسم الإشارة، وهو الأحسن في إعرابه، وهي حال لا يستغنى عنها إذ لو حذفت للزم نفي الخلق، وهو لا يصح أو مفعول من أجله؛ أي: ما خلقت هذا للباطل، والعبث، والجملة الفعلية في محل النصب مقول للقول المذكور. ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً تقديره: سبحناكَ، ونزهناك عن كل ما لا يليق بك

سبحانك، وجملة التسبيح جملة معترضة بين قوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ وبين قوله: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾. ﴿فَقِنَا﴾ الفاء حرف عطف وسبب؛ لأن ما بعدها متسبب عن قوله ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾؛ لأن المعنى فحيث وحدناك، ونزهناك عن النقائص فقنا عذاب النار؛ لأن النار جزاء من عَصَى، ولم يوحد. ﴿قنا﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ مفعول ثان ومضاف إليه، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ على كونها مقولاً للقول المحذوف.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾.

﴿رَبَّنَآ﴾ ﴿ربَّ﴾ منادى مضاف و﴿نا﴾ مضاف إليه. ﴿إِنَّكَ﴾ ﴿إن﴾ حرف نصب وتوكيد. ﴿الكاف﴾ في محل النصب اسمها. ﴿مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ﴾ من اسم شرط في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿تدخل﴾ وجوباً لكونه مما يلزم الصدارة. ﴿تُدْخِلِ ٱلنَّارَ﴾ فعل ومفعولٍ ثان في محل الجزم على كونه فعل شرط لمن، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿فَقَدْ﴾ الفاء رابطة لجواب من وجوباً لكونه مقروناً بـ﴿قد﴾. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿أَخْزَيْتَهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه جواب الشرط لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول للقول المحذوف. ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الواو عاطفة. ﴿ما﴾ نافية. ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ ﴿من﴾ زائدة. ﴿أَنصَارٍ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ على كونها مقولاً للقول المحذوف.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ﴾.

﴿رَّبَّنَآ﴾ ﴿ربَّ﴾ منادى مضاف و﴿نا﴾ مضاف إليه. ﴿إِنَّنَا﴾ إن حرف نصب و﴿نا﴾ اسمها. ﴿سَمِعْنَا﴾ فعل وفاعل. ﴿مُنَادِيًا﴾ مفعول به، وجملة ﴿سَمِعْنَا﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول للقول المحذوف على كونها جواب النداء ﴿يُنَادِى﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على المنادي، والجملة في محل النصب صفة ﴿مُنَادِيًا﴾. ﴿لِلْإِيمَٰنِ﴾ جار ومجرور

متعلق بـ﴿ينادى﴾. ﴿أَنْ ءَامِنُواْ﴾ أن تفسيرية بمعنى؛ أي: ﴿ءَامِنُواْ﴾ فعل وفاعل. ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿آمنوا﴾ والجملة الفعلية جملة مفسرة لـ﴿ينادى﴾ لا محل لها من الإعراب، وإن شئت قلت: ﴿أن﴾ مصدرية. ﴿ءَامِنُواْ﴾ فعل وفاعل في محل النصب، وجملة أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء المحذوفة المتعلقة بـ﴿ينادي﴾ تقديره. ينادي بطلب إيمانكم. ﴿فَـَٔامَنَّاۚ﴾ الفاء حرف عطف وتعقيب. ﴿آمنا﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿سَمِعْنَا﴾ على كونها مقولاً للقول المحذوف.

﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾.

﴿رَبَّنَا﴾ منادى مضاف ومضاف إليه. ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ الفاء حرف عطف وترتيب. ﴿اغفر﴾ فعل دعاء، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿لَنَا﴾ متعلق بـ﴿اغفر﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿أمنا﴾. ﴿ذُنُوبَنَا﴾ مفعول به، ومضاف إليه ﴿وَكَفِّرْ﴾ فعل دعاء معطوف على ﴿فَٱغْفِرْ﴾. ﴿عَنَّا﴾ متعلق به. ﴿سَيِّـَٔاتِنَا﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿وَتَوَفَّنَا﴾: فعل ومفعول به وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿فاغفر﴾. ﴿مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿توفنا﴾، أو بمحذوف حال من ضمير المفعول تقديره: حالة كوننا مصاحبينَ للأبرار.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾.

﴿رَبَّنَا﴾ منادى مضاف ومضاف إليه. ﴿وَءَاتِنَا﴾ الواو عاطفة ﴿آتنا﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَٱغْفِرْ﴾، ﴿مَا وَعَدتَّنَا﴾ ﴿ما﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان ﴿لآتنا﴾ لأنه بمعنى أعطنا. ﴿وَعَدتَّنَا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: وعدتناه. ﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بوعدتنا؛ ولكنه على حذف مضاف تقديره: على ألسنة رسلك كما مر في بحث التفسير. ﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾ الواو عاطفة ﴿لا﴾ ناهية.

﴿تُخۡزِنَا﴾ فعل ومفعول به مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَٱغۡفِرۡ﴾. ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿تخزنا﴾. ﴿إِنَّكَ﴾ ﴿إن﴾ حرف نصب ومصدر و﴿الكاف﴾ اسمها. ﴿لَا﴾ نافية. ﴿تُخۡلِفُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول للقول المحذوف على كونها معللة لقوله ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا﴾.

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾.

﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة[1] إما على مقدر، تقديره: دعوا ربهم بهذا الدعاء، فاستجاب لهم، والجملة المحذوفة مستأنفة، وإما على قوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿استجاب﴾ فعل ماض. ﴿لَهُمۡ﴾ جار ومجرور متعلق به. ﴿رَبُّهُمۡ﴾ فاعل ومضاف إليه، والجملة معطوفة على ذلك المحذوف. ﴿أَنِّي﴾ ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر، والياء اسمها. ﴿لَآ أُضِيعُ﴾ لا نافية. ﴿أُضِيعُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَمَلَ عَٰمِلٖ﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿مِّنكُم﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿عامل﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع، خبر ﴿أن﴾؛ وجملة ﴿أن﴾. في تأويل مصدر مجرور بالباء المحذوفة، تقديره: بعدم إضاعة عمل عامل. ﴿مِّنكُم﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿استجاب﴾ هذا على قراءة فتح الهمزة، وأما على قراءة كسرها، فمقول لقول محذوف تقديره: فاستجاب لهم ربهم بقوله: أني لا أضيع عمل عامل منكم. ﴿مِّن ذَكَرٍ﴾ جار ومجرور بدل من الجار والمجرور في قوله ﴿مِّنكُم﴾ بدل تفصيل من مجمل بإعادة العامل، أو بدل ﴿من﴾ لفظ ﴿عامل﴾ على جعل ﴿من﴾ زائدة، كأنه قال: لا أضيع عمل ذكر. ﴿أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾ معطوف على ذكر. ﴿بَعۡضُكُم﴾ مبتدأ، ومضاف إليه. ﴿مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، فالجملة معترضة لاعتراضها بين المجمل أعني قوله: ﴿عَمَلَ

---

(١) الشوكاني.

عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾، وبين ما فصل به عمل العاملين من قوله ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾. ولذلك قال الزمخشري ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾، تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم. وقيل[1]: هي في محل التعليل للتعميم في قوله: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾ فكأنه قيل: إنما سوى بين الفريقين في الثواب لاشتراكهم في الأصل، والدين، والمعنى: كما أنكم من أصل واحد، وأن بعضكم مأخوذ من بعض، فكذلك أنتم سواء في ثواب العمل، لا يثاب رجل عامل دونَ امرأة.

﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾.

﴿فَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنّي لا أضيع عمل عامل منكم، وأردت بيانَ كيفية عدم الإضاعة، فأقول لك. ﴿الذين﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ. ﴿هَاجَرُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿وَأُخۡرِجُواْ﴾ فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿هَاجَرُواْ﴾. ﴿مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أخرجوا﴾. ﴿وَأُوذُواْ﴾ فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿هَاجَرُواْ﴾ أيضاً. ﴿فِي سَبِيلِي﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق ﴿بأوذوا﴾. ﴿وَقَٰتَلُواْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿هاجروا﴾. و﴿وَقُتِلُواْ﴾ فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿هَاجَرُواْ﴾. ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ ﴿اللام﴾ موطئة لقسم محذوف تقديره: وعزتي وجلالي لأكفرن. ﴿أكفرن﴾ فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، ونون التوكيد: حرف لا محل لها من الإعراب، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿عَنۡهُمۡ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أكفرن﴾. ﴿سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً مفصلة لعملِ العاملين المجمل أولاً.

---

(١) الجمل.

﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾.

﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿لأدخلنهم﴾ ﴿اللام﴾ موطئة للقسم. ﴿أدخلن﴾ فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح، لاتصاله بـ﴿نون التوكيد﴾، وفاعله ضمير يعود على الله. و﴿الهاء﴾ ضمير الغائبين في محل النصب مفعول أول. ﴿جَنَّٰتٍ﴾ مفعول ثان، وجملة القسم المحذوف في محل الرفع معطوفة على جملة القسم في قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ﴾. ﴿تَجْرِي﴾ فعل مضارع. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق به. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فاعل، والجملة الفعلية صفة لـ﴿جنات﴾ ولكنها سببية. ﴿ثَوَابًا﴾ حال من ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ولكنها مؤولة بمشتق تقديره: حالة كونها مثاباً بها، أو حال من ضمير المفعول في قوله: ﴿لأدخلنهم﴾ تقديره، حالة كونهم مثابين. ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۗ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه صفة لـ﴿ثواباً﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ. ﴿عِندَهُۥ﴾ ظرف، ومضاف إليه خبر مقدم للمبتدأ الثاني. ﴿حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ مبتدأ ثان، ومضاف إليه، والتقدير: والله الثواب الحسن كائن عنده، والجملة الاسمية مستأنفة. وفي «الفتوحات»[1] قوله: ﴿حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ الأحسن: أنه فاعل بما تعلق به ﴿عِندَهُۥ﴾؛ أي: مستقر عنده؛ لأن الظرف قد اعتمد بوقوعه خبراً، والإخبار بالمفرد أولى.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾﴾.

﴿لَا﴾ ناهية. ﴿يغرن﴾ فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد: حرف لا محل له من الإعراب، مبني على الفتح. ﴿الكاف﴾ ضمير المخاطب في محل النصب مفعول به مبني على الفتح. ﴿تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ﴾ فاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة ﴿كَفَرُوا۟﴾ فعل وفاعل. ﴿فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ متعلق به، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل.

---

(١) الجمل.

﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾.

﴿مَتَٰعٞ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو متاع يعود على تقلبهم. ﴿قَلِيلٞ﴾ صفة لـ﴿متاع﴾ والجملة مستأنفة. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف، وترتيب مع تراخ. ﴿مَأۡوَىٰهُمۡ﴾ مبتدأ، ومضاف إليه. ﴿جَهَنَّمُۚ﴾ خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾. ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ الواو استئنافية. ﴿بئس المهاد﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع، خبر للمبتدأ المحذوف وجوباً، الذي هو المخصوص بالذم تقديره، هي يعود على جهنم، والجملة من المبتدأ المحذوف وخبره، جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨﴾.

﴿لَٰكِنِ﴾ حرف استدراك. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ. ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾ فعل وفاعل. ﴿رَبَّهُمۡ﴾ مفعول به ومضاف إليه، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿لَهُمۡ﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿جَنَّٰتٞ﴾ مبتدأ ثان مؤخر عن خبره، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره، في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول، وخبره جملة استدراكية لا محل لها من الإعراب. ﴿تَجۡرِي﴾ فعل مضارع. ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق به. ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ فاعل، والجملة الفعلية في محل الجر صفة لـ﴿جنات﴾، ولكنها سببية. ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من الضمير في قوله ﴿لَهُمۡ﴾، والعامل فيه معنى الاستقرار. ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿خالدين﴾. ﴿نُزُلٗا﴾ حال من ﴿جَنَّٰتٞ﴾ لتخصصه بالصفة، والمعنى حال كون تلك الجنات ضيافةً وإكراماً من الله لهم، أعدها كما يعد القرى للضيف إكراماً له. ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه صفة لـ﴿نزلا﴾. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ ﴿ما﴾ مبتدأ. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ ظرف، ومضاف إليه صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها. ﴿خَيۡرٞ﴾ خبر للمبتدأ. ﴿لِّلۡأَبۡرَارِ﴾ صفة لـ﴿خير﴾ أو متعلق به، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾.

﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب وتوكيد. ﴿مِنۡ أَهۡلِ

﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر مقدم لـ﴿إِنْ﴾.
﴿لَمَن﴾ ﴿اللام﴾ حرف ابتدأ. ﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل النصب، اسم إن مؤخر، والتقدير: وإن من يؤمن بالله.. لكائن من أهل الكتاب، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة. ﴿يُؤْمِنُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾، وفيه مراعاة للفظ ﴿من﴾. ﴿بِٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يؤمن﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ما﴾ اسم موصول في محل الجر معطوف على لفظ الجلالة. ﴿أُنزِلَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾ والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها. ﴿إِلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ﴿أنزل﴾.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ﴾.

﴿وَمَآ﴾ **﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ما﴾ اسم موصول في محل الجر معطوف على لفظ الجلالة.** ﴿أُنزِلَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾ ﴿إِلَيْهِمْ﴾ متعلق به، والجملة صلة الموصول. ﴿خَٰشِعِينَ﴾ حال من ضمير ﴿يُؤْمِنُ﴾ في قوله: ﴿لَمَن يُؤْمِنُ﴾ وفيه مراعاة لمعنى ﴿من﴾ لأنه راعى معنى ﴿من﴾ في سبعة مواضع أولها ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ وآخرها ﴿عِندَ رَبِّهِمْ ۗ﴾ ﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿خاشعين﴾ ﴿لَا يَشْتَرُونَ﴾ ﴿لا﴾ نافية. ﴿يَشْتَرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب حال ثانية من ضمير ﴿يُؤْمِنُ﴾. ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿يشترون﴾ ﴿ثَمَنًا﴾: مفعول به لـ﴿يَشْتَرُونَ﴾. ﴿قَلِيلًا ۗ﴾ صفة لـ﴿ثمنا﴾.

﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ أول ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور خبر مقدم للمبتدأ الثاني. ﴿أَجْرُهُمْ﴾ مبتدأ ثان مؤخر، ومضاف إليه، والتقدير: أولئك أجرهم كائن لهم، والجملة مستأنفة. ﴿عِندَ رَبِّهِمْ ۗ﴾ ظرف، ومضاف إليه حال من أجرهم تقديره: حال كونه مدخراً لهم عند ربهم ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها. ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ خبرها، ومضاف إليه، والجملة مستأنفة بمنزلة التعليل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء. ﴿أي﴾. منادى نكرة مقصودة، و﴿الهاء﴾ حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة ﴿لأي﴾ وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُواْ﴾ صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿ٱصْبِرُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب النداء. وكذلك ﴿وَصَابِرُواْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱصْبِرُواْ﴾. وكذلك جملة ﴿وَرَابِطُواْ﴾ معطوف عليه. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱصْبِرُواْ﴾. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ﴿لعل﴾ حرف نصب وترج وتعليل بمعنى كي. ﴿والكاف﴾ اسمها ﴿تُفْلِحُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة لعل في محل الجر بلام التعليل المقدرة المعللة لجمل الأفعال المذكورة قبلها، والمعنى: اتصفوا بالصبر، وما بعده لطَلب فلاحكم ورجائه والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الخلق: مصدر قياسي لخلق من باب فَعل المفتوح المعدَّى، وهو إما باق على مصدريته، فيكون بمعنى التقدير، والترتيب الدال على النظام، والإتقان، أو بمعنى اسم المفعول؛ أي: مخلوقهما، و﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جمع سماء، وهو ما علاك مما ترى فوقك، والأرض ما تعيش عليه.

﴿لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ﴿والألباب﴾: جمع لب، كأقفال جمع قفل، وهو العقل.

﴿قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ ﴿قِيَٰمًا وَقُعُودًا﴾ جمعان لقائم، وقاعد، وأجيز[1] أن يكونا مصدرين، وحينئذ يتأولان على ذوي قيام وقعود، ولا حاجة إلى هذا ﴿بَٰطِلًا﴾ الباطل: العبث الذي لا فائدة فيه، والشيء الزائل الذاهب، ومنه قول لبيد:

أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ ٱللّٰهَ بَاطِلُ

---

(١) جمل.

﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ اسم مصدر لسبح الرباعي، وهو من الأسماء التي تلزم النصب على المصدرية، ومعناه تنزيهاً لك عما لا يليق بك ﴿فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾ من أخزى الرباعي، من باب: أفعل من مزيد الثلاثي ﴿ذُنُوبَنَا﴾ جمع ذنب، وهو[1] التقصير في المعاملة بين العبد وربه ﴿سَيِّـَٔاتِنَا﴾ جمع سيئة، وهي التقصير في حقوق العباد، ومعاملة الناس بعضهم بعضاً.

﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ جمع بار، كصاحب وأصحاب، وهو المحسن في العمل، أو جمع بر أصله برر، ككتف وأكتاف اهـ سمين ﴿لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾: مصدر ميمي، بمعنى الوعد، لا بمعنى المكان، والزمان ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ﴾ ﴿استجاب﴾ من باب: استفعل، فالسين والتاء فيه زائدتان، لأنه بمعنى أجاب الرباعي، ويتعدى بنفسه، وباللام ﴿أُضِيعُ﴾ من أضاع الرباعي، فهو من مزيد الثلاثي، لأن ثلاثيه ضاع من باب باع ﴿ثَوَابًا﴾ الثواب اسم مصدر، لأثاب الرباعي، يقال: أثابه إثابة، وثواباً، والثواب. هنا بمعنى الإثابة، التي هي المصدر فهو مصدرَ معنوي مؤكد لمعنى لأكفرن، ولأدخلنهم، فمعنى المجموع لأثيبنهم إثابةً، وإن كان في الأصل إسماً لما يثاب به كالعطاء اسم لما يعطى به.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ من غر الثلاثي المضاعف المعدي يقال: غرني ظاهره؛ أي: قبلته على غفلة عن امتحانه، ويقال في الثوب إذا نشر، ثم أعيد إلى طيه: رددته على غره ﴿تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ والتقلب: مصدر لتقلب الخماسي الذي هو من باب تفعل؛ أي: تصرفهم في التجارات، وتنقلهم في البلاد آمنين لطلب المكاسب ﴿مَتَٰعٌ﴾ اسم مصدر من أمتع الرباعي؛ أي: ذلك الكسب والربح الحاصل لهم متاع ﴿قَلِيلٌ﴾ وإنما وصفه بالقليل؛ لأنه قصير الأمد ﴿ومأواهم جهنم﴾، والمأوى اسم مكان من أوى يأوي، من باب رمي يقال: أوى الرجل البيتَ يأوي إواءً ومأوى بالفتح على القياس؛ إذا نزل فيه، والمأوى مكانُ النزول. وجهنم اسم لطبقة من طباق النار يجازي بها الكافرون في الأخرة، ﴿ٱلۡمِهَادُ﴾ اسم للمكان

---

(١) المراغي.

الموطأ كالفراش والنزلُ بضمتين ما يهيأ للضيف النازل. وفي «السمين»: النزل ما يهيأ للضيف، هذا أصله ثم اتسع فيه، فأطلق على الرزق والغذاء، وإن لم يكن ضيف، ومنه ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ وفيه قولان: هل هو مصدر، أو جمع نازل. انتهى ﴿لِّلْأَبْرَارِ﴾ جمع بار، وهو المتصف بالبر؛ أي: الإحسان كما مر ﴿وَصَابِرُوا۟﴾؛ أي: غالبوا أعداءكم بالصبر على شدائد القتال والحرب، وهو من باب: فاعل الرباعي فيدل على المفاعلة ﴿وَرَابِطُوا۟﴾؛ أي: أقيموا في الثغور رابطين خُيولَكم حابسينَ لها، مترصدينَ للغزو، فهو من باب: فاعل دال على المفاعلة أيضاً. وأصل[1] المرابطة: أن يربط هؤلاء خيولَهم، وهؤلاء خيولَهم بحيث يكون كل من الخصمين مستعداً لقتال الآخر، ثم قيل لكل مقيم بثغر يدفع عمن وراءه مرابط، وإن لم يكن له مركوب مربوط. والتقوى: اسم من اتقى يتقى إتقاء ثلاثيه تقى يتقي، كقضى يقضي، والتقوى أن تقي نفسك وتحفظها من غضب الله وسخطه. والفلاح: اسم مصدر من أفلح، وهو الفوز، والظفر بالبغية المقصودة من العمل.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات من ضروب البيان والبديع أنواعاً[2]:

منها: الاختصاص في قوله: ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وفي قوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾، و﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾، و﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، و﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ فكان مقتضى الظاهر أن يقال: وما لهم، أو وما له، مراعاةً لمعنى ﴿من﴾ أو لفظها.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿أن آمنوا فآمنا﴾، و﴿عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾.

ومنها: المغايرُ في قوله: ﴿مُنَادِيًا يُنَادِى﴾.

ومنها: الإشارة في قوله: ﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾.

---

(١) الخازن.

(٢) البحر المحيط بتصرف.

ومنها: التنكير للتفخيم في قوله: ﴿لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ودخلت اللام في خبر إن لزيادة التأكيد.

ومنها: الالتفات إلى التكلم والخطاب في قوله: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ لإظهار كمال الاعتناء بشأن الاستجابة وتشريف الداعين.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ و﴿ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ فالسماء جهة العلو، والأرضُ جهة السفل، والليل عبارة عن الظلمة، والنهار: عبارة عن النور، و﴿قِيَٰمًا﴾ و﴿قعوداً﴾ و﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿رَّبَّنَآ﴾ حيث كرر خمس مرات، والغرض منه: المبالغة في التضرع، وفي ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ إن كان المعنى واحداً، وفي ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ وفي ﴿ثَوَابًا﴾ و﴿حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾؛ أي: على ألسنة رسلك، وكذلك في قوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: قائلين ربنا.

والاستعارة بسماع المنادى إن كان القرآن عن ما تلقوه من الأمر والنهي، والوعد والوعيد، وبالاستجابة عن قبول مسألتهم، وبانتفاء التضييع عن عدم مجازاته على يسير أعمالهم، وبالتقلب عن ضربهم في الأرض لطلب المكاسب، وبالمهاد عن المكان المستقر فيه، وبالنزل عما يعجل الله لهم في الجنة من الكرامة، وبالخشوع الذي هو تهدم المكان، وتغير معالمه عن خضوعهم، وتذللهم بين يديه، وبالسرعة التي هي حقيقة في المشي عن تعجيل كرامته.

قيل: ويحتمل أن يكون الحساب أستعير للجزاء كما استعير ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾؛ لأن الكفار لا يقام لهم حساب كما قال تعالى: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾.

ومنها: الحذف في مواضع.

فإن قلت[1]: ما الفائدة في الجمع بين ﴿مُنَادِيًا﴾ و﴿يُنَادِي﴾؟

---

(١) جمل.

قلتُ: أجاب الزمخشري بأنه ذكر النداء مطلقاً، ثم مقيداً بالإيمان تفخيماً لشأن المنادي، لأنه لا منادي أعظم من مناد ينادي للإيمان، وذلك أن المنادي إذا أطلق ذهب الوهم إلى مناد للحرب، أو لإطفاء السائرة، أو لإغاثة الملهوف، أو لكفاية بعض النوازل، أو لبعض المنافع، فإذا قلت ينادي للإيمان فقد رفعت شأنَ المنادي وفخمته ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ وأتى هنا بالصلة مستقبلةً، وإن كان ذلك قد مَضَى دلالةً على الاستمرار والدوام[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) هذا آخر ما أوردناه على سورة آل عمران من التفاسير، وفرغنا منه في تاريخ: ١٤٠٨/٨/٢٦ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة، وأزكى التحية.

سورة النساء[1]

سورة النساء: مدنية كلها على الصحيح، فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما نزلت سورة النساء، إلا وأنا عند رسول الله ﷺ وقد بَنَى النبي ﷺ بعائشة في المدينة، في شوال من السنة الأولى من الهجرة.

وآياتُها مئة وخمس أو ست أو سبع وسبعون آية، وكلماتها ثلاثة آلاف وخمس وأربعون كلمة، وحروفها ستةَ عشرَ ألف حرف، وثلاثون حرفاً.

التسمية: وسميت سورة النساء لكثرة ما ورد فيها من الأحكام التي تتعلق بهن، بدرجة لم توجد في غيرها من السور، ولذلك أطلق عليها سورةُ النساء الكبرى في مقابلة سورة النساء الصغرى التي عرفت في المصحف بسورة الطلاق.

مناسبتها: والمناسبة بينها وبين سورة آل عمران من أوجه[2]:

منها: أن آل عمران ختمت بالأمر بالتقوى، وافتتحت هذه السورة بذلك، وهذا من آكد المناسبات في ترتيب السورة.

ومنها: أن في السابقة ذكرَ قصة أحد مستوفاة، وفي هذه ذيل لها، وهو قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ فإنه نزل في هذه الغزوة على ما ستعرفه بعد.

ومنها: أنه ذكر في السالفة الغزوة التي بعد أحد، وهي غزوة حمراء الأسد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ وأشير إليها هنا في قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ الآية.

وقال أبو حيان[3]: مناسبة هذه السورة لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر أحوال

---

(١) بدأت تفسير هذه السورة في تاريخ: ٢٨/٨/١٤٠٨ هـ

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

المشركين، والمنافقين، وأهل الكتاب، والمؤمنين أولي الألباب، ونبه تعالى بقوله: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم﴾ على المجازاة، وأخبر أن بعضهم من بعض في أصل التوالد، نبه تعالى في أول هذه السورة على إيجاد الأصل، وتفرع العالم الإنساني منه ليحث على التوافق، والتوادد، والتعاطف، وعدم الاختلاف، ولينبه بذلك على أن أصل الجنس الإنساني، كان عابداً لله مفردَه بالتوحيدَ والتقوى، طائعاً له، فكذلك ينبغي أن تكون فروعه التي نشأت منه، فنادى تعالى دعاءً عاماً للناس، وأمرهم بالتقوى التي هي ملاك الأمر، وجعل سبباً للتقوى تذكاره تعالى إياهم بأنه أوجدهم، وأنشأهم من نفس واحدة، ومن كان قادراً على مثل هذا الإيجاد الغريب الصنع، وإعدام هذه الأشكال، والنفع، والضر.. فهو جدير بأن يتقى انتهى.

ذكر ما حوته هذه السورة من الموضوعات[1]

١ ـ الأمر بتقوى الله تعالى في السر والعلن.

٢ ـ تذكير المخاطبين بأنهم خلقوا من نفس واحدة.

٣ ـ أحكام القرابة والمصاهرة.

٤ ـ أحكام الأنكحة والمواريث.

٥ ـ أحكام القتال.

٦ ـ الحجاج مع أهل الكتاب.

٧ ـ بعض أخبار المنافقين.

٨ ـ الكلامُ مع أهل الكتاب إلى ثلاث آيات في آخرها.

وبالجملة: اشتملت هذه السورة على ذكر حقوق النساءِ والأيتام، وخاصةً اليتيمات اللاتي في حجور الأولياء، والأوصياء، فقررت حقوقَهن في الميراث،

(١) المراغي.

والكسب، والزواج، واستنقذتهن من أسر الجاهلية، وتقاليدها الظالمة المهينة.

وتعرضت لموضوع المرأة فصانت كرامتَها، وحفظت كيانها، ودعت إلى إنصافها بإعطائها، حقوقها التي فرضها الله تعالى لها كالمهر، والميراث وإحسان العشرة.

وتعرضت لأحكام المواريث على الوَجْهِ الدقيق العادلِ الذي يكفل العدالةَ، ويحقق المساواة، وأفصحت عن المحرمات من النساء بالنسب، والرضاع، والمصاهرة.

واشتملت على تنظيم العلاقات الزوجية، وبينت أنها ليست علاقةَ جسد، وإنما هي علاقة إنسانية، وأن المهر ليس أجراً ولا ثمناً، وإنما هو عطاء يوثق المحبةَ، ويديم العشرةَ ويربط القلوبَ.

وذكرت حق الزوج على زوجته، وحق الزوجة على زوجها، وأرشدَتْ إلى الخطوات التي ينبغي أن يسلكها الرجل لإصلاح الحياة الزوجية عندما يبدأ الشقاقُ، والخلاف بين الزوجين، وبينت معنى قوامة الرجل، وأنها ليست قوامةَ استعباد، وتسخير، وإنما هي قوامة نصح، وتأديب التي تكون بين الراعي ورعيته.

ثم انتقلت من دائرة الأسرة إلى دائرة المجتمع، فأمرت بالإحسان في كل شيء، وبينت أن أساس الإحسان التكافل، والتراحم والتناصح، والتسامح، والأمانة، والعدل حتى يكون المجتمع راسخَ البنيان قوي الأركان، ومن الإصلاح الداخلي انتقلت الآيات إلى الاستعداد للأمن الخارجيّ الذي يحفظ على الأمة استقرارها، وهدوءها، فأمرت بأخذ العدة لمكافحة الأعداء.

ثم وضعت بعض قواعد المعاملات الدولية بين المسلمين، والدول الأخرى المحايدة، أو المعادية، واستتبع الأمر بالجهاد جملةً ضخمةً على المنافقين، فهم نابتة السوء، وأصول الشر التي ينبغي الحذر منها، وقد تحدثت السورة الكريمة عن مكايدهم وخطرهم، كما أومأت إلى خطر أهل الكتاب، وخاصة اليهود وموقفهم من رسل الله الكرام.

ثم ختمت السورة ببيان ضلالات النصارى، في أمر المسيح عيسى ابن مريم، حيث غالوا فيه حتى عبدوه، ثم صلبوه؛ أي: جعلوه صليباً مصوراً معبوداً لهم مع اعتقادهم بألوهيته، واخترعوا فكرة التثليث فأصبحوا كالمشركين الوثنيين، وقد دعتهم الآيات إلى الرجوع عن تلك الضلالات إلى العقيدة السمحة الصافية عقيدة التوحيد، وصدق الله تعالى حيث قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ﴾.

قيل[1]: وجعل هذا المطلع مطلعاً لسورتين إحداهما: هذه، وهي الرابعة من النصف الأول، والثانية: سورة الحج، وهي الرابعة من النصف الثاني، وعلل هنا الأمر بالتقوى بما يدل على معرفة المبدأ، وهناك بما يدل على معرفة المعاد.

فضلها: وقد ورد[2] في فضل هذه السورة ما أخرجه الحاكم في «مستدركه» عن عبد الله بن مسعود قال: إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ﴾ الآية، و﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآيـــة، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ الآيـــة، و﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية. ثم قال: هذا إسناد صحيح، إن كان عبد الرحمٰن بن عبد الله بن مسعود سمع من أبيه، وقد اختلف في ذلك.

الناسخ والمنسوخ منها: قال أبو عبد الله محمد بن حزم[3]: سورة النساء مدنية تحتوي على أربع وعشرين آية منسوخة:

الأولى منها: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾ مدنية النساء نسخت بأية المواريث وهي قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾ الآية ١١ مدنية النساء.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

(٣) الناسخ والمنسوخ.

والثانية منها: قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ الآية ٩ النساء نسخت بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ الآية ١٨٢ مدنية البقرة.

والثالثة منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ ١٠ مدنية النساء، وذلك أنه لما نزلت هذه الآية امتنعوا من أموال اليتامى، وعزلوهم فدخل الضررُ على الأيتام، ثم أَنْزَل[1] الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ ٢٢٠ البقرة. من المخالطة ركوب الدابة، وشرب اللبن فرخص في المخالطة، ولم يرخص في أكل الأموال بالظلم ثم قال عز وجل: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ٦ النساء، فهذه الآية نسخت الأولى، والمعروف هنا: القرض فإذا أيسر رده، فإن مات قبل ذلك. فلا شيء عليه.

والرابعة منها: قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ﴾ الآية ١٥ مدنية النساء. كانت المرأة إذا زنت، وهي محصنة حبست في بيت، فلا تخرج منه حتى تموت، قال رسول الله ﷺ: «خذوا عني قد جعل الله لهن السبيلَ الثيبُ بالثيب الرجمُ، والبكر جلد مائة، وتغريب عام» فهذه الآية منسوخة بعضها بالكتاب، بقوله تعالى: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ ١٥ مدنية النساء. وبعضها بالسنة، وكني فيها بذكر النساء عن ذكر النساء والرجال.

والخامسة منها: قوله تعالى: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا﴾ ١٦ مدنية النساء. كان البكران إذا زنيا عيرا وشتما فنسخ الله ذلك بالآية التي في سورة النور، وهي قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ ٢ مدنية النور.

---

(١) وفي «الخازن»: وقد توهم بعضهم أن قوله: ﴿وإن تخالطوهم﴾ ناسخ لهذه الآية، وهذا غلط ممن توهمه؛ لأن هذه الآية واردة في المنع من أكل أموال اليتامى ظلماً وهذا لا يصير منسوخاً لأن أكل مال اليتيم بغير حق من أعظم الآثام وقوله ﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ وارد على سبيل الاصلاح في أموال اليتامى والإحسان إليهم وهو أعظم القرب. اهـ منه.

والسادسة منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ الآية. ١٧ مدنية النساء، وذلك أن الله تعالى ضمن لأهل التوحيد أن يقبلَ قبل أن يغرغروا، وقال رسول الله ﷺ: «كل من كان قبل الموت» ثم استثنى في الآية بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، فصارت ناسخة لبعض حكمها لأهل الشرك، ثم قال: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إلى آخرها ١٨ النساء.

والسابعة منها: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ إلى قوله: ﴿بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ ١٩ النساء، ثم نسخت بالاستثناء بقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ ١٩ النساء.

والثامنة منها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ نسخت بالاستثناء بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ٢٢ النساء؛ أي: من أفعالهم فقد عفوت عنه.

والتاسعة منها: قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ ٢٣ النساء، نسخت بالاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ يعني عفوت عنه.

والعاشرة: قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ ٢٤ مدنية النساء. نسخت بقوله ﷺ: «إني كنت أحللت هذه المتعةَ، ألا وإن الله ورسوله قد حرمَاها، ألا فليبلغ الشاهد الغائب»، ووقع ناسخها من القرآن موضعَ ذكر ميراث الزوجة الثمنَ، أو الربعَ فلم يكن لها في ذلك نصيب.

وقال الشافعي رحمه الله تعالى: موضع تحريمها في سورة المؤمنين، وناسخها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ ٥ مكية المؤمنون، وأجمعوا على أنها ليست بزوجة، ولا ملك اليمين، فنسخها الله بهذه الآية.

والحادية عشرة منها: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الآية ٢٩ مدنية النساء. نسخت بقوله تعالى في سورة النور:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ ٦١ مدنية النور، وكانوا يجتنبونهم في الأكل، فقال تعالى: ليس على من أكل مع الأعرج والمريض حرج، فصارت هذه الآية ناسخة لتلك الآية.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ الآية ٣٣ مدنية منسوخة، وناسخها قوله تعالى في آخر الأنفال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ الآية ٧٥ مدنية الأنفال.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ الآية ٦٣ مدنية نسخت بآية السيف.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ الآية ٦٤ مدنية النساء. نسخت بقوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الآية ٨٠ مدنية التوبة.

الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ الآية ٧١ مدنية النساء. نسخت بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ ١٢٢ مدنية التوبة.

السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ الآية ٨٠ مدنية النساء. نسختها آية السيف.

السابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ٨١ مدنية النساء. نسخ الأعراض عنهم بآية السيف.

الثامنة عشرة: قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ ٩٠ مدنية النساء. نسخها الله بآية السيف.

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾ ١٩١ النساء. نسخها الله بأية السيف.

العشرون منها: قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ الآية ٩٢ مدنية

النساء. نسخها الله تعالى بقوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ ١ مدنية التوبة.

الحادية والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ الآية. ٩٣ مدنية النساء. نسخت بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ ٤٨، ١١٦ النساء. وبالآية التي في الفرقان، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ ٦٨ مدنية. الفرقان.

الثانية والعشرون: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ ١٤٥ النساء. نسخ الله بعضها بالاستثناء بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟﴾ الآية ١٤٦ النساء.

الثالثة والعشرون، والرابعة والعشرون. قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ ٨٨ النساء. وقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ ٨٤ النساء نسخهما آية السيف، فتكون مع هاتين أربعاً وعشرين آية. انتهى.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ (٣) وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا (٤) وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٥) وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا (٦) لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧) وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٨) وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا (٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ...﴾ مناسبتها للآية التي في آخر السورة السابقة - أعني قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ - ظاهرةٌ؛ لأن كلا الآيتين آمرة بالتقوى كما سبق.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ...﴾ الآيات، مناسبتها[1] لما قبلها: أنه لما وصل الأرحام.. أتبع بالأيتام؛ لأنهم صاروا بحيث لا كافلَ لهم، ففارق

---

(١) البحر المحيط.

حالهم حال من له رحم. ذكره أبو حيان.

وقيل: مناسبتها أنه سبحانه وتعالى لما[1] افتتح السورة بذكر ما يجب على العبد أن ينقادَ له من التكاليف؛ ليبتعد عن سخطه وغضبه في الدنيا والآخرة.. شرع يذكر أنواعها، وأولها: إيتاء اليتامى أموالهم، وثانيها: حكم ما يحل عدده من الزوجات، ومتى يجب الاقتصار على واحدة؛ ثم أوجب إيتاء الصداق لهن.

قوله تعالى ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها أنه سبحانه وتعالى، لما أمر في الآيات السالفة بإيتاء اليتامى أموالهم، وبإيتاءِ النساء مهورهن.. أتى في هذه الآية بشرط للإيتاء يشمل الأمرين معاً، وهو أن لا يكون كل منهما سفيهاً مع بيان أنهم يرزقون فيها، ويكسون ما دامت في أيديهم مع قول المعروف لهم، حتى تحسن أحوالهم، وأنه لا تسلم إليهم الأموال إلا إذا أونس منهم الرشد، وأنه لا ينبغي الإسراف في أكل أموال اليتامى، فمن كان من الأولياء غنياً.. فليعف عن الأكل من أموالهم، ومن كان فقيراً.. فليأكل بما يبيحه الشرع، ويستجيزه أرباب المروءة.

قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ..﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها، أنه سبحانه وتعالى لما ذكر في الآيات السابقة حرمة أكل أموال اليتامى، وأمر بإعطائهم أموالَهم إذا رشدوا، ومنع أكل مهور النساء أو تزويجَهن بغير مهر.. ذكر هنا أن المال الموروث الذي يحفظه الأولياء لليتامى، يشترك فيه الرجال والنساء، وقد كانوا في الجاهلية لا يورثون النساء، والأولاد الصغار، ويقولون: لا يرث إلا من طاعن بالرماح، وحاز بالغنيمة، ثم أمر بإحسان القول إلى اليتامى؛ لأن اليتيم مرهف الحس، يألم للكلمة تهينه، ولا سيما ذكر أبيه، وأمه بسوء، وقلما يوجد يتيم لا يمتهن، ولا يقهر بالسوء من القول، ثم طلب الإشفاقَ عليهم ومعاملتَهم بالحسنى، فربما يترك الميت ذريةً ضعافاً يود أن غيره

---

(١) المراغي.

يعاملهم بمثل هذه المعاملة، وبعد ذلك شدد في الوعيد، ونفر من أكل أموال اليتامى ظلماً، وجعل أكله كأكل النار.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما روى عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت: يا ابن أختي، هذه اليتيمة تكون في حجر وليها، تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالُها، فيريد وليها أن يتزوجَها بغير أن يقسط في صداقها، فيعطيَها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا عن ذلك، إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا لهن أعلى سنتهن في الصداق، فأمروا أن ينكحوا ما طَابَ لهم من النساء سواهن، وإن الناس استفتوا رسولَ الله ﷺ بعد هذه الآية، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ...﴾ الآية. أخرجه البخاري ومسلم.

وأخرج البخاري، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها أنّ رجلاً كانت له يتيمة، فنكحها، وكان لها عذق، وكان يمسكها عليه، ولم يكن لها من نفسه شيء، فنزلت فيه ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ أحسبه قال: كانت شريكته في ذلك العذق وفي ماله. الحديث أخرجه ابن جرير في تفسيره بنحوه، وأخرجه مسلم أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ...﴾ سبب نزولها: ما أخرجه[1] ابن أبي حاتم عن أبي صالح قال: كان الرجل إذا زوج ابنتَه أَخذَ صداقها، دونها، نهاهم الله عن ذلك فأنزل ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ...﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما رواه هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ إنها نزلت في مال اليتيم إذا كان

---

(١) لباب النقول.

فقيراً، فإنه يأكل منه مكان قيامه عليه بمعروف. أخرجه البخاري ومسلم.

قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ...﴾ سبب نزولها: ما أخرجه[1] أبو الشيخ، وابن حبان في كتاب الفرائض من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، ولا الصغار من الذكور، حتى يدركوا، فمات رجل من الأنصار، يقال له: أوس بن ثابت، وترك ابنتين وابناً صغيراً، فجاء ابنا عمه خالد، وعرفطة، وهما عصبة، فأخذا ميراثه كله، فأتت امرأته رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك فقال: ما أدري ما أقول: فنزلت ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ...﴾ الآيةَ.

وقال المراغي[2]: وقد روي في سبب نزول هذه الآية ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ...﴾ أن أوس بن الصامت الأنصاري توفي وترك امرأته أم كحلة، وثلاث بنات له منها، فزوى ابنا عمه سويد، وعرفطة ميراثه عنهن، على سنة الجاهلية، فجاءت امرأته إلى رسول الله ﷺ في مسجد الفضيخ مسجد بالمدينة كان سكنه أهل الصفة ـ فشكت إليه أن زوجها أوساً قد مات وخلف ثلاث بنات، وليس عندها ما تنفق عليهن منه، وقد ترك أبوهن مالا حسناً عند ابني عمه لم يعطياها منه شيئاً، وهن في حجري لا يطعمنَ ولا يسقينَ، فدعاهما رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، ولدها لا يركب فرساً، ولا يحمل كلا، ولا ينكأُ عدوا نكسب عليها، ولا تكسب، فنزلت الآية فأثبتت لهن الميراث فقال رسول الله ﷺ: لا تفرقا من مال أوس شيئاً، فإن الله جعل لبناته نصيباً مما ترك، ولم يبين فنزلتْ ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ إلخ فأعطى زوجتَه الثمن، والبنات الثلثين، والباقي لبني العم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا...﴾ سبب نزولها[3] ما روي عن مقاتل بن حيان أن رجلاً من غطفان يقال له مرثد بن زيد، ولي مال يتيم

---

(١) لباب النقول.

(٢) المراغي.

(٣) القرطبي.

صغير، وكان اليتيم ابن أخيه، فأكله فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا. . .﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

افتتح الله سبحانه وتعالى سورةَ النساء بخطاب الناس جميعاً، ودعوتهم إلى تقواه وعبادته وحده منبهاً على قدرته، ووحدانيته، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: يا بني آدم ﴿ٱتَّقُوا۟﴾ وخافوا ﴿رَبَّكُمُ﴾؛ أي: عقاب من رباكم بإحسانه، وتفضل عليكم بجوده بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه في حقه، وحق بعضكم على بعض، والخطاب فيه عام للمكلفين الموجودين، وقت نزول الآية ذكوراً وإناثاً، والحادثين بعد ذلك إلى يوم القيامة بدليل خارجي، وهو الإجماع على أنهم مكلفون بما كلف به الموجودون، أو تغليب الموجودين على من لم يوجد كما غلب الذكور على الإناث في قوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ لاختصاص ذلك بجمع المذكر ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ وأنشأكم، وأوجدكم بطريق التناسل والتوالد ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هي آدم، قرأ الجمهور واحدة بالتاء على تأنيث لفظ النفس، وقرأ ابن أبي عبلة ﴿واحد﴾ بغير هاء على مراعاة المعنى، إذ المراد به آدم، فالتأنيث باعتبار اللفظ، والتذكير باعتبار المعنى، وقوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا﴾؛ أي: من تلك النفس الواحدة التي هي آدم ﴿زَوْجَهَا﴾؛ أي: أمكم حواء قيل[1]: هو معطوف على مقدر يدل عليه المقام؛ أي: خلقكم من نفس واحدة خلقها أولاً، وخلق منها زوجها ثانياً، وقيل: على خلقكم فيكون الفعل الثاني مع الأول داخلاً في حيز الصلة.

وخلقها منه لم يكن بتوليد كخلق الأولاد من الآباء، فلا يلزم منه ثبوت حكم البنتية له، والأختية لنا فيها، فلا يقال: إذا كانت مخلوقةً من آدم، ونحن مخلوقون منه أيضاً تكون نسبتها إليه نسبة الولد، فتكون أختاً لنا لا أماً، روي[2] أن الله سبحانه وتعالى لما خلق آدم عليه السلام، ألقى عليه النوم، ثم خلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى، وهو قصير، فلما استيقظ رآها جالسة عند رأسه

---

(١) الشوكاني. (٢) الخازن.

فقال لها: من أنت؟ قالت: امرأة. قال: لماذا خلقت؟ قالت: خلقت لتسكن إلي؟ فمال إليها، وألفها؛ لأنها خلقت منه.

واختلفوا في أي وقت خلقت حواء، فقال كعب الأحبار، ووهب، وابن إسحاق: خلقت قبل دخولها الجنة، وقال ابن مسعود، وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ: إنما خلقت في الجنة بعد دخوله إياها، والله أعلم.

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾؛ أي: نشر من تلك النفس الواحدة، وزوجها بطريق التوالد؛ أي: أظهر وفرق من آدم وحواء ﴿رِجَالًا كَثِيرًا﴾، وذكوراً عديداً، ﴿وَنِسَآءً﴾ كثيرةً، ونشرهم في أقطار الأرض على اختلاف أصنافهم، وصفاتهم، وألوانهم، ولغاتهم، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر. إنما وصف الرجال بالكثرة دون النساء؛ لأن حال الرجال أتم، وأكمل، وهذا كالتنبيه على أن اللائق بحال الرجال الظهور، والاشتهار، وبحال النساء الاختفاء، والخمول، وإنما أمرهم بتقوى خالقهم الذي خلقهم على هذا النظام؛ لأن خلقه تعالى لهم على هذا النمط البديع من أقوى الداعي إلى الاتقاء من موجبات نقمته، ومن أتم الزواجر عن كفران نعمته، وذلك لأنه ينبىء عن قدرة شاملة لجميع المقدورات التي من جملتها عقابهم، وعن نعمة كاملة لا يقدر قدرها.

فالتقوى نوعان: تقوى في حقه تعالى، وتقوى فيما بينهم من الحقوق، وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ استدعاء للتقوى الأولى، وقوله ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ استدعاء للتقوى الثانية، فالناس جميعاً من أصل واحد، وهم أخوة في الإنسانية، والنسب، ولو أدرك الناس هذا.. لعاشوا في سعادة، وأمان، ولما كان بينهم حروب طاحنة مدمرة تلتهب الأخضر واليابس وتقضي على الكهل والوليد. وقرىء[1] ﴿وخالق منها زوجها وباث منهما﴾ على صيغة اسم الفاعل، وهو خبر مبتدأ محذوف تقديره: وهو خالق ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: خافوا عقاب الله الذي تتحالفون، وتتناشدون به؛ أي: يناشد، ويسأل بعضكم بعضاً به حيث

(١) البحر المحيط.

يقول: أسألك بالله، وأنشدك بالله؛ أي: أقسم وأحلف عليك به، والتساؤل[1] بالله هو كقولك: أسألك بالله، وأحلف عليك بالله، واستشفع إليك بالله.

وإنما كرر[2] الأمر بالتقوى؛ لأجل بيان بعض آخر من موجبات الامتثال؛ لأن سؤال بعضهم لبعض بالله يقتضي الاتقاء من مخالفة أوامره ونواهيه. وقرأ الجمهور من السبعة ﴿تَسَآءَلُونَ﴾ قرأ أهل الكوفة منهم: بحذف التاء الثانية، تخفيفاً لاجتماع المثلين، وأصله: تتساءلون، وقرأ أهل المدينة، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر بالتشديد بإدغام التاء الثانية في السين.

وقرأ عبد الله ﴿تسألون به﴾ مضارع سأل الثلاثي، وقرىء ﴿تسلون﴾ بحذف الهمزة، ونقل حركتها إلى السين. قال ابن عباس: معنى تساءلون به؛ أي: تتعاطفون، وقال الضحاك، والربيع، تتعاقدون، وتتعاهدون، وقال الزجاج: تتطلبون به حقوقكم.

﴿و﴾ اتقوا ﴿الأرحام﴾؛ أي: خافوا عقاب قطيعة مودة الأرحام، فإني قد أوجبت عليكم صلَتَها، فإن قطع الأرحام من أكبر الكبائر وصلتَها باب لكل خير، فتزيد في العمر، وتبارك في الرزق وقطعها سبب لكل شر، ولذلك وصل تقوى الرحم بتقوى الله، وصلة الرحم تختلف باختلاف الناس، فتارةً تكون عادته مع رحمه الصلةَ بالإحسان، وتارةً بالخدمة، وقضاء الحاجة، وتارةً بالمكانية، وتارة بحسن العبارة وغير ذلك، ولا فرق في الرحم؛ أي: القريب بين الوارث وغيره، كالخالة والخال والعمة وبنتها، والأم والجد والجدة، وفي الآية دليل على تعظيم حق الرحم والنهي عن قطعها، ويدل على ذلك أيضاً، الأحاديث الواردة في ذلك، وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «الرحم معلقة بالعرش، تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله». متفق عليه.

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سره أن يبسط عليه من رزقه، وينسأ في أثره، فليصل رحمه»، متفق عليه. قوله: يُنسأ في أثره؛ أي:

---

(1) الخازن.   (2) الجمل.

يؤخر له في أجله.

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة قاطع». قال سفيان في روايته: يعني قاطع رحم. متفق عليه.

وعن الحسن قال: من سألك بالله.. فأعطه، ومن سألك بالرحم. فأعطه..

وعن ابن عباس قال: الرحم معلقة بالعرش، فإذا أتاها الواصل.. بشت به، وكلمته، وإذا أتاها القاطع.. احتجبت عنه.

وقرأ جمهور[1] السبعة ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾ بالنصب على أن يكون معطوفاً على لفظ الجلالة؛ أي: اتقوا الله، واتقوا الأرحام فصلوها، ولا تقطعوها، أو معطوفاً على محل الجار والمجرور كقولك: مررت بزيدٍ وعمراً. وقرأ حمزة بالجر، وهي قراءة النخعي، وقتادة، والأعمش عطفاً على الضمير المجرور، والمعنى عليه: واتقوا الله الذي تساءلون به وبالأرحام؛ لأن العادة جرت في العرب بأن أحدهم قد يستعطف غيره بالرحم، فيقول: أسألك بالله، والرحم، وربما أفرد ذلك فقال: أسألك بالرحم، وهو ضعيف عند البصريين؛ لأنه كالعطف على بعض الكلمة؛ لأن العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة خافض، وإن كان لغةً فصيحةً فهو خلاف الكثير، كما أشار إلى ذلك ابن مالك بقوله:

وَعَوْدُ خَافِضٍ لَدَىٰ عَطْفِ عَلَىٰ ... ضَمِيْرِ خَفْضٍ لاَزِمَاً قَدْ جُعِلاَ
وَلَيْسَ عِنْدِيْ لاَزِمَاً إِذْ قَدْ أَتَىٰ ... فِيْ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ ٱلصَّحِيْحِ مُثْبَتَا

وأشار بالنثر الصحيح إلى الآية، وبالنظم إلى قول الشاعر:

فَٱلْيَوْمَ قَدْ بِتَّ تَهْجُوْنَا وَتَشْتِمُنَا ... فَٱذْهَبْ فَمَا بِكَ وَٱلأَيَّامِ مِنْ عَجَبِ

وقرأ عبد الله بن يزيد بالرفع على أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره: والأرحام كذلك؛ أي: مما يتقى أو يتساءل به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾؛ أي: حافظاً مطلعاً على جميع ما يصدر عنكم من الأفعال والأقوال،

---

(١) البحر المحيط.

وعلى ما في ضمائركم من النيات مريداً لمجازاتكم على ذلك.

والرقيب في صفته هو الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء من أمر خلقه، فبين بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ أنه يعلم السر وأخفى، ومن كان كذلك.. فهو جدير بأن يخاف ويتقى.

ثم ذكر تعالى اليتامى فأوصى بهم خيراً، وأمر بالمحافظة على أموالهم فقال: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾؛ أي: وأعطوا اليتامى والصغارَ الذين لا أب لهم، أموالهم التي في أيديكم، إذا بلغوا رشداء، والخطاب فيه للأولياءِ، والأوصياء واليتامى الصغار الذين مات آباؤهم، وإن كان لهم أجداد وأمهات.

وإطلاق[1] اسم اليتامى عليهم عند إعطائهم أموالَهم، مع أنهم لا يعطونها إلا بعد ارتفاع اسم اليتيم عنهم بالبلوغ مجاز باعتبار ما كانوا عليه، ويجوز أن يراد باليتامى: المعنى الحقيقي، وبالإيتاء ما يدفعه الأولياء والأوصياء إليهم من النفقة، والكوسة لا دفعها جميعها، وهذه الآية مقيدة بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ ولا يكون مجرد ارتفاع اليتم بالبلوغ مجوزاً لدفع أموالهم إليهم، حتى يؤنَسَ منهم الرشد.

وقال أبو السعود[2]؛ أي: لا تتعرضوا لأموال اليتامى بسوءٍ حتى تأتيَهم، وتصلَ سالمةً، سواء أريد باليتامى الصغار، أو ما يعم الصغارَ والكبارَ، ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ﴾؛ أي: لا تتبدلوا الحرامَ الذي هو مال اليتامى ﴿بِٱلطَّيِّبِ﴾؛ أي: بالحلال الذي هو مالكم الذي أبيح لكم من المكاسب، بأن تتركوا أموالكم الطيبَ لكم، وتأكلوا أموالَ اليتامى من الخبيث عليكم لجودتها على أموالكم، واختلفوا[3] في هذا التبدل، فقال سعيد بن المسيب، والنخعي، والزهري، والسدي: كان أولياء اليتامى يأخذون الجيدَ من مال اليتيم، ويجعلون مكانَه الرديء، فربما كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة، ويجعل مكانَها الهزيلةَ، ويأخذ

---

(١) الشوكاني.
(٢) أبو السعود.
(٣) الخازن.

الدرهمَ الجيدَ، ويجعل مكانَه الزيف، ويقول: شاة بشاة، ودرهم بدرهم، فذلك تبديلهم فنهوا عنه، وقال عطاء: هو الربح في مال اليتيم، وقيل: هو أكل مال اليتيم عوضاً عن أكل أموالهم فنهوا عنه.

وخلاصة ذلك(١): واحفظوا أيها الأولياء والأوصياء أموالَ اليتامى، ولا تتعرضوا لها بسوءٍ، وسلموها لهم متى آنستم منهم رشداً ولا تتمتعوا بأموالهم في المواضع، والحالات التي من شأنكم أن تتمتعوا فيها بأموالكم، فإذا فعلتم ذلك.. فقد جعلتم مالَ اليتيم بدلاً من مالكم.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ﴾؛ أي: أموال اليتامى مخلوطةً ومضمومةً ﴿إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ حتى لا تفرقوا بين أموالهم وأموالكم في الانتفاع بها؛ لأن في ذلك قلة مبالاة بما لا يحل، وتسوية بين الحرام والحلال، فإنه لا يحل لكم من أموالهم ما زاد على قدر الأقل من أجرتكم ونفقتكم.

والمراد بالأكل هنا: سائر التصرفات المهلكة للأموال، وإنما ذكر الأكلَ؛ لأن معظم ما يقع من التصرفات؛ فهو لأجله ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن أكل أموال اليتامى بغير حق ﴿كَانَ﴾ عند الله تعالى ﴿حُوبًا﴾؛ أي: ذنباً ﴿كَبِيرًا﴾؛ أي: عظيماً، وإثماً شديداً.

والمعنى(٢): أن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم، وخطأُ كبير فاجتنبوه.

فإن اليتيم ضعيفٌ لا يقدر على حفظ ماله، والدفاع عنه، فهو في حاجة إلى رعاية، وحماية، وظلم الضعيف عند الله عظيم. وقرأ الجمهور(٣) ﴿حُوبًا﴾ بضم الحاء، وقرأ الحسن ﴿حَوبا﴾ بفتح الحاء، وهي لغة تميم، وغيرهم وقرأ أبي بن كعب ﴿حَاباً كَبيراً﴾ بالألف، وكلها مصادر كقال قولاً وقالاً. ثم أرشد تعالى إلى ترك التزوج من اليتيمة إذا لم يعطها مهر أمثالها فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ يا أولياء

---

(١) المراغي.
(٢) ابن كثير.
(٣) البحر المحيط.

اليتامى وعلمتم من أنفسكم ﴿أَلَّا تُقْسِطُوا﴾؛ أي: أن لا تعدلوا ﴿فِي الْيَتَامَىٰ﴾ إذا نكحتموهن ﴿فَانكِحُوا﴾؛ أي: فاتركوهن، وتزوجوا ﴿مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ الأجنبيات؛ أي: فتزوجوا من استطابتها، وأحبتها أنفسكم، ومالت إليها قلوبكم من الأجنبيات، أو فانكحوا ما حل لكم من النساء؛ لأن منهن ما حرم الله تعالى كاللاتي في آية التحريم، وقوله: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ بدل من ﴿ما﴾ في قوله: ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾ والواو فيه بمعنى، أو التي للتخيير؛ أي: فانكحوا اثنين اثنين من النساء الأجنبيات، أو ثلاثةً ثلاثةً منها، أو أربعةً أربعةً منها، ولا تزيدوا على أربع؛ أي: فيجوز لكل أحد أن يختار لنفسه قسماً واحداً من هذه الأقسام بحسب حاله، فإن قدر على نكاح اثنين فاثنتان، وإن قدر على ثلاث فثلاث، وإن قدر على أربع فأربع، لا أنه يضم عدداً منها إلى عدد آخر، وأجمعت الأمة على أنه لا يجوز لأحد أن يزيد على أربع نسوة، وأن الزيادة على أربع من خصائص النبي ﷺ التي لا يشاركه فيها أحد من الأمة، ويدل على أن الزيادة على أربع غير جائزة، وأنها حرام ما روي عن الحارث بن قيس أو قيس بن الحارث قال: أسلمت، وعندي ثمان نسوة، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «اختر منهن أربعاً». أخرجه أبو داود.

وعن ابن عمر: أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم، وله عشر نسوة في الجاهلية، فأسلمن معه، فأمره رسول الله ﷺ أن يختار منهن أربعاً. أخرجه الترمذي.

قال العلماء[1]: فيجوز للحر أن يجمع بين أربع نسوة حرائر، ولا يجوز للعبد أن ينكح أكثر من امرأتين، وهو قول أكثر العلماء؛ لأنه خطاب لمن ولي وملك، وذلك للأحرار دون العبيد، وقال مالك في إحدى الروايتين عنه، وربيعة: يجوز للعبد أن يتزوج بأربع نسوة، واستدل بهذه الآية. وأجاب الشافعي بأن هذه الآية مختصة بالأحرار، ويدل عليه آخر الآية، وهو قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا

---

(١) الخازن.

﴿فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ والعبد لا يملك شيئاً، فثبت بذلك أن المراد بحكم الآية الأحرار دون العبيد ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾؛ أي: خشيتم، وقيل: علمتم ﴿أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ بين الأزواج الأربع أو ما دونها من هذه الأعداد في القسمة، والنفقة ﴿فـ﴾ تزوجوا ﴿واحدة﴾ واقتصروا عليها، ولا تزيدوا ﴿أَوْ﴾ استفرشوا ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، وأيديكم من الإماء من غير حصر؛ لأنه لا قسمة لهن عليكم، ولكن لهن حق الكفاية في نفقات المعيشة بما يتعارفه الناس، والمراد استفراشهن بطريق الملك لا بطريق النكاح، وإسناد الملك إلى اليمين لكونها المباشرةَ لقبض الأموال، وإقباضها، ولسائر الأمور التي تنسب إلى الشخص في الغالب ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الاقتصار على الواحدة، أو على التسري بالإماء ﴿أَدْنَىٰٓ﴾، وأقرب إلى ﴿أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ ولا تميلوا من الحق، ولا تجوروا؛ أي: اختيار الواحدة، أو التسري أقرب من عدم الجور والظلم.

والخوف[1] من عدم العدل يصدق بالظن والشك في ذلك، فالذي يباح له أن يتزوج ثانية أو أكثر هو من يثق من نفسه بالعدل ثقةً لا شك فيها.

والخلاصة: أن البعد من الجور سبب في تشريع الحكم، وفي هذا إيماء إلى اشتراط العدل، ووجوب تحريه، وإلى أنه عزيز المنال كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾.

والعدل إنما يكون فيما يدخل تحت طاقة الإنسان، كالتسوية في المسكن، والملبس، ونحو ذلك، أما ما لا يدخل في وسعه من ميل القلب إلى واحدة دون أخرى، فلا يكلف الإنسان بالعدل فيه، وقد كان النبي ﷺ في آخر عهده يميل إلى عائشة أكثر من سائر نسائه، لكنه لا يخصها بشيءٍ دونهن إلا برضاهن، وإذنهن وكان يقول: «اللهم إنّ هذا قسمي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما لا أملك» يريد ميل القلب، وقد استبان لك مما سبق أن إباحة تعدد الزوجات مضيق فيها أشد التضييق، فهي ضرورة تباح لمن يحتاج إليها بشرط الثقة بإقامة العدل،

---

(١) المراغي.

والأمن من الجور.

وصفوة القول[1]: أن تعدد الزوجات يخالف المودة، والرحمة، وسكون النفس إلى المرأة، وهي أركان سعادة الحياة الزوجية؛ فلا ينبغي لمسلم أن يقدم عليه إلا لضرورة مع الثقة بما أوجبه الله تعالى من العدل، وليس وراء ذلك إلا ظلم المرء لنفسه، وامرأته وولده وأمته.

وأن من يرى الفساد الذي يدب في الأسر التي تتعدد فيها الزوجات.. ليحكم حكماً قاطعاً؛ بأن البيت الذي فيه زوجتان أو أكثر لرجل واحد لا تستقيم له حال، ولا ينتظم له نظام.

فإنك ترى إحدى الضرتين تغري ولدها بعداوة إخوته، وتغري زوجها بهضم حقوق ولده من غيرها، وكثيراً ما يطيع أحب نسائه إليه فيدب الفساد في الأسرة كلها.

وربما جر ذلك إلى السرقة، والزنا، والكذب، والقتل فيقتل الولد والدَه، والوالد ولده، والزوجة زوجَها، والعكس بالعكس كما دونت سجلات المحاكم.

فيجب على رجال القضاء والفتيا الذين يعلمون أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وأن من أصول الدين منع الضرر والضرار، أنْ ينظروا إلى علاج ذلك، ويضعوا من الزواجر ما يكفل منع هذه المفاسد على قدر المستطاع.

مزايا تعدد الزوجات وفوائده عند الحاجة إليه

الأصل في السعادة الزوجية: أن يكون للرجل زوج واحدة، وذلك منتهى الكمال الذي ينبغي أن يربى عليه الناس، ويقنعوا به، لكن قد يعرض ما يدعو إلى مخالفة ذلك لمصالح هامة تتعلق بحياة الزوجين، أو حاجة الأمة؛ فيكون التعدد ضربة لازب لا غنى عنه، ومن ذلك:

---

(١) المراغي.

١ ـ أن يتزوج الرجل امرأةً عاقراً، وهو يود أن يكون له ولد، فمن مصلحتها أو مصلحتهما معاً أن تبقى زوجاً له، ويتزوج بغيرها، ولا سيما إذا كان ذَا جاه وثروة كأن يكون ملكاً أو أميراً.

٢ ـ وأن تكبر المرأة، وتبلغ سن اليأس، ويرى الرجل حاجتَه إلى العقب، وهو قادر على القيام بنفقة غير واحدة، وكفاية الأولاد الكثيرين، وتعليمهم.

٣ ـ وأن يرى الرجل أن امرأةً واحدةً لا تكفيه لإحصانه؛ لأن مزاجه الخاص يدفعه إلى الحاجة إلى النساء، ومزاجها بعكس هذا، أو يكون زمن حيضها طويلاً، يأخذ جزءاً كبيراً من الشهر، فهو حينئذ أمامَ أحد أمرين: إما التزوج بثانية، وإما الزنا الذي يضيع الدين، والمال، والصحة، ويكون هذا شراً على الزوجة من ضم واحدة إليها مع العدل بينهما، كما هو شرط الإباحة في الإسلام.

٤ ـ وأن تكثر النساء في الأمة كثرةً فاحشة، كما يحدث عقب الحروب التي تجتاح البلاد، فتذهب بالألوف المؤلفة من الرجال فلا وسيلة للمرأة في التكسب في هذه الحال إلا بيع عفافها، ولا يخفى ما بعد هذا من شقاء على المرأة التي تقوم بالإنفاق على نفسها، وعلى ولد ليس له والد يكفله، ولا سيما عقبَ الولادة ومدة الرضاعة، والمشاهد أن اختلاط النساء بالرجال في المعامل، ومحال التجارة وغيره من الأماكن العامة قد جر إلى كثير من هتك الأعراض، والوقوع في الشقاء والبلاء، فهذه مصيبة أي مصيبة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

حكمة تعدد زوجات النبي ﷺ[1]

راعى النبي ﷺ النصيحة في اختيار كل زوجة من زوجاته، فجذب إليه كبار القبائل بمصاهرتهم، وعلم أتباعه احترامَ النساء وإكرام كرائمهن، والعدلَ بينهن. وترك من بعده تسعَ أمهات للمؤمنين، يعلمن نساءَهم الأحكامَ الخاصة بالنساء،

---

(١) المراغي.

مما ينبغي أن يعلمنه منهن لا من الرجال، ولو كان قد ترك واحدة ما كان فيها الغناء، كما لو ترك التسعَ.

وقصارى القول: إنه عليه السلام، ما أراد بتعدد الزوجات ما يريده الملوك والأمراء، والمترفون من التمتع بالنساء، إذ لو كان قد أراد ذلك لأختارهن من حسان الأبكار، لا من الكهلات الثيبات، كما قال لمن اختار ثيباً: «هلا بكراً تلاعبها، وتلاعبك وتضاحكها وتضاحكك». رواه الشيخان.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَلَّا تُقْسِطُواْ﴾ بضم التاء من أقسط الرباعي بمعنى عدل، وقرأ النخعي، وابن وثاب تقسطوا بفتح التاء من قسط الثلاثي، بمعنى جار ويقال: قسط بمعنى أقسط؛ أي: عدل، وقرأ ابن أبي عبلة ﴿من طاب﴾ وقرأ الجمهور ﴿مَا طَابَ﴾ فقيل ﴿ما﴾ بمعنى من، وقيل عبر بـ﴿ـما﴾ عن النساء؛ لأن إناثَ العقلاء لنقصان عقولهن يجرين مجرى غير العقلاء.

وقرأ ابن أبي إسحاق، والجحدري، والأعمش ﴿طاب﴾. بالإمالة، وفي مصحف أبي. ﴿طيب﴾ بالياء، وهو دليل الإمالة وقرأ النخعي، ويحيى بن وثاب ﴿ثلث وربع﴾ بغير ألف، وقرأ الحسن، والجحدري، وأبو جعفر، وابن هرمز ﴿فواحدة﴾ بالرفع، ووجه ذلك ابن عطية على أنه مرفوع بالابتداء، والخبر محذوف تقديره: فواحدة كافية وقرأ ابن أبي عبلة ﴿أو من ملكت أيمانكم﴾ وقرأ الجمهور ﴿أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾؛ أي: تجوروا من عال الرجل يعول إذا مال، وجار، وقرأ طلحة بن مصرف ﴿أن لا تعيلوا﴾ بفتح التاء؛ أي: لا تفتقروا من العيلة، وقرأ طاووس ﴿أن لا تعيلوا﴾ من أعال الرجل إذا كثر عياله.

ولما أذن الله سبحانه وتعالى في نكاح الأربع، وما دونها أمر الأزواج باجتناب ما كانوا عليه في الجاهلية، قيل: كان الرجل منهم يتزوج بلا مهر، ويقول: أرثك وترثيني، فتقول: نعم، فأمروا بأن يسرعوا إعطاء المهور، فقال: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ﴾؛ أي: وأعطوا أيها الأزواج النساء اللواتي تعقدون عليهن

(١) البحر المحيط.

﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾؛ أي: مهورهن حالة كونها ﴿نِحۡلَةٗۚ﴾؛ أي: عطية من الله سبحانه وتعالى فرضها لها بلا مقابلة مال؛ ليكون رمزاً للمودة التي ينبغي أن تكون بينكما، وآية من آيات المحبة، ودليلاً على وثيق الصلة، والرابطة التي تجب أن تكنفكما، وتحيط بسماء المنزل الذي تحلان فيه، وقد جرى عرف الناس بعدم الاكتفاء بهذا العطاء، فتراهم يردفونه بأصناف الهدايا والتحف من مآكل، وملابس، ومصوغات إلى نحو ذلك مما يعبر عن حسن تقدير الرجل للمرأة التي يريد أن يجعلها شريكته في الحياة.

وسمي[١] الصداق نحلة من حيث أنه لا يجب في مقابلته غير التمتع دون عوض مالي، وقيل[٢]: معناه: فريضة كما قاله ابن عباس، وقتادة، وابن جريج، وابن زيد، وإنما فسروا النّحلة بالفريضة، لأن النحلة في اللغة معناها: الديانة، والملة، والشرعة، والمذهب فقوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ﴾؛ أي: أعطوهن مهورهن؛ لأنها شريعة، ودين، ومذهب، وما هو كذلك، فهو فريضة ﴿فَإِن طِبۡنَ﴾ النساء المتزوجات ﴿لَكُمۡ﴾ أيها الأزواج ﴿عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ﴾؛ أي: من الصداق المعين فوهبن لكم شيئاً منه بطيب نفس من غير أن يكون السبب فيه شكاسة أخلاقكم معهن، أو سوء معاشرتكم معهن؛ أي: فإن طابت نفوسهن بإعطائكم شيئاً من الصداق من غير ضرار، ولا خديعة ﴿فَكُلُوهُ﴾؛ أي: فخذوا ذلك الشيء وتصرفوا فيه، وانتفعوا به، وهو أمر إباحة، وعبر بالأكل؛ لأنه معظم الانتفاع؛ أي: ﴿فَكُلُوهُ﴾ أكلاً ﴿هَنِيٓـٔٗا﴾؛ أي: حلالاً لا إثم عليه في الدنيا ﴿مَّرِيٓـٔٗا﴾؛ أي: طيباً لا مؤاخذة عليه في الآخرة.

ومن ثم[٣]: لا يجوز للرجل أن يأكل شيئاً من مال امرأته، إلا إذا علم أن نفسها طيبة به، فإذا طلب منها شيئاً وحملها الخوف أو الخجل على إعطاء ما طلب، فلا يحل له، ألا ترى أن الله سبحانه وتعالى نهى عن أخذ شيء، من المرأة، في طور المفارقة فقال: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ

---

(١) الخازن.

(٢) مراح.

(٣) المراغي.

﴿إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ فالتحذير من أخذه في طور الرغبة والتحبب وإظهار القدرة على ما يجب عليه من أعباء الزوجية من كفالة المرأة، والإنفاق عليها يكون أشد، وآكد، ولكن حب المال جعل الرجال يماكسون في المهر كما يماكسون في سلع التجارة، وصار حبهم للمحافظة على الشرف والكرامة دون حبهم للدرهم والدينار. وذهب الأوزاعي[1] إلى أنه لا يجوز تبرعها ما لم تلد، أو تقم في بيت زوجها سنة، فلو رجعت بعد الهبة فقال شريح، وعبد الملك بن مروان: لها أن ترجع، وروى مثله عن عمر بن الخطاب، فقد روي عنه أنه كتب إلى قضاته: أن النساء يعطين رغبة ورهبة، فأيما امرأة أعطت زوجها، ثم أرادت أن ترجع فلها ذلك، قال شريح: لو طابت نفسها لما رجعت.

قال الشوكاني[2]: فإذا ظهر منها ما يدل على عدم طيبة نفسها لم يحل للزوج، ولا للولي، وإن كانت قد تلفظت بالهبة، أو النذر، أو نحوهما، وما أقوى دلالة هذه الآية على عدم اعتبار ما يصدر من النساء من الألفاظ المفيدة للتمليك بمجردها لنقصان عقولهن، وضعف إدراكهن وسرعة انخداعهن، وانجذابهن إلى ما يراد منهن بأيسر ترغيب أو ترهيب انتهى.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ بفتح الصاد، وضم الدال جمع صدقة على وزن سمرة، وقرأ قتادة وغيره، بإسكان الدال وضم الصاد جمع صدقة على وزن غرفة، وقرأ مجاهد، وموسى بن الزبير، وابن أبي عبلة، وفياض بن غزوان، وغيرهم: ﴿صدقاتهن﴾ بضمهما، وقرأ النخعي، وابن وثاب: ﴿صدقتهن﴾ بضمهما، وبالإفراد، وهو تثقيل صدقة، كظلمة في ظلمة.

وقرأ الحسن، والزهري ويزيد، وكذا حمزة في الوقف ﴿هنيا مريا﴾ بلا همزة، أبدلوا الهمزة التي هي لام الكلمة ياءً، وأدغموا فيها ياء المد، وهمزهما الباقون.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) فتح القدير.

(٣) البحر المحيط.

ولما أمر الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة بإيتاء اليتامى أموالهم، وبإيتاء النساءِ مهورهن. . أتى في هذه الآية بشرط للإيتاء يشمل الأمرين جميعاً، وهو: أن لا يكون كل منهما سفيهاً مع بيان أنهم يرزقون فيها، ويكسون ما دامت في أيديهم مع قول المعروف لهم حتى تَحسن أحوالُهم، وأنه لا تسلم إليهم الأموال إلا إذا أونس منهم الرشد، وأنهم لا ينبغي الإسراف في أكل أموال اليتامى، فمن كان من الأولياء غنياً. فليعف عن الأكل من أموالهم، ومن كان فقيراً. . فليأكل بما يبيحه الشرع، ويستجيزه أهل المروءة، كما مر هذا الكلام بعينه في بحث المناسبة، فقال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا﴾؛ أي: ولا تعطوا أيها الأولياء ﴿ٱلسُّفَهَآءَ﴾؛ أي: الضعفاء العقول المبذرين للأموال بصرفها في غير مصارفها ﴿أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَكُمْ قِيَٰمًا﴾؛ أي: حياة ومعيشة تنتعشون بها، وتقومون بها، وهذا نهي للأولياء عن أن يؤتوا الذين لا رشد لهم أموالهم، فيضيعوها، وإنما أضاف الأموال إلى الأولياء في قوله: ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾، ولم يقل: أموالهم مع أن الخطاب للأولياء، والمال مال السفهاء الذين في ولايتهم؛ لأنها في تصرفهم وتحت ولايتهم ولينبهنا إلى أنه إذا ضاع هذا المال وجب على الولي أن ينفق عليه من مال نفسه، فإضاعته مفضية إلى إضاعة شيء من مال الولي، فكأن ماله عين ماله، وإلى أن الأمة متكافلة في المصالح، فمصلحة كل فرد فيها، كأنها مصلحة للآخرين، والحاصل: أنه يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب، والمراد بالسفهاء: الصغار، والبالغون المبذرون من الأولاد، وهذا القول هو الملائم للآيات المتقدمة والمتأخرة.

وقيل[1]: المراد بالسفهاء: امرأتك، وابنك السفيه. قال ابن عباس: لا تعمد إلى مالك الذي خوله الله لك، وجعله لك معيشةً فتعطيه امرأتَك، وابنك فيكونوا هم الذين يقومون عليك، ثم تنظر إلى ما بين أيديهم، أمسك مالك، وأصلحه، وكن أنت الذي تنفق عليهم في رزقهم، ومؤونتهم.

---

(١) الخازن والبيضاوي.

وقال الكلبي: إذا علم الرجل أن امرأته سفيهةٌ مفسدة، وأن ولده سفيهٌ مفسد، لا ينبغي له أن يسلط واحداً منهما على ماله، فيفسده، وإنما سماهم سفهاء استخفافاً بعقلهم، واستهجاناً لجعلهم قواماً على أنفسهم، وعلى هذا فالإضافة في قوله ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾ على ظاهرها وحقيقتها.

ومعنى جعل الأموال قياماً للناس[1]: أن بها تقوم وتثبت منافعهم، ومرافقهم، فمنافعُهم الخاصة ومصالحهم العامة، لا تزال قائمة ثابتة ما دامت أموالهم في أيدي الراشدين المقتصدين منهم، الذين يحسنون تثميرها، وتوفيرَها، ولا يتجاوزون حدودَ المصلحة في الإنفاق.

وفي هذا حث عظيم على الاقتصاد بذكر فوائده، وتنفير من الإسراف والتبذير ببيان مغبته[2]، فإن الأموال إذا وقعت في أيدي السفهاء المسرفين، فات ما كان من تلك المنافع قائماً، ومن ثم وصف الله تعالى المؤمنين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ وقد ورد في السنة النبوية حث كثير على الاقتصاد من ذلك: ما رواه أحمد عن ابن مسعود «ما عال من اقتصد» وما رواه الطبراني والبيهقي عن ابن عمر «الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة، والتودد إلى الناس نصف العقل، وحسن العقل نصف العلم».

وإن من أشد العجب أن يكونِ حال المسلمين اليومَ ما نرى من الإسراف والتبذير، بإنفاق أموالهم في غير مصارفها، من المغنيات، والملاهي، وسائر وجوه المحرمات، وكتابهم يهديهم إلى ما للاقتصاد من فوائد، وما للتبذير من مضار، أنظر إلى ما للمال في هذا الزمن من المنزلة التي لا يقدر قدرها حتى صارت جميع المرافق موقوفة على المال، وأصبحت الأمم الجاهلة بطرق الاقتصاد، وليس في أيديها المال مستذلة مستعبدة للأمم الغنية ذات البراعة في الكسب والإحسان في الاقتصاد، وجمع المال، ولا سبب لهذا إلا أنا نبذنا هدي

---

(١) المراغي.

(٢) مغبته ـ بتشديد الباء المفتوحة ـ: أي عاقبته اهـ م.

القرآن وراء ظهورنا، وأخذنا بآراء الجاهلين الذين لبسوا على الناس ونفثوا سمومهم، وبالغوا في التزهيد، والحث على إنفاق ما تصل إليه الأيدي، مع أن السلف الصالح كانوا من أشد الناس محافظةً على ما في أيديهم، وأعرف الناس بتحصيل المال من وجوه الكسب الحلال، وليت هذا التزهيد أتى بالغرض المسوق لأجله من الترغيب في الآخرة، والعمل لها، لكنهم زهدوهم في الدنيا وقطعوهم عن الآخرة، فخسروهما معاً، وما ذاك إلا لجهلهم بهدي الإسلام، وهو السعي للدنيا، والعمل للآخرة كما ورد في الأثر «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» وكانوا يقولون: اتجروا، فإنكم في زمان، إذا احتاج أحدكم كان أول ما يأكل دينه.

وقرأ الحسن[1]، والنخعي ﴿اللاتي جعل الله لكم قياماً﴾ وهو في المعنى جمع التي، وقرأ الجمهور ﴿ٱلَّتِي﴾ بالإفراد، قال ابن عطية: والأموال جمع لا يعقل، فالأصوب فيه قراءة الجماعة انتهى كما قال بعضهم:

وَجَمْعُ كَثْرَةٍ لِمَا لاَ يَعْقِلُ الأَفْصَحُ الإِفْرَادُ فِيْهِ يَا فُلُ

وقرىء شاذاً ﴿اللواتي﴾، وهو أيضاً في المعنى جمع التي.

وقرأ نافع، وابن عامر ﴿قيماً﴾ وجمهور السبعة ﴿قِيَٰمًا﴾ ولما انكسرت القاف في قوام، أبدلوا الواو ياءً. وعبد الله بن عمر ﴿قواماً﴾ بكسر القاف، والحسن، وعيسى بن عمر ﴿قواماً﴾ بفتحها، ورويت عن أبي عمرو، وقرىء شاذاً ﴿قوماً﴾ فأما ﴿قيماً﴾ فمصدر كالقيام، والقوام، قاله الكسائي، والفراء، والأخفش، وليس مقصوراً من قيام، وقيل: هو مقصور منه. قالوا: حذفت الألف كما حذفت في خيم وأصله خيام.

﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ﴾؛ أي: وأطعموا السفهاء، واليتامى ﴿فِيهَا﴾؛ أي: من أموالهم التي في أيديكم، وأنفقوا عليهم منها ﴿وَٱكۡسُوهُمۡ﴾؛ أي: ألبسوهم منها، وإنما قال الله ﴿فِيهَا﴾ ولم يقل: منها. كما هو ظاهر السياق، لئلا يكون ذلك أمراً بجعل

---

(١) البحر المحيط.

بعض أموالهم رزقاً لهم، بل أمرهم بأن يجعلوا أموالَهم مكاناً لرزقهم، وكسوتهم بأن يتجروا فيها، ويثمروها، فيجعلوا أرزاقَهم من الأرباح لا من أصول المال، فيأكلها الإنفاق.

والمعنى: أيها الأولياء الذين عهد إليكم حفظ أموال اليتامى والسفهاء، وتثميرها حتى كأنها أموالكم، عليكم أن تنفقوا عليهم فتقدموا لهم كفايتَهم من الطعام، والثياب وغير ذلك.

والرزق[1] من الله تعالى: هو العطية من غير حد، ولا قطع، ومعنى الرزق من العباد: هو الأجر الموظف المعلوم لوقت معلوم محدود.

والرزق يعم وجوه الإنفاق كلها، كالأكل، والكسوة، والسكن، والزواج، وإنما خص الكسوةَ بالذكر؛ لأن الناس يتساهلون فيها أحياناً ﴿وَقُولُوا﴾: أيها الأولياء ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لليتامى، والسفهاء ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾؛ أي: جميلاً، حسناً، شرعاً، وعقلاً وهو كل ما سكنت إليه النفس، واطمأنت به؛ لأن القول الجميل يؤثر في القلب، ويزيل السفَهَ، كأن يقول الولي له: إذا كان صغيراً المال مالك، وأنا أمين عليه، وخازن له لك، وإذا كبرت ورشدتَ سلمت إليك أموالك، وإذا كان سفيهاً وعظه، ونصحه، ورغبه في ترك التبذير والإسراف، وعرفه أن عاقبةَ ذلك الفقر والاحتياج إلى الخلق إلى نحو ذلك، كما يعلمه كل ما يوصله إلى الرشد، وبذا قد تحسن حاله، فربما كان السفه عارضاً لا فطرياً، فبالنصح والإرشاد، والتأديب يزول ذلك العارض، ويصبح رشيداً.

وأين هذا مما يفعله الأولياء والأوصياء من أكل أموال السفهاء ومدهم في غيهم، وسفههم حتى يحولوا بينهم وبين أسباب الرشد. وما مقصدهم من ذلك إلا بقاء الأموال تحت أيديهم يتمتعون بها، ويتصرفون فيها بحسب أهوائهم وشهواتهم!.

وبعد أن أمر الله سبحانه وتعالى بإيتاء اليتامى أموالَهم، وكان هذا مجملاً

---

(١) الخازن.

ذكر كيفية ذلك الإيتاء، ووقته فقال: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ الآية[1] نزلت في ثابت بن رفاعة، وفي عمه، وذلك أن رفاعة مات، وترك ابنه ثابتاً، وهو صغير فجاء عمه إلى النبي ﷺ وقال له: إن ابن أخي يتيم في حجري فما يحل لي من ماله، ومتى أدفع إليه ماله؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.. ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾؛ أي: واختبروا أيها الأولياءُ الصغارَ الذين لا أب لهم قبل البلوغ، في عقولهم، وأديانهم، وتصرفهم في أموالهم بما يليق بحالهم، بأن تجربوا ولد التاجر بالبيع والشراء، والمماكسة فيهما، وولد الزراع بالزراعة، والنفقة على القوام بها، والأنثى فيما يتعلق بالغزل، والقطن، وصون الأطعمة عن الهرة ونحوها، وحفظ متاع البيت، وولد الأمير ونحوه بالإنفاق مدة في خبز وماء ولحم ونحوها.

قال أبو حنيفة رحمه الله[2]: تصرفات الصبي العاقل المميز بإذن الولي صحيحة؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ أمر للأولياء بأن يأذنوا لهم في البيع والشراء قبل البلوغ، وذلك يقتضي صحة تصرفاتهم، وقال الشافعي: ولا يصح عقد الصبي المميز بل يُمتحن في المماكسة، فإذا أراد العقد.. عقد الولي؛ لأنه لا يجوز دفع المال إليه حال الصغر، فثبت عدمُ جواز تصرفه حالَ الصغر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾؛ أي: اختبروهم في عقولهم، وجربوهم في تصرفاتهم إلى وقت بلوغهم زمن صلاحية النكاح، والزواج، والوطء بأن يبلغ بالاحتلام، أو باستكمال خمس عشرة سنة، عند الشافعي، أو ثماني عشرة سنة عند أبي حنيفة، وبلوغ النكاح كناية عن البلوغ؛ لأنه يصلح للنكاح عنده، فإذا بلغوا، ووصلوا زمنَ صلاحية النكاح ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم﴾ وعلمتم ﴿مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من اليتامى الذين وصلوا زمن النكاح والزواج ﴿رُشْدًا﴾؛ أي: هداية في التصرفات، وصلاحاً في المعاملات من غير تبذير، وعجز عن خديعة الغير، وقيل: معنى رشداً؛ أي: عقلاً، وصلاحاً في الدين، وحفظاً للمال، وعلماً بما يصلحه ﴿فَٱدْفَعُوٓاْ﴾، وسلموا ﴿إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ التي عندكم من غير تأخير عن وقت البلوغ، وإنما تدفع إليهم أموالهم بعد بلوغهم، وإيناس الرشد منهم.

---

(١) الخازن. (٢) مراح.

وقال ابن سيرين[1]: لا يدفع إليه المال بعد الإيناس والاختبار المذكورين حتى تمضيَ عليه سنة كاملة، وتداوله الفصول الأربع، وظاهر الآية أنه إن لم يؤنس منه رشد، بقي محجوراً عليه دائماً، ولا يدفع إليه المال، وبه قال الجمهور. وقال النخعي، وأبو حنيفة: ينتظر به خمس وعشرون سنة، ويدفع إليه ماله، أُونس منه الرشد أو لم يؤنس، وظاهر الآية يدل على استبداد الوصي بالدفع والاستقلال به، وقالت طائفة: يفتقر إلى أن يدفعه إلى السلطان، ويثبت رشدَه عنده.

وظاهر عموم اليتامى اندراج البنات في هذا الحكم، فيكون حكمهن حكم البنين في ذلك، فقيل: يعتبر رشدها، وإن لم تتزوج بالبلوغ.

وقال المراغي[2] والمعنى: أيها الأولياء، ابتلوا اليتامى إلى ابتداء البلوغ، وهو الحد الذي يبلغون فيه سن النكاح، فإن آنستم منهم بعد البلوغ رشداً، فادفعوا إليهم أموالهم، وإلا فاستمروا على الابتلاء حتى تأنسوه منهم، ويرى أبو حنيفة دَفعَ مال اليتيم إليه، إذا بلغ خمساً وعشرين سنةً، وإن لم يرشد. انتهى.

وقرأ[3] ابن مسعود ﴿فإن أحستم منهم رشداً﴾ يريد أحسستم فحذف عين الكلمة، وهذا الحذف شذوذ، لم يرد إلا في ألفاظ يسيرة، وحكى غير سيبويه أنها لغة سليم، وقرأ ابن مسعود، وأبو عبد الرحمٰن، وأبو السمال، وعيسى الثقفي ﴿رشداً﴾ بفتحتين، وقرىء شاذاً ﴿رشداً﴾ بضمتين، قيل: هما لغتان، وقيل: هو بالضم مصدر رشد، من باب: قعد، وبالفتح مصدر رَشِدَ من باب: طرب، وقراءة الجمهور ﴿رُشْدًا﴾ بضم الراء، وسكون الشين.

فصل في بيان البلوغ

البلوغ يحصل بأربعة أشياء: اثنان يشترك فيهما الرجال والنساء، واثنان

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

يختصان بالنساءِ. أما اللذان يشترك فيهما الرجال والنساءِ:

فأحدهما: السن، فإذا استكمل المولود خمس عشرة سنةً حكم ببلوغه غلاماً كان أو جاريةً، ويدل عليه ما روي عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: عرضت على رسول الله ﷺ عام أحد، وأنا ابن أربع عشرة سنة، فردني ثم عرضت عليه عام الخندق، وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني. أخرجه الشيخان في «الصحيحين».

وهذا قول أكثر أهل العلم، وقال أبو حنيفة: بلوغ الجارية باستكمال سبع عشرة سنة، وبلوغ الغلام باستكمال ثماني عشرة سنة.

والثاني: الاحتلام، وهو إنزال المني الدافق سواء أنزل باحتلام أو جماع؛ فإذا وجد ذلك من الصبي أو الجارية حكم ببلوغه، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ ولقوله ﷺ لمعاذ: «خذ من كل حالم ديناراً» أما إنبات الشعر الخشن حول الفرج، فهو يدل على البلوغ في أولاد المشركين، لما روي عن عطية القرظي قال: كنت من سبي قريظة، فكانوا ينظرون، فمن أنبت الشعر قتل، ومن لم ينبت لم يقتل، فكنت ممن لم ينبت، وهل يكون ذلك علامة على البلوغ في أولاد المسلمين؟ فيه قولان:

أحدهما: أنه يكون بلوغاً كما في أولاد المشركين.

والثاني: لا يكون ذلك بلوغاً في حق أولاد المسلمين؛ لأنه يمكن الوقوف على مواليد أولاد المسلمين، والرجوع إلى قول آبائهم بخلاف الكفار، فإنه لا يوقف على مواليدهم، ولا يقبل في ذلك قول آبائهم لكفرهم فجعل الإنبات الذي هو أمارة البلوغ بلوغاً في حقهم.

وأما الذي يختص بالنساء: فهو الحيض والحبل، فإذا حاضت الجارية بعد استكمال تسع سنين، حكم ببلوغِهَا، وكذلك إذا ولدت حكم ببلوغها، قبل الوضع بستة أشهر؛ لأنها أقل مدة الحمل. قيل[١]: ومن علامات البلوغ الحيض

---

(١) صاوي.

كما ذكر، وكبر الثدي للإناث، ونبات العانة، ونتن الإبط، وفرق الأرنبة، وغلظ الحنجرة للذكور، فإذا وجدت تلك العلامات حكم ببلوغه عند مالك، وأما عند الشافعي فلا يحكم بالبلوغ إلا بالاحتلام، أو الحيض، أو كمال خمس عشرة سنة، وما عدا ذلك علامة على البلوغ، ولا يحكم عليه به.

﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ﴾؛ أي: ولا تأكلوا أيها الأولياء، والأوصياء أموالَ اليتامى حالةَ كونكم ﴿إِسْرَافًا﴾؛ أي: مسرفين، ومجاوزين الحد الشرعي، في الإنفاق، ولو على اليتيم نفسه ﴿و﴾ حالة كونكم ﴿بداراً﴾؛ أي: مبادرينَ ومسرعين إلى إنفاقها ﴿أَن يَكْبَرُواْ﴾؛ أي: مخافة كبرهم، رشداءَ فيمنعوكم عن ذلك، ويلزمكم تسليمها إليهم، وتقولون: ننفق كما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى، فينزعوها من أيدينا.

ولما كانت هاتان الحالتان الإسراف ومسابقة كبر اليتيم ببعض التصرف من مواطن الضعف التي تعرض للإنسان نهى الله عنهما، ونبه الأولياء إلى خطرهما حتى يراقبوا ربهم إذا عرضتا لهم، أما الأكل من مال اليتيم بلا إسراف ولا مبادرة خوفَ أخذها عند البلوغ، فقد ذكر الله تعالى حكمه بقوله: ﴿وَمَن كَانَ﴾ منكم أيها الأولياء ﴿غَنِيًّا﴾؛ أي: غير محتاج إلى شيء ممن مال اليتيم الذي تحت ولايته ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾؛ أي: فليعف نفسه عن الأكل من ماله، وليتنزه عن أكله، وليقنع بما آتاه الله من الرزق، إشفاقاً على اليتيم، وإبقاءً على ماله، ولا ينقص منه شيئاً قليلاً ولا كثيراً ﴿وَمَن كَانَ﴾ منكم ﴿فَقِيرًا﴾؛ أي: محتاجاً لا يستغنى عن الانتفاع بشيء من مال اليتيم الذي يشغل ببعض وقته في تثميره، وحفظه ﴿فَلْيَأْكُلْ﴾ منه ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ شرعاً، وعند الناس وهو ما يبيحه الشرع، ولا يستنكره أرباب المروءة، ولا يعدونه خيانةً، وطمعاً، وقيل[1]: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: بقدر أجرة خدمته لليتيم، وعمله في ماله، وقيل ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: بالقرض، ثم إذا أيسر قضاه، وإن مات، ولم يقدر على القضاءِ، فلا شيء عليه، وهذا قول سعيد بن

---

(١) المراح.

جبير، ومجاهد، وأبي العالية، وهذا القرض في أصول الأموال، أما نحو ألبان المواشي، واستخدام العبيد، وركوب الدواب، فمباح لنحو الوصي، إذا كان غير مضر بالمال، وهذا قول أبي العالية وغيره، وإنما خص الأكل بالذكر، لأنه أعم و جوه الانتفاعات، ومحل ذلك في غير الحاكم، أما هو: فليس له ذلك لعدم اختصاص ولايته بالمحجور عليه، بخلاف غيره، حتى أمينه كما صرح به المحاملي، وله الاستقلال بالأخذ منه من غير مراجعة الحاكم، ومعلوم أنه إذا نقصت أجرة الأب، أو الجد، أو الأم إذا كانت وصية عن نفقتهم، وكانوا فقراء يتمونها من مال محجورهم؛ لأنها إذا وجبت بلا عمل فمعه أولى، ولا يضمن المأخوذَ؛ لأنه بدل عمله. قال ابن جرير: إن الأمة مجمعة على أن مال اليتيم ليس مالاً للولي؛ فليس له أن يأكل منه شيئاً، ولكن له أن يستقرض منه عند الحاجة، كما يستقرض له، وله أن يؤاجر نفسَه لليتيم بأجرة معلومة، إذا كان اليتيم محتاجاً إلى ذلك، كما يستأجر له غيره من الأجراء غير مخصوص بها حالَ غنى، ولا حالَ فقر، وهكذا الحكم في أموال المجانين، والمعاتيه: جمع معتوه ناقص العقل من غير جنون.

وقد روى أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً سأل النبي ﷺ قال: ليس لي مال وإني ولي يتيم، فقال: «كل[1] من مال يتيمك، غير مسرف، ولا متأثل مالاً، ومن غير أن تقي مالك بماله».

والحكمة في هذا: أن اليتيم يكون في بيت الولي كولده، والخير له في تربيته أن يخالط الولي وأهله في المؤاكلة والمعاشرة، فإذا كان الولي غنياً لا طمع له في ماله، كانت المخالطة مصلحة لليتيم، وإن كان ينفق فيها شيء من ماله فبقدر حاجته، وإن كان فقيراً.. فهو لا يستغني عن إصابة بعض ما يحتاج إليه من مال اليتيم الغني الذي في حجره، فإن أكل من طعامه ما جرى به العرف بين الخلطاء غير مصيب من صلب المال شيئاً، ولا متأثل لنفسه منه عقاراً، ولا مالاً

(١) المراغي.

آخر، ولا منفق مالَه في مصالحه ومرافقه كان بعمله هذا آكلاً بالمعروف.

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ﴾ وسلمتم أيها الأولياء، والأوصياء ﴿إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: إلى اليتامى ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ بعد البلوغ، والرشد، ﴿فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على استلامهم إياها، منكم بإقباضكم إياهم، وبراءة ذممكم منها كي لا يكون نزاع بينكم، فإنه أنفى للتهمة، وأبعد من الخصومة.

وهذا[1] الإشهاد واجب عند الشافعية، والمالكية؛ إذ أن تركه يؤدي إلى التخاصم، والتقاضي كما هو مشاهد، وجعله الحنفية مندوباً، لا واجباً ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾؛ أي: وكفى الله سبحانه وتعالى محاسباً، ومجازياً للمحسنين، والمسيئين، وشاهداً عليهم، فعليكم بالتصادق، وإياكم والتكاذب فإنه يحاسبكم على ما تسرون، وما تعلنون، فلا تخالفوا ما أمرتم به، ولا تتجاوزوا ما حَدَّ لكم.

وقد جاء بهذا بعد الأمر بالإشهاد، ليرشدنا إلى أن الإشهاد، وإن أسقط الدعوى بالمال عند القاضي فهو لا يسقط الحق عند الله، إذا كان الولي خائناً. فإن الله لا يخفى عليه ما يخفى على الشهود، والحُكّام، وعلى الجملة فإنك ترى أن الله تعالى حاط أموالَ اليتامى بضروب من الصيانة، والحفظ، فأمر باختبار اليتيم، قبل دفع ماله إليه، ونهى عن أكل شيء منه بطرق الإسراف، ومبادرة كبره، وأمرَ بالإشهاد عليه عند الدفع، ونبه إلى مراقبة الله تعالى في جميع التصرفات الخاصة به.

﴿لِّلرِّجَالِ﴾؛ أي: للذكور من أولاد الميت، وأقربائه صغاراً أو كباراً ﴿نَصِيبٌ﴾؛ أي: حظ ﴿مِّمَّا تَرَكَ﴾؛ أي: من الميراث الذي تركه ﴿الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ المتوفون ﴿وَلِلنِّسَاءِ﴾؛ أي: وللإناث من بنات الميت، وقراباته، ﴿نَصِيبٌ﴾؛ أي: حظ ﴿مِّمَّا تَرَكَ﴾ ﴿الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ المتوفون قيل: سبب نزول هذه الآية: خبر أم كحلة زوجة أوس بن ثابت الأنصاري، وقد تقدم في أسباب النزول.

---

(١) المراغي.

قال المروزي[1]: كان اليونان يعطون جميع المال للبنات؛ لأن الرجال لا يعجز عن الكسب، والمرأة تعجز، وكانت العرب لا يعطون البنات، فرد الله على الفريقين، والمعنى بالرجال الذكور، وبالنساء الإناث، وقال الشوكاني[2]: لما ذكر الله سبحانه وتعالى حكم أموال اليتامى وصله بأحكام المواريث، وكيفية قسمتها بين الورثة، وأفرد سبحانه ذكر النساء بعد ذكر الرجال، ولم يقل للرجال والنساء نصيب، للإيذان بأصالتهن في هذا الحكم، وللاعتناء بأمرهن، ودفع ما كانت عليه الجاهلية من عدم توريث النساء، ولم يستفد من الآية الرد عليهم في حرمان الزوجة؛ لأن الزوج ليس والداً، ولا قريباً لها، فكأن حكمها أستفيد مما سيأتي، ومن السنة، وفي ذكر القرابة بيان لعلة الميراث مع التعميم لما يصدق عليه مسمى القرابة من دون تخصيص، وقوله ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ﴾ أي مما تركوه أي من المال المخلف من الميت ﴿أَوْ كَثُرَ﴾ منه بدل من قوله ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ بإعادة الجار، والضمير في قوله ﴿مِنْهُ﴾ راجع إلى المبدل منه، وأتى بهذا البدل لتحقيق أن لكل من الفريقين حقاً من كل ما جل ودق، ولدفع توهم اختصاص بعض الأموال ببعض الورثة كالخيل، وآلات الحرب للرجال حالة كون نصيب كل من الفريقين ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾؛ أي: حظا مقدراً لهم مقطوعاً بتسليمه إليهم؛ فلا يسقط بإسقاطهم، ففي الآية[3] دليل على أن الوارث لو أعرض عن نصيبه لم يسقط حقه بالإعراض.

وقد أجمل الله سبحانه وتعالى في هذه الآية قدر النصيب المفروض ثُمَّ أنزل قوله ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوۡلَـٰدِكُمۡ﴾ فبين ميراث كل فرد، ومعنى الآية[4] أنه إذا كان لليتامى مالُ مما تركه لهم الوالدان والأقربون، فهم فيه سواء لا فرق بين الرجال والنساء، ولا فرق بين كونه كثيراً أو قليلاً، وأتى بقوله: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ لبيان أنه حق معين مقطوع به، ليس لأحد أن ينقص منه شيئاً، ولا أن يحابى فيه.

﴿وَإِذَا حَضَرَ﴾ وجاء ﴿ٱلْقِسْمَةَ﴾؛ أي: محل قسمة التركة بين الورثة ﴿أُوْلُوا

---

(1) البحر المحيط.
(2) فتح القدير.
(3) البيضاوي.
(4) المراغي.

﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: أصحاب قرابة الميت ممن لا يرث، لكونه عاصباً، محجوباً كالأخ لأب مع الأخ الشقيق، والعم مع الأب، أو لكونه من ذوي الأرحام، كالخال والخالة، ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾؛ أي: يتامى المؤمنين الأجانب ﴿وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾؛ أي: مساكين المؤمنين الأجانب ﴿فَٱرْزُقُوهُم﴾؛ أي: فأعطوا ندباً أيها الورثة الكاملون هؤلاء الأصناف الثلاثة الحاضرين محل القسمة ﴿مِّنْهُ﴾؛ أي: من المال المقسوم بينكم قبل القسمة شيئاً، ولو قليلاً؛ أي: إذا حضر قسمة التركة أحد من هؤلاء الأصناف الثلاثةِ المذكورينَ فأعطوهم أيها الورثة الكاملون بشيء من الرزق الذي أتاكم من غير كد ولا نصب، فلا ينبغي أن تبخلوا به على المحتاجين من ذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وتتركوهم يذهبون منكسري القلب مضطربي النفس، ﴿وَقُولُواْ﴾ أيها الورثة الكاملون مع الإعطاء المذكور ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء الأصناف الحاضرين محل القسمة ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾؛ أي: قولاً ليناً طيباً تطيب به نفوسهم عندما يعطون، حتى لا يثقل على أبيِّ النفس منهم ما يأخذ، ويرضي الطامع في أكثر مما أخذ بما أخذ بالتودد، والتلطف في القول، وعدم التغليظ فيه.

وقيل: الخطاب في الآية على التوزيع، فالخطاب في الرزق للورثة الكاملين، وفي القول لأولياء الورثة غير الكاملين، والمعنى حينئذ. فارزقوهم أيها الورثة الكاملون من المال المقسوم شيئاً من الرضخ، وقولوا: يا أولياء الورثة غير الكاملين لهؤلاء الأصناف الحاضرين قولاً معروفاً جميلاً كأن يقول الولي لهم: هذا المالُ لهؤلاء الضعفاء، الذين لا يعقلون، وليس لي فيه حق فأعطيكم، ولكن إذا كبروا فيعرفون حقوقكم، فيعطوكم، أو يقول: سأوصيهم ليعطوكم شيئاً إذا كبروا.

والسر في إعطائهم شيئاً من التركة: أنه ربما يسري الحسدُ إلى نفوسهم، فينبغي التودد إليهم، واستمالتهم باعطائهم قدراً من هذا المال هبةً، أو هدية، أو إعداد طعام لهم يوم القسمة، ليكون في هذا صلة للرحم، وشكر للنعمة.

قال سعيد بن جبير: هذا الأمر أعني أمر الإعطاء للوجوب، وقد هجره الناس كما هَجروا العملَ بالاستئذان عند دخول البيوت، والمعتمد أنه ندبُ.

وقال الحسن، والنخعي، إن الذي أمرنا أن نرزقهم منه عند القسمة هو الأعيانُ المنقولة كالذهب، والفضة، وأما الأرضون، والرقيق، وما أشبه ذلك فلا يجب أن يعطوا منها شيئاً، بل يكتفي حينئذ بقول المعروف، أو بإطعام الطعام. قوله: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ هو خطاب[1] مع الذين يجلسون عند المريض فيقولون له: إن ذريَتك وورثتَك لن يغنوا عنك من عذاب الله شيئاً، فأوص مالَك لفلان، ولفلان، ولا يزالون يأمرونه بالوصية إلى الأجانب إلى أن لا يَبْقَى من ماله للورثة شيءٌ أصلاً.

وحاصل الكلام: أنك لا ترضى مثل هذا الفعل لنفسك، فلا ترضه لأخيك المسلم، وعن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ «لا يؤمن العبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

والمعنى: وليخف الله تعالى الذين يجلسون عند المريض، ويأمرونه بإيصاء كل ماله، وليَتَّقُوا الضياعَ والفقرَ على أولاد ذلك المريض، الذي أمروه بإيصاء كل ماله؛ كما أنهم يخافون الضياع، والفقر على أولاد أنفسهم، لو أوصوا بجميع مالهم، وتركوا من بعد موتهم ذريةً ضِعافاً، وقوله: ﴿ضِعَٰفًا﴾ بمعنى صغاراً لا يقومون بأمرهم، يقرأ بالتفخيم على الأصل، وبالإمالة لأجل الكسرة، وجاز ذلك مع حرف الاستعلاء؛ لأنه مكسور مقدم، ففيه انحدار، وقوله: ﴿خَافُوا۟﴾ يقرأ بالتفخيم على الأصل، وبالإمالة؛ لأن الخاء تنكسر في بعض الأحوال، وهو خفت، وهو جواب لو، ومعناها إن. ذكره أبو البقاء. ﴿فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: فليخافوا عقابَ الله في أمر ذلك المريض بإيصاء كل ماله، وترك أولاده عالة يتكففون الناسَ ﴿وَلْيَقُولُوا۟﴾ لذلك المريض ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾؛ أي: قولاً عدلاً صواباً بأن يقولوا له: إنك إن تذَر ورثتَك أغنياء خيرٌ لك من أن تذرهم عالةً يتكففون الناس، فالقول السديد: هنا أن يأمروه أن يخلفَ ماله لولده، ويتصدق بما دون الثلث، أو الثلث، ويأمروه أن يتخلص من حقوق الله، وحقوق العباد، وأن

---

(١) المراح.

يُوصي بالقرب المقربة إلى الله سبحانه وتعالى.

قال[1] ابن كثير: قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هذا في الرجل يحضره الموتُ فيسمعه رجل يوصي بوصية تضر بورثته، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقي الله ويوفقه ويسددَه للصواب، فينظرَ لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته، إذا خشي عليهم الضيعةَ، وهكذا قال مجاهد، وغير واحد، وثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعوده، قال: يا رسول الله، إني ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة، أفأتصدق بثلثيْ مالي، قال: لا قال: فالشطر، قال: لا. قال: فالثلث. قال: «الثلثُ والثلثُ كثير»، ثم قال رسول الله ﷺ: «إنك تذرَ ورثتك أغنياء، خير من أن تذرهم عالةً يتكففون الناس» انتهى.

والمعنى[2]: كما أنكم تكرهون بقاءَ أولادكم في الضعف والجوع من غير مال، فاخشوا الله، ولا تحملوا المريضَ على أن يحرم أولادَه الصغارَ من ماله.

وحاصل الكلام: كما أنك لا ترضى مثلَ هذا الفعل لنفسك، فلا ترضه لأخيك المسلم. قيل: الآية تحتمل أن تكون خطاباً لمن حضر أجله، ويكون المقصود نهيه عن تكثير الوصية، لئلا تبقى ورثته فقراءَ ضعافاً ضائعينَ بعد موته، والمعنى على هذا القول؛ أي: وليخش الله سبحانه وتعالى في تكثير الوصية: المُوصُونَ الذين يخافون على أولادهم الضياعَ والفقرَ لو تركوهم من خلفهم ذريةً، ضعافاً صغاراً بلا مال، فليتقوا عقابَ الله في حرمانهم، وليقولوا في إيصائهم قولاً سديداً، بأن اقتصروا في إيصائهم على الثلث، أو نَقَصُوا عنه.

وقيل: الآية[3] خطاب لأولياء اليتامى، والمعنى: وليخش من خاف على ولده من بعد موته أن يضيع مال اليتيم الضعيف الذي هو ذرية غيره، إذا كان في حجره، والمقصود من الآية: من كان في حجره يتيم فليحسن إليه، سواءً كان

---

(١) ابن كثير.
(٢) الخازن.
(٣) الخازن.

وليه أو وصيه، وليفعل به ما يحب أن يفعلَ بأولاده من بعده، ﴿فَلْيَتَّقُوا﴾ عقاب ﴿اللَّهَ﴾ في أمر اليتامى ﴿وَلْيَقُولُوا﴾ لهم: ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾؛ أي: سهلاً ليناً بأن يقولوا لليتامى مثل ما يقولون لأولادهم بالشفقة والتأديب، ويخاطبونهم بقولهم: يا ولدي يا بني.

وعبارة البيضاوي هنا: قوله تعالى[1]: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً﴾ الآية. أمر للأوصياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه في أمر اليتامى، فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذراريهم، الضعاف بعد وفاتهم، أو أمر للحاضرين المريضَ عند الإيصاء بأن يخشوا ربهم، أو يخشوا على أولاد المريض، ويشفقوا عليهم شفقتهم على أولادهم، فلا يتركوه أن يضر بهم بصرف المال عنهم، أو أمر للورثة بالشفقة على من حضر القسمة من ضعفاء الأقارب واليتامى، والمساكين متصورينَ أنهم لو كانوا أولادَهم بقوا خلفهم ضِعَافاً مثلهم هل يجوزون حرمانهم؟ أو أمر للموصين بأن ينظروا للورثة، فلا يسرفوا في الوصية انتهت. فالقول[2] السديد من الجالسين عند المريض هو أن يأمروه أن يتصدق بدون الثلث، ويترك الباقيَ لولده وورثته، وأن لا يحيف في وصيته، والقول السديد من الأوصياء، وأولياء اليتامى أن يكلموهم كما يكلمون أولادهم، ولا يؤذوهم بقول ولا فعل. وقرأ الزهري والحسن، وأبو حيوة، وعيسى بن عمر بكسر لام الأمر في ﴿وليخش﴾، وفي ﴿فلِيتقوا﴾، وفي ﴿ولِيقولوا﴾ وقرأ الجمهور بالإسكان.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى﴾، وينتفعون بها ﴿ظُلْمًا﴾؛ أي: حالةَ كونهم ظالمينَ، أو على سبيل الظلم وهضم الحقوق لا أكلاً بالمعروف عند الحاجة إلى ذلك، أو تقديراً لأجرة العمل ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي﴾ ملء ﴿بُطُونِهِمْ نَارًا﴾؛ أي: حراماً يكون سبباً لعذاب النار. ونبه بقوله: ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ على نقصهم، ووصفهم بالشره في الأكل، والتهافت في نيل الحرام بسبب البطن ﴿وَسَيَصْلَوْنَ﴾؛ أي: وسيدخلون يوم القيامة ﴿سَعِيرًا﴾؛ أي: ناراً متقدة ذات لهب

---

(١) البيضاوي. (٢) الخازن.

شديد، لا يعرف قدر حرارتها إلا الله تعالى يحترقون فيها.

وإنما خص الأكل بالذكر، وإن كان المراد سائر أنواع الإتلافات، وجميع التصرفات الرديئة المتلفة للمال؛ لأن الضررَ يحصل بكل ذلك لليتيم، فعبر عن جميع ذلك بالأكل؛ لأنه معظم المقصود، وإنما ذكر البطون للتأكيد؛ فهو كقولك رأيت بعيني، وسمعت بأذني.

وروى السدي(١): يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة، ولهبُ النار يخرج منْ فيه، ومن مسامعه، وأنفه، وعينيه يعرفه كل من رآه بآكل مال اليتيم.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما نزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ الآية: انطلق من كان عنده يتيم فعزلَ طعامَه من طعامه، وشرابَه من شرابه، فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكلَه، أو يفسدَ فاشتدَ ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم.

وقرأ الجمهور ﴿وَسَيَصْلَوْنَ﴾ مبنياً للفاعل من الثلاثي، من صلي النار يصلاها من باب رضي، والصلي هو التسخن بقرب النار، أو مباشرتها، وقرأ(٢) ابن عامر، وأبو بكر، وعاصم بضم الياء وفتح اللام مبنياً للمفعول من الثلاثي. وقرأ ابن أبي عبلة، وأبو حيوة بضم الياء وفتح الصاد، واللام مشددةً، مبنياً للمفعول من التصلية بكثرة الفعل مرة بعد أخرى.

وعبر بالصلي بالنار عن العذاب الدائم بها؛ إذ النار لا تذهب ذواتَهم بالكلية، بل كما قال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾، وهذا وعيد عظيم على هذه المعصية، والسعير: الجمر المشتعل.

---

(١) ابن كثير.

(٢) البحر المحيط والشوكاني.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

﴿يا﴾ حرف نداء ﴿أي﴾ منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾ حرف تنبيه زائد، تعويضاً عما فات ﴿أي﴾ من الإضافة. ﴿ٱلنَّاسُ﴾ صفة لـ﴿أي﴾ تابع للفظه، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ٱتَّقُواْ﴾ فعل وفاعل والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿رَبَّكُمُ﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿ٱلَّذِى﴾ اسم موصول في محل النصب صفة لـ﴿ربكم﴾. ﴿خَلَقَكُم﴾ فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة له، والعائد ضمير الفاعل. ﴿مِّن نَّفْسٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿خلق﴾. ﴿وَٰحِدَةٍ﴾ صفة لـ﴿نفس﴾.

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾.

﴿وَخَلَقَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿خلق﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة معطوفة على جملة ﴿خَلَقَكُم﴾. ﴿منها﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿خلق﴾. ﴿زَوْجَهَا﴾ مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَبَثَّ﴾ الواو عاطفة. ﴿بث﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة معطوفة على جملة ﴿خَلَقَكُم﴾. ﴿مِنْهُمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿بث﴾. ﴿رِجَالًا﴾ مفعول به. ﴿كَثِيرًا﴾ صفة له ﴿وَنِسَآءً﴾ معطوف على ﴿رِجَالًا﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿اتقوا الله﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿اتقوا ربكم﴾. ﴿ٱلَّذِى﴾ صفة للجلالة. ﴿تساءلون﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿بِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿تساءلون﴾، وهو العائد على الموصول. ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾ بالنصب معطوف على الجلالة، والمعنى: اتقوا الله بطاعته، واتقوا الأرحامَ التي تساءلون بها بصلتها، فإنها مما أمر الله تعالى أن يوصلَ، وقيل: معطوف على محل الجار والمجرور، في قوله ﴿بِهِۦ﴾ كقولك مررت بزيد وعمراً، والمعنى: اتقوا الله الذي تساءلون به، وتتساءلون بالأرحام،

وبالجر عطفاً على الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ كما مر في بحث التفسير. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ﴿إن﴾ حرف نصب، ولفظ الجلالة ﴿اللَّهَ﴾ اسمها، ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الله. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿رقيباً﴾. ﴿رَقِيبًا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ﴾ فعل وفاعل، ومفعول أول ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾ مفعول ثان، ومضاف إليه، والجملة مستأنفة ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ الواو عاطفة. ﴿لا﴾ ناهية. ﴿تَتَبَدَّلُوا۟﴾ فعل، وفاعل مجزوم. بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ مفعول به. ﴿بِٱلطَّيِّبِ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَءَاتُوا۟﴾. ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ الواو عاطفة. ﴿لا﴾ ناهية. ﴿تَأْكُلُوٓا۟﴾ فعل، وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾ مفعول به، ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿آتوا﴾ ﴿إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾ تقديره: حالة كونها مضافة ﴿إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ ﴿إن﴾ حرف نصب وتوكيد. ﴿الهاء﴾ ضمير عائد على المصدر المفهوم من ﴿لا تأكلوا﴾ تقديره: إن أكلها في محل النصب اسمها ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾. ﴿حُوبًا﴾ خبرها. ﴿كَبِيرًا﴾ صفته، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ﴾.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ الواو استئنافية. ﴿إن﴾ حرف شرط جازم. ﴿خِفْتُمْ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لـ﴿إن﴾ ﴿أَلَّا تُقْسِطُوا۟﴾ ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿لا﴾ نافية. ﴿تقسطوا﴾ فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾. ﴿في اليتامى﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية صلة أن المصدرية، أن مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: وإن خفتم عدم

إقساطكم في اليتامى. ﴿فَٱنكِحُواْ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً، لكون الجواب جملة طلبية. ﴿انكحوا﴾ فعل وفاعل في محل الجزم، بـ﴿إن﴾ على كونه جواب الشرط. ﴿مَا طَابَ﴾ ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿انكحوا﴾. ﴿طَابَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾ والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها. ﴿لَكُم﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿طاب﴾ وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿طَابَ﴾. ﴿مَثْنَىٰ﴾ حال من ﴿ما﴾ في قوله ﴿مَا طَابَ﴾ منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف منع مع ظهورها التعذر؛ لأنه اسم مقصور، ولم ينون؛ لأنه اسم لا ينصرف، والمانع له من الصرف: علتان، فرعيتان، معتبرتان، من علل تسع، ترجع إحداهما إلى اللفظ، والأخرى إلى المعنى، وهما العدل، والوصف، وهو جامد مؤول بمشتق تقديره، حالة كونه معدوداً باثنين اثنين. ﴿وَثُلَٰثَ﴾ ﴿وَرُبَٰعَ﴾ معطوفان على ﴿مَثْنَىٰ﴾ معدولان من ثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة، والأصل: فانكحوا ما طاب لكم من النساء اثنين اثنين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾.

﴿فَإِنْ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم جواز نكاح مثنى وثلاث ورباع، وأردتم بيانَ حكم ما إذا خفتم أن لا تعدلوا بينهن.. فأقول لكم ﴿إن خفتم﴾ ﴿إن﴾ حرف شرط جازم. ﴿خِفْتُمْ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾ أن حرف نصب ومصدر. ﴿لا﴾ نافية. ﴿تعدلوا﴾ فعل وفاعل منصوب بإن، وجملة ﴿أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾ صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ عدم عدلكم فيما فوق الواحدة ﴿فَوَٰحِدَةً﴾ الفاء رابطة لجواب إن الشرطية المحذوف تقديره: ﴿فانكحوا﴾ واحدة. ﴿واحدة﴾ مفعول لذلك المحذوف، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾.

﴿أَوۡ﴾ حرف عطف. ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب معطوف على واحدة، أو منصوب بعامل محذوف تقديره: أو تسروا ما ملكت أيمانكم على حد علفتها تبناً، وماءً بارداً. ﴿مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ﴾ فعل وفاعل، ومضاف إليه، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: أو ما ملكته أيمانكم. ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ. ﴿أَدۡنَىٰٓ﴾ خبره، والجملة مستأنفة. ﴿أن﴾ حرف مصدر. ﴿لا﴾ نافية. ﴿تَعُولُواْ﴾ فعل وفاعل منصوب بأن، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بإلى محذوفاً، تقديره: ذلك الاقتصار على الواحدة، أو على ما ملكت أيمانكم أقرب إلى عدم عولكم وجوركم في الاثنتين، وما فوقهما.

﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾.

﴿وَءَاتُواْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿آتوا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾ مفعول أول. ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ مفعول ثان، ومضاف إليه. ﴿نِحۡلَةٗۚ﴾ حال من صدقاتهن أو منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنه مصدر معنوي لـ﴿آتوا﴾. ﴿فَإِن طِبۡنَ﴾ الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم وجوب إيتاء الصداق للنساء، وأردتم بيان حكم ما إذا وهبن لكم فأقول لكم: ﴿فَإِن طِبۡنَ﴾ إن حرف شرط ﴿طِبۡنَ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿لَكُمۡ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿طبن﴾ ﴿عَن شَيۡءٖ﴾ جار ومجرور متعلق به. ﴿مِّنۡهُ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿شيء﴾. ﴿نَفۡسٗا﴾ تمييز محول عن فاعل ﴿طِبۡنَ﴾ منصوب به. ﴿فَكُلُوهُ﴾ الفاء رابطة الجواب. ﴿كلوه﴾ فعل وفاعل، ومفعول في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها ﴿هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾ حالان من ضمير المفعول، أو منصوبان على المفعولية المطلقة تقديره أكلا هنيئاً مريئاً، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿لا﴾ ناهية جازمة. ﴿تُؤۡتُواْ﴾ فعل وفاعل. ﴿ٱلسُّفَهَآءَ﴾ مفعول أول. ﴿أَمۡوَٰلَكُمُ﴾ مفعول ثان، ومضاف إليه، والجملة مستأنفة.

﴿ٱلَّتِى﴾ اسم موصول في محل النصب صفة لـ﴿أموالكم﴾. ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل. ﴿لَكُرْ﴾ متعلق به. ﴿قِيَٰمًا﴾ مفعول ثان. لـ﴿جعل﴾، والأول محذوف تقديره جعلها الله لكم قياماً، والجملة صلة الموصول، والعائد الضمير المحذوف.

﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

﴿وَٱرْزُقُوهُمْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿ارزقوهم﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿فِيهَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿ارزقوا﴾ و﴿في﴾ بمعنى من الابتدائية. ﴿وَٱكْسُوهُمْ﴾ فعل وفاعل، ومفعول معطوف على ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟﴾. ﴿وَقُولُوا۟﴾ الواو عاطفة. ﴿قولوا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟﴾. ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿قولوا﴾. ﴿قَوْلًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة. ﴿مَّعْرُوفًا﴾ صفة لـ﴿قولا﴾.

﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾.

﴿وَٱبْتَلُوا۟﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ابتلوا اليتامى﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرف ابتداء لدخولها على الجملة، فلا عمل لها، وإنما دخلت على الكلام لمعنى الغاية، كما تدخل على المبتدأ، أو حرف جر وغاية لكون ما بعدها غايةً لما قبلها، و﴿إذا﴾ حينئذ مجردة عن معنى الشرط. ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مضمن معنى الشرط. ﴿بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ﴾ فعل وفاعل، ومفعول، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب إذا لكون الجواب جملة شرطية ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿ءَانَسْتُم﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿مِّنْهُمْ﴾ متعلق به. ﴿رُشْدًا﴾ مفعول به. ﴿فَٱدْفَعُوٓا۟﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة طلبية. ﴿ادفعوا﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها. ﴿إِلَيْهِمْ﴾ متعلق به. ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾ مفعول به ومضاف إليه، وجملة إن الشرطية من فعل شرطها وجوابها جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب على القول بأن ﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرف ابتداء، أو في محل الجر بـ﴿حتى﴾ على القول بأن ﴿حتى﴾ حرف جر

وغاية، والمعنى على الأول: أعني كونها حرف ابتداء إذا بلغوا النكاحَ راشدينَ، فادفعوا إليهم أموالهم. والمعنى على الثاني: أعني كونها حرف جر وغاية، وابتلوا اليتامى إلى وقت بلوغهم، واستحقاقهم دفع أموالهم بشرط إيناس الرشد.

﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿لا﴾ ناهية جازمة. ﴿تَأْكُلُوهَآ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾ حالان من الفاعل، ولكن بتأويلهما بمشتق؛ أي: حالة كونكم مسرفينَ، ومبادرينَ إلى أكلها، أو مفعولان لأجله؛ أي: لأجل الإسراف، والمبادرة لهم إلى أكلها. ﴿أَن يَكْبَرُواْ﴾ فعل، وفاعل منصوب ﴿بأن﴾ المصدرية، والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة المصدر المقدر، تقديره: مَخَافة كبرهم، والمصدر المقدر منصوب على المفعولية لأجله، أو الجملة في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعول ﴿وَبِدَارًا﴾ تقديره: ومبادرين كبرهم. ﴿وَمَن﴾ الواو استئنافية. ﴿من﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الجواب. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم بمن على كونه فعل شرط لها، واسمه ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿غَنِيًّا﴾ خبرها. ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ الفاء رابطة لجواب من الشرطية، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿من﴾ اسم شرط مبتدأ. ﴿كَانَ فَقِيرًا﴾ فعل شرط لها ﴿فَلْيَأْكُلْ﴾ في محل الجزم جوابها، والجملة معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ متعلق بـ﴿يأكل﴾ أو صفة لمصدر محذوف تقديره؛ أي: أكلاً ملتبساً بالمعروف. ﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾ استئنافية، أو فصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم وجوبَ الدفع إليهم عند إيناس الرشد منهم، وأردتم بيانَ ما ينبغي لكم عند الدفع فأقول: ﴿إذا دفعتم﴾ إذا ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿دَفَعْتُمْ﴾ فعل وفاعل. ﴿إِلَيْهِمْ﴾ متعلق به. ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ مفعول به، ومضاف إليه،

والجملة في محل الخفض بـ﴿إذا﴾ على كونها فعلَ شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿فَأَشْهِدُواْ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إذا﴾. ﴿اشهدوا﴾ فعل وفاعل جواب ﴿إذا﴾ لا محل له من الإعراب. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق به، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، أو في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ الواو استئنافية. ﴿كفى﴾ فعل ماض. ﴿بِٱللَّهِ﴾ الباء[1] زائدة. ولفظ الجلالة فاعل، ودخلت عليه ﴿الباء﴾؛ لتدل على معنى الأمر، إذ التقدير اكتف بالله، وقيل: إن الفاعل مضمر، والتقدير: كفى الإكتفاء بالله، فبالله على هذا في موضع نصب مفعولاً به. ﴿حَسِيبًا﴾ حال، وقيل: تمييز، وكفى يتعدى إلى مفعولين، وقد حذفا هنا، والتقدير: كفاك الله شرهم، ونحو ذلك، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ ذكره أبو البقاء.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾.

﴿لِّلرِّجَالِ﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿نَصِيبٌ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة. ﴿مِّمَّا﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿نصيب﴾. ﴿تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ فعل وفاعل. ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ معطوف عليه، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: مما تركه الوالدان. ﴿وَلِلنِّسَآءِ﴾ الواو عاطفة. ﴿للنساء﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿نَصِيبٌ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ﴾. ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ صفة لـ﴿نصيب﴾. ﴿مِمَّا قَلَّ﴾ جار ومجرور بدل من الجار والمجرور في قوله: ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ﴾ بإعادة الجار، وجملة ﴿قَلَّ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط ضمير الفاعل. ﴿والهاء﴾ في ﴿مِنْهُ﴾ عائد إلى ﴿ما﴾ في قوله: ﴿مِّمَّا تَرَكَ﴾، وهذا البدل مقدر أيضاً في الجملة الأولى، أعني قوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ محذوف لعلمه من المذكور، ويجوز[2] أن يكون الجار والمجرور في قوله: ﴿مِمَّا قَلَّ﴾ حالاً من الضمير

---

(١) عكبري.

(٢) عكبري.

المحذوف في ﴿تَرَكَ﴾؛ أي: وللنساء نصيب مما تركه الوالدان، والأقربون حالة كونه قليلاً. أو كثيراً، أو مستقراً مما قلَّ ﴿أَوْ كَثُرَ﴾ معطوف على ﴿مما قلّ﴾ منصوب على المصدرية بعامل محذوف تقديره: نصبهم نصيباً؛ أي: أعطاهم الأنصباء عطاءً مقدراً بما لا يزيد، ولا ينقص، وقيل: هو حال مؤكدة، والعامل فيها: معنى الاستقرار في قوله: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ وقيل: هو حال من الفاعل في ﴿قَلَّ﴾ ﴿أَوْ كَثُرَ﴾ وقيل: هو مفعول لفعل محذوف تقديره: أوجب لهم نصيباً، وقيل: هو منصوب على إضمار أعني، ذكره أبو البقاء. ﴿مَّفْرُوضًا﴾ صفة لـ﴿نصيبا﴾.

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فعل ومفعول وفاعل، ومضاف إليه، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ معطوف على ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينُ﴾ معطوف عليه أيضاً ﴿فَٱرْزُقُوهُم﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إذا﴾. ﴿ارزقوهم﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿مِّنْهُ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿ارزقوهم﴾. ﴿وَقُولُوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿ارزقوهم﴾ ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور، متعلق به. ﴿قَوْلًا﴾ منصوب على المصدرية. ﴿مَّعْرُوفًا﴾ صفة له.

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾.

﴿وَلْيَخْشَ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿اللام﴾ حرف أمر وجزم مبني على السكون، تخفيفاً لاتصالها بالواو. ﴿يخشى الذين﴾: فعل وفاعل مجزوم بلام الأمر، والجملة مستأنفة، ومفعول[1] الخشية محذوف تقديره: وليخش الله الذين

---

(١) الجمل.

لو تركوا، ويجوز أن تكون المسألة من باب التنازع، فإن قوله: ﴿وَلْيَخْشَ﴾ يطلب الجلالة، وكذلك ﴿فَلْيَتَّقُوا﴾، ويكون من أعمال الثاني للحذف من الأول. اهـ «سمين». ﴿لَوْ﴾ حرف شرط غير جازم بمعنى ﴿إن﴾. ﴿تَرَكُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿تركوا﴾، ويجوز أن يكون حالاً من ﴿ذُرِّيَّةً﴾ كما ذكره أبو البقاءِ. ﴿ذُرِّيَّةً﴾ مفعول به لـ﴿تركوا﴾. ﴿ضِعَافًا﴾ صفة لـ﴿ذرية﴾. ﴿خَافُوا﴾ فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق به، والجملة جواب ﴿لَوْ﴾. لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْ﴾ من فعل شرطها، وجوابها صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل في ﴿تَرَكُوا﴾. ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. و﴿اللام﴾ لام الأمر، مبني على السكون تخفيفاً لاتصالها بـ﴿الفاء﴾ ﴿يتقوا اللَّه﴾ فعل وفاعل ومفعول مجزوم بلام الأمر، والجملة معطوفة على جملة ﴿يخش﴾. ﴿وَلْيَقُولُوا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿يتقوا﴾. ﴿قَوْلًا﴾ منصوب على المصدرية. ﴿سَدِيدًا﴾ صفة له.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿الَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل النصب اسم ﴿إِنَّ﴾. ﴿يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى﴾ فعل وفاعل ومفعول، ومضاف إليه، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿ظُلْمًا﴾ مفعول لأجله، وشروط النصب موجودة فيه، أو منصوبُ على الحالية من فاعل ﴿يَأْكُلُونَ﴾، ولكن بتأويله بمشتق تقديره: يأكلونه حالَ كونهم ظَالِمينَ. ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر. ﴿يَأْكُلُونَ﴾ فعل وفاعل. ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿يأكلون﴾ أو بمحذوف حال من ﴿نَارًا﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليه، فانتصب حالاً. ﴿نَارًا﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وفي ذلك[1] دلالة على وقوع خبر

(١) الجمل.

﴿إن﴾ جملة مصدرةً بـ﴿إن﴾، وفي ذلك خلاف، وحسنه هنا وقوع اسم إن موصولاً فطال الكلام بصلة الموصول، فلما تباعد ما بينهما لم يبال بذلك.

﴿وَسَيَصْلَوْنَ﴾ الواو عاطفة. ﴿سيطلون﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يَأْكُلُونَ﴾. ﴿سَعِيرًا﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿يصلون﴾، وجاء[1] ﴿يَأْكُلُونَ﴾ بالمضارع دون سين الاستقبال، ﴿سيصلون﴾ بالسين، فإن كان الأكل للنار حقيقةً فهو مستقبل، واستغنى عن تقييده بالسين بعطف المستقبل عليه، وإن كان مجازاً فليس بمستقبل؛ إذ المعنى يأكلون ما يجر إلى النار، ويكون سبباً إلى العذاب بها، ولما كان لفظ ﴿نَارًا﴾ مطلقاً، في قوله: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ قيد في قوله: ﴿سَعِيرًا﴾ إذ هو الجمر المتقد. ذكره أبو حيان.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ﴿ٱلنَّاسُ﴾[2] اسم للجنس البشري، وهو الحيوان الناطق، المنتصب القامة، الذي يُطلَق عليه اسم إنسان ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

بحث في حقيقة النفس والروح على اختلاف آراء الناس فيها

اختلف المسلمون في حقيقة النفس، أو الروح الذي يحيا به الإنسانُ، وتتحقق به وحدة جنسه على اختلاف أصنافه، وأشهر آرائهم في ذلك الرأي القائل: إنها جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء، ويسري فيها سريان الماء في الورد، والنار في الفحم، فما دامت هذه الأعضاء صالحةً لقبول الآثارِ التي تفيض عليها من هذا الجسم اللطيف، وجد الحس والحركةَ الإراديةَ والفكر وغيرها، وإذا فسدت هذه الأعضاء، وعجزت عن قبول تلك الآثار، فارق الروح البدنَ وانفصل إلى عالم الأرواح.

ومما يثبت ذلك أن العقلَ، والحفظَ، والتذكر وهي أمور ثابتة قطعاً. ليست

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

من صفات هذا الجسد، فلا بد لها من منشأ وجوديّ عبرَ عنه الأقدمون بالنفس، أو الروح.

وما مثلها إلا مثل الكهرباء، فالماديون الذين يقولون: لا روحَ إلا هذه الحياة يكون مثل الجسد عندهم مثل المستودع الكهربائي، فهو بوضعه الخاص، وبما يودع فيه من المواد تتولد فيه الكهرباء، فإذا زال شيءُ مما أودع فيه أو أزيل تركيبه الخاص فقد الكهرباء، وهكذا حال الجسم تتولد فيه الحياة بتركيب مزاجه بكيفية خاصة، وبزوالها تزول الحياة.

والذين يقولون: إن للأرواح استقلالاً عن الجسد يكون مثلُ الجسد مثل الآلة التي تدار بكهرباء تأتي إليها من المولد الكهربائي، فإذا كانت الآلة على وضع خاص في أجزائها، وأداوتها كانت مستعدة لقبول الكهرباء التي توجه إليها، حتى تؤدي وظيفتَها، وإن فقدت منها بعض الأجزاء الرئيسية، أو اختل وضعها الخاص تصبح غير قابلة للكهرباء، ومن ثم لا تؤدي وظيفتَها الخاصة بها. ذكره المراغي.

﴿وَبَثَّ﴾ بمعنى نشَرَ وفرق، ومنه ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ فهو من المضاعف المتعدي فقياسه ضم عين مضارعه، ﴿وَٱلْأَرْحَامَۚ﴾ جمع رحم، والرحم: القرابة، وإنما استعير اسم الرحم للقرابة؛ لأن الأقارب يترا حمون، ويعطف بعضهم على بعض، والرحم في الأصل: مكان يكون فيه الجنين في بطن أمه، ثم أطلق على القرابة. ﴿رَقِيبًا﴾ الرقيب: فعيل بمعنى فاعل؛ أي: بمعنى المراقب، وهو المشرف من مكان عال، والمرقب مفعل بمعنى المكان الذي يشرف منه الإنسان على ما دونه، والمراد بالرقبب هنا الحافظ المطلع على الأعمال؛ لأن ذلك من لوازمه.

﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ﴾ جمع يتيم، لغة من مات أبوه مطلقاً، لكن العرف خصصه بمن لم يبلغ مبلغ الرجال، وفي «المصباح»[1] يتم ييتم من باب تعب، وضرب يتماً بضم الياء وفتحها، لكن اليتم في الناس من قبل الأب: فيقال: صغير يتيم،

---

(١) الفتوحات الإلهية.

والجمع أيتام، وصغيرة يتيمة، والجمع يتامى، وفي غير الناس من قبل الأم، وأيتمت المرأة أيتاماً، فهي مؤتم، صار أولادها يَتَامَى، فإن مات الأبوان فالصغير لطِيم، وإن ماتت الأم فقط فهو عَجَمي انتهى.

﴿ٱلْخَبِيثَ﴾: هو مال اليتيم، وإن كان جيداً، فهو خبيث لكونه حراماً ﴿بِٱلطَّيِّبِ﴾ وهو مال الولي، فهو طيب لكونه حلالاً، وإن كان رديئاً ﴿حُوبًا﴾ الحوب الذنب، والإثم فهو مصدر: حاب يحوب حوباً من باب قال: وفي «المصباح» حاب حوباً من باب قال: إذا اكتسب الإثم، وبضم الحاء أيضاً.

﴿أَلَّا تُقْسِطُوا﴾ من أقسط الرباعي بمعنى عدل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، وفي «المصباح» قسط يقسط من باب: ضرب قسطاً، وقسوطاً إذا جار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾، ويأتي بمعنى عدل أيضاً، فهو حينئذ من الأضداد، قاله ابن القطاع. ويقال: أقسط بالألف إذا عدلَ، والاسم منه: القِسط بالكسر، وقرىء هنا بفتح التاء من قسط الثلاثي، إذا جار، فتكون هذه القراءة محمولة على تقدير زيادة لا، كأنه قال: وإن خفتم أن تقسطوا.

﴿مَا طَابَ لَكُم﴾؛ أي: ما مال إليه القلب منهن ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ واعلم[1] أن هذه الألفاظَ المعدولةَ فيها خلاف، وهل يجوز فيها القياس، أو يقتصر فيها على السماع؛ قولان. قول البصريين: عدم القياس، وقول الكوفيين، وأبي إسحاق: جوازه، والمسموع من ذلك أحدَ عشرَ لفظاً أحاد، وموحد، وثناء، ومثنى، وثلاث، ومثلث، ورباع، ومربع، ومخمس، وعشار، ومعشر، ولم يسمع خماس، ولا غيره من بقية العقد، واختلفوا أيضاً في صرفها، وعدمه فجمهور النحاة على منعه، وأجاز الفراء صرفَها، وإن كان المنع عنده أولى ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ اسم تفضيل من دنا يدنو دنواً إلى الشيء إذا قرب إليه، ودنا يتعدى بإلى، وباللام وبمن تقول: دنوت إليه، وله، ومنه ﴿تَعُولُواْ﴾ من عال يعول من باب: قال إذا مال عن الحق، وجار فيه، والمصدر العول، والعيالة، وعال الحاكم إذا جار.

---

(١) الفتوحات الإلهية.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾؛ أي: أعطوا[1] من آتى الرباعي إيتاء بمعنى أعطاه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لا من أتى بالقصر إتياناً إذا جاء، ﴿صَدُقات﴾ جمع صدقة بفتح الصاد، وضم الدال اسم للمهر، وله أسماء كثيرة منها صَدَقة بفتحتين، وبفتح فسكون، وصَدَاق بالفتح والكسر ﴿نِحْلَةً﴾ مصدر من غير لفظ الفعل بل من معناه؛ لأن معنى آتوهن بمعنى أنحلوهن، فهو على حد جلست قعوداً وقمت وقوفاً، وفي «المصباح» ونحله بفتحتين نحلاً مثل قفل إذا أعطيته شيئاً من غير عوض عن طيب نفس، ونحلت المرأة مهرها نحلةً بالكسر أعطيتها ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ الهنيء هو ما يستلذه الآكل، والمريء، ما تُحمَد عاقبته، كأن يسهلَ هضمه، وتحسُنَ تغذيته، وقيل: ما ينساغ في مجراه الذي هو المريء، وهو ما بين الحلقوم إلى فم المعدة، سمي بذلك لمرور الطعام فيه؛ أي: انسياغه ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ ﴿هَنِيٓـًٔا﴾[2] مصدر جاء على وزن فعيل، وهو نعت لمصدر محذوف؛ أي: أكلاً هنيئاً، وقيل: هو مصدر في موضع الحال من الهناء، والتقدير: مهنأ أو طيباً ومثله ﴿مَّرِيٓـًٔا﴾ والمريء، فعيل بمعنى مفعل؛ لأنك تقول: أَمْرَأني الشيء رباعياً إذا لم تستعمله مع هَنَاني، فإن قلت هَنَانِي ومَراني لم تأت بالهمزة في مَرَاني؛ لتكون تابعةً لهناني ثلاثياً. ذكره أبو البقاء.

وقال أبو حيان[3]: ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ صفتان من هنؤ الطعام ومرؤ إذا كان سائغاً لا تنغيص فيه، ويقال: هَنَا يهنا بغير همز قيل: واشتقاق الهنيء من هناء البعير، وهو الدواء الذي يطلى به من الجرب، ويُوضع في عقره، والمريء ما يساغ في الحلق كما مر آنفاً انتهى.

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ﴾ وأصل: ﴿تُؤْتُوا۟﴾ تؤتيوا بوزن تكرموا أستثقلت الضمة على الياء، فحذفت الضمة، فالتقى ساكنان الياء وواو الضمير، فحذفت الياء؛ لئلا يلتقي ساكنان. والسفهاء[4] جمع سفيه، وهو المبذر للمال المنفق له فيما لا ينبغي، وأصل السفه الخفة والاضطراب، ومنه قيل: زمان سفيه؛ إذا كان كثير

---

(١) كرخي.
(٢) عكبري.
(٣) البحر المحيط.
(٤) المراغي.

الاضطراب، وثوب سفيه رديء النسج، ثم استعمل في نقصان العقل، وهو المراد هنا ﴿قِيَمًا﴾؛ أي: تقوم بها أمور معايشكم، وتمنع عنكم الفقر؛ قال الراغب: القيامُ والقوامُ ما يقوم به الشيء، ويثبت كالعماد، والسناد ما يعمد، ويسند به.

و﴿قِيَمًا﴾ بالياء، والألف مصدر قام، والياء بدل من الواو، وأبدلَت منها لما أعلت في الفعل، وكانت قبلها كسرة ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾، والقول المعروف هو ما تطيبُ به النفوسُ، وتألفه كإفهام السفيه أنَّ المال مَالُه لا فضلَ لأحد عليه، ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾؛ أي: علمتم منهم حسن التصرف في الأموال، وفي «المصباح»، وآنستُ الشيء بالمد، علمته، وآنسته أبصرته. انتهى، وفيه أيضاً الرشد: خلاف الغيّ والضلال، وهو إصابةُ الصواب، ورشد رشداً من باب تعب، ورشد يَرْشُد من باب قتل، فهو راشد، والاسم: الرشاد اهـ. ﴿إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ الإسراف: مجاوزة الحد في التصرف في المال، والبدار المبادرة والمسارعة إلى الشيء، يقال: بادرت إلى الشيء، وبدرت إليه، وهو من باب المفاعلة التي تكون بين اثنين؛ لأن اليتيم مار إلى الكبرَ، والولي مار إلى أخذ ماله فكأنهما يستبقان، ويجوز أن يكون من واحد، وفي «المصباح»: كبر الصبي، وغيره يكبر من باب: تعب مكبراً مثلَ مسجد، وكبراً وزانَ عِنب، فهو كبير، وجمعه كبار، والأنثى كبيرة ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾؛ أي: فليعف نفسَه عن مال اليتيم، فـ﴿السين﴾ و﴿التاء﴾ فيه زائدتان، والعفة تركُ ما لا ينبغي من الشهوات، وفي «المختار»: عفَّ عن الحرام يَعِفُّ بالكسر عِفةً وعَفًّا، وعفا إذا كف عنه، فهو عف، وعفيف، والمرأة عفة، وعفيفة ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾؛ أي: سهماً مقدراً مَحْتُوماً لا بد لهم أن يأخذوه ﴿وَلْيَخْشَ﴾ الخشية: الخوف في محل الأمن ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ والسديد: العدل، والصواب، والسداد بالكسر: ما يسد به الشيء كالثغر موضع الخوف من العدو، والقارورة ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ يقال: صلى اللحم صلياً، إذا شواه، فإذا أراد إحراقه يقال: أصلاه إصلاءً، وصلاه تصليةً وصلى يده بالنار - من باب رضي - أدفأها، واصطلى استدفأ، وفي «المختار» صليت اللحم وغيره، من باب: رمَى شويته، ويقال: صليت الرجلَ ناراً؛ أي: أدخلته النار، وجعلته يصلاها. اهـ. والسعير: النار المستعرة المشتعلة، يقال: سَعرت النار، وسعرتُهَا، أوقدتُها.

البلاغة

قال أبو حيان[1]: وقد تضمنت هذه الآيات من ضروب البيان والفصاحة:

منها: الطباق في قوله: ﴿وَٰحِدَةٍ﴾ و﴿زَوْجَهَا﴾ و﴿غنيا﴾ و﴿فقيراً﴾ و﴿قل﴾ ﴿أو كثر﴾ و﴿رِجَالًا﴾ ﴿وَنِسَآءً﴾ و﴿ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾.

ومنها: التكرار المسمى بالإطناب عندهم في قوله: ﴿**اتقوا**﴾، و﴿**خلق**﴾، و﴿خِفْتُمْ﴾، و﴿أَلَّا تُقْسِطُوا۟﴾، و﴿أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ منه جهة المعنى و﴿اليتامى﴾، و﴿النساء﴾، و﴿فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ و﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ﴾، وفي قوله: ﴿وَلْيَخْشَ﴾ و﴿خافوا﴾ من جهة المعنى على قول من جعلهما مترادفين.

ومنها: اطلاق اسم المسبب على السبب في قوله: ﴿ولا تأكلوا﴾ لأن الأخذَ سبب للأكل.

ومنها: تسمية الشيء باسم ما كان عليه في قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ﴾ سماهم يتامى بعد البلوغ.

ومنها: التأكيد بالإتباع في قوله: ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾.

ومنها: تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه في قوله: ﴿نصيب مما ترك﴾، و﴿نارا﴾ على قول من زعم أنها حقيقة كقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾؛ أي: عنباً يؤول إلى خمر.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿فَٱدْفَعُوٓا۟﴾ ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ﴾ والمغاير في قوله: ﴿وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا﴾.

ومنها: الزيادة للزيادة في المعنى في قوله: ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾.

ومنها: إطلاق اسم الكل على البعض في قوله: ﴿الأقربون﴾ إذ المراد أرباب الفرائض.

---

(١) البحر المحيط.

ومنها: إقامة الظرف المكاني مقام الزماني في قوله: ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾؛ أي: من بعد وفاتهم.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿بُطُونِهِمْ﴾ خصها دون غيرها؛ لأنها محل للمأكولات.

ومنها: التعريضُ في قوله: ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ عرض بذكر البطون لخستهم، وسقوط هممهم، والعرب تذم بذلك قال شاعرهم:

دَعِ ٱلْمَكَارِمَ لاَ تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا   وَٱقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ ٱلطَّاعِمُ ٱلْكَاسِيْ

ومنها: تأكيد الحقيقة بما يرفع احتمالَ المجاز في قوله: ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ رفع المجازَ العارضَ في قوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ على قول من حمله على الحقيقة، ومَنْ حملَه على المجاز فيكون عنده من ترشيح المجاز، ونظيره في كونه رافعاً للمجاز قوله ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾، وقوله: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ والحذف في عدة مواضعَ مثل قوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾؛ أي: كثيراً.

ومنها: المقابلة اللطيفة بَيْنَ ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

فائدة: وفي قوله تعالى: ﴿نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إشارة إلى ترك المفاخرة، والكبر لتعريفه إياهم، بأنهم من أصل واحد، ودلالة على المعاد؛ لأن القادر على إخراج أشخاص مختلفينَ من شخص واحد، فقدرته على إحيائهم بطريق الأولى، و﴿زَوْجَهَا﴾ هي حواء، وظاهر منها ابتدأ خلق حواء من نفسه، وأنه هو أصلها الذي اخترعت، وأنشئت منه، ويدل عليه الحديث الصحيح في قوله ﷺ: «إن المرأة خلقت من ضلع أعوج، فإن ذهبت تُقِيمُها كسرتها، وكسرها طلاقها» انتهى.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ۞وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾﴾.

المناسبة

لما[1] بين الله سبحانه وتعالى حُكْمَ الميراث مجملاً في قوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ ذكر هنا تفصيلَ ذلك المجمل فبيَّن أحكامَ المواريث، وفرائضها، لإبطال ما كان عليه العربُ من نظام التوارث في الجاهلية من منع الأنثى، وصغار الأولاد، وتوريث بعض مَنْ حَرَمه الإسلامُ من الميراث. وقد كانت أسبابُ الإرث في الجاهلية ثلاثةً:

الأول: النّسبُ، وهو لا يكون إلا للرجال الذين يركبون الخيلَ، ويقاتلون

---

(١) المراغي.

العدوَّ، ويأخذون الغنائم، وليس للضعيفَيْنِ المرأة والطفل من ذلك شيء.

والثاني: **التبني** فقد كان الرجلُ يتبنَّى ولدَ غيره، فيكون له أحكام الولد في الميراث وغيره.

والثالث: **الحِلْفُ والعهدُ**، فقد كان الرجل يقول لآخرَ: دمي دمك، وهدمي هدمك؛ أي: إذا أهدر دمي أهْدِر دمك، وترثني وأرثك، وتطلَبُ بي وأطلَبُ بك، فإذا فعلاَ ذَلك، ومات أحدهما قبل الآخر كان للحيّ ما اشترط من مال الميت.

فلما جاء الإسلام أقرهم على الأول، والثالث دون الثاني، فقال: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ والمراد به: التوارث بالنسب، وقال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ والمراد به التوارثُ بالعهد، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ والمراد به: التوارث بالتبني، وزاد شيئين آخرين:

الأول: **الهجرةُ**، فكان المهاجر يرثُ من المهاجر، وإن كان أجنبياً عنه، إذا كان بينهما مخالطة، وود، ولا يرثه غير المهاجر، وإن كان من أقاربه.

والثاني: **المؤاخاةُ** كان رسول الله ﷺ يؤاخي بين كل اثنين من الرجال، وكان ذلك سبباً للتوارث، ثم نسخ التوارثُ بهذين السببين بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾. ثم استقر الأمر بعد نزول أحكام الفرائض على أن أسباب الإرث ثلاثة: النسب، والنكاح، والولاء.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ مناسبتهالما قبلها[1]: لما بين الله سبحانه وتعالى حدوده التي حدها لعباده، قَسَّمَ الناس إلى عامل بها، مطيع، وإلى غير عامل بها، عاص، وبدأ بالمطيع؛ لأن الغالبَ على مَنْ كان مؤمناً بالله تعالى الطاعة، إذ السورة مفتتحة بخطاب الناس عامةً، ثم أردف بخطاب من يتصف بالإيمان إلى آخر المواريث، وبدأ بالمطيع؛ لأن قسم الخير ينبغي أن يبتدأ

(١) البحر المحيط.

به، وأن يعتنَى بتقديمه، وحَمَل أوَّلاً على لفظ ﴿من﴾ في قوله: ﴿يُطِعِ﴾ و﴿يُدْخِلْهُ﴾ فأفرد، ثم حملَ على المعنى في قوله: ﴿خالدين﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٤﴾، مناسبتها لما قبلها: لمَّا ذكر ثَوابَ مراعي الحدود.. ذَكَرَ عقابَ من يتعداها، وغلظ في قسم المعاصي، ولم يكتف بالعصيان بل أكَّدَ ذلك بقوله: ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ وناسب الختم بالعذاب المهين؛ لأن العاصيَ المتعديَّ للحدود؛ برز في صورة من اغترَّ، وتجاسرَ على معصية الله تعالى، وقد تقل المبالاة بالشدائد، ما لم ينضمَّ إليها الهوانُ، ولهذا قالوا: المنية ولا الدنيَّةُ.

قيل: وأفرد خالداً هنا، وجمع في خالدين فيها؛ لأن أهلَ الطاعةِ، أهل الشفاعة، وإذا اشفع في غيره دخلها، والعاصي لا يدخل النار به غيره، فبقي وحيداً.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ...﴾ الآية، سبب[1] نزولها: ما أخرجه الأئمة الستة وغيرُهم عن جابر بن عبد الله، قال: عادني رسول الله ﷺ وأبو بكر في بني سلمة، مَاشِيينْ فوجدني النبي ﷺ لا أعقل شيئاً، فدعا بماءٍ فتوضأ، ثم رش علي فأفقت، فقلتُ ما تأمرني أن أصنع في مالي؟ فنزلت ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾.

وللآيةِ سببُ آخر: وهو ما أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والحاكم عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قتل أبوهما معك في أحد شهيداً، وأن عمهما أخَذَ مالهما، فلم يَدَعْ لهما مالاً، ولا تنكحَان إلا ولهما

---

(١) لباب النقول.

مالٌ، فقال: يقضي الله في ذلك، فنزلت آية الميراث ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ الآيَةَ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما، فقال: أعط بنتي سعد الثلثين، وأمهما الثمنَ، وما بقي فهو لك، قالوا وهذه أول تركة قسِمَتْ في الإسلام.

وقصة جابر أصح؛ لأنها متفق عليها، وأما قصة بنات سعد بن الربيع ففيها عبدُ الله بن محمد بن عقيل، وهو صدوق ضعيفُ الحفظ على أنه لا تنافيَ بين القصتين، فيحتمل أنها نزلت فيهما معاً.

قال الحافظ بن حجر في «الفتح»: تمسَّك بهذا الحديث الأخير مَنْ قال: إن الآية نَزلت في قصة ابنتي سعد، ولم تنزل في قصة جابر خصوصاً أنَّ جابراً لم يكن له يومئذ ولد، قال الحافظ: والجواب أنها نزلت في الأمرين معاً، ويحتمل أن يكون: نزولُ أولها في قصة البنتين، وآخرها، وهو قوله: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ في قصة جابر، ويكون مراد جابر بقوله: فنزلت: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾؛ أي: ذكر الكلالة المتصلُ بهذه الآية، والله أعلم. انتهى.

وأقولُ في كلام الحافظ رحمه الله: نظر، فإنَّ قوله: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ في ميراث الإخوة لأم، فالأوْلى أن يقال: لا مانع من نزول الآية في الأمرين معاً كما قرره هو قبل، والله أعلم.

وقد ورد[1] في الآية سببُ ثالثٌ: وهو ما أخرجه ابن جرير، عن السدي قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون الجواريَ ولا الضعفاء من الغلمان، لا يرث الرجلَ منْ ولده إلا من أطاق القتالَ، فمات عبد الرحمٰن أخو حسَّان الشاعر، وترك امرأة يقال لها: أم كحلة، وخمسَ بنات، فجاء الورثة يأخذون مالَه، فشكَتْ أمَّ كحلة ذلك إلى النبيَّ ﷺ فأنزل الله هذه الآية: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ ثم قال في أمّ كحلةَ ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ﴾.

---

(١) لباب النقول.

فصول في فضل علم الفرائض وذكر نبذة من أحكامه

وقبل الشروع في تفسير هذه الآيات الكريمة، نقدم فصولاً تتضمن أحكامَ الفرائض، وأصولَ قواعدها.

الفصل الأول: في فضله والحث على تعلمه وتعليمه

اعلم أن علم الفرائض من أعظم العلوم قدراً، وأشرفها ذخراً، وأفضلها ذكراً، وهي ركن من أركان الشريعة، وفرع من فروعها في الحقيقة، اشتغل الصدر الأول من الصحابة بتحصيلها، وتكلموا في فروعها، وأصولها، ويكفي في فضلها أن الله عز وجل تَولَّى قسمتَها بنفسه، وأنزلها في كتابه مبينةً من فوق سمواته، وقد حث رسول الله ﷺ على تعليمها فيما رواه أبو هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا الفرائضَ والقرآنَ، وعلموا الناسَ، فإني مقبوض» أخرجه الترمذي، وقال: فيه اضطراب، وأخرجه أحمد بن حنبل، وزاد فيه «فإني امرؤ مقبوض» والعلمُ مرفوع، ويوشك أن يختلف اثنان في الفريضة فلا يَجدَانِ أحداً يخبرهما». وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا الفرائض وعلّموها، فإنه نصف العلم، وهو أول علم يُنْسَى، وهو أول شيء يُنْزَعُ من أمتي». أخرجه ابن ماجه والداقطني.

الفصل الثاني: في بيان الورثة وأقسامها

إذا مات الميت، وله مال يبدأ بتجهيزه من ماله، ثم تُقضى ديونه، إن كان عليه دين، ثم تنفَّذ وصايَاه، وما فَضَل بعد ذلك من ماله يقسم بين ورثته. والوارثون من الرجال عشرة بالاختصار، الابن وابن الابن، وإن سفل، والأب، والجد وإن علا، والأخ سواء كان لأب وأم، أو لأب فقط، أو لأم فقط، وابن الأخ للأب والأم، أو للأب وإن سفل، والعم للأب والأم، أو للأب فقط، وابناهما، وإن سفلوا، والزوج، والمعتق.

والوارثات من النساء سبع بالاختصار: البنت، وبنت الابن وإن سفلت، والأم والجدة وإن علت، والأخت من كل الجهات، والزوجة، والمعتقة.

وستة من هؤلاء لا يلحقهم حجب الحرمان بالغير، وهم: الأبوان، والولدان، والزوجان، لأنه ليس بينهم، وبين الميت واسطة.

ثم الورثة ثلاثة أصناف: صنف يرث بالفرض فقط، وهم الزوجان، والبنات، والأخوات، والأمهات، والجدات، وأولاد الأم، وصنف يرث بالتعصيب فقط، وهم البنون والإخوة الأشقاء أو لأب وبنوهم والأعمام وبنوهم وصنف يرث بالتعصيب تارة وبالفرض أخرى وهما الأب والجد، فيرث بالتعصيب إذا لم يكن للميت ولد، فإن كان له ابن، ورث الأب بالفرض السدس، وإن كانت بنت ورث السدس بالفرض، وأخذ الباقيَ بالتعصيب والعصبة: هو من يأخذ جميع المال إذا انفرد، ويأخذ ما فَضَل عن أصحاب الفروض إذا كان معهم.

الفصل الثالث: في أسباب الإرث وموانعه

وأسباب الإرث ثلاثة: نسب، ونكاح، وولاء، فالنسب القرابةُ يرث بعضهم بعضاً، والنكاح هو أن يرث أحد الزوجين من صاحبه بسبب النكاح، والولاء هو أن المعتقَ وعصباته يرثون المعتقَ.

والأسباب التي تمنع الإرث أربعة:

الأول: اختلاف الدين، فالكافر لا يرث المسلم، والمسلم لا يرث الكافر؛ لما روي عن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم». أخرجاه في «الصحيحين». فأما الكفار فيرث بعضهم بعضاً مع اختلاف مللهم، وأديانهم؛ لأن الكفر كله ملة واحدة، وذهب بعضهم إلى أن اختلاف الملل والكفر يمنع التوارث أيضاً، حتى لا يرث اليهودي من النصراني، ولا النصراني من المجوسي، وإلى هذا ذهب الزهري، والأوزاعي، وأحمد، وإسحاق، لما روي عن جابر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لا توارث بين أهل ملتين». أخرجه الترمذي، وقال حديث غريب.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ

قال: «لا يتوارث أهل ملتين شتى». أخرجه أبو داود، وحمله الآخرون على الإسلام والكفر؛ لأن الكفر عندهم ملة واحدة، فتوريث بعضهم من بعض لا يكون فيه إثبات التوارث بين ملتين شتى.

والثاني: الرق، فإنه يمنع الإرث، لأن الرقيق ملك، ولا ملك له، فلا يرث، ولا يورث.

والثالث: القتل، فإنه يمنع الإرث مطلقاً عمداً كان القتل، أو خطأً؛ لما روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «القاتل لا يرث». أخرجه الترمذي، وقال: هذا حديث لا يصح، والذي العمل عليه عند أهل العلم أن القاتل لا يرث، سواءً كان القتل عمداً أو خطأً. وقال بعضهم: إذا كان القتل خطأً. فإنه يرث، وهو قول مالك.

والرابع: إبهام الموت، وهو أن يخفى موت المتوارثين، وذلك بأن غرقا أو انهدم عليهما بناء، فلم يدر أيهما سبق موته، فلا يرث أحدهما الآخر، بل يكون إرث كل واحد منهما لمن كانت حياته يقيناً بعد موته من ورثته.

الفصل الرابع: في بيان الفروض وأهلها

والسهام المقدرة في المواريث المذكورة في كتاب الله عز وجل ستة: النصف، والربع، والثمن، والثلثان، والثلث، والسدس:

فالنصف: فرض الزوج عند عدم الولد الوارث، وفرض البنت الواحدة للصلب، أو بنت الابن عند عدم بنت الصلب، وفرض الأخت الواحدة للأب والأم، وفرض الأخت الواحدة للأب إذا لم يكن ولد لأب وأم.

والربع: فرض الزوج مع الولد، وفرض الزوجة مع عدم الولد.

والثمن: فرض الزوجة مع الولد.

والثلثان: فرض البنتين فصاعداً، أو بنات الابن عند عدم بنات الصلب، وفرض الأختين فصاعداً للأب والأم، أو للأب.

والثلث: فرض ثلاثة: فرض الأم إذا لم يكن للميت ولد، ولا اثنان من لإخوة والأخوات إلا في مسألتين: تسمى بالغراوين: إحداهما زوج، وأبوان، والأخرى: زوجة وأبوان، فإن للأم فيهما ثلث الباقي بعد نصيب الزوج، أو الزوجة، وفرض الاثنين فصاعداً من أولاد الأم ذكرهم وأنثاهم فيه سواء، وفرض الجد مع الإخوة إذا لم يكن في المسألة صاحب فرض، وكان الثلث خيراً له من المقاسمة مع الإخوة.

والسدس: فرض سبعة: فرض الأب إذا كان للميت ولد، وفرض الأم إذا كان للميت ولد، أو ولد ابن أو اثنان من الإخوة، والأخوات، وفرض الجد إذا كان للميت ولد، ومع الإخوة إذا كان في المسألة صاحب فرض، وكان السدس خيراً له من المقاسمة مع الإخوة، وفرض الجدة والجدات، وفرض الواحد من أولاد الأم ذكراً كان أو أنثى، وفرض بنات الابن مع بنت الصلب تكملةَ الثلثين، وفرض الأخوات للأب مع الأخت للأب والأم تكملةَ الثلثين.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فهو لأولى رجل ذكر». متفق عليه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان المال للولد، والوصية للوالدين، فنسخ الله من ذلك ما أحب، فَجَعَلَ للذكر مثل حظ الأثنيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما: السدس، أو الثلث، وجعل للمرأة الثمن، أو الربع، وللزوج الشطر أو الربع، رواه البخاري.

الفصل الخامس: في الحجب

روي عن زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ قال: ولَدُ الأبناء بمنزلة الأبناء، إذا لم يكن دونه ابن، ذكرهم كذكرهم، وأنثاهم كأنثاهم، يرثون ويَحجبون كما يَحجبون، ولا يرث ولد ابن مع ابن ذكر، فإن ترك بنتاً، وابن ابن.. كان للبنت النصف، ولابن الابن ما بقي لقوله ﷺ: «ألحقوا الفرائضَ بأهلها، فما بقي فهو لأولى رجل ذكر». ففي هذا الحديث دلالة على أن بعض الورثة يحجب البعض،

والحجب قسمان: حجبُ نقصان، وحجبُ حرمان:

أمَّا الأول: وهو حجب النقصان: فهو أن الولد وولد الابن يحجب الزوجَ من النصف إلى الربع، والزوجةَ من الربع إلى الثمن، والأم من الثلث إلى السدس، وكذلك الاثنان من الإخوة والأخوات يحجبون الأم من الثلث إلى السدس.

وأما الثاني: وهو حجب الحرمان. فهو أن الأم تسقط الجدات، وأولاد الأم، وهم الإخوة للأم يسقطون بأربعة: بالأب، والجد، وإن علا، وبالولد، وولد الابن، وأولاد الأب والأم، وهم الإخوة للأب والأم يسقطون بثلاثة: بالأب، والابن، وابن الابن وإن سفلوا، ولا يسقطون بالجد على مذهب زيد بن ثابت، وهو قول عمر، وعثمان، وعلي وابن مسعود، وبه قال مالك، والأوزاعي، والشافعي، وأحمد وأولاد الأب يسقطون بهؤلاء الثلاثة، وبالأخ للأب والأم. وذهب قوم إلى أن الإخوة يسقطون جميعاً بالجد كما يسقطون بالأب، وهو قول أبي بكر الصديق، وابن عباس، ومعاذ، وأبي الدرداء، وعائشة، وبه قال الحسن، وعطاء، وطاووس، وأبو حنيفة.

الفصل السادس: في العصبات

والأقرب من العصبات يسقط الأبعدَ منهم، فأقربُهم الابن، ثم ابن الابن، وإن سفل، ثم الأب، ثم الجد، وإن علا، فإن كان مع الجد أحد من الإخوة، والأخوات للأب والأم أو للأب يشتركان في الميراث، فإن لم يكن جد فللأخ للأب والأم، ثم الأخ للأب، ثم بنوا الأخوة يقدم أقربهم، سواء كان لأب وأم، أو لأب، فإن استويا في الدرجة، فالذي هو لأب وأم أولى، ثم العم لأب، وأم، ثم لأب ثم بنوهم على ترتيب بني الإخوة، ثم عم الأب، ثم عم الجد على الترتيب السابق في الإخوة، فإن لم يكن أحد من عصبات النسب، وعلى الميت ولاء، فالميراث للمعتق، فإن لم يكن حياً فلعصبات المعتق، وأربعة من الذكور يعصبون الإناث: الابن، وابن الابن، والأخ للأب والأم، والأخ للأب، فلو مات عن ابن، وبنت، أو عن أخ، وأخت لأب وأم، أو لأب، يكون المال

بينهما للذكر مثل حظ الأنثيين، ولا يفرض للبنت والأخت وكذلك ابن الابن يعصب من في درجته الإناث، ومن فوقه إذا لم يأخذ من الثلثين شيئاً حتى لو مات عن بنتين وبنت ابن، فللبنتين الثلثان، ولا شيءَ لبنت الابن، فإن كان في درجتها ابن ابن، أو أسفل منها ابن ابن ابن كان الباقي بينهما للذكر مثل حظ الأنثيين، والأخت للأب والأم، أو للأب تكون مع البنت عصبة حتى لو مات عن بنت وأخت كان للبنت النصف، والباقي: وهو النصف للأخت، ولو مات عن بنتين، وأخت، كان للبنتين الثلثان، والباقي للأخت.

ويدل على ذلك ما روي عن هذيل بن شرحبيل قال: سئل أبو موسى عن بنت، وبنت ابن، وأخت، فقال: للبنت النصف، وللأخت النصف، وأتت بنت الابن ابن مسعود، فسئل ابن مسعود، وأخبر بقول أبي موسى فقال ابن مسعود: لقد ضللت وما أنا من المهتدين، ثم قال: أقضي فيها بقضاء رسول الله ﷺ للبنت النصف، ولبنت الابن السدس. تكملة الثلثين، وما بقي فللأخت فأخبر أبو موسى بقول ابن مسعود فقال: لا تسألوني ما دام هذا الحبر فيكم. أخرجه البخاري.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ وهذا شروع في تفصيل أحكام المواريث المجملة في قوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ الخ، وإنما بَدَأَ الله سبحانه وتعالى بإرث الأولاد، لأنهم أقرب الورثة إلى الميت، وأكثر بقاء بعد المورث؛ ولأن تعلق قلب الإنسان بولده أشد من تعلقه بغيره. والخطاب فيه للمؤمنين، وقرأ ابن أبي عبلة، والحسن ﴿يوصيكم﴾ بالتشديد، والوصية ما تعهد به إلى غيرك من العمل، كما تقول: أوصيت المعلم أن يراقب آدابَ الصبي، ويؤدبه على ما يسيء فيه، وهي في الحقيقة: أمر له بعمل ما عهد إليه به.

والمعنى: يأمركم الله سبحانه وتعالى ﴿فِيٓ﴾ إرث ﴿أَوْلَٰدِكُمْ﴾ الوارثين الذكور والإناث كباراً كانوا أو صغاراً مما تتركونه من أموالكم، بأن يُعْطَى ﴿لِلذَّكَرِ﴾ الواحد منهم ﴿مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾؛ أي: قَدْرُ نصيب اثنتين من إناثهم، إذا كانوا ذكوراً وإناثاً، واختير هذا التعبيرُ، ولم يقل: للأنثى نصف حظ الذكر،

إيماء إلى أنَّ إرثَ الأنثى كأنه مقرر معروف، وللذكر مثله مرتين، وإشارةً إلى إبطال ما كانت عليه العرب في الجاهلية من منع توريث النساء.

والحكمة في جعل حظ الذكر كحظ الأنثيين: أن الذكر يحتاج إلى الإنفاق على نفسه، وعلى زوجه فجُعل له سهمان، وأما الأنثى فهي تنفق على نفسها، فحسب، وإن تزوجت كانت نفقتها على زوجها، ويدخل في عموم الأولاد:

١ ـ الكافرُ لكن السنة بينت أن اختلاف الدين مانعٌ من الإرثِ، قال ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين» كما مر.

٢ ـ والقاتل عمداً لأحد أبويه مثلاً، ويخرج بالسنة والإجماع.

٣ ـ والرقيق، وقد ثبت منعه بالإجماع، لأن المملوك لا يملك بل كل ما يصل إلى يده من المال، فهو ملك لسيده، ومالكه فلو أعطيناه من التركة شيئاً، كنا معطين ذلك للسيد فيكون هو الوارث بالفعل.

٤ ـ والميراث من النبي ﷺ فقد استثني بحديث «نحن معاشر الأنبياء لا نورث».

ولا خلاف في أن ولد الولد يقوم مقامه عند فقده، أو عدم إرثه لمانع كقتل مورّثه، قال شاعرهم:

بَنُونَا بَنُو أَبْنَائِنَا وَبَنَاتُنَا   بَنُوهُنَّ أَبْنَاءُ ٱلرِّجَالِ ٱلأَبَاعِدِ

فإذا خلف الميت ذكراً واحداً وأنثى واحدةً فللذكر سهمان، وللأنثى سهم، وإذا كان الوارث جماعةً من الذكور وجماعةً من الإناث كان لكل ذكر سهمان، ولكل أنثى سهم.

وإذا كان مع الأولاد أبوان وأحد الزوجين، فالباقي بعد سهام الأبوين، وأحد الزوجين بين الأولاد للذكر مثل حظ الأنثيين.

﴿فَإِن كُنَّ﴾؛ أي: فإن كانت البنات المتروكات من الأولاد ﴿نِسَآءً﴾؛ أي: إناثاً خلصا ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾؛ أي: بنتَيْنِ فأكثر مهما بَلَغ عددُهن ﴿فَلَهُنَّ﴾؛ أي:

فلتلك البنات سواءً كانت ثنتين فأكثر ﴿ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾؛ أي: ثلثا ما ترك والدُهن المتوفَّى أو والدتُهن.

وأجمعت[1] الأمة على أن للبنتين الثلثين إلا ما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه ذهبَ إلى ظاهر الآية، وقال الثلثان فرض الثلاث من البنات؛ لأن الله تعالى قال ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ فجعل الثلثين للنساء إذا زدن على الثنتين، وعنده أن فرض الثنتين النصف كفرض الواحدة، وأجيب عنه بأجوبة فيها حجة لمذهب الجمهور كما ذكروها:

منها: أن في الآية تقديماً وتأخيراً، والتقدير فإن كن نساءً اثنتين فما فوقهما فلهن الثلثان.

ومنها: أن الجمع يطلق على ما فوق الواحد؛ لأنَّ العرب تطلق الجمع على الاثنين كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾.

ومنها: أن لفظةَ فوق صلَةٌ هنا، والتقدير: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً﴾ اثنتين.

﴿وَإِن كَانَتْ﴾ المولودة الوارثةُ بنتاً ﴿وَٰحِدَةً﴾؛ أي: منفردةً ليس معها أخ، ولا أختَ ﴿فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ مما ترك الوالد الميتُ أو الوالدة، والباقي لسائر الورثة بحسب الاستحقاق كما يعلم من أحكام المواريث.

وخلاصة ذلك: أنه إذا كان الأولاد ذكوراً وإناثاً كان للذكر مثل حظ الأنثيين، وإن كان المولود أنثى واحدةً. كان لها النصفُ، وإن كن ثنتين أو ثلاثاً فصاعداً. كان لهن الثلثان. وقد عُلم من ذلك أنَّ البنات لا يستغرق فرضهن التركةَ، والولد الذكر إذا انفرد. يأخذ التركة كلَّها، وإذا كان معه أخ له فأكثرُ.. كانت قسمة التركة بينهما، أو بينهم بالمساواة.

قرأ الجمهور[2] ﴿وَٰحِدَةً﴾ بالنصب على أنه خبر ﴿كان﴾؛ أي: وإن كانت هي؛ أي: البنت فذةً ليس معها أخرى، وقرأ نافع ﴿واحدة﴾ بالرفع على أن كان تامة، ﴿وواحدة﴾ فاعلها، وقرأ السلمي النصف بضم النون، وهي قراءةٌ علي وزيد في جميع القرآن.

---

(١) الخازن.

(٢) البحر المحيط.

ولما فرغ الله سبحانه وتعالى من ذكر الفروع، ومقدار ما يرثون أخَذَ في ذكر الأصول، ومقدارِ ما يرثون، فقال: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾؛ أي: ولأبوي الميت وقوله: ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ بدل منه بتكرير العامل، وفائدته[1]: التنصيص على استحقاق كل واحد منهما السدسَ والتفصيل بعد الإجمال تأكيد، وأبواه هما أبوه وأمه وغلَّب لفظَ الأب في التثنية كما قيل: القمران، فغلب القمر لتذكيره على الشمس؛ أي: لكل واحد من الأبوين ﴿السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾ الميت على السواء في هذه الفريضة، ﴿إِن كَانَ لَهُ﴾؛ أي: لهذا الميت ﴿وَلَدٌ﴾ ذكر أو أنثى واحد، أو أكثر، والباقي بعد هذا الثلث أعني سدسيهما يقتسمه الأولاد؛ أي: فإن كان مع الأبوين ولد ذكر، فأكثر أو بنتان فأكثر، فلكل واحدمن الأب والأم السدس، وإن كان مَعهما بنت.. فلها النصف، وللأم السدس، وللأب السدس بحكم هذه الآية، والسدس الباقي للأب أيضاً بحكم التعصيب.

﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ﴾؛ أي: للميت ﴿وَلَدٌ﴾ ولا ولد ولد ﴿وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ فرضاً لها، والباقي للأب كما هو معلوم من انحصار الإرث، فيأخذ السدسَ بالفريضة، والنصفَ بالتعصيب، وإذا انفرد أخذ كل المال كما هو شأنُ العصبة، وإذا ورثه أبواه مع أحد الزوجين، فللأم ثُلُثُ ما يبقى بعد فرضه، والباقي للأب وتسمى هذه المسألة الغراوين، وقد أشار إليها صاحبُ «الرحبية»:

وَإِنْ يَكُنْ زَوْجٌ وَأُمٌّ وَأَبُ ... فَثُلُثُ ٱلْبَاقِيْ لَهَا مُرَتَّبُ
وَهَكَذَا مَعْ زَوْجَةٍ فَصَاعِدَا ... فَلاَ تَكُنْ عَنِ ٱلْعُلُوْمِ قَاعِدَا

وثلث الباقي في الحقيقة إما ربعٌ أو سدسٌ، وقد انعقد الإجماعُ على ذلك إلا ما شَذَّ عن ابن عباس فإنه قال: يأخذ الزوجُ نصيبه، وتأخذ الأم ثُلُثَ التركة كلَّها، ويأخذ الأب ما بقي، وقال: لا أجدُ في كتاب الله ثلثَ الباقي، والسر في تساوي الوالدين في الميراث مع وجود الأولاد الإشارة إلى وجوب احترامهما على السواء.

---

(١) الخازن.

والحكمة في أن حظ الوالدين من الإرث أقل من حظ الأولاد مع عظم حقهما على الولد: أنهما يكونان في الغالب أقل حاجة إلى المال من الأولاد، إما لكبرهما، وإما لتموُّلهما، وإما لوجود من تَجِبَ عليه نفقتهما من أولادهما الأحياء، وأما الأولاد فإما أن يكونوا صغاراً لا يقدرون على الكسب، وإما أن يكونوا على كبرهم محتاجينَ إلى نفقات كثيرة في الحياة، كالزواج، وتربية الأطفال، ونحو ذلك ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ﴾؛ أي: للميت مع أرث أبويه له ﴿إِخْوَةٌ﴾ اثنان فصاعداً ذكور أو إناث أشقاء كانوا أو لأب أو لأم وارثين كانوا أو محجوبين بالأب ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ﴾ مما ترك والباقي للأب، ولا شيءُ للإخوة، وأما السدس الذي حجبوها عنه.. فهو للأب عند وجوده، ولهم عند عدمه.

والمعنى: أنه إن كان أب وأم وإخوة.. كان نصيبُ الأم السدسَ وحطها الإخوة من الثلث إلى السدس، وصار الأب يأخذ خمسةَ الأسداس كرجل مات عن أبوين وأخوين، فإن للأم السدس والباقي، وهو خمسةُ أسداس للأب، سدس بالفريضة، والباقي بالتعصيب، فكل جمع منهم يحجب الأم من الثلث إلى السدس، ولا شيء لهم لكونهم محجوبين بالأب. قال صاحبُ «التلمسانية»:

وَفِيْهِمُ فِيْ ٱلْحَجْبِ أَمْرٌ عَجَبُ   لِكَوْنِهِمْ قَدْ حَجَبُوْا وَحُجِبُوْا

وإنما حجب الإخوة الأمَّ من غير أن يرثوا مع الأب شيئاً؛ معونة للأب؛ لأنه يقوم بشأنهم، وينفق عليهم دون الأم، ولكن هذا يدلُّ على خستهم.

وعلم مما ذكر في مسألة الغراوين: أن[1] حقوقَ الزوجية في الإرث مقدمة على حقوق الوالدين؛ إذ أنهما يتقاسمان ما بقي بعد أخذ الزوج حصتَه، وسر هذا أن صلة الزوجية أشد وأقوى من صلة البنوة؛ ذاك أنهما يعيشان مجتمعينِ وجودُ كل منهما متمم لوجود الآخر، حتى كأنه نصف شخصه، وهما حينئذ منفصلان عن الوالدين أشد الانفصال؛ فبهذا كانت حقوق المعيشة بينهما آكد، ومن ثم جعل الشارع حق المرأة على الرجل في النفقة هو الحق الأولَ؛ فإذا لم يجد

---

(١) المراغي.

الرجلِ إلا رغيفَين سد رَمَقهُ بِأَحَدِهِما، ووجب عليه أن يعطيَ الثانيَ لامرأته لا لأحد أبَوَيْه، ولا لغيرهما من أقَارِبِه.

قرأ الجمهور[1]: ﴿فَلِأُمِّهِ﴾ هنا في الموضعين، وفي قوله: ﴿فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في الزخرف، وفي قوله: ﴿حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا﴾ في القصص، وفي قوله: ﴿مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ في النحل، والزمر، وفي قوله: ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ﴾ في النور ﴿مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ في النجم بضم الهمزة من أم، وهو الأصل. وقرأ الأخوان ـ أعني الكسائيَ وحمزة ـ جميعَ ذلك بكسر الهمزة، وانفرد حمزة بزيادة كسر الميم من أمهات في الأماكن المذكورة، هذا كله في الدرج أما في الابتداء بهمزة الأم والأمهات، فإنه لا خلاف في ضمها، أما وجه قراءة الجمهور، فظاهر؛ لأنه الأصل كما تقدم.

وأما قراءة حمزة والكسائي بكسر الهمزة فقالوا: لمناسبة الكسرة، أو الياء، التي قبل الهمزة، فكسرت الهمزة إتباعاً لما قبلها، ولاستثقالهم الخروجَ من كسر أو شبهه إلى ضم، ولذلك إذا ابتدىء بالهمزة ضمَّاها لزوال الكسر، أو الياء، وأما كسرُ حمزةَ الميمَ من أمهات في المواضع المذكورة، فللإتباع، أتبع حركة الميم لحركة الهمزة، فكسرةُ الميم تبع التبع، ولذلك إذا ابتدىءَ بها ضمت الهمزة، وفَتحَ الميم لما تقدم من زوال موجب ذلك، وكسر همزةِ أم بعد الكسرة، أو الياء، حكاه سيبويه لغةً عن العرب، ونَسَبها الكسائي والفراءُ إلى هوازن، وهذيل اهـ «سمين».

وقرأ الحسن[2] ونعيم بن ميسرة ﴿السدْس﴾ بسكون الدال، وكذلك قرأ ﴿الثلْث﴾ و﴿الرْبع﴾ إلى العشر بالسكون، وهيَ لغةُ بني تميم، وربيعة، وقرأ الجمهور بالتحريك ضمًّا، وهي لغة أهل الحجاز، وبني أسد في جميعها.

وقد اختلف العلماء في الجد هل هو بمنزلة الأب فتسقط به الإخوة أم لا؟ فذهب أبو بكر الصديق إلى أنه بمنزلة الأب، ولم يخالفه أحدٌ من الصحابة في أيام خلافته، واختلفوا في ذلك بعد وفاته فقال بقول أبي بكر ابن عباس،

---

(١) الجمل. (٢) الشوكاني.

وعبد الله بن الزبير، وعائشة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب وغيرهم. وذهب علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت، وابن مسعود، إلى توريث الجد مع الإخوة للأبوين، أو لأب، ولا ينقصَ معهم من الثلث، ولا ينقص مع ذوي الفروض من السدس.

وأجمع العلماء على أن للجدة السُّدُسَ إذا لم يكن للميت أم، وأجمعوا على أنها ساقطة مع وجود الأم، وأجمعوا على أن الأبَ لا يُسقِطُ الجدةَ أم الأم، واختلفوا في توريث الجدة وابنها حي.

هذه الأنصباء المذكورة إنما تقسم للورثة ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ تنفيذ ﴿وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ﴾ الميت، وإخراجها من ثلث ما بقي بعد الدين ﴿أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾؛ أي: ومن بعد قضاء دين عليه إن كان، وأو هنا لمطلق الجمع بمعنى الواو، لا تفيد ترتيباً؛ لأن الدين مقدم على الوصية، ولا بد هنا من تقدير محذوف كما يُعلم مما سيأتي، تقديره: حالةَ كونه غير مَضار للورثة بالوصية والدين؛ بأن كان في كل منهما مصلحة، وإنما قدمت الوصية على الدين في الذكر في الآية مع أن الدينَ مقدم عليها في الوفاء، كما قضى به رسول الله ﷺ فيما رواه علي كرم الله وجهه، وأخرجه عنه جماعة قال ـ أعني علياً ـ: إنكم تقرؤون الوصيةَ قبل الدين، وبدأ رسول الله ﷺ بالدين قبل الوصية للاهتمام بها؛ لأنها تؤخذ كالميراث بلا عوض، فيشق على الورثة إخراجها.

وأجمعت الأمة على تقديم الدين، والوصية على الإرث لهذه الآية، وإنما قدما على الإرث؛ لأنَّ الدينَ حق على الميت، والوصية حق له، وهما يتقدمان على حق الورثة.

وإنما عطف[1] الدينَ على الوصية، بـ﴿أو﴾ دون الواو إشارة إلى أنهما متساويان في الوجوب متقدمان على قسمة التركة مجموعين، أو منفردين.

والحاصل:[2] أن أول ما يخرج من التركة مؤونة تجهيزه، ثم الدين، حتى لو استغرق الدين جميعَ التركة.. لم يكن للورثة فيها حق، فأما إذا لم يكن دين

---

(١) المراغي.	(٢) المراح.

أو كان إلا أنه قضي، وفضل بعده شيء. فإن أوصى الميت بوصية أخرجت من ثلث ما فضل، ثم قسم الباقي ميراثاً على حكم فرائض الله تعالى.

وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو بكر، عن عاصم ﴿يُوصِى﴾ بفتح الصاد، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي بكسر الصاد. ثم أتى بجملة معترضة بين ذكر الوارثين، وأنصبائهم، وبين قوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ولا تعلق لمعناها بمعنى الآية للتنبيه على جهل المرء بعواقب الأمور فقال: ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ﴾، ولا تعرفون ﴿أَيُّهُمْ﴾؛ أي: أي الفريقين ﴿أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ وأكثر لكم فائدةً في الدنيا بالإحسان إليكم، وفي الآخرة في الدعاء لكم، والصدقة عنكم كما في الحديث الصحيح، «أو ولد صالح يدعو له»؛ أي: إنكم لا تدرون أي الفريقين أقرب لكم نفعاً هل هم أباؤكم أو أبناؤكم، فمنكم فريق ظان أن ابنَه أنفع له، فيعطيه، فيكون الأب أنفع له في نفس الأمر، ومنكم فريق ظان، ومعتقد أن أباه أنفع له، فيعطيه الميراثَ وحدَه مع كون ابنه في نفس الأمر أنفع له، فلا تتبعوا في قسمة التركة ما كان يتعارفه أهل الجاهلية من إعطائها للأقوياء، الذين يحاربون الأعداء، وحرمان الأطفال، والنساء؛ لأنهم من الضعفاء، بل اتبعوا ما أمركم الله به، فهو أعلم منكم بما هو أقرب لكم نفعاً مما تقوم به في الدنيا مصالحكم، وتعظم به في الآخرة أجوركم، روى الطبراني؛ أن أحد المتوالدين إذا كان أرفعَ درجةً من الآخر في الجنة... سأل أن يرفع الآخر إليه، فيرفع بشفاعته.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فرَضَ الله سبحانه وتعالى ما ذكر من الأحكام ﴿فَرِيضَةً﴾ لا هوادة أي لا مسامحة في وجوب العمل بها، وفي هذا إشارة إلى وجوب الانقياد، لهذه القسمة التي قدرها الشرع، وقضى بها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ بالمصالح، والرتب ﴿حَكِيمًا﴾ في كل ما قضى وقدر؛ أي: لم يزل متصفاً بذلك. قال ابن عباس[1] إن الله ليشفع

---

(١) المراح.

المؤمنين بعضَهم في بعض، فأطوعكم لله تعالى من الأبناءِ، والآباءِ أرفعكم درجةً في الجنة، وإن كان الوالد أرفعَ درجةً في الجنة من ولده، رفع الله إليه ولده بمسألته؛ لتقر بذلك عينه، وإن كان الولد أرفع درجةً في الجنة من والديه، رفع الله إليه والديه، ولذا قال تعالى: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾؛ لأن أحد المتوالدَين لا يعرف أنَّ انْتِفَاعَه في الجنة بهذا أكثر أم بذلك.

وقيل[1]: معناه كانَ عليماً بخلقه قبل أن يخلقهم، حكيماً حيث فرض للصغار مع الكبار، ولم يخص الكبارَ بالميراث، كما كانت العرب تفعل.

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى فرائض الأولاد، والوالدين، وقدم الأهمَ منهما من حيث حاجته إلى الأموال المتروكة، وهم الأولاد ذكر هنا فرائض الزوجين، فقال: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾؛ أي: ولكم أيها المؤمنون نصف ما تركته زوجاتكم من المال ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ﴾؛ أي: لتلك الزوجات ﴿وَلَدٌ﴾ سواءُ أكان منكم أم من غيركم، ولو من زنا، فإن ولد الزنا ينسب لأمه، وسواء أكان ذكراً أم أنثى، وسواءٌ أكان واحداً أم أكثر، وسواء أكان من بطنها، أو صلب بنيها، أو بني بنيها، وباقي التركة لأولادها، ووالديها على ما بينه الله في الآية السالفة، ولا يشترط في الزوجة أن تكون مدخولاً بها، بل يكفي مجرد العقد ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ وارث واحد، أو متعدد ﴿فَلَكُمُ﴾ أيها الأزواج ﴿الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾؛ أي: مما تركته الزوجات من المال، والباقي من التركة للأقرب إليها من ذوي الفروض والعصبات، أو ذوي الأرحام، أو لبيت المال، إن لم يكن وارث آخر.

واعلم: أنه لما جعل الله سبحانه وتعالى في الموجب النسبي حظ الرجل مثلَ حظ الأنثيين، جعل الله في الموجب السببي للرجل مثلَ حظ الأنثيين ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾؛ أي: هذه الأنصباء إنما تدفع لكم أيها الأزواج في الحالين من بعد تنفيذ وصية يوصين الزوجات بها غير مضارات بها،

---

(١) الخازن.

ومن بعد قضاء دين عليهن إن كان؛ إذ لا يأخذ الوارث شيئاً من التركة إلا ما فضل عنهما إن وجدا، أو وجد أحدهما، ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ﴾؛ أي: وللزوجات الربع من المال الذي تركتموه أيها الأزواج ﴿إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٌۚ﴾ ذكر، أو أنثى واحد، أو متعدد منهن، أو من غيرهن على التفصيل السابق في أولادهن، فإن كانت واحدةً.. فلها هذا الربع وحدها، وإن كان له زوجان فأكثر.. اشتركتا أو شتركن فيه على طريق التساوي، والباقي يكون لبقية ورثتكم من أصحاب الفروض، والعصبات، أو ذوي الأرحام، أو لبيت المال إن لم يكن لكم وارث آخر أصلاً ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ﴾ أيها الأزواج ﴿وَلَدٌ﴾ وارث على التفصيل السابق، ولا فرق بين الولد، وولد الابن، وإن سفل في ذلك، وسواء كان الولد للرجل من الزوجة، أو من غيرها ﴿فَلَهُنَّ﴾؛ أي: لزوجاتكم ﴿ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ﴾ من الأموال، والباقي لبقية الورثة.

﴿مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ﴾؛ أي: هذه الأنصباء: إنما تدفع لأزواجكم من بعد تنفيذ وصية توصون بها، أيها الأزواج، حَالَ كونكم غير مضارينَ بها، وبعد قضاء دين عليكم إذا وجدا، أو وجد أحدهما.

وبهذا[1] تعلم أن فرَضَ الرجل بحق الزواج ضعف فرض المرأة كما في النسب، ولم يعط الله تعالى للزوجات في الميراث إلا مثل ما أعطى للزوجة الواحدة؛ لإرشادنا إلى أن الأصل الذي ينبغي أن نسيرَ عليه في الزوجية، أن تكون للرجل امرأة واحدةٌ، وإنما يباح الأكثر بشروط مضيقة، وأن التعدد من الأمور النادرة التي تدعو إليها الضرورة، فلم يراعها الشارع في الأحكام، إذ الأحكام إنما توضع للأصل الذي عليه العمل، والنادرُ لا حكمَ له. وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى حكمَ ميراثِ الأولاد، والوالدين، والأزواج ممن يتصل بالميت مباشرةً شرع يبين من يتصل به بالواسطة، وهو الكلالة فقال: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ﴾ من أورث صفة رجل؛ أي: إن كان الميت المورث

(١) المراغي.

﴿كَلَٰلَةً﴾ خبر كان، أو يورث خبره و﴿كَلَٰلَةً﴾ حال من الضمير فيه؛ أي: مكللا مكتنفا محاطاً بحواشي النسب، متجرداً خالياً عن أصوله، وفروعه، وذلك بأن كان له أخ أو أخت، وليس له ولد، ولا والد.

و﴿الكلالة﴾ لغةً: الإحاطة، ومنه الإكليل لإحاطته بالرأس، وسمي من عدا الوالد، والولد بالكلالة؛ لأنهم كالدائرة المحيطة بالإنسان، وكالإكليل المحيط برأسه، أما قرابة الولادة. ففيها يتفرع بعض من بعض كالشيء الذي يتزايد على نسق واحد، ﴿أَوِ﴾ كانت ﴿ٱمۡرَأَةٞ﴾ تورث ﴿كَلَٰلَةً﴾ ﴿وَلَهُۥٓ﴾؛ أي: لذلك الرجل الموروث ﴿كَلَٰلَةً﴾ أو للمرأة الموروثة ﴿كَلَٰلَةً﴾ ﴿أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ﴾ من أم؛ لأن الأخوين من العصبة سيأتي حكمهما في آخر السورة ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾ الخ، ويشهد لهذا المعنى قراءة أبي وسعد بن أبي وقاص ﴿وله أخ أو أخت من أم﴾ وإنما استشهدنا بهذه القراءة مع كونها شاذةً؛ لأنها بمنزلة رواية الآحاد، ورواية الآحاد يستدل بها؛ لأنها منقولة عن النبي ﷺ ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا﴾؛ أي: فلكل من الأخ، والأخت المذكورين ﴿ٱلسُّدُسُۚ﴾ من غير تفضيل للذكر على الأنثى، لأنه لا تعصيب فيمن أدلوا به، وهي الأم ﴿فَإِن كَانُوٓاْ﴾؛ أي: فإن كان من يرث من الإخوة للأم ﴿أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾؛ أي: من الواحد ﴿فَهُمۡ﴾؛ أي: الزائدون على الواحد، كيفما كانوا ﴿شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ﴾ فالذكر والأنثى فيه سواء، والباقي لبقية الورثة من أصحاب الفروض والعصبات.

وقرأ[1] الجمهور ﴿يُورَثُ﴾ بفتح الراء مبنيا للمفعول من أورثَ مبنياً للمفعول، وقرأ الحسن بكسرها مبنياً للفاعل من أورث أيضاً، وقرأ أبو رجاء، والحسن أيضاً، والأعمش بكسر الراء وتشديدها من ورث.

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ﴾؛ أي: هذه الأنصباء المذكورة للإخوة من الأم، إنما تدفع لهم من بعد تنفيذ وصية يوصي بها الميت حالةَ كونه غير مدخل بها الضرر على ورثته؛ بأن يوصيَ بأكثر من الثلث، أو يوصي بالثلث لغرض

---

(١) البحر المحيط.

تنقيص حقوق الورثة ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾؛ أي: ومن بعد قضاء دين عليه، إن كان حالةَ كونه ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ به؛ أي: غير مدخل الضرر على الورثةِ بذلك الدين؛ بأن يقر على نفسه بدين لا حقيقةَ له لحرمان الورثة.

والحاصل[1]: أن الضرار في الوصية، والدين يقع على وجوه:

الأول: أن يوصي بأكثر من الثلث، وهو لا يصح، ولا ينفذ، وعن ابن عباس: إنّ الضِرَارَ فيها من الكبائر.

الثاني: أن يوصي بالثلث فما دونه، لا لغرض من القربة، والتصدق لوجه الله بل لغرض تنقيص حقوق الورثة.

الثالث: أن يقر بدين لأجنبي يستغرق المالَ كله، أو بعضَه، ولا يريد بذلك إلا مضارة الورثة، وكثيراً ما يفعله المبغضون للورثة، ولا سيما إذا كانوا كلالةً، ومن ثم جاء ذكر هذا القيد ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ في وصية ميراث الكلالة؛ لأن القصد إلى مضارة الوالدَين، أو الأولاد، وكذا الأزواج نادرٌ.

الرابع: أن يقر بأن الدينَ الذي كان له على فلان، قد استوفاه، ووَصَلَ إليه.

الخامس: أن يبيع شيئاً بثمن بخس، أو يشتري شيئاً بثمن غال.

والمعنى: تدفع الأنصباء لأصحابها بعد إخراج وصية، وقضاء دين لم يحصل بهما ضرر للورثة، وإن حصل الضرر بهما، فلا اعتبار بهما. قال الشوكاني[2]: فما صَدَرَ من الإقرارات بالديون، أو الوصايا المنهي عنها له، أو التي لا مقصد لصاحِبِهَا إلا المضارةَ لورثته، فهو باطل مردود، لا ينفذ منه شيء لا الثلث ولا دونه، وإنما كرر الوصية أربعَ مرات لاختلاف الموصين، فالأول: الأولاد؛ والثاني: الزوجة، والثالث: الزوج، والرابع: الكلالة.

قال النخعي: قبض رسول الله ﷺ ولم يوص، وقبض أبو بكر، وقد وصى

---

(١) المراغي.

(٢) فتح القدير.

فإن أوصى الإنسان. فحسن، وإن لم يوص.. فحسن أيضاً، ومن الحسن أن ينظر الإنسان في قدر ما يخلف، ومن يخلف، ثم يجعل وصيته بحسب ذلك، فإن كان ماله قليلاً، وفي الورثة كثرة.. لم يوص، وإن كان في المال كثرة.. أوصى بحسب ماله، وبحسب حاجتهم بعده كثرةً وقلةً، وقد روي عن علي أنه قال: لأن أوصي بالخمس، أحب إلى من أن أوصي بالربع، ولأن أوصي بالربع، أحب إلى من أن أوصي بالثلث.

وقرأ ابن كثير[1] وابن عامر وعاصم ﴿يُوصَىٰ﴾ بفتح الصاد، وقرأ الباقون بكسرها، واختار الكسر أبو عبيد، وأبو حاتم؛ لأنه جرى ذكرُ الميت قبل هذا، قال الأخفش: وتصديق ذلك قوله ﴿يُوصِينَ﴾ و﴿تُوصُونَ﴾ وقرأ الحسن ﴿غير مضار وصية﴾ بالإضافة، وفيه وجهان: أحدهما: تقديره: غير مضار أهل وصية، أو ذي وصية، فحذف المضاف، والثاني تقديره: غير مضار وقتَ وصية، فحذف، وهو من إضافة الصفة إلى الزمان، ويقرب من ذلك قولهم: هو فارس حرب؛ أي: فارس في الحرب، ذكره أبو البقاء ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يوصيكم الله سبحانه وتعالى بذلك، ويأمركم به وصيةً منه عز وجل، فهي جديرة أن يعتنى بها، ويذعن للعمل بموجبها، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما ينفعكم، وبنياتِ الموصين منكم، ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعجل بعقوبتكم بمخالفة أحكامه، ولا بالجزاء على مخالفتها عسى أن تتوبوا؛ كما لا يبيح لكم أن تعجلوا بعقوبة من تبغضونه، فتضاروه في الوصية، كما لا يرضى لكم بحرمان النساءِ، والأطفال من الإرث. وفي هذا إشارة إلى أنه تعالى قد فرضها، وهو يعلم ما فيها من الخير، والمصلحة لنا، فمن الواجب أن نذعن لوصاياه، وفرائضه، ونعمل بما ينزلُ علينا من هدايته؛ كما لا ينبغي أن يغر الطامع في الاعتداء، وأكلِ الحقوق تمتع بعض المعتدين بما أكلوا بالباطل، فيظن أنهم بمنجاة من العذاب، فيتجرأ على مثل ما تجرؤوا عليه من الاعتداء، فإنه إمهال يقتضيه الحلم، لا إهمالُ من العجز، وعدم العلم.

---

(١) الشوكاني.

﴿تِلْكَ﴾ الأحكام المذكورة من شؤون الأيتام، وأحكام الأنكحة، وأحوال المواريث يعني من أول السورة إلى هنا ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أحكام الله سبحانه وتعالى التي حدها، وبينها، وشرَعَها لعباده، وسماها حُدَوداً؛ لكونها لا تجوز مجاوزتها، ولا يحل تعديها ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ويمتثلهما في جميع الأوامر، والنواهي التي منها قسمة المواريث ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ نصب على الظرفية عند الجمهور، وعلى المفعولية عِندَ الأخفش؛ أي: يسكنه بساتينَ ﴿تَجْرِى﴾ وتسيلُ ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ أي من تحت قصورِها، وأشجارِها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ من الماء واللبن، والخمر، والعسل ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حالٌ من الهاء في ﴿يُدْخِلْهُ﴾، وهي عائدة على مَنْ، وهو مفرد في اللفظ جمع في المعنى، فلهذا صح الوجهان؛ أي: حالةَ كونهم مقدرين ـ الخلود ـ في تلك الجنات، لا يموتون فيها، ولا يخرجون منها ﴿وَذَٰلِكَ﴾؛ أي: دخولُ الجنة على وجه الخلود هو: ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ والظفر الجسيم الذي: لا فوزَ وراءه، ولا يذكَرُ بجانبه الفوز بحظوظ الدنيا القصيرة المنغصة بالأكدار، والجنات التي تجري من تحتها الأنهار، نُؤَمن بها، ونعتقد أنها أرفع مما نَرى في هذه الدنيا، وليس لنَا أن نبحَثَ عن كيفيتها؛ لأنها من عالم الغيب.

واعلم: أن طاعةَ الله هي اتباع ما شرعه من الدين على لسان رسوله ﷺ، وطاعةُ الرسول هي اتباع ما جاءَ به من الدين عن ربه، فطاعته هي بعينها طاعة الله، كما قال في هذه السورة ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ فهو إنما يأمرنا بما يوحيه إليه اللَّهُ بما فيه منافع لنا في الدنيا والآخرة، وإنما ذَكَرَها مع طاعة الله للإشارة إلى أنَّ الإنسان لا يستغني بعقله، وعلمه عن الوحي، وأنه لا بُدَّ له من هداية الدين؛ إذ لم يكن العقل وحده في عَصْر في العصور كافياً لهداية أمة، ولا مرقياً لها بدون معرفة الدين، فاتباعُ الرسل، والعملُ بهديهم هو أساس كلّ مدنية، والارتقاء المعنويُّ هو الذي يَبْعَثُ على الارتقاء الماديّ، فالآداب، والفضائل التي هي أسس المدنيات تستند كلها إلى الدين، ولا يكفي فيها بناؤها على العلم والعقل ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ويخالفهما، ولو في بعض الأوامر؛ بأن لم يرض بما قَسَم الله ورسوله ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾؛ أي: يتجاوز أحكامه التي حدها

لعباده بالجور فيها، ولو في بعض النواهي، فالفرق بين العصيان، والتعدِّي: أن العصيان بترك المأمورات كقسمة المواريث، والتعدِّي بفعل المنهيات كالزنا ونحوه ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا﴾ عظيمةً هائلةً حالة كونهِ ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾ لا يموتُ، ولا يخرج منها، والمراد بالخلود: طولُ المكث إن مات مسلماً، وعلى حقيقته إن مات كافراً ﴿وَلَهُۥ﴾؛ أي: لذلك العاصي المتعدي حدودَ الله مع عذاب الحريق الجسماني ﴿عَذَابٌ﴾ شديدٌ روحاني ﴿مُّهِينٌ﴾ له أي ذو إهانة وإذلال له، فمعنى المهين: المذل له، وهو عذاب الروح، فللعصاة عذابان عذاب جسماني للبدن العاصي باعتباره، حيواناً يتألم، وعذاب روحاني باعتباره إنساناً يشعر بالكرامة، والشرف، ويتألم بالإهانة والخزي. وحكمة الإفراد في جانب العذاب بقوله: خالداً: الإشارة إلى أنه كما يعذب بالنار، يعذب بالغربة، والوحشة، فإن له من العذاب ما يمنعه من الأنس، فكأنه وحيدٌ لا يجد لذةَ الاجتماع بغيره، ولا أنساً به، وحكمة الجمع في جانب النعيم، بقوله: ﴿خَٰلِدِينَ﴾ الإشارة إلى أنه كما ينعم بالجنة ينعم باجتماعه مع أحبائه فيها، ويزورهم، ويزورونه، ويتنعَّمُ بذلك الاجتماع.

وقرأ نافع وابن عامر[1]: ﴿ندخله﴾ بنون العظمة، في الموضعين، والباقون بالياء.

واعلم[2]: أن تعديَ الحدود الموجب للخلود في النار، هو الإصرارُ على الذنب، وعدمُ التوبة عنه، فللمذنب حالتان:

الأولى: غلبة الباعث النفسي من الشهوة، أو الغضب على الإنسان حتى يغيبَ عن ذهنه الأمر الإلهي، فهو يقع في الذنب، وقلبه غائب عن الوعيد، لا يتذكره أو يتذكره ضعيفاً كأنه نور ضئيل، يلوح في ظلمة ذلك الباعث المتغلب، ثم لا يلبث أن يزولَ، أو يختفيَ حتى إذا سكنت الشهوة، أو سكن الغضب، وتذكر النهيَ والوعيدَ ندم، وتاب، ولام نفسَه أشد اللوم، ومثل هذا، جدير بالنجاة إذ هو من المسارعين إلى الجنة كما قال تعالى في: أوصافهم ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا

---

(١) المراح.   (٢) المراغي.

عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

الثانية: أن يقدم المرء على الذنب جريئاً عليه، متعمداً فعلَه، عالماً بتحريمه مؤثراً له على الطاعة لا يصرفه عنه تذكر النهي، والوعيد عليه، ومثل هذا أحاطَت به خطيئته، فآثر شهوتَه على طاعة الله ورسوله، فدخل في عموم قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ إذ من يصر على المعصية، عامداً عالماً بالنهي، والوعيد، لا يكون مؤمناً بصدق الرسول، ولا مذعناً لشرعه الذي تنال الرحمة والرضا بالتزامه، والعذاب والنكال بتعدي حدوده، فالإصرار على العصيان، وعدم استشعار الخوف، والندم لا يجتمعان في قلب المؤمن الإيمانَ الصحيحَ المصدِّق بوعد الله، ووعيده.

الإعراب

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾.

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿يوصيكم﴾. ﴿لِلذَّكَرِ﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِثْلُ﴾. مبتدأ مؤخر وهو مضاف. ﴿حَظِّ﴾ مضاف إليه وهو مضاف. ﴿ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾ مضاف إليه، والجملة الاسمية في محل النصب مفعول ﴿يُوصِيكُمُ﴾. والمعنى: يأمركم الله بإعطاء مثل حظ الأنثيين للذكر الواحد، وقيل: الجملة مستأنفة.

﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ﴾.

﴿فَإِن كُنَّ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة تفصيلية. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿كُنَّ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم، بـ﴿إن﴾ الشرطية مبني بسكون على النون المدغمة في نون الإناث لاتصاله بنون الإناث، ونون الإناث: في محل الرفع اسم ﴿كان﴾. ﴿نِسَآءً﴾ خبرها. ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بمحذوف صفة لـ﴿نساء﴾ تقديره: كائنات فوق اثنتين، وهذه الصفة[1] هي التي تحصل فائدة

(١) الجمل.

الخبر، ولو اقتصر عليه لم تحصل فائدة. ﴿فَلَهُنَّ﴾ الفاء رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة اسمية. ﴿لهن﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ثُلُثَا﴾ مبتدأ مؤخر، وهو مضاف. ﴿مَا تَرَكَ﴾ ﴿ما﴾ موصولة، أو موصوفة في محل الجر مضاف إليه. ﴿تَرَكَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الميت، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: تركه، والجملة من المبتدأ والخبر، في محل الجزم بإن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة إن الشرطية: معطوفة على جملة قوله: ﴿يُوصِيكُمُ﴾ على كونها مفصلَةً لها مستأنفة.

﴿وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿كَانَتْ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط، واسمها ضمير يعود على الوارثة. ﴿وَاحِدَةً﴾ خبرها. ﴿فَلَهَا﴾ الفاء رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿لها﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ٱلنِّصْفُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الجزم جواب ﴿إن﴾ الشرطية، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾.

﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾.

﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ الواو مستأنفة، أو عاطفة. ﴿لأبويه﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿لِكُلِّ﴾ ﴿وَاحِدٍ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه بدل من الجار والمجرور قبله، وفائدة هذا البدل أنه لو قيل: ولأبويه السدس. لكان ظاهره اشتراكهما فيه؛ ولأن في الإبدال، والتفصيل بعد الإجمال تأكيداً، وتقويةً كالذي تراه في الجمع بين المفسر والتفسير. ﴿مِّنْهُمَا﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿واحد﴾. ﴿ٱلسُّدُسُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً﴾ ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور، حال من ﴿السدس﴾ ﴿تَرَكَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الميت، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: مما تركه الميت ﴿إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ﴿إن﴾. ﴿لَهُۥ﴾ جار ومجرور خبر مقدم

لـ﴿كان﴾ ﴿وَلَدٌ﴾ اسمها مؤخر وجواب الشرط معلوم مما قبله تقديره: إن كان له ولد فلأبويه السدس، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾.

﴿فَإِن لَّمْ يَكُن﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أن لأبويه السدس إذا كان له ولد، وأردت بيان حكم ما إذا لم يكن له ولد.. فأقول لك ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿لَّمْ﴾ حرف جزم. ﴿يَكُن﴾ فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿لَّهُۥ﴾ خبر مقدم لـ﴿يكن﴾. ﴿وَلَدٌ﴾ اسمها مؤخر، وجملة ﴿يَكُن﴾ في محل الجزم بإن الشرطية على كونها فِعْلَ شرط لها. ﴿وَوَرِثَهُۥٓ﴾ الواو عاطفة. ﴿ورثه﴾ فعل ومفعول. ﴿أَبَوَاهُ﴾ فاعل ومضاف إليه، والجملة في محل الجزم معطوفة على جملة الشرط. ﴿فَلِأُمِّهِ﴾ الفاء رابطة الجواب. ﴿لأمه﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ٱلثُّلُثُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مقول لجواب إذا المقدرة وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة.

﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾.

﴿فَإِن كَانَ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت فرض الأم مع وجود الولد، وعدمه، وأردت بيان فرضها مع الإخوة.. فأقول لك: ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم. ﴿لَهُۥٓ﴾ خبرها مقدم. ﴿إِخْوَةٌ﴾ اسمها مؤخر. ﴿فَلِأُمِّهِ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الجواب. ﴿لأمه﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿ٱلسُّدُسُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة إن الشرطية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفةٌ. ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه حال من السدس تقديره: حال كونه مستحقاً من بعد تنفيذ وصية، ويجوز أن يكون الجار والمجرور خبراً لمبتدأ محذوف، تقديره: وإرث مَن ذكر بما ذُكِرَ مستحقٌ من بعد تنفيذ وصية. ﴿يُوصِى بِهَآ﴾ ﴿يُوصِى﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الميت. ﴿بِهَآ﴾ جار

ومجرو متعلق بـ﴿يوصى﴾ والجملة الفعلية في محل الجر صفة لـ﴿وصية﴾ ولكنها سببية. ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾ معطوف على ﴿وَصِيَّةٍ﴾.

﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾ مبتدأ، ومضاف إليه. ﴿وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ معطوف عليه. ﴿لَا تَدْرُونَ﴾ ﴿لا﴾ نافية. ﴿تَدْرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿أَيُّهُمْ﴾ أي اسم استفهام مبتدأ مرفوع. ﴿والهاء﴾ مضاف إليه. ﴿أَقْرَبُ﴾ خبر لـ﴿أي﴾. ﴿لَكُمْ﴾ جار مجرور متعلق بـ﴿أقرب﴾. ﴿نَفْعًا﴾ تمييز محول عن المبتدأ تقديرهُ: نفع أيهم أقرب، والجملة من المبتدأ والخبر في محل النصب سادة مسد مفعولي ﴿تَدْرُونَ﴾. وفي «الفتوحات»[1] قوله: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿لَا تَدْرُونَ﴾ وما في حيزه في محل رفع خبر له، و﴿أيهم﴾ فيه وجهان: أشهرهما عند المعربين: أن يكون ﴿أَيُّهُمْ﴾ مبتدأً وهو اسم استفهام، و﴿أَقْرَبُ﴾ خبره، والجملة من هذا المبتدأ والخبر في محل نصب بـ﴿تدرون﴾؛ لأنها من أفعال القلوب فعلقها اسم الاستفهام عن أن تعمل في لفظه، لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، والثاني: أنه يجوز أن تكون ﴿أي﴾ اسم موصول بمعنى الذي، و﴿أَقْرَبُ﴾ خبر مبتدأ محذوف هو عائد على الموصول، وجاز حذفه؛ لأنه يجوز ذلك مع ﴿أي﴾ مطلقاً؛ أي: سواء طالت الصلة أم لم تطل، والتقدير: أيهم هو أقرب، وهذا الموصول وصلته في محل نصب على أنه مفعول به نصبه ﴿تَدْرُونَ﴾، وإنما بني لوجود شرطي البناء، وهما: أن يضاف ﴿أي﴾ لفظاً، وأن يحذف صدر صلتها، وصارت هذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾ فصار التقدير: لا تدرون الذي هو أقرب. قال الشيخ: ولم أر من ذكر هذا الوجه منهم، ولا مانع منه، لا من جهة المعنى، ولا من جهة الصناعة، فعلى القول الأول: تكون الجملة سادةً مسدَّ

---

(١) الجمل.

المفعولين، ولا حاجةَ إلى تقدير حذف، وعلى القول الثاني يكون الموصول في محل نصب مفعولاً أول، ويكون الثاني: محذوفاً، تقديره: لا تدرون الذي هو أقرب لكم نفعاً آباؤكم أو أبناؤكم اهـ «سمين» انتهت. ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿فَرِيضَةً﴾ منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف تقديره: فرض الله ذلك التوريث فريضة، والجملة مستأنفة مؤكدة لمضمون ما قبلها. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿فريضة﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص واسمها ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿عَلِيمًا﴾ خبر أول لـ﴿كان﴾. ﴿حَكِيمًا﴾ خبر ثان لها، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾.

﴿وَلَكُمْ﴾ الواو استئنافية. ﴿لكم﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿نِصْفُ﴾ مبتدأ مؤخر وهو مضاف. ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل الجر مضاف إليه. ﴿تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ فعل وفاعل، ومضاف إليه، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: ما تركه أزواجكم، والجملة من المبتدأ والخبر مستأنفة. ﴿إِن لَّمْ يَكُن﴾ ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿لَمْ﴾ حرف جزم. ﴿يَكُن﴾ فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿لَّهُنَّ﴾ جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿يكن﴾. ﴿ولد﴾ اسمها مؤخر، وجملة ﴿يَكُن﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها فعل شرط لها، وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبله تقديره: إن لم يكن لأزواجكم ولد فلكم نصف ما تركن، وجملة إن الشرطية مستأنفة.

﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾.

﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم حكم ما إذا لم يكن لهن ولد، وأردتم بيانَ حكم ما إذا كان لهن الولد. فأقول لكم. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿لَهُنَّ﴾ جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿كان﴾. ﴿وَلَدٌ﴾ اسمها مؤخر. ﴿فَلَكُمُ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية.

﴿لكم﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ٱلرُّبُعُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الجزم بـ﴿أن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مقول لجواب، إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال، من ﴿ٱلرُّبُعُ﴾ تقديره: حالَ كون الربع مأخوذاً ﴿مِمَّا تَرَكْنَ﴾. ﴿تَرَكْنَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: مما تركنه.

﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾.

﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من ﴿النصف﴾ و﴿الربع﴾ تقديره: حالةَ كونهما معتبرين مأخوذين مما بقي بعد تنفيذ وصية، وقضاء دين. ﴿يُوصِينَ﴾ فعل وفاعل؛ لأن ﴿النون﴾ فيه ضمير جماعة الإناث. ﴿بِهَآ﴾ متعلق به والجملة صفة لـ﴿وصية﴾ ولكنها سببية. ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾ معطوف على ﴿وَصِيَّةٍ﴾

﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ﴾.

﴿وَلَهُنَّ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة أو استئنافية. ﴿لهن﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ٱلرُّبُعُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة أو معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور حال من ﴿ٱلرُّبُعُ﴾. ﴿تَرَكْتُمْ﴾ فعل وفاعل والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: تركتموه. ﴿إِن لَّمْ يَكُن﴾ ﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿لَّمْ﴾. حرف جزم ﴿يَكُن﴾ مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿لَّكُمْ﴾ خبر مقدم لـ﴿يكن﴾. ﴿وَلَدٌ﴾ اسمها مؤخر، وجملة ﴿يَكُن﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها فعل شرط لها، وجواب ﴿إن﴾ معلوم مما قبله تقديره: إن لم يكن لكم ولد: فلهن الربع مما تركتموه، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾.

﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم حكمَ ما إذا لم يكن ولد، وأردتم بيانَ حكم ما إذا كان لكم ولد.. فأقول لكم: ﴿إِن كَانَ﴾ إنْ حرف شرط. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض في محل الجزم بـ﴿إن﴾. ﴿لَكُمْ﴾ جار ومجرور لـ﴿كان﴾ خبر مقدم على اسمها. ﴿وَلَدٌ﴾ اسمها مؤخر. ﴿فَلَهُنَّ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة. ﴿لهن﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ٱلثُّمُنُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور حال من ﴿ٱلثُّمُنُ﴾. ﴿تَرَكْتُم﴾ فعل وفاعل صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره: مما تركتموه. ﴿مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من ﴿ٱلرُّبُعُ﴾ و﴿الثمن﴾ تقديره: حالة كون كل منهما مستحقاً من بعد تنفيذ وصية، ويجوز أن يكون الجار والمجرور خبراً لمحذوف تقديره: واستحقاق ما ذكر كائن بعد تنفيذ وصيةٍ كما أشرنا إليه في مبحث التفسير. ﴿تُوصُونَ﴾ فعل مضارع مرفوع بثبات النون، والواو ضمير المخاطبين في محل الرفع فاعل ﴿بِهَآ﴾ متعلق به، والجملة صفة لـ﴿وصية﴾. ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾ معطوف على ﴿وَصِيَّةٍ﴾.

﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿رَجُلٌ﴾ اسمها. ﴿يُورَثُ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿رَجُلٌ﴾ والجملة الفعلية صفة لـ﴿رجل﴾. ﴿كَلَٰلَةً﴾ خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ﴾ الواو حالية. ﴿له﴾ خبر مقدم. ﴿أَخٌ﴾ مبتدأ مؤخر مرفوع بضمة ظاهرة على لغة النقص. ﴿أَوْ أُخْتٌ﴾ معطوف عليه، والجملة من المبتدأ والخبر في محل النصب حال من رجل، وصح مجيء الحال منه، لوصفه بالجملة المذكورة بعده، والمعنى؛ وإن كان رجل

مورث متكللاً؛ أي: خالياً من ولد، ووالد، والحال أن له أخاً فقط، أو أختاً فقط. ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الجواب. ﴿لكل﴾ ﴿وَٰحِدٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿مِّنْهُمَا﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿واحد﴾. ﴿ٱلسُّدُسُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها ﴿جواباً﴾ لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة، وفي هذا المقام أوجه كثيرة في إعراب الكلالة أعرضنا عنها صفحاً لئلا يطول الكلام.

﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾.

﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره إذا عرفتم حكمَ ما إذا كان له أخ أو أخت، وأردتم بيانَ حكم ما إذا كانوا أكثرَ.. فأقول لكم: ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿كَانُوٓاْ﴾ فعل ناقص، واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فِعْلَ شرط لها. ﴿أَكْثَرَ﴾ خبر ﴿كان﴾. ﴿مِن ذَٰلِكَ﴾ متعلق بـ﴿أكثر﴾. ﴿فَهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الجواب. ﴿هم شركاء﴾ مبتدأ وخبر. ﴿فِى ٱلثُّلُثِ﴾ متعلق بـ﴿شركاء﴾ والجملة الاسمية في محل الجزم بإن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة إن الشرطية مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر لمحذوف تقديره: استحقاقهم ما ذكر من السدس، والثلث كائن من بعد تنفيذ وصية. ﴿يُوصَىٰ﴾ بالبناء للفاعل وفاعله ضمير يعود على المحتضر. ﴿بِهَآ﴾ متعلق بـ﴿يوصى﴾ والجملة صفة لـ﴿وصية﴾ ولكنها سببية، أو بالبناء للمفعول والجار والمجرور على هذا نائب فاعل قال ابن مالك:

وَقَابِلٌ مِنْ ظَرْفٍ اَوْ مِنْ مَصْدَرِ أَوْ حَرْفِ جَرٍّ بِنِيَابَةٍ حَرِيْ

والجملة صفة حقيقية لـ﴿وصية﴾ ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ اسم فاعل حال من نائب

فاعل ﴿يُوصَىٰ﴾ على البناء للمفعول، والمعنى حالةَ كون ما ذكر من الوصية، والدين غيرَ مضار بها. ﴿وَصِيَّةً﴾ منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف تقديره: يوصيكم الله بقسمة الميراث على الكيفية المبينة لكم، والجملة المحذوفة مستأنفة، أو منصوب على المفعولية المطلقة بقوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿وصية﴾. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة. ﴿حَلِيمٌ﴾ خبر ثان.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر، ومضاف إليه، والجملة مستأنفة ﴿وَمَن﴾ الواو استئنافية. ﴿من﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو جملة الجواب، أو هما على الخلاف المذكور في محله. ﴿يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ فعل ومفعول مجزوم بمن وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ معطوف على الجلالة. ﴿يُدْخِلْهُ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه جوابَ الشرط، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿والهاء﴾ في محل النصب مفعول أول. ﴿جَنَّٰتٍ﴾ مفعول ثان. ﴿تَجْرِى﴾ فعل مضارع. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿تجري﴾. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فاعل والجملة الفعلية في محل النصب صفة لـ﴿جنات﴾. ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من ﴿هاء﴾ ﴿يُدْخِلْهُ﴾ وجمعه نظراً لمعنى ﴿من﴾. ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿خالدين﴾. ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ صفة للفوز، والجملة مستأنفة.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿من﴾ اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط. ﴿يَعْصِ ٱللَّهَ﴾ فعل ومفعول مجزوم بـ﴿من﴾، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ معطوف على الجلالة. ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ الواو

عاطفة. ﴿يتعد﴾ معطوف على ﴿يُطِعِ﴾. ﴿حُدُودَهُۥ﴾ مفعول به، ومضاف إليه.

﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

﴿يُدْخِلْهُ﴾ فعل مضارع مجزوم بمن على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿والهاء﴾ مفعول أول. ﴿نَارًا﴾ مفعول ثان، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى. ﴿خَٰلِدًا﴾ حال من ضمير ﴿يُدْخِلْهُ﴾ وأفرده نظراً للفظ ﴿من﴾ ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿خالداً﴾. ﴿وَلَهُۥ﴾ الواو عاطفة. ﴿له﴾ جار ومجرور خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿مُّهِينٌ﴾ صفة له، والجملة الاسمية في محل الجزم معطوفة على جملة ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا﴾، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ مضارع أوصى الرباعي، من باب: أفعلَ يقال: أوصى الشيء بالشيء، ووصاه به إذا أوصى له به؛ لأن الموصي أوصل خير عُقْبَاهُ بخير دنياه، وأوصى الله بكذا، إذا أَمرَ به، وأوجبه، والمعنى: هنا يأمركم الله سبحانه وتعالى في إرث أولادِكم بأن يُعطَى الذكرُ الواحد مثلَ حظ الأنثيين.

﴿حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ الحظ: النصيب من الخير، والفضل، وقد يطلق على النصيب من الشر، واليسر، والسعادة يجمع على حظوظ، وحظاظ، وأحظ يقال حظ يحظ من باب: فتحَ إذا كان ذا حظ.. فهو حظيٌّ، وحَظِيظ ومَحْظوظ.

﴿ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ مثنى الأنثى، والأنثى خلافُ الذكر، يُجمع على إناث، وأناثي، والمؤنث خلاف المذكر مأخوذة من أَنثَ الحديدُ يَأْنُثُ أَنْثاً من باب: نصر إذا لاَنَ، وكان غير شَديدٍ وصلبٍ، وسميت المرأة بأنثى للين بشرتها، وجسمها، ولضعفها خلقةً.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يقال: فرض الله كذا على عباده، إذا أوجبه عليهم من باب: ضرب، والفريضةُ: الشيءُ الذي أوجبه عليهم، يُجمع على فرائض ﴿لَا تَدْرُونَ﴾ مضارع درى يدري دريـاً، ودراية من بـاب: رمى، وهـو مـن أفـعـال

القلوب، يتعدى إلى مفعولين قال الشاعر:

دَرَيْتَ ٱلْوَفِيَّ ٱلْعَهْدِ يَا عُرْوَ فَٱغْتَبِطْ ... فَإِنَّ ٱغْتِبَاطاً بِٱلْوَفَاءِ حَمِيدُ

ولكن علقها هنا اسم الاستفهام عن العمل في لفظه، لأن اسمَ الاستفهام لا يعملُ فيه ما قبله، كما هو معلومٌ عندهم.

﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾، واختلف[1] في اشتقاق ﴿الكلالة﴾، قيل: من الكَلاَل وهو الإعياء، فكأنه يصير الميراث إلى الوارث عن بُعْدٍ واعْيَاءٍ قال الأعشى:

فَآلَيْتُ لاَ أَرْثِي لَهَا مِنْ كَلاَلَةٍ ... وَلاَ وَجِي حَتَّى تُلاَقِي مُحَمَّدَا

قال الزمخشري: والكلالة في الأصل مصدر بمعنى الكلال، وهو: ذهاب القول من الإعياء، فاستعيرت للقرابة من غير جهة الولد، والوالد؛ لأنها بالإضافة إلى قرابتها كالَّة ضعيفة انتهى.

وقيل: هي مشتقة من تكلله النسب إذا أحاط به، فإذا لم يترك والداً، ولا ولداً.. فقد انقطع طرفاه، وهما عمودا نسبه وبقيَ موروثُه لمن يتكلل نسبه أي يحيط به من نواحيه كالإكليل، ومنه روض مكلل بالزهر، وقال الفرزدق:

وَرِثْتُمْ قَنَاةَ ٱلْمَجْدِ لاَ عَنْ كَلاَلَةٍ ... عَنِ ٱبْنَيْ مَنَافٍ عَبْدِ شَمْسٍ وَهَاشِمِ

وقال الأخفش: الكلالة من لا يرثه أب ولا أم، والذي عليه الجمهور أن الكلالةَ الميت الذي لا والدَ له، ولا مولودَ، وهو قول جمهور أهل اللغة: صاحب «العين»، وأبي منصوب اللغوي، وابن عرفة، وابن الأنباري، والعيني، وأبي عبيدة، وقال الراغب: الكلالَةُ اسم لكل وارث، قال الشاعر:

وَٱلْمَرْءُ يَجْمَعُ لِلْغِنَىٰ ... وَلِلْكَلاَلَةِ مَا يَسِيمْ

وقال الطبريُّ[2] الصواب: أنَّ الكلالَةَ هم الذين يرثون الميتَ مَنْ عدا ولده ووالدَه لصحة خبر جابر، فقلت: يا رسول الله، إنما يرثني كلالةٌ أفأوصي بمالي

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

كلّه؟ قال: لا «انتهى».

﴿شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ﴾ جمع شريك ككرماء جمع كريم ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّۚ﴾ اسم فاعل من ضَار يضار ضراراً، ومضاررةً من باب فاعل إذا أدخل عليه الضررَ إن بنيَ يوصى للفاعل، واسمُ مفعول إن بنى للمفعول كما مرت الإشارة إليه ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾ حدود الشيء أطرافه التي يمتاز بها من غيره، ومنه حدودُ الدار، سميت بها الشرائع التي أمر الله باتباعها، ونَهَى عن تركها، فمدارُ الطاعة على البقاء في دائرة هذه الحدود، ومَدارُ العصيان على اعتدائها.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ من أطاع الرباعي، يقال: أطاع الله يُطيع إطاعةً، وطاعة من باب: أعان: إذا امتثل ما أمرَ به، ونُهيَ عنه، وأطاع الرسولَ. إذا تمسَّك ما أتَى به وبيَّن.

البلاغة

قال أبو حيان[1]: وقد تضمت هذه الآيات من أصناف البديع:

منها: التفصيلُ في الوارث والأنصباء بعد الإبهام في قوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ الآية.

ومنها: العُدول من صيغة يأمركم الله إلى ﴿يُوصِيكُمُ﴾ لما في الوصية من التأكيد، والحرص على اتباعها.

ومنها: الطباقُ في لفظ الذكر والأنثى في قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ﴾، وفي ﴿من يطع﴾ و﴿من يعص﴾ وفي ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾.

ومنها: إعادة الضمير على غير مذكور لقوة الدلالة على ذلك في قوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾؛ أي: ترك الموروث.

ومنها: التكرارُ في لفظ ﴿كَانَ﴾، وفي قوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ﴾

---

(١) البحر المحيط.

و﴿ولد وأبواه﴾ و﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ و﴿وصية من اللَّه إن اللَّه﴾، وفي ﴿نِصۡفُ مَا﴾، وفي ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

ومنها: جناسُ الاشتقاق في قوله: ﴿وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ﴾.

ومنها: المبالغةُ في قوله: ﴿عَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾.

ومنها: تلوينُ الخطاب في من قرأ ﴿ندخله﴾ بالنون.

ومنها: الحذف في مواضع انتهى.

فائدة: ﴿أَوۡ دَيۡنٍ﴾ ﴿أو﴾ هنا[1] لإباحة الشيئين قال أبو البقاء: ولا تدل على ترتيب؛ إذ لا فرق بين قولك: جاءني زيد، أو عمرو، وبين قولك: جاءني عمرو، أو زيد؛ لأن أو لأحد الشيئين، والواحد لا ترتيب فيه، وبهذا يفسد قول من قال: التقدير: من بعد دين أو وصية، وإنما يقع الترتيب فيما إذا اجتمعا، فيقدم الدين على الوصية، وقال الزمخشري فإن قلتَ: فما معنى أو؟

قُلْتُ: معناها للإباحة، وإنه إن كان أحدهما، أو كلاهما قُدِّم على قسمة المواريث، كقوله: جالس الحسنَ، أو ابنَ سيرين، فإن قلتَ لم قدمت الوصية على الدين في الذكر، والدين مقدم عليها في الشريعة؟

قلت: لمَّا كانت الوصية مشبهةً للميراث في كونها مأخوذةً من غير عِوَض، كان إخراجها مما يشق على الورثة بخلاف الدين، فإن نفوسَهم مطمئنةٌ إلى أدائه فلذلك قدمَتْ على الدين حثاً على وجوبها، والمسارعةِ إلى إخراجها مع الدين، ولذلك جِيء بكلمة ﴿أو﴾ للتسوية بينهما في الوجوب اهـ «سمين».

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) الجمل.

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٢٠﴾ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٢١﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ...﴾ الآية، مناسبةُ(١) هذه الآيات لما قبلها: أنه تعالى لما أمر بالإحسان إلى النساء، فذكر إيتاءَ صدقاتهن، وتوريثهن، وقد كنُ لا يورثنَ في الجاهلية.. ذَكَرَ التغليظ عليهن فيما يأتينه من الفاحشة، وفي الحقيقة: هو إحسان إليهن؛ إذ هو نظر في أمر آخرتهن؛ ولئلا يتوهمَ أنَّ من الإحسان إليهن أن لا تُقام عليهن الحدودُ، فيصيرُ ذلك سبباً لوقوعهن في أنواع المفاسد، ولأنه تعالى لمَّا ذكر حدودَه، وأشار بتلك إلى جميع ما وقع من أول السورة إلى موضع الإشارة؛ فكان في مبدأ السورة التحصُّنُ بالتزويج، وإباحةُ ما أباح من نكاح أربع لمن أباح ذلك، استطردَ بعد ذلك إلى

---

(١) البحر المحيط.

حكم مَنْ خالف ما أمر الله به من النكاح من الزواني، وأفردهنَ بالذكر أولاً؛ لأنهن على ما قيل: أدخلُ في باب الشهوة من الرجال، ثم ذكرهن ثانياً مع الرجال الزانينَ في قوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ﴾ فصار ذكر النساء الزواني مرتين: مرةً بالإفراد ومرةً بالشمول.

وقال المراغي[1]: المناسبة في هذه الآية: لمَّا أوصى الله سبحانه وتعالى بالإحسان إلى النساء ومعاشرَتهن، بالمعروف، والمحافظة على أموالهنَ وعدَم أخذ شيء منها إلا إذا طابت أنفسهن بذلك؛ ذكَرَ هنا التشديدَ عليهن فيما يأتينه من الفاحشة، وهو في الحقيقة إحسان إليهن، إذ الإحسانُ في الدنيا تارةً يكون بالثواب، وأخرى بالزجر والعقاب لكف العاصي عن العصيان، الذي يوقعه في الدمار والبَوار، ومبنَى الشرائع على العدل، والإنصاف، والابتعاد من طرفي الإفراط والتفريط، ومن أقبح العصيان الزنَا، ولا سيما في النساءِ، لأن الفتنةَ، بهن أكثر، والضرر منهن أخطر؛ لما يفضي إليه من توريث أولاد الزنا، وانتسابهم إلى غير آبائهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ...﴾ الآية، مناسبتها[2] لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لمَّا ذكَر أن من تاب وأصلح، تركت عقوبته، وأُزيل الأذى عنه، وأنه هو التواب الذي هو يقبل التوبةَ عن عباده.. ذكَرَ هنا وقت التوبة، وشرط قبولها، ورغبتَه في تعجيلها حتى لا يأتيَ الموت، وهو مصر على الذنب، فلا تنفعه التوبة، وأرشَدَ أولياءَ الأمر إلى الطريق الذي يسلكونه مع العصاةَ في معاقبتهم، وتأديبهم، فأمر هنا بالإعراض عن أذى مَن تاب وأصلح العمل، بعد أنْ فرض عقوبةَ مرتكبي الفواحش في الآية السالفة، فهذه شرح لذلك الإصلاح في العمل.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا...﴾ الآيات، هذه الآيات مناسبتها لما قبلها: أنه لما نهى الله سبحانه وتعالى فيما

---

(1) المراغي.　　(2) المراغي.

تقدم عن عادات الجاهلية في أمر اليتامَى، وأموالِهم.. أعقبَه بالنهي عن الاستنان بسنتهم في النساء، وأموالهن، وقد كانوا يحتقرون النساءَ، ويعدونَهن من قبيل المتاع، حتى كان الأقربون، يرثون زوجةَ من يموتُ منهم، كما يرثون مالَه؛ فحَرَّم الله عليهم هذا العمل.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا...﴾ سبب نزولها[1]: ما روى البخاري وأبو داود، والنسائي، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم. تزوَّجها، وإن شاؤوا زوجوها، فهم أحق بها من أهلها؛ فنزلت هذه الآية.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم بسند حسن، عن أبي أُمامة أَسعد بن سهل بن حُنيف قال: لمَّا تُوفي أبو قيس بن الأصلت أراد ابنُه أن يتزوَّج امرأتَه، وكان لهم ذلك في الجاهلية؛ فنزلت هذه الآية.

وفي «الخازن»[2]: نزلت هذه الآية في أهل المدينة، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية، وفي أول الإسلام، إذا مات الرجل، وخلَّف امرأةً جاء ابنه من غيرها، أو قَرِيبُه من ذوي عصبته، فألقى ثوبَه على تلك المرأة، أو على خبائها، فصار أحقَ بها من نفسها، ومن غيره، فإن شاء تزوجها بغير صداق إلا الصداقَ الأول، الذي أصدقَها الميتُ، وإن شاء زوَّجها غيرَه وأخذ هو صداقها، وإن شاء.. عضلها، ومنعها من الأزواج يُضارُّها بذلك لتفتديَ منه بما ورثت من الميت، أو تموتَ هي فيرثُها، فإن ذهبت المرأة إلى أهلها قبل أن يلقيَ عليها وَلِيُّ زوجها ثوبَه.. كانت أحقَّ بنفسها، وكانوا على ذلك حتى توفّي أبو قيس بن الأصلت الأنصاري، وتَركَ امرأتَه كُبيشة بنتَ مَعْنٍ الأنصارية، فقام ابن له من غيرها، يقال له حصنٌ: وقيل: اسمه قيس بن أبي قيس، فطرح ثوبَه عليها؛ فورث نكاحها، ثم تركها، فلم ينفق عليها يُضارّها بذلك لتفتدي منه، فأتَتْ كبيشة رسول الله ﷺ

---

(١) لباب النقول.

(٢) الخازن.

فقالت: يا رسول الله: إن أبا قيس تُوفي، وورث نكاحي ابنه، فلا هو ينفق علي، ولا هو يدخل بي، ولا يخلي سبيلي، فقال: «اقْعُدي في بيتك، حتى يأتي أمر الله فيك»، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ يعني: ميراثَ نكاح النساء، وقيل: معناه أن ترثوا أموالَهن كرهاً، يعني وهن كارهاتٌ.

التفسير وأوجه القراءة

﴿و﴾ النسوة ﴿اللاتي﴾ جمع التي في المعنى دون اللفظ؛ أي: والنسوة اللاتي ﴿يَأْتِينَ﴾، ويفعلن ﴿ٱلْفَـٰحِشَةَ﴾ والزنا حالةَ كونهن كائنات ﴿مِن نِّسَآئِكُمْ﴾، وأزواجكم المؤمنات المحصنات، وفي التعبير عن الإقدام على الفواحش بهذه العبارات معنى دقيقٌ، وهو أنَ الفاعلَ لها ذهب إليها بنفسه، واختارَها بطبعه، والفاحشةُ: الفعلة القبيحة والمراد بها هنا: الزنا لزيادتها في القبح على كثير من القبائح.

﴿فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ﴾؛ أي: فأشهدوا أيها المسلمون على فعلهن الفاحشة؛ أي: على العَورتَين ﴿أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾؛ أي: أربعة رجال أحرار كائنين منكم أيها المؤمنون، أو المعنى: أطلبوا أربعة رجال منكم يشهدون على زَناهنَ، ويشترط في هذه الشهادة: الذكورة، والعدالة. قال الزهري: مضت السنة من رسول الله ﷺ والخليفتين بعده أنْ لا تُقبل شهادة النساء في الحدود.

والحكمة في هذا[1]: إبعاد النساء عن مواقع الفواحش، والجرائم، والعقاب، والتعذيب رغبةً في أن يكنَّ دائماً غافلات عن القبائح، لا يفكرنَ فيها، ولا يخضنَ مع أربابها، والظاهر: أنه يجوز الاستشهاد لمعاينة الزنا، وأن تعمدَ النظر إلى الفرج، لا يقدَحُ في العدالة؛ إذا كان ذلك؛ لأجل الزنا.

وقرأ عبد الله ﴿واللاتي يأتين بالفاحشة﴾ ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾؛ أي: فإن شهد

---

(١) المراغي.

أربعة رجال منكم على زناهن، برؤية العورتَين يتداخلان كالعُود في المكحلة ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ﴾؛ أي: فاحبسوهن في بيوتكم، وامنعوهن من الخروج منها، حتى لا يَعُدْنَ إلى ارتكابها مرة أخرى؛ لأن المرأة إنما تقع في الزنا عند الخروج والبروز إلى الرجال، فإذا حُبست في البيت لم تقْدِرُ على الزنا ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ﴾؛ أي: إلى أن يقبض أرواحهن ملك الموت، ويمتن ﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾؛ أي: أو إلى أن يبين الله، ويشرع لهن طريقاً، وحكماً، وعقوبةً على ارتكابهن الفواحشَ، وهذا الحكم كان في أول الإسلام قبل نزول الحدود، كانت المرأة إذا زنت حبست في البيت، حتى تموت، ثم نسخ الحبسُ بالحدود، وجعل لهن سبيلاً، فقال رسول الله ﷺ: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً الثيب ترجم، والبكر تجلد، وتنفى».

وفي الآية[1] إشارة إلى أن منعَ النساء عن الخروج عند الحاجة إليه في غير هذه الحالة لمجرد الغيرة، أو لمجرد الهَوى والتحكم من الرجال لا يجَوزُ، وكذلك في الآية إيماء إلى أن هذه العقوبة مقرونة بما يدل على التوقيت، وعن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: كان نبي الله ﷺ إذا نزل عليه حكم كرب لذلك، وتربد وجهه فأنزل الله عليه ذاتَ يوم، فبقي كذلك فلما سُري عنه قال: «خُذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، الثيبُ بالثيب جلدُ مائة، ورَجْمُ بالحجارة، والبكر بالبكر جلدُ مائة، وتغريب عام». أخرجه مسلم. ومن هذا تعلَمُ أنَّ السبيل كان مجملاً أولاً، فبينه الحديث المذكورُ، وخصص الحديثُ أيضاً، عُمومَ آية الجلد الآتية في سورة النور، ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾ فثبت الجلد على البكر بنص الكتاب، وثبت الرجم على الثيب المحصن بسنة رسول الله ﷺ فقد صح أن رسول الله رَجَم ماعزاً، وكان قد أُحْصِنُ وسواء في هذا الحكم المسلم، واليهودي؛ لأنه ثَبتَ في الصحيح أن النبي ﷺ رَجَم يهوديين زَنَيا، وكانا قد أحصنا. ثم بين عِقابَ كل من الزانيين البكريَنِ فقال: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ﴾؛ أي: والبكران اللذان يفعلان الفاحشة

---

(١) المراغي.

من أحراركم، ويرتكبان جريمة الزنا، واللواط ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ بالسب باللسان، والضرب بالنعال بعد ثبوت ذلك بشهادة أربعة رجال منكم، وقيل: بالتهديد والتعيير، كأن يقال: بئس ما فعلتما، وقد تعرضتما لعقاب الله وسخطه، وأخرجتُما أنفسَكما عن اسم العدالة.

وهذا[1] العقاب والإيذاء كان أول الإسلام من قبيل التعزير، وأمره مفوض إلى الأمة في كيفيته، ومقداره، فلما نزلت آية النور التي تقدم ذكرها، وجاء الحديث الشريف السابق، بينا مقدارَ هذا الإيذاءِ، وحدداه، وبهما استبان أن عقاب المرأة الثيب، والرجل المتزوج، الرجم بالحجارة حتى يموتا، وعقابَ المرأة البكر، والرجل الذي لم يتزوج جلد مائة، ونفيُهُ سنةً.

وقرأ الجمهور ﴿واللذان﴾ بتخفيف النون، وقرأ ابن كثير بالتشديد، وقراءة عبد الله ﴿والذين يفعلونه منكم﴾ وهي قراءة مخالفة لسواد مصحف الإمام، ومتدافعة مع ما بعدها؛ إذ هذا جمع وضميرُ جمع، وما بعدهما ضميرُ تثنية، وقرىء ﴿واللذأن﴾ بالهمزة وتشديد النون، وتوجيهُ هذه القراءة: أنه لما شدَّدَ النون التقى ساكنان، ففرَّ القارىء من التقائهما إلى إبدال الألف همزةً تشبيهاً لها بألف فاعل المدغم عينه في لامه، كما قرىء: ﴿ولا الضألين﴾ ﴿ولا جأن﴾.

ثم بين أنَّ هذا الإيذاءَ، والعقاب: إنما يكون إذا لم يتوبَا، فإن تابا وأصلحا. رفع عنهما ذلك فقال ﴿فَإِن تَابَا﴾؛ أي: فإن تاب الزانيان، ورجعا عن فعل الفاحشةِ بعد زواجر الأذيَّةِ ونَدِمَا على ما فعلا ﴿وَأَصْلَحَا﴾ عملهما فيما بينهما، وبين الله، وغيّرا أحوالَهما كما هو شأن المؤمن، يطهر نفسه بالإقبال على الطاعة، ويزكيها من أدران المعاصي التي فَرطت منه، ويُقوي داعيةَ الخير حتى تغلب داعية الشر ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَآ﴾؛ أي: فاتركوا إيذاءَهما، وكفوا الأذى عنهما بالقول والفعل، ثم علل الأمرَ بالإعراض عنهما بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ تَوَّابًا﴾؛ أي: كثير القبول لتوبة من تاب ﴿رَّحِيمًا﴾؛ أي: كثيرَ الرحمة

---

(١) المراغي.

واسع الغفران، وقيل: ﴿تَوَّابًا﴾؛ أي: رجاعاً بعباده عن معصيته إلى طاعته، ﴿رَّحِيمًا﴾ لهم بترك أذاهم إذا تابوا، وقيل: ﴿التوابُ﴾ هو الذي يعودُ على عبده بفضله، ومغفرته، إذا تاب إليه من ذنبه، ﴿والرحيم﴾ كثير الرحمة والغفران لأرباب العصيان.

وهذه الجملةُ جاءت تعليلاً للأمر بالإعراض، والخطابُ هنا لأولي الأمر والحكام، وقد عُلم مما مر أن الإمساك في البيوت والإيذاءَ باللسان قد نسِخَا برجم المحصن وجلد البكر.

وقال أبو مسلم الأصفهاني بن بحر، والمرادُ بقوله: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ السحاقات وحدُّهن الحبس إلى الموت، أو إلى أن يُسهلَ الله لها قضاء الشهوة بطريق النكاح، والمراد بقوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ﴾ أهل اللواط، وحَدُّهُمَا الأذى بالقول والفعل، والآية التي في سورة النور في الزانية والزاني، وخالف جمهور المفسرين، وبناه أبو مسلم على أصل له، وهو يرى أنه ليس في القرآن ناسخ ولا منسوخ.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ﴾ الواجب قبولُها ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ بمقتضى وعده لعباده، وجوبُ تفضل وإحسان، لا وجوبُ استحقاق وإلزام، كائنة ثابتة ﴿لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ﴾ ويفعلون ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ والذنب حالةَ كونهم ملتبسين ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾، وسفه، فإنَّ ارتكابَ الذنب، ولومع العلم به سفه وتجاهل، أو المعنى: الذين يعملون المعصيةَ مع عدم علمهم بأنها معصية، لكنه يمكنه تحصيل العلم بأنها معصية ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ﴾، ويرجعون إلى طاعة الله تعالى ﴿مِن قَرِيبٍ﴾؛ أي: في زمن قريب، والزمنُ القريب: هو الوقت الذي تسكن به ثَورةُ الشهوة، أو تنكسر به حدة الغضب، ويثوب فاعلُ السيئة إلى حلمه، ويرجعُ إليه دينه وعقله، وقيل: هو ما قبل معاينة سبب الموت وأهواله، وهذا القولُ ضعيف كما سيأتي الإشارة إليه قريباً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين فعلوا الذنوبَ بجهالة، وتابوا بعد قريب من الزمن ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾؛ أي: يقبل توبتَهم؛ لأن الذنوبَ لم ترسخ في نفوسهم، ولم يصروا على ما فعلوا، وهم يعلمون.

وخلاصة المعنى: أن التوبةَ التي أوجب الله على نفسه قبولَها بوعده الذي هو أثر كرمه وفضله، ليست إلا لمن يجترحُ السيئةَ بجهالة تلابس نفسَه من سورة غضب أو تغلب شهوة، ثم لا يلبث أن يندم على ما فرط منه، وينيبَ إلى ربه، ويتوبَ ويقلع عن ذنبه.

وما رواه أحمد عن ابن عمر من قوله ﷺ: «إن الله يقبل توبةَ العبد ما لم يغرغر»، فالمراد منه: أنه لا ينبغي لأحد أن يَقنط من رحمة الله، وييأس من قبول التوبة ما دام حيًّا، وليس معناه: أنه لا خوف على العبد من التمادي في الذنوب إذا هو تاب قبل الموت بساعة، فإن هذا مخالف لهدي الدين في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ ولمثل قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾.

قوله: ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ السوء: هو العمل القبيح الذي يسوء فاعله إذا كان عاقلاً سليم الفطرة، وهذا شاملٌ للصغائر والكبائر ﴿والجهالة﴾ الجهل: وتغلُّب السفه على النفس عند ثورة الشهوة، أو سورة الغضب، حتى يذهبَ عنها الحلم، وتنسى الحقَّ، وكل من عصى اللَّهَ يسمَّى جاهلاً، ويسمَّى فعله جهالةً كما قال تعالى: إخباراً عن يوسف عليه السلام ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

وسر هذا أن العاصي لربه لو استعمل ما معه من العلم بالثواب، والعقاب.. لما أقدم على المعصية؛ إذ هو لا يرتكبها إلا جاهلاً بحقيقة الوعيد، ومنتظراً لاحتمال العفو، والمغفرة، أو شفاعة الشفعاء التي تصد عنه العقابَ، وقيل: معنى الجهالة: أن يأتي الإنسانُ بالذنب مع العلم، بأنه ذنب، لكنه يجهل عقوبتَه، وقيل: معنى الجهالة: هو اختيار اللذة الفانية على اللذة الباقية.

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾؛ أي: يتوبون[1] بالإقلاع عن الذنب بزمان قريب، لئلا يعدَّ في زمرة المصرينَ، وقيل: القريب: أن يتوب في صحته قبل مرض موته، وقيل: قبل موته، وقيل: قبل معايَنةِ ملك الموت، ومعايَنةِ أهوال الموت،

---

(١) الخازن.

كما مَرَّ، وإنما سميت هذه المدة قريبة؛ لأن كلَّ ما هو آت قريب، وفيه تنبيه على أن عمرَ الإنسان، وإن طال. فهو قليل، وأنَّ الإنسانَ يتوقع في كل ساعة ولحظة نزولَ الموت به، وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يقبل توبةَ العبد ما لم يغرغر». أخرجه الترمذي، وقد مرَّ الحديثُ بتأويله فلا تغفل. الغرغرة: أن يجعلَ المشروب في فم المريض، فيردِّدَه في الحَلْق، ولا يَصِلَ إليه، ولا يَقدِر على بلعه، وذلك عند بلوغ الروح الحلقومَ.

وقيل في معنى الآية: إن القريب هو: أن يتوب الإنسانُ قبل أن يحيطَ السوء بحسناته فيحبطَها.

والأصح كما قدمنا أن القريبَ أن يتوب بعدما سكنت ثورة الشهوة، وانكسرت حدَّةُ الغضب؛ إذ مَنْ كان قويَّ الإيمان لا تقع منه المعصية إلا عن بادرة غضبٍ، أو شهوةٍ هفوةً بعد هفوة، ثم لا يلبث أن يبادَر إلى التوبة.

وقد قسموا التوابين إلى أقسام وطبقات[1]

الأول: من هو سليم الفطرة عظيمُ الاستعداد للخير، فهو إذا وقع في خطيئة مرةً كان له منها أكبَرُ عبرة، فيندَمُ بعدها، ويحملُ نفسَه على الفضيلة، ويصرِفُها عن كل رذيلة.

الثاني: مَنْ تكون داعية الشهوة أقوى في نفسه، وأرسخَ في قلبه.. فإذا أطاع نفسَه، وارتكب معصيةً. قامتْ الخواطرُ الإلهية تحاربه، وتوبِّخُه حتى تنتصرَ عليه، وتقهرَهُ قهراً تاماً، فلا يعودُ بعدَها إلى اجتراح إثم، ولا وقوع ذنب.

الثالث: من تقوى نفسُه بالمجاهدة على اجتناب كبار الإثم، والفواحش، لا على صِغَارِ الذنوب والآثام، وهنَاكَ تكون الحربُ في نفوسهم سجالاً بينَ ما يلمون به من الصغائر، وبَيْنَ الخواطر الإلهية التي هي جندُ الإيمان.

الرابع: من يقع في الذنب، فيتوبُ ويستغفر، ثم يَعْرُض له مرةً أخرى،

---

(١) المراغي.

فيعودُ إليه، ثم يَلوم نفسه، ويندم، ويستغفر وهلم جراً، وهؤلاء أَدْنَى طبقات التوابين، والنفس الباقية عندهم أرخَصُ من النفس الفانية، وهم مع ذلك محل للرجاء؛ لأن لهم زاجراً من أنفسهم يذكرهم دائماً بالرجوع إلى الله، عَقِب كل خطيئة، وهكذا تكون الحرب سجالاً بينَهم وبينَ أنفسهم، فإما أن تنتصر دواعي الخير.. فتصحَّ توبتُهم، وإما أن تنكسر أمامَ جند الشهوة.. فتحيطَ بهم خطيئتهم، ويكونوا من المصرينَ الهالكينَ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمًا﴾ بمن يطيع، ويعصي، ويتوب، ويعرض ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبره لخلقه بوضع الأشياء في مواضعها، فيقبلُ توبةَ من أناب إليه، لكنه لا يقبل إلا التوبةَ النصوح، دون حركات اللسان بالاستغفار، والإتيان ببعض المكفرات من الصدقات، والأذكار مع الإصرار على الذنوب، والأوزار، ومن ثَمَّ جَمَعَ الله في الآية السابقة بين التوبة وإصلاح العمل.

وقد فعلت الأمم السالفة مثلَ هذا، فاستثقلت التكاليفَ وفسقَت عن أمر ربها، واتبعَتْ هواهَا، وجعلَتْ حظَهَا من الدين مجموعَ حركات لسانيةٍ، وبدنِيَةٍ لا تهذَب خُلقاً، ولا تصلح عملاً، ولا تمنع النفسَ من التمتع بشهواتها، وقد اتبع كثير من المسلمين سنُنَ من قبلهم، وحَذَوا حَذْوَهم شبراً بشبرٍ، وذراعاً بذراع، فكانت الأغاني لهم دثاراً، والملاهي شعاراً فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وبعد أن بينَ حالَ من تقبل توبتهمُ ذَكَرَ حالَ أضَدادِهم الذين لا تقبل توبتهم، فقال: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: وليس قبولُ التوبة واجباً على الله للذين يفعلون، ويرتكبون الذنوبَ، والمعاصيَ، ويستمرون عليها إلى حضور علامات الموت وقُرْبه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾؛ أي: فإذا حضر أحدهم أوائلُ الموت، وَرَأى أشراطَها، وأيس من الحياة التي يتمتع بها، ﴿قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔنَ﴾ ورجعت إلى طاعة الله، ولذلك لم يُقْبَل إيمانُ فرعون حين أدركَه الغرقُ؛ أي: إن سنةَ الله قد مضَتْ بأنَّ التوبة لا تكون للذين يعملون السيئات منهمكينَ فيها إلى حضور الموت، وصدور ذلك القول منهم؛ لأن هؤلاء قد أحاطَتْ بهم خطيئَاتُهم، ولم تَدَعْ للأعمال الصالحة مكاناً في نفوسهم، فهم

أصروا عليها إلى أن حضرهم الموت، ويَئِسوا من الحياة التي يتمتعون بها، وحينئذ يقول أحدهم: إني تبتُ الآن، وما هو من التائبين بل من المدعين الكاذبين.

والخلاصة: أنّ التوبةَ لمثل هؤلاء ليست مقبولةً حتماً، فأمرهم مفَوضٌ إلى الله تعالى، وهو العليمُ بحالهم، وحديثُ قبول التوبة «ما لم يغرغر» أو تَبلُغ روحه الحلقوم: المرادُ منه حصول التوبة النصوح، بأن يُدركَ المذنبُ قبحَ ما كان قد عمله من السيئات، ويندَمَ على مزاولتها، ويزولَ حبه لها، بحيث لو عاشَ لم يعدْ إليها، وقلّما يحصل مثل هذا الإدراك للمصر على السيئات المستأنس بها في عامة أيام الحياة، وإنما يَحصل له إدراك العجز عنها، واليأس منها، وكراهةُ ما يتوقعه من قُرْبِ العقاب عليها عندَ الموت.

﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾؛ أي: وليس قبول التوبة للذين يموتون على الكفر إذا تابوا في الآخرة عند معاينة العذاب؛ أي: لا تقبل توبة لهؤلاء ولا لهؤلاء، فقد سوى الله بين الذين سوفوا توبتَهم إلى أن حضر الموتُ، وبين الذين ماتوا على الكفر، في أنَّ توبتهم لا تقبل، فكما أن المائتَ على الكفر قد فاتته التوبة على اليقين، كذلك المسوف إلى حضور الموت فكلٌ منهما جَاوَزَ الحد المضروب للتوبة، إذ هي لا تكون إلا عند التكليف والاختيار.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المذكورون من الفريقين ﴿أَعْتَدْنَا﴾ وهيأنا ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي: مؤلماً موجعاً في الآخرة؛ أي: هذان الفريقان اللذان استعبدَهما سلطان الشهوة، وخرَجَا عن نهج الفطرة، وهُدى الشريعةِ: أعدَدْنا وهيأنا لهم العذابَ الموجعَ في الآخرةِ، جزاءاً وفاقاً لما اكتسَبت أيديهم من السيئات مع إصرارهم عليها حتى المماتِ، إذ أنهم أفسدوا قلوبَهم، ودسوا نفوسَهم، فصارت تهبط بهم خَطَايَاهم إلى الدرك الأسفل من النيران، والهَوَان، وتعجز عن الصعود إلى معاهد الكرامةِ والرضوانِ، وهذه الجملة تأكيدٌ لعدم قبول توبتهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿لَا يَحِلُّ﴾، ولا يجوز ﴿لَكُمْ أَن تَرِثُوا ٱلنِّسَآءَ﴾ عَيْنَ النساء وذاتها بنكاحِهن ﴿كَرْهًا﴾ أي مكرهات غيرَ راضيات له إذا

مات أقاربُكم عنهن؛ أي: لا يحل لكم أيها المؤمنون: أن تسيروا على سنةِ الجاهلية في هضم حقوق النساء، فتجعلوهن ميراثاً لكم، كالأموال، والعبيد، وتتصرفوا فيهن كما تَشاءُون، وهنَّ كارهات لذلك، فإن شاء أحدكم تزوج امرأةَ من يموت من أقاربه، وإن شاء زوجها غيره، وإن شاء أمسكها ومَنَعَها الزواجَ، كما مر بيان ذلك كله في أسباب النزول.

﴿و﴾ كذلك ﴿لا﴾ يحل لكم أيها المؤمنون أن: ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾ وتحبسوهن في نكاحكم، وتضيّقوا عليهن بسوء العشرة، حتى أُلْجِئَت إلى الافتداء بمالها ﴿لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾؛ أي: لتأخذوا منهن، وتردوا عنهن بعضَ ما أعطيتموهن من المهور بسبب اختلاعهن، ومن باب أولى أَخْذُ الجميع. وقرأ ابن مسعود، ﴿ولا أن تعضلوهن﴾ وهذه القراءة تقوي احتمالَ النصب على احتمال الجزم، وقال ابن عطية: واحتمال النصب أقوى. انتهى؛ أي: لا يحل لكم أيها المؤمنون إرثُ ذاتِ نساءِ أقاربكم، إذاماتوا عنهن بتزوجها كُرَهاً من غير رِضَاهَا، ولا يحل لكم أيضاً العضل، والتضييق على أزواجكم اللاتي في نكاحكم، ومضارتُهن بسوء العشرة لِيُكْرِهْنَكُم، ويَضْطَرِرْنَ إلى الافتداء منكم بالمال، والصداق الذي أَخَذْنَ منكم أو بالمال الذي وَرِثَتْ من زوجها الأول، فقد كانوا يتزوجون من يعجبهم حَسْنُها، ويزوِّجون من لا تعجبهم، أو يمسكونها حتى تفتدِيَ بما كانت وَرِثَتْ من قريب الوارث، أو بما كانت أخذت من صداق ونحوه، أو بكلِّ هذا، وربما كلفوها الزيادةَ إن علموا أنها تَسْطِيعها.

أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: كانت قريش بمكة ينكح الرجل منهم المرأةَ الشريفةَ فلعلها، ما توافِقُهُ فيفارقها على أن لا تتزوج إلا بإذنه، فيأتي بالشهود، فيكتب ذلك عليها؛ فإذا خَطَبَها خاطبٌ، فإن أعطَتْه وأَرْضَتْهُ أذِنَ لها، وإلا عَضَلها، وكثيراً ما كانوا يضيّقون عليهن ليفتدِينَ منهم بالمال.

وقرأ حمزة والكسائي ﴿كُرْهًا﴾ بضم الكاف هنا، وكذا في التوبة، وفي الأحقاف، وقرأ عاصم، وابن ذكوان عن ابن عامر في الأحقاف بالضم، والباقون بالفتح، وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو بالفتح في جميع ذلك، قال الفراء:

الكره بالفتح: الإكراه، وبالضم: المشقةُ، فما أُكرِه عليه فهو كَرْه بالفتح، وما كان من قِبَلِ نفسه، فهو كُرْهُ بالضم.

﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم بفتح الياء؛ أي: بينها من يدَّعِيها، ويوضحها والباقون بالكسرة؛ أي: بينةٍ في نفسها، ظاهرة من النشوز وشَكاسة الخلق، وإيذاء الزوج وأهلِه بالبذاء والسلاطة، ويدل عليه قراءة أبي بن كعب إلا أن يفحشن عليكم، وقرأ ابن عباس ﴿مبينة﴾ بكسر الباء وسكون الياء: من أبانَ الشيء فهو مبين؛ أي: لا تعضلوهن في حال من الأحوال، إلا في الحال التي يفعلنَ فيها بالفاحشة، المبينة، الواضحة الظاهرة، الفاضحة دون الظنة والشبهةِ، فإذا نشزن عن طاعتكم وسَاءَتْ عشرتهن، ولم ينفع معهن التأديبُ، أو تبيَّنَ ارتكابهن للزنا، أو السرقة، أو نحو ذلك من الأمور الفاحشة الممقوُتة عند الناس، فلكم حينئذ أن تعضلوهن، وتضيقوا عليهن، لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن من صداق وغيره من المال؛ لأن الفُحْشَ قد أتى من جانبها، فقد عُذِرْتُم حينئذ في طلب الخلع، وإنما اشترِطَ في الفاحشة أن تكونَ مبينةً؛ أي: ظاهرةً فاضحةً لصاحبها؛ لأنه رُبَّما ظلَمَ الرجل المرأةَ بإصابتها الهفوةَ الصغيرةَ، أو بمجرد سوء الظن، والتهمة، فمن الرجال الغَيور السيء الظنّ الذي يؤاخذ بأتفه الأمور، ويعده عظيماً.

وإنما أبيح للرجل أن يضيِّق على امرأته إذا أتت بهذه الفاحشة المبينة، لأنها ربما كَرِهته، ومالَت إلى غيره فتؤذيه بفاحش القول، أو الفعل؛ ليملها، ويسأم معاشرتها؛ فيطلقها؛ فتأخذ ما كان أعطاها، وتتزوج غيره، وتتمتع بمال الأول، وربما فعلت مع الثاني ما فعلت مع الأول، فإذا عَلِمَ النساء أن العضلَ والتضييق بيد الرجال، ومما أبيح لهم إذا هن آذينَهُم وأهنَّهم؛ فإن ذلك يكفهن عن ارتكابها، والاحتيالِ بها على أرذلِ أنواعِ الكسب.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾؛ أي: وعاشروا أيها: الأزواج، وساكنوا مع زوجَاتِكم بالوجه المعروف في هذه الشريعة، وبَيْنَ أهلها من حسن المعاشرة؛ أي: وعليكم أيها الأزواجُ أن تحسنوا معاشرةَ نسائِكم فتُخَالِطُوهُنَّ بما تألفُه

طباعهن، ولا يستنكرهُ الشرعُ، ولا العرفُ، ولا تضيقوا عليهن في النفقة، ولا تؤذوهن بقولٍ ولا فعلٍ، ولا تقابلوهنَ بعبُوسِ الوجه، ولا تقطيب الجَبين، والمعاشرة بالمعروفِ هو: الإنصافُ في الفعل المبيت والنفقة والإجمال في القول، وفي المَثلِ: المرأة تَسْمُنُ مِن أُذنها.

وفي كلمة المعاشرة: معنى المشاركة، والمساواة؛ أي: عاشروهنَ بالمعروف. وليعاشِرْنكم كذلك، فيجب أن يكونَ كل من الزوجين مدْعَاةً لسرور الآخر، وسبب هناءته وسعادته في معيشته، ومنزله، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾أي فإن كرهتم أيها الأزواج صحبةَ زوجَاتكِم لعيب في أخلاقِهن أو دَمامةٍ في خلقهن مما ليس لهن فيه كسب، أو لتقصير في العمل الواجب عليهنَّ كَخِدمةِ البيت، والقيام بشُؤونه مما لا يخلو عن مِثلِه النساء في أعمالهنَ أو لميل منكم إلى غيرهن، فَاصْبِرُوا، ولا تَعْجلُوا بمضارتهن، ولا بمفارقتهن ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا﴾ ويؤولَ الأمرُ إلى ما تحبونه من ذهابِ الكراهة وتبدلِها بالمحبة ﴿وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾؛ أي: في ذلك المكروه لكم ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾، ونفعاً كبيراً لكم، فجواب الشرط محذوف، والفاء في عسى معلِّلَة لذلك المحذوف، وعسَى هنَا للتحقق، لا للرجاء، والمعنَى: فإن كرهتموهن.. فاصبرُوا، ولا تفارقُوهن؛ لأنه قد ثبَتَ وحقَّ كراهتكم شيئاً وجعل الله فيه خيراً كثيراً. وفي «القاموس»[1] عسى للترجي في المحبوب، والإشفاق في المكروه، واجتمَعا في قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الآية. وللشك واليقين، وقد تشبه بكاد ومن الله للإيجاب انتهى.

ومن الخير الكثير: الأولادُ الأَنْجابُ فربَ امرأة يملها زوجها، ويَود فراقَها ثم يجيئه منها مَنْ تقرُّ به عَينه من الأولاد النجباء، فيَغْلو قَدْرُها عنده بذلك.

ومن ذلك أن يصلُحَ حالها بصبره وحسن معاشرته فتكون من أعظم أسباب

---

(١) قاموس.

سعادته، وسروره في انتظام معيشته، وحسن خدمته، ولا سيما إذا أصيب بالأمراض، أو بالفقر، والعَوَزِ فتكون خَيْرَ سلوى وعون في هذه الأحوال، فيجب على الرجل أن يتذكر مثلَ ذلك كما يذكر أنه قلما يخلو من عيب تصبر عليه امرأته في الحال، والاستقبال، وقل[1] أن ترى مُتَعَاشِرَين يرضى كل واحد منهما جميعَ خلق الآخر، ويقال: ما تعاشر اثنان إلا وأحدهما يتغامض عن الآخر، وفي صحيح مسلم «لا يفرك مؤمن مؤمنةً، إن كره منها خلقاً رضيَ منها آخر» وأنشدوا في هذا المعنى:

وَمَنْ لاَ يُغَمِّضْ عَيْنَهُ عَنْ صَدِيْقِهِ ... وَعَنْ بَعْضِ مَا فِيْهِ يَمُتْ وَهْوَ عَاتِبُ

وَمَنْ يَتَتَبَّعْ جَاهِدَاً كُلَّ عَثْرَةٍ ... يَجِدْهَا وَلاَ يَسْلَمُ لَهُ ٱلدَّهْرَ صَاحِبُ

وقد جاء[2] قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ في سِياق حديث النساء دستوراً كاملاً، وحاكماً عادلاً إذا نحن اتبعناه كان له الأثرُ الصالح في جميع أعمالنا، وهَدَانا إلى الرشد في جميع شؤوننا فكثيرٌ ممَّا يكرهُه الإنسانُ يكون له فيه الخَيْرُ، ومتى جاء ذلك الخير. . ظهرَتْ فائدةُ ذلك الشيء المكروه، والتجارب أصدَقُ شاهد على ذلك، فالقتال لأجل حماية الحقِ والدِّفاع عنه، يكرهه الطبع لما فيه من المشقة، لكن فيه إظهار الحق، ونصرُه ورفعة أهله، وخذلان الباطل وحزبه، على أنَّ الصبرَ على احتمالِ المكروه يمرن النفسَ على احتمال الأذى، ويعودها تحملَ المشاق في جسيم الأمور، وبالجملة: فالإحسان إلى النساء من مكارم الأخلاق، وإن وقعَتْ منهن الإساءَةُ لما في الحديث «يغلبن كريماً، ويغلبهن لئيم، فأحب أن أكون كريماً مغلوباً، ولا أحب أن أكون لئيماً غالباً».

والخلاصة: أن الإسلام وصى أهلَه بحسن معاشرة النساء، والصبر عليهن، إذا كَرِهَهُنَّ الأزواجُ رجاءَ أن يكون فيهن خير كثير، ولا يبيحُ عضلَهن افتِدَاؤهن أنفسهن بالمال، إلا إذا أتين بفاحشة مبينة بحيث يكون إمساكهن سبباً في مهانة

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

الرجل، واحتقاره أو إذا خافا أن لا يقيما حدود الله، وفيما عدا ذلك يجبُ عليه إذا أراد فراقُها أن يعطَيها جميعَ حقوقها، وهذا ما أشار إليه بقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ﴾ وقصدتم أيُّها الأزواجُ ﴿ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾؛ أي: تزوجَ زوجة جديدة ترغبون فيها، وأخذَها ﴿مَّكَانَ زَوْجٍ﴾؛ أي: بدلَ زوجة قديمة كرهتموها، وأردتم تطليقَها لعدم طاقتكم الصبرَ على معاشرتها، وهي لم تأت بفاحشة مبينة، ﴿و﴾ قد ﴿أتيتم إِحْدَىٰهُنَّ﴾؛ أي: إحدى الزوجات؛ أي: والحال أنكم قد أعطيتم تلك القديمةَ التي تريدون تطليقَها ﴿قِنطَارًا﴾؛ أي: مالاً كثيراً من الصداق ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ﴾؛ أي: من ذلك القنطار ﴿شَيْـًٔا﴾؛ أي: يسيراً، ولا كثيراً، وقرأ أبو السمال[1] وأبو جعفر ﴿شَيًا﴾ بفتح الياء وتنوينها حذف الهمزة وألقى حركتها على الياء والمعنى[2]: وإذا رغبتم أيها الأزواج في استبدال زوجٍ جديدةٍ مكانَ زوج سابقةٍ كرهتموهَا لِعَدَمِ طاقَتِكم الصبرَ على معاشَرتِها، وهي لم تأت بفاحشة مبينة، وقد آتيتموها المالَ الكثيرَ مقبوضاً، أو ملتزماً دفعه إليها، فصار ديناً في ذمتكم؛ فلا تأخذوا منه شيئاً، بل عليكم أن تدفعوه لها؛ لأنكم إنما استبدلتم غيرهَا بها لأغراضكم ومصالحكم بدون ذَنْب، ولا جَرِيرة تُبيح أَخْذَ شيء منها، فبأي حق تستحلون ذلك، وهي لم تَطْلُب فِراقَكم، ولم تُسيء العشرةَ إليكم، فتحملَكم على طلاَقِها.

وإرادةُ الاستبدال ليسَتْ شرطاً في عدم حل أخذ شيءٍ من مالها، إذا هو كره عشرتها، وأراد الطلاقَ لكنه ذكر لأنه هو الغالب في مثل هذا الحال، ألا ترى: أنه لو طلقها، وهو لا يريد تزوَّجَ غيرها، بأن أراد الوَحْدةَ وعدمَ التقيد بالنساء، ومؤنتهن، فإنه لا يحل له شيء من مالها.

ثم أنكر عليهم هذا الفعلَ، ووبخهم عليه أشد التوبيخ فقال: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ﴾ استفهام إنكاري فيه معنى التوبيخ؛ أي: هل تأخذون ذلك القنطار منها

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

﴿بُهْتَٰنًا﴾؛ أي: حالة كونكم باهتينَ وكاذبينَ عليها برميها بالفاحشة، ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾؛ أي: وحالة كونكم آثمين إثماً مبيناً؛ أي: ظالمينَ لها ظلماً، بيناً، ظاهراً، بأخذ مالها بغير استحقاق له؛ أي: لا تفعلوا ذلك، وقد كان من دَأبهم أنهم إذا أرادوا تطليقَ الزوجة، رَمَوها بفاحشة، حتى تَخافَ وتشتريَ نَفْسَها منه بالمهر الذي دَفَعه إليها، وأصل البهتان[1] الكذب الذي يواجهُ به الإنسان صاحبَه على جهة المكابرة، فيبْهَتُ المكذوبُ عليه؛ أي: يتحيَّرُ ثُمَّ سميَ كلُّ باطل يتحيّر من بطلانه بُهْتَاناً.

ثم زاده إنكاراً آخر مبالغةً في التنفير من ذلك فقال: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾؛ أي: وبأي وجه وسبب تأخذُون ذلك القنطار ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: والحال: أنه قد وَصَلَ، وألصقَ بعضكم أيُّها الأزواجُ والزوجات إلى بعض بالجماع الموجب للمهر، واجتمعتم في لحاف واحدٍ، ولاَبَس بعضكم بعضاً ملابسةً يتكوَّنُ منها الولد، فإنها قد بذلَتْ نفسَها لك، وجعلَتْ ذاتَها مَلاذك ومتمتعك، وحصلَت الألفة التامَّةُ بينكما، فكيف يليق بالعاقل أن يسترد منها شيئاً، فهذا لا يليق بمَنْ له طَبْعٌ سليم، وذوقٌ مستقيم؛ أي: إنَّ حالَ هؤلاء الذين يستحلون أخذَ مهور النساء إذا أرادوا مُفارقتَهن بالطلاق، لا لذنب جَنيْنَهُ، ولا لإثم اجترحنَه من الإتيان بفاحشة مبينة، أو عدم إقامة حدود الله، وإنما هو الرأي والهَوى، وكراهةُ معاشرَتِهن عجيب أيما عجب، فكيف يستطيبون ويجُوزون أخذَ ذلك منهن بعد أن تأكَّدَت الرابطة بين الزوجين بأقوى رباط حيوي بين البشر، ولابس كل منهما الآخر حتى صار كل منهما من الآخر بمنزلة الجزء المتمم لوجوده، فَبعد أن أفضى كل منهما إلى الآخر إفضاء، ولابسه ملابسةً يتكون منها الولد يقطع تلك الصلة العظيمة، ويطمع في مالها وهي المظلومة الضعيفة، وهو القادر على اكتساب المال بسائر الوسائل، التي هدَى الله إليها البشرَ.

وجملة قوله: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ معطوفة على جملة قوله:

---

(١) البحر المحيط.

﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: وكيف تأخذونه، والحال: أن هؤلاء النساء، يعني زوجاتَهم قد أخذن وجعلن عليكم ميثاقاً، وعهداً غليظاً؛ أي: شديداً وعاشرن معكم بذلك العهد. قال ابن عباس، ومجاهد: الميثاق الغليظ: كلمة النكاح المعقودة على الصداق، وهي الكلمة التي تستحلُّ بها الفروجُ، ويدل على ذلك ما رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»، وقيل: هو قولُ العاقد عند العقد زوجتكها على ما أَخَذَ الله للنساء على الرجال من إمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان، قاله قتادة.

وهذا الإسناد[1] مجاز عقلي من الإسناد للسبب؛ لأن الآخذ للعهد حقيقة هو الله سبحانه وتعالى، لكن بولغ فيه حتى جَعَل كأنهن الآخذاتُ له، والمعنى فكيف تأخذونه، والحال أنَّ الله سبحانه وتعالى قد أخذ وجعل عليكم أيُّها الأزواج بسببهن ميثاقاً غليظاً، وعهداً شديداً على التقوى في حقوقهن حيث قال: على لسان نبيه محمد ﷺ: «إتقوا الله في النساء» الحديث.

وقيل: الميثاق الغليظُ: المودةُ والرحمةُ المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ فالإسناد على هذا حقيقي، والمعنى حينئذ: فكيف تأخذونه وقد أخذنَ وحَمَلْنَ أزواجكم بسببكم مودةً شديدةً وشفقة عجيبة.

فهذه آية من[2] آيات الفطرة الإلهية هي أقوى ما تعتمدُ عليها المرأةُ في ترك أبوَيْها، وإخوتها وسائر أهلها، والاتصال برجل غريب عنها تسَاهِمُهُ السرَّاءَ والضراءَ، وتسكن إليه ويَسْكُن إليها، ويكون بينهما من المودة أقوَى مما يكون بين ذوي القربى ثقةً منها بأنَّ صِلَتَها به أقوى من كل صلة، وعيشتَها معه أَهْنَأُ مِن كلِّ عيشة.

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

هذه الثقة، وذلك الشعورُ الفطري الذي أودعَ في المرأة وجعلها تحسُّ بصلة لم تَعْهَدْ من قَبْلُ لا تَجِدُ مثلَها لدى أحد من الأهل، وبها تعتقد أنها بالزواج مقبلة على سعادة ليس وراءَها سعادة في الحياة، هذا هو المركوز في أعماق النفوس، وهذا هو الميثاق الغليظ، فما قيمة مَنْ لا يَفِي بهذا الميثاق، وما هي مَكانتُه من الإنسانية. وقد استدلوا[1] بذكر القنطار على جواز التغالي في المهور، وقد روي أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ نهى على المنبر، أن يزاد في الصداق على أربع مائة درهم، ثم نَزلَ فاعترضَتْه امرأةٌ من قريش فقالت: أما سمعْتَ الله يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ فقال: اللهم عَفْواً كلُّ الناس أُفقَهُ من عُمَر، ثُمَّ رَجَع فركب المنبرَ، فقال إني كنت نهيتكم أن تزيدوا في صدقاتهن على أربع مائة درهم، فَمَنْ شاء أن يعطِيَ من ماله، فله ما أحبَّ.

هذا وإن الشريعة لم تحدِّدْ مقدار الصداق، بل تركَتْ ذلك للناس لتفاوتهم في الغنى والفقر، فكل يعطي بحسب حاله، لكن جاء في السنة: الإرشاد إلى اليسْر في ذلك، وعدم التغالي فيه.

فمن ذلك ما رواه أحمد، والحاكم، والبيهقي عن عائشة إنَّ مِنْ يُمْنِ المرأة تيسيرَ خِطْبَتِهَا، وتَيسِيرَ صداقها. وإن التغالِيَ في المُهور الآن، قد صار من أسباب قلة الزواج، وقلَّةِ الزواج: تُفْضِي إلى كثرة الزنا والفساد، والغَبْنُ أخيراً على النساء أكثَرُ، وإنّك لَتَرى هذه العادةَ متمكنة لدى بعض الناس، حتى إن وليَّ المرأة؛ ليمتنع عن تزويج بنته للكفء الذي لا يرجى من هو خيرٌ منه، إذا كان لا يعطيه ما يراه لائقاً بكرامته، ويزوجها لمن هو دونه ديناً وخُلُقاً ومن لا يَرجُو لها سعادة عنده إذا هو أعطاه الكثيرَ الذي يراه محققاً لأغراضه، وهكذا تَتَحكم التقاليد والعادات حتى تفسدَ على الناس سعادتَهم، وتقوضَ نَظْمَ بيوتهن، وهم لها منقادون بلاَ تفكير في العواقب، فيالَها مصيبةً في دِيننا، ودُنيانا، وإنَا للَّهِ وإنا إليه راجعون.

---

(١) المراغي.

الإعراب

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾.

﴿وَٱلَّٰتِي﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿اللاتي﴾ اسم موصول للجمع المؤنث في محل الرفع، مبتدأ مبنى على السكون ﴿يَأۡتِينَ﴾ فعل وفاعل. ﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ مفعول به، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿يَأۡتِينَ﴾ ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الخبر بالمبتدأ، جوازاً على رأي الجمهور لشبه المبتدأ بالشرط في كونه موصولاً عاماً، صلته فعل مستقبل. ﴿استشهدوا﴾ فعل وفاعل ﴿عَلَيۡهِنَّ﴾ متعلق به لـ﴿أَرۡبَعَةٗ﴾ مفعول به ﴿مِّنكُمۡۖ﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿أربعة﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر مستأنفة، ويجوز[1] أن يكون الخبر محذوفاً، والتقدير: فيما يتلى عليكم حكم اللاتي فحذف الخبر، والمضاف إلى المبتدأ، للدلالة عليهما، وأقيم المضاف إليه مقامه، وهذا نظير ما فعله سيبويه في نحو ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ﴾ ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ﴾؛ أي: فيما يتلى عليكم حكم الزانية، ويكون قوله: ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾ وقوله ﴿فَٱجۡلِدُواْ﴾ وقوله: ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ﴾ دالاً على ذلك المحذوف؛ لأنه بيان له اهـ «سمين».

﴿فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾.

﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا امتثلتم ما أمرتكم به من الاستشهاد، وأردتم بيانَ حكم ما إذا أشهدوا.. فأقول لكم. ﴿إن﴾ ﴿شَهِدُواْ﴾ ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿شَهِدُواْ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعلَ شرط لها. ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً. ﴿أمسكوهن﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿فِي

(١) الفتوحات الإلهية.

﴿ٱلْبُيُوتِ﴾ جار ومجرور متعلق به، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة إن الشرطية من فعل شرطِها وجوابِها في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية. ﴿يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ﴾ فعل ومفعول وفاعل منصوب بـ﴿إن﴾ مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿حتى﴾ بمعنى إلى، تقديره. فأمسكوهن في البيوت إلى توفي الموت إياهن، والجار والمجرور متعلق بـ﴿أمسكوا﴾. ﴿أَوْ﴾ حرف عطف بمعنى إلى ﴿أو﴾ بمعنى إلا. ﴿يَجْعَلَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد، ﴿أَوْ﴾ التي بمعنى إلى ﴿أو﴾ بمعنى إلا. ﴿لَهُنَّ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يَجْعَلَ﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له. ﴿سَبِيلًا﴾ مفعول أول لجَعَل، والجملة الفعلية صلةُ أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر منسبك من الجملة التي قبلها، تقديره: فأمسكوهن في البيوت إلى توفي الموت إياهن أو جعل الله لهن سبيلاً.

﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾.

﴿وَٱلَّذَانِ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية أو عاطفة. ﴿اللذان﴾ اسم موصول للمثنى المذكر في محل الرفع مبتدأ، مبني على ﴿الألف﴾ و﴿النون﴾ حرف زائد لشبه التثنية، أو مرفوع بـ﴿الألف﴾ على الخلاف المذكور في محله، هذا على قراءة تخفيف النون على أصل التثنية، ويقرأ[1] بتشديدها على أن إحدى النونين، عوض من اللام المحذوفة؛ لأن الأصلَ اللذيان مثل العَمَيَان والشجَيَان، فحذفت الياء؛ لأن الاسمَ مبهمٌ، والمبهمات لا تثنى التثنيةَ الصناعيةَ، والحذف مؤذن بأن التثنيةَ هنا مخالفة للقياس، وقيل: حذفت لطول الكلام بالصلة، ذكره أبو البقاء. ﴿يَأْتِيَـٰنِهَا﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿مِنكُمْ﴾ جار ومجرور حال من ضمير الفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الخبر بالمبتدأ

---

(١) عكبري.

جوازاً لما في المبتدأ من العموم. ﴿آذوهما﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والرابط ضميرُ المفعول، والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً نحوياً، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿واللاتي﴾ على كونها مستأنفة.

﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذَا امتثلتم ما أمرتكم به من الإيذاء لهما، وأردتم بيانَ حكم ما بعد الإيذاء.. فأقول لكم. ﴿إن تابا﴾ ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿تَابَا﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعلَ شرط لها. ﴿وَأَصْلَحَا﴾ فعل وفاعل في محل الجزم معطوف على ﴿تَابَا﴾. ﴿فَأَعْرِضُوا﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة طلبية. ﴿أعرضوا﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه جوابَ الشرط. ﴿عَنْهُمَآ﴾ جار ومجرور متعلق به، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الجلالة. ﴿تَوَّابًا﴾ خبر أول لها. ﴿رَّحِيمًا﴾ خبر ثان، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ جملة معللة للإعراض في محل الجر بلام التعليل المقدرة.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر. ﴿ٱلتَّوْبَةُ﴾ مبتدأ. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ، تقديره: إنما التوبة ثابتة، وواجبة على الله وجوبَ تفضل منه، وإنجاز وعد منه لا وجوبَ إلزام، وكلفة عليه، ولكن الكلامُ على حذف مضاف، تقديره: إنما قبول التوبة؛ لأن التوبةَ هنا مصدر لتاب عليه إذا قبل توبته، لا مصدر تاب العبد إلى الله، إذا رجعَ إلى طاعته، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿لِلَّذِينَ﴾ جار ومجرور حال من الضمير المستكن في الخبر، تقديره: إنما التوبة ثابتة، هي على الله حالةَ كونها كائنة للذين يعملون السوء. ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾ فعل وفاعل ومفعول،

والجملة صلة الموصول. ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ جار ومجرور حال من ضمير الفاعل، تقديره: حالةَ كونهم ملتبسين ﴿بجهالة﴾. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب، ولكن التراخي المفهوم من ﴿ثم﴾ منفي بقوله: ﴿مِن قَرِيبٖ﴾. ﴿يَتُوبُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَعۡمَلُونَ﴾. ﴿مِن قَرِيبٖ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يتوبون﴾ قال أبو حيان[1]: و﴿من﴾ في قوله: ﴿مِن قَرِيبٖ﴾ تتعلق بـ﴿يتوبون﴾ وفيها وجهان: أحدهما: أنها للتبعيض؛ أي: بعضَ زمان قريب، ففي أي جزء من أجزاء هذا الزمان أتى بالتوبة.. فهو تائب من قريب، والثاني: أن تكون لابتداء الغاية؛ أي: يبتدىء التوبة من زمان قريب من المعصية لئلا يقع في الإصرار. ومفهومُ ابتداء الغاية. أنه لو تاب من زمان بعيد.. فإنه يخرج عن من خص بكرامة حتم قبول التوبة على الله المذكورة في الآية بـ﴿على﴾ بقوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ انتهى.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة تفريعية. ﴿أولئك﴾ مبتدأ. ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل. ﴿عَلَيۡهِمۡۗ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، ولكنه خبر سببي، والجملة الاسمية معطوفة مفرعة على جملة قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾. ﴿وَكَانَ﴾ الواو استئنافية. ﴿كان الله عليماً﴾ فعل ناقص، واسمه وخبره. ﴿حَكِيمٗا﴾ خبر ثان له، والجملة مستأنفة.

﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾.

﴿وَلَيۡسَتِ﴾ الواو استئنافية. ﴿ليست التوبة﴾ فعل ناقص واسمه. ﴿لِلَّذِينَ﴾ جار ومجرور خبر ﴿ليس﴾ وجملة ﴿ليس﴾ مستأنفة. ﴿يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ﴾ ﴿حتى﴾ حرف ابتداء. ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿حَضَرَ﴾ فعل ماض. ﴿أَحَدَهُمُ﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿ٱلۡمَوۡتُ﴾ فاعل،

(١) البحر المحيط.

والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة إذا إليها، على كونها فعلَ شرط لها، والظرف متعلق بالجواب. ﴿قَالَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على أحدهم، وجملة ﴿قَالَ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ من فعل شرطها وجوابها غاية لما قبل ﴿حَتَّىٰٓ﴾، والتقدير: وليست التوبة لقوم يعملون السيئات، ويستمرون على ذلك، فإذا حضر أحدهم. قال كيتَ وكيتَ، وهذا[1] هو الوجه الحسن، ولا يجوز في ﴿حَتَّىٰٓ﴾ أن تكون جارةً لـ﴿إذا﴾؛ أي: يعملون السيئات إلى وقت حضور الموت من حيث إنها شرطية، والشرط لا يعمل فيه ما قبله، للزومه الصدارةَ، وإذا جعلنا ﴿حتى﴾ جارة تعلقت بـ﴿يعملون﴾ وأدوات الشرط لا يعملُ فيها ما قبلَها، ولأنَّ ﴿إذا﴾ لا تتصرف على المشهور، ذكره في «الفتوحات» ﴿إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ مقول محكي لـ﴿قال﴾ منصوب بفتحة مقدرة، منع من ظهورها اشتغالُ المحل بحركة الحكاية، وإن شئت قلت ﴿إن﴾ حرف نصب وتوكيد ﴿والياء﴾ في محل النصب اسمها. ﴿تُبْتُ﴾ فعل وفاعل. ﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾ ظرف للزمن الحاضر في محل النصب على الظرفية مبني على الفتح لشبهه بالحرف، شبهاً معنوياً، لتضمنه معنى حرف التعريف، والظرف متعلق بـ﴿تبت﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾.

﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿وَلَا ٱلَّذِينَ﴾ الواو عاطفة. ﴿لا﴾ زائدة زيدت لتأكيد نفي ما قبلها. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محل الجر معطوف على قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾. ﴿يَمُوتُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ الواو حالية. ﴿هم﴾ مبتدأ. ﴿كُفَّارٌ﴾ خبر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يَمُوتُونَ﴾. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ مبتدأ. ﴿أَعْتَدْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿اعتدنا﴾. ﴿عَذَابًا﴾ مفعول به. ﴿أَلِيمًا﴾ صفة له.

(١) الجمل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء. ﴿أي﴾ منادى نكرة مقصودة ﴿والهاء﴾ حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل الرفع، أو في محل النصب صفة لـ﴿أي﴾. ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، وجملة النداء مستأنفة. ﴿لَا يَحِلُّ﴾ ﴿لَا﴾ نافية. ﴿يَحِلُّ﴾ فعل مضارع مرفوع. ﴿لَكُمْ﴾ متعلق به. ﴿أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ﴾ ناصب وفعل وفاعل ومفعول، والجملة في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية، لـ﴿يحل﴾ تقديره: لا يحل لكم إرث النساء كرهاً، وجملة ﴿لَا يَحِلُّ﴾ جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿كَرْهًاۖ﴾ حال من النساء منصوب، ولكنه بعد تأويله بالمشتق تقديره مكرهات.

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾.

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ الواو عاطفة. ﴿لا﴾ زائدة زيدت لتأكيد نفي ما قبلها. ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿تَرِثُواْ﴾ منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، والجملة في تأويل مصدر مرفوع معطوف على مصدر منسبك من الجملة التي قبلها. على كونه فاعلاً لـ﴿يحل﴾ تقديره: لا يحل لكم إرث النساء كرهاً ولا عضلهن. ﴿لِتَذْهَبُواْ﴾ ﴿اللام﴾ لام كي. ﴿تذهبوا﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿بِبَعْضِ﴾ ﴿الباء﴾ حرف جر وتعدية. ﴿بعض﴾ مجرور بـ﴿الباء﴾ الجار والمجرور متعلق بـ﴿تذهبوا﴾، وجملة ﴿تذهبوا﴾ صلة أن المضمرة، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام كي، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تعضلوا﴾ والتقدير: ولا تعضلوهن لذهابكم، وأخذكم بعض ما آتيتموهن من المهور، ﴿بعض﴾ مضاف. ﴿ما﴾ موصولة أو موصوفة في محل الجر مضاف إليه. ﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف تقديره: ببعض ما آتيتموهن إياه، لأن ﴿آتى﴾ هنا بمعنى أعطى، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط الضمير المحذوف الذي هو المفعول الثاني. ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ﴾ ﴿إلا﴾ أداة استثناء من أعم الأحوال. ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿يَأْتِينَ﴾ فعل مضارع في محل النصب بأن المصدرية مبني على السكون لاتصاله ﴿بنون﴾ الإناث، و﴿نون﴾ الإناث في محل الرفع فاعل.

﴿بِفَٰحِشَةٖ﴾ جار ومجرور متعلق به. ﴿مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ صفة لـ﴿فاحشة﴾ والجملة الفعلية صلة أن المصدرية ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على الاستثناء، ولكنه على تقدير مضاف، والتقدير: ولا يحل لكم أن تعضلوهن في حال من الأحوال إلا حالَ إتيانهن بفاحشة مبينة.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿عاشروهن﴾ فعل وفاعل، ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ جار ومجرور متعلق به، أو متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿عاشروا﴾ تقديره: حالةَ كونكم ملتبسينَ بالمعروف. ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصَحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما أمرتكم به من المعاشرة بالمعروف، وأردتم بيانَ حكمِ ما إذا كرهتموهن، فأقول لكم. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿كَرِهۡتُمُوهُنَّ﴾ فعل وفاعل، ومفعول في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعلَ شرط لها. ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً، لكون الجواب جملة جامدة. ﴿عسى﴾ فعل ماض تام. ﴿أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا﴾ ناصب وفعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية صلة ﴿أن﴾ المصدرية ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لـ﴿عسى﴾ تقديره: فعسى وحق كراهتكم شيئاً. ﴿وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية؛ لأنه معطوف على ﴿تَكۡرَهُواْ﴾. ﴿فيه﴾ جار ومجرور متعلق به، وهو في محل المفعول الثاني لـ﴿جعل﴾. ﴿خَيۡرٗا﴾ مفعول أول له. ﴿كَثِيرٗا﴾ صفة لـ﴿خَيۡرٗا﴾ والتقدير: فعسى كراهتكم شيئاً، وجعل الله فيه خيراً كثيراً، وجملة عسى في محل الجزم بإن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة إن الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة.

﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿أَرَدتُّمُ﴾ فعل

وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فِعْلَ شرط لها. ﴿ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾ مفعول به، ومضاف إليه. ﴿مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿استبدال﴾ ﴿وَءَاتَيْتُمْ﴾ الواو واو الحال. ﴿آتيتم﴾ فعل وفاعل. ﴿إِحْدَىٰهُنَّ﴾ مفعول أول، ومضاف إليه. ﴿قِنطَارًا﴾ مفعول ثان، والجملة الفعلية في محل النصب حال من فاعل ﴿أَرَدتُّمُ﴾ ولكنه على تقدير قد، كما أشرنا إليه في بحث التفسير. ﴿فَلَا تَأْخُذُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية جوازاً. ﴿لا﴾ ناهية جازمة. ﴿تَأْخُذُوا۟﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿مِنْهُ﴾ متعلق به. ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول به، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الإنكاري التوبيخي. ﴿تأخذونه﴾ فعل وفاعل ومفعول مرفوع بثبات النون، والجملة الفعلية، جملة استفهامية لا محلَّ لها من الإعراب. ﴿بُهْتَـٰنًا﴾ حال من ضمير الفاعل. ﴿وَإِثْمًا﴾ معطوف عليه. ﴿مُّبِينًا﴾ صفة لإثم محذوف تقديره: أتأخذونه حالةَ كونكم باهتينَ آثمينَ إثماً مبيناً، ويجوز نصبهما على المفعول لأجله؛ كما ذكره أبو البقاء.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَكَيْفَ﴾ الواو استئنافية. ﴿كيف﴾ اسم استفهام عن الحال في محل النصب على الحال من فاعل ﴿تأخذون﴾ مبني على الفتح لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، والاستفهام أيضاً للإنكار والتوبيخ. ﴿تَأْخُذُونَهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والمعنى أتأخذونه حالة كونكم ظالمينَ. قال أبو البقاء[1]: ﴿كيف﴾ في موضع نصب على الحال، والتقدير: أتأخذونه جائرينَ وهذا يتبين لك بجواب ﴿كيف﴾، فإذا قلت: كيف أخذت مال زيد، كان الجواب حالاً تقديره: أخذته ظالماً، أو عادلاً، ونحو ذلك، ويكون موضع كيف في الإعراب مثلَ موضع جوابها أبداً.

---

(١) العكبري.

انتهى. والجملة الفعلية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ واو الحال. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ﴾ فعل وفاعل، ومضاف إليه، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تأخذون﴾. ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أفضى﴾. ﴿وَأَخَذْنَ﴾ الواو عاطفة. ﴿أخذن﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَفْضَىٰ﴾. ﴿مِنكُم﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أخذن﴾. ﴿مِّيثَٰقًا﴾ مفعول به. ﴿غَلِيظًا﴾ صفة له.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ ﴿اللاتي﴾ جمع[1] التي بحسب المعنى دون اللفظ؛ كما مر في بحث التفسير، وفيه لغات: اللاتي: بإثبات التاء، والياء، واللات: بحذف الياء، وإبقاء الكسرة لتدل عليها، واللائي: بالهمزة، والياء. واللاء: بكسر الهمزة، وحذف الياء، ويقال في جمع الجمع: اللواتي واللوات واللواء والفاحشة الفعلية القبيحة وهي مصدر كالعافية، والعاقبة، وإتيانها فعلها، ومباشرتُها يقال: أتى الفاحشةَ يأتي إتياناً إذا فعلها وبَاشَرها.

﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ﴾ ﴿الذان﴾[2] تثنية الذي وكان القياس: أن يُقال: اللذَيان كرحَيَان. قال سيبويه: حذفت الياء ليُفرقَ بين الأسماء المتمكنة، وبين الأسماء المبهمة، وقال أبو علي: حُذفت الياء، تخفيفاً، وقرأ ابن كثير ﴿اللذانّ﴾ بتشديد النون، وهي لغة قريش، وفيه لغة أخرى وهي: اللذا بحذف النون ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ أمر للجماعة من آذى الرباعي، يقال: آذى الرجلَ يؤذيه إيذاءً أوصلَ إليه الأذى، ثلاثيه أَذِيَ من باب شَجِيَ، يقال: أَذِيَ زيد يأذى أذىً، وأذاةً إذا أُصيبَ بأذى، والأذى والأذية والأذاة الضرر اليسير.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ التوبة: مصدر تاب الله عليه توبةً إذا قبلَ توبتَه لا مصدر تاب العبد إلى الله بمعنى رجع إلى طاعته ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ يعم الكفر والمعاصيَ وغيرهما سمي بذلك، لأنه تسوء عاقبته ﴿أَعْتَدْنَا﴾ أصل أعتدنا أعددنا، فأبدلت

---

(١) الشوكاني.
(٢) الشوكاني.

الدال الأولى تاء ﴿كَرْهًا﴾ الكُره: بفتح الكاف، وضمها مع سكون الراء فيهما مصدران لكره الثلاثي المكسور العين، معناه الإباءُ والمشقَّة، وما أكره عليه الإنسان، وقيل: هو بالضم ما أكرهت نفسك عليه، وبالفتح ما أكرهَكَ عليه غيرك، ويقال: شيء كره؛ أي: مكروه، ورجلُ كره؛ أي: متكره، ووجه كره، أي: قبيح، وفعله كَرهاً، أي إكراهاً.

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ يقال: عضل من باب نصر، والعضل التضييق، والشدة، ومنه: الداء العضال؛ أي: الشديد الذي لا نجاةَ منه، والفاحشةُ الفعلةُ الشنيعةُ الشديدة القبح كما مر آنفاً. والمبينة الظاهرة الفاضحة ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يقال: عاشرَه معاشرةً وعشرةً وتعاشَروا واعتشَروا عشرةً، والعِشرةُ الصحبةُ، والمخالطة، والمعروف هو مَا تألفه الطباعُ ولا يستنكره الشرعٌ ولا العرفُ ولا المروءةُ ﴿قِنطَارًا﴾ القنطار: المالُ الكثيرُ، وقد تقدم الكلام عليه في أول سورة آل عمران فراجعه.

﴿بُهْتَانًا﴾ يقال: بهت يبهت بهتاً وبهتاناً من باب فتح إذا افترى عليه الكذبَ، فهو بهاتٌ، وبَهُوت، والبُهتان الكذب الذي يبهِّتُ المكذوبَ عليه، ويسكته متحيِّراً.

﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: وصل إليها الوصول الخاص الذي يكون بين الزوجين، فيلابس كلٌّ منهما الآخرَ حتى كأنهما شيء واحد، والإفضاء[1] إلى الشيء الوصول إلى فضاء منه؛ أي: سعة غير محصورة، كقولهم: الناس فوضَى فَضَى؛ أي: مختلطون يباشر بعضهم بعضاً، ويقال: أفضى إليه إفضاءً، وهو رباعي من الثلاثي المزيد فيه بحرف، يقال: فضا يفضو فضاءً من باب دعا إذا اتسع، فألف أفضى منقلبة عن ياءٍ أصلها واو، والميثاق الغليظ: العهدُ المؤكدُ الذي يربطكم بهن أقوى رباط وأحكمه.

---

(١) البحر المحيط.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البيان والبديع:

منها: التجوزُ[1] باطلاق اسم الكل على البعض في قوله: ﴿يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ لأن أل في الفاحشة تستغرق كل فاحشةٍ، وليس مراداً، وإنما أطلق اسمُ الكل على البعض تعظيماً لقبحة، وفحشه؛ كأنه لا فاحشةَ إلاَّ هو، فإنَّ كان العرف في الفاحشة الزنا، فليس من هذا الباب إذ تكونُ الألفُ واللام فيه للعهد.

ومنها: التجوزُ بأن يُرادَ من المطلق بعض مدلوله في قوله: ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ إذا فسر بالتعيير، أو بالضرب بالنعال، أو الجمع بينهما، وبقوله: ﴿سَبِيلًا﴾ والمراد الجلد، أو رجمُ المحصن، وبقوله ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ﴾: أي: اتركوهما.

ومنها: المجاز العقليُّ بإسناد الفعل إلى غير فاعله في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ﴾: والمرادُ يتوفاهن اللَّهُ أو ملائكته، وفي قوله: حَتَى إذا حضر أحدهم الموت؛ أي: علاماتُه ومقدماتُه.

ومنها: التجنيس المغاير في قوله: ﴿فَإِن تَابَا﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا﴾.

ومنها: التجنيسُ المماثل في قوله: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟﴾.

ومنها: التكرار - أي: الإطناب - في اسم الله في مواضع، وفي قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ﴾ ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ﴾، وفي قوله: ﴿ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾.

ومنها: إطلاق المستقبل على الماضي في قوله: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ و﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ﴾، و﴿يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ و﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ﴾.

ومنها: الإشارة والإيماء في قوله: ﴿كَرْهًا﴾ فإن تحريمَ الإرث كُرْهاً يومىء إلى جوازه طوعاً، وقد صرح بذلك في قوله: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ﴾.

ومنها: الإيماء أيضاً في قوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾

---

(١) البحر المحيط.

ففيه إشارة إلى أن له أن يَعْضلَها على غير هذه الصفة لمصلحة لها تتعلَّقُ بها، أو بمالها.

ومنها: المبالغةُ في تفخيم الأمر وتأكيده في قوله: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ عظم الأمر حتى يُنتهى عنه.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ استعار الأخذ للوثوق بالميثاق، والتمسك، والميثاق معنى لا يتهيأ فيه الأخذ حقيقةً، وفيه أيضاً استعارة لفظ الميقاق للعقد الشرعي، كما قال مجاهد: الميثاقُ الغليظُ: عُقدةُ النكاح، وفي هذا[1] الإسناد أيضاً مجاز عقلي، لأنَّ الآخِذَ للعهد هو الله؛ أي: وقد أخذ الله عليكم العهد لأجلهن، وبسببهن فهو مجازَ عقلي من الإسناد إلى السبب كما مرَّ.

ومنها: تسمية الشيء بما يؤول إليه في قوله: ﴿أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ سمي تزويجُ النساء أو مَنْعُهن للأزواج إرثاً، لأن ذلكَ سببُ الإرث في الجاهلية.

ومنها: الطباق المعنوي في قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾: وقد فسر الخير الكثير بما هو محبوب.

ومنها: الحذف في مواضع لا يتم المعنى إلا بها.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) الفتوحات.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ...﴾ مناسبة هاتينَ الآيتين لِمَا قبلهما: أنه لما بين[1] الله سبحانه وتعالى، وذَكَرَ في أوائل السورة حكم نكاح اليتامَى، وعددَ مَنْ يحل من النساء، والشرطَ في ذلك، وبيَّن حكم استبدال زوج مكان زوج، وما يجبُ من المعروف في معاشرتهن.. أَرْدَف ذلك ببيان ما يحرمُ نكاحه من النساء اللواتي، لا يجوز الزواجُ بهن بسبب القرابة، أو الرضاع، أو المصاهرة، أو بغير ذلك.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم...﴾ الآية، سبب نزولِها: ما أخرجه[2] ابن جرير، قال: حَدَّثَني محمد بن عبد الله المخرمي قال: حدثنا قراد، قال: حدثنا ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان أهل الجاهلية يحرمون ما يحرم إلا امرأةَ الأب والجمعَ بين الأختين، قال: فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾.

(١) المراغي.

(٢) الطبري.

وأخرج الطبراني[1] أيضاً، وابن أبي حاتم، والفريابي، عن عدي بن ثابت، عن رجل من الأنصار، قال توفي أبو قيس بن الأصلت، وكان من صالحي الأنصار فَخَطَب ابْنُه قيس امرأتَه، فقالت: إنما أعدُك ولداً، وأنت من صالحي قومك، فأتت النبي ﷺ فأخبرته فقال: ارجعي إلى بيتك، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ...﴾ سبب نزولها[2]: ما أخرجه ابن جرير، عن ابن جريج قال: قلت لعطاء ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ ما سببها قال: كنا نتحدث أنها نزلت في محمد ﷺ حِينَ نكح امرأةَ زيد بن حارثة، قال: المشركون في ذلك فنزلت: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ ونزلت: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ ونزلت ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾.

التفسيرُ وأوجه القراءة

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟﴾؛ أي: ولا تتزوجوا أيها المؤمنون ﴿مَا نَكَحَ﴾، وتزوج ﴿ءَابَآؤُكُم﴾ من نسب أو رضاع، حقيقةً أو بواسطة، فيشمل الأجدادَ، وإن علوا ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ وسَبَقَ منكم في الجاهلية قبل نزول آية التحريم من نكاح زوجات الآباء فإنه معفوٌّ عنه لا مؤاخذةَ عليكم به.

والخلاصة: أنكم تستحقُّون العقابَ بنكاح ما نكح آباءكم إلا ما قد سلف، ومَضَى فإنه مفعو عنه، وهذا شروع[3] منه في بيان من يحرم نكاحها من النساء، ومن لا يحرم، وإنما خَصَّ هذا النكاحَ بالنهي، ولم ينتظم في سلك نكاح المحرمات الآتية مبالغةً في الزجر عنه حيث كانوا مُصِرّينَ على تعاطيه، وكانَ فاشياً في الجاهلية، وقد ذَمَّهُ الله أقبحَ ذم، فسماه فاحشةً، وجَعَلَه مبغوضاً أشدَّ البغض، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وجمهور المفسرين كان أهلُ الجاهلية

(١) لباب النقول.
(٢) لباب النقول.
(٣) أبو السعود.

يتزوجون بأزواج آبائهم فنهُوا عن ذلك.

ومن المعلوم أنَّ المحرمات بالمصاهرة أربعُ: زوجةُ الأب، وزوجة الابن، وأم الزوجة، وبنتُ الزوجة، وكلُّها يحصل فيها التحريمُ بمجرد العقد، وإن لم يحصل دخول إلا الربيبةَ، فلا تحرم إلا بشرط الدخول بأمها، وهذا يُستفاد من الآية، فإنها لم تقيد بالدخول إلا في الربيبة على ما سيأتي.

واختلفوا في ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ والظاهر أنها موصولة كما فسَّرْنَا أوَّلاً، والمعنى، ولا تنكحوا المرأةَ التي نَكَحَهَا آباؤكم من النساء، فإنه موجب للعقاب، إلا ما قد مضى قبل نزول آية التحريم، فإنه معفو عنه، وقيل: ﴿ما﴾ مصدرية. والمعنى حينئذٍ: ولا تنكحوا نكاح آبائكم؛ أي: نكاحاً كنكاح آبائكم في البطلان، فإن أنكحتَهم كَانَتْ بِغَيْرِ وليّ وشهود وكانت مؤقَّتة، وعلى سبيل القهر، وهذا الوجه منقول، عن محمد بن جرير الطبري في تفسير هذه الآية.

وقيل: لا تزوجُوا امرأةً وطِئها أباؤكم بالزنا إلا ما قد سلف من الأب في الجاهلية من الزنا بامرأة، فإنه يجوز للابن تزوجُها كما نُقِل هذا المعنى عن ابن زيد، وكما قال أبو حنيفة: يحرم على الرجل أن يتزوَّجَ بمزنِيَّةِ أبيه، لهذه الآية. وقال الشافعي: لا يحرم؛ لأنه لا اعتبار بوطء الزنا ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن نكاح زوجات الآباء وحلائِلهم ﴿كَانَ فَٰحِشَةً﴾؛ أي: قبيحاً من أقبح الفواحش لأنَّ زوجةَ الأب بمنزلة الأم، فكانت مباشرتُها كمباشرة الأم، فهي من أقبح المعاصي، وأفحش الفواحش تمجه الأذواقُ السليمةُ، وتقشعرّ منه العقول الصحيحة، ﴿و﴾ كان ﴿مقتاً﴾؛ أي: ممقوتاً مبغوضاً عند الله، وعند ذوي المروءات من الجاهلية وغيرهم، وأنه لم يَزَلْ في حكم الله تعالى، وعلمه موصوفاً بذلك ما رَخَّص فيه لأمةٍ من الأمم من لدن آدم، وكانت العربُ تقول لولد الرجل من امرأة أبيه. مقتيّ نُسبة إلى المقت، وهو أشدُّ الغضب، وكان منهم[1] الأشعثُ

---

(١) الخازن.

بن قيس، وأبو معيط ابن أبي عمرو بن أمية، ﴿وَسَآءَ﴾ ذلك النكاح، وقَبُحَ ﴿سَبِيلًا﴾؛ أي: طريقاً، ومَسْلَكاً تَسْلُكه الجاهليةُ، روى[1] البغوي بسنده عن البراء بن عازب، قال: مر بي خالي، ومعه لواء فقلت أين تذهَب؟ قال: بعثني النبي ﷺ إلى رجل تزوَّج امرأةَ أبيه آتيهِ برأسه.

قيل: مراتب القبح[2] ثلاث: القبح العقلي، والقبح الشرعي، والقبح العادي، وقد وصف الله تعالى هذا النكاح بكل ذلك، فقوله: ﴿فَٰحِشَةً﴾ مرتبة قبحه العقليّ، وقوله: ﴿وَمَقْتًا﴾ مرتبة قبحه الشرعي، وقوله: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ مرتبة قبحه العادي، وما اجتمعَتْ فيه هذه المراتبُ. فقد بَلغ أَقْصى مراتب القبح.

ثم بيَّن الله سبحانه وتعالى المحرمات من النساء فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أُمَّهَٰتُكُمْ﴾؛ أي: نكاحهن، وتلك المحرمات أربعةُ أقسام:

القسمُ الأول: المحرماتُ بالنسب، وهي سبع مذكورة، كُلُّها في الآية الأمهاتُ، والبناتُ، والأخواتُ، والعمَّاتُ، والخالات، وبناتُ الأخ، وبنات الأخت.

والقسم الثاني: المحرمات بالرضاع، وهي السبع المذكورة في النسب لحديث عائشة رضي الله عنها إن رسول الله ﷺ قال: «يحَرمُ من الرضاع ما يحرم من الولادة». أخرجاه في «الصحيحين». ذَكَر منها في هذه الآية اثنتين: الأمهاتُ من الرضاع، والأخوات من الرضاع.

والقسم الثالث: المحرمات بالمصاهرة، وهي أربعة أصناف: ذكر منها في هذه الآية ثلاثةً: أمهاتُ النساء، والربائبُ، وحلائلُ الأبناءِ، والرابعةُ: منها حلائلُ الآباء، وذكرها في الآية قبل هذه بقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾.

والقسم الرابع: المحرماتُ بسبب عارض إذا زال السببُ، وهو الجَمْعُ زال التحريمُ، وهي ثلاثة، ذَكَرَ منها في الآية واحدة، وهي الجمعُ بين الأختين،

---

(١) الخازن.

(٢) الرازي.

والجمع بين المرأة وعمتها، والجمع بين المرأة وخالتها.

فجملة المحرمات المذكورة إحدى وعشرون، والثانية والعشرون، أزواجُ النبي ﷺ وذكرها في سورة الأحزاب بقوله جلّ وعلا ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾.

فجملةُ المحرمات بنصِّ الكتاب خمسةَ عَشَرَ، ذَكَرَ منها أربعةَ عشرَ في هذه الآية، والتي قبلها، وواحدةً في سورة الأحزاب. فقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ وهي جمع أم، والأم[1] هي كل امرأة رجع نسبك إليها، سواء كانت من جهة الأم، أو من جهة الأب، وسواء كانت بدرجة، وهي الأم حقيقةً أو بدرجات، وهن الجدات، وإن عَلَوْنَ فيحرم نكاحُ الأم، وجميع الجدات، وإن لم تكن وارثةً كأم أبي الأم ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ جمع بنت، وهي كل أنثى رَجَعَ نسَبُها إليكَ بالولادة بدرجة كبنت الصلب، أو بدرجات بإناث خلص، كبنت بنت البنت، وإن سفلت، أو بذكور كبنت ابن الابن، وإن سفل ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ جمع أخت، وهي كل امرأة شاركتك في أصلك، فتدخل فيها الأخوات الأشقاء، والأخوات لأب، والأخوات لأم ﴿وَعَمَّاتُكُمْ﴾ جمع عمة، وهي كل امرأة شاركَتْ أبَاك في أصله، وإن علا، فتدخل فيها جميع أخوات الأب، وأخوات آبائه، وإن علوا، وقد تكون العمة من جهة الأم أيضاً، وهي أخت أبي الأم ﴿وَخَالَاتُكُمْ﴾ جمع خالة، وهي كل امرأة شاركَتْ أمك في أصلها، فيدخل فيها جميع أخوات الأم، وأخوات أمهاتها، وقد تكون الخالةُ من جهة الأب أيضاً، وهي أخت أم الأب ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ﴾، وهي كل امرأة لأخيك عليها ولادة، ويرجع نسبها إلى الأخ، فيدخل فيها جميعُ بنات أولاد الأخ، وإن سفلنَ ﴿وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ وهي كلُّ امرأة لأختك عليها ولادة، ويرجع نسبُها إلى الأخت، فيدخل فيها جميع بنات أولاد الأخت، وإن سفلنَ، فهذه الأصناف السبعة محرمة بالنسب بنص الكتاب، وهي **القسمُ الأول** من الأقسام الأربعة السابقة.

---

(١) الخازن.

والقسم الثاني: المحرماتُ بالرضاع، وهي السبع المذكورة في النسب كما سبق.

وذَكَرَ الأولى منها بقوله: ﴿و﴾ حرمت عليكم ﴿أمهاتكم التي أرضعنكم﴾ في الحولين خمسَ رضعاتٍ متفرقات عند الشافعي، وأحمد بن حنبل، وقال أبو حنيفة ومالك: يحصل التحريمُ بمصة واحدة، وفاقاً للأوزاعي، والثوري، وعبد الله بن المبارك، كما هو مذهب ابن عباس، وابن عمر، وسعيد بن المسيب.

وأم الرضاع هي[1] كل امرأة أرضعَتْك، أو أرضعت من أرضعتك أو أرضعَتْ من ولدك بواسطة، أو بغيرها، أو ولدت مرضعتَك، أو ذا لبنها، وهو الفحلُ بواسطة أو غيرها.

وذكَرَ الثانيةَ منها بقوله: ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾، وهي كل امرأة أرضعَتْها أمك، أو ارتضعت بلبن أبيك، أو ولدَتْها مرضعتُك أو الفحلُ.

وإنما نص الله سبحانه وتعالى على ذكر الأم، والأخت من الرضاع، ليَدُلَّ بذلك على بقية المحرمات من الرضاع، وتنبيهاً على أن الرضاع يجري مجرى النسب في التحريم كما بينته السنة.

والثالثة من محرمات الرضاع: العمة، وهي[2] أخت الفحل، وأختُ ذكر ولده بواسطة أو بغيرها من نسب أو رضاع.

والرابعة منها: الخالة وهي أختُ المرضعة، وأخت أنثى ولدَتْها بواسطة، أو بغيرها من نسب، أو رضاع.

والخامسة منها: بنت الرضاع، وهي كل من ارتضعَتْ بلبنك، أو بلبن من ولدته بواسطة أو بغيرها.

والسادسة منها: بنت أخ الرضاع، وهي بنت ولد المرضعة، أو الفحل من نسب، أو رضاع، وإن سفلَتْ ومَن ارتضعت بلبن أخيك، وبنتُها بنسب أو رضاع،

---

(١) المحلى على المنهاج.
(٢) المحلى على المنهاج.

وإن سفلَتْ.

والسابعةَ: بنت أخت الرضاع، وهي بنتُ بنت المرضعة، أو الفحل من نسب أو رضاع، وإن سفلت، ومن ارتضعت أختَك، وبنتُها من نسب أو رضاع، وإن سفلت، وكذا بنت أنثى أرضعَتْها أُمُّك أو ارتضعت بلبن أبيك.

وقرأ الجمهور ﴿ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ وقرأ عبد الله ﴿اللايَ﴾ بالياء، وقرأ ابن هُرْمُز التي، وقرأ أبو حَيْوة من الرِّضاعة بكسر الراء.

فصل في ذكر نبذة من أحكام الرضاع وأحاديثه

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ في بنت حمزة: «إنها لا تحل لي، يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، وإنها ابنةُ أخي من الرضاعة». متفق عليه. فدل الحديث بمنطوقه على حرمة بنت أخ الرضاع، فكُلُّ مَنْ حرُمت بسبب النسب حُرِّمَ نظيرُها بسبب الرضاعة.

وإنما سمَّى الله تعالى المرضعات أمهات، لأجل الحرمة، فيحرم عليه نكاحُها، ويحلُّ له النظر إليها، والخلوة بها والسفرُ معها، ولا يترتَّبُ عليه جميعُ أحكام الأمومة من كل وَجه، فَلاَ يتوارثان، ولا تَجِبُ على كل واحد منهما نفقةُ الآخر، وغير ذلك من الأحكام وإنما تثبت حرمة الرضاع بشرطين:

أحدهما: أن يكونَ إرضاع الصبي في حال الصغر، وذلك إلى انتهاء سنتين من ولادته لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾.

وعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاءَ في الثدي، وكان قبل الفطام». أخرجه الترمذي.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لا رضاعةَ إلا ما كان في الحولين. أخرجه مالك في الموطأ بأطْوَل من هذا، وأخرجه أبو داود مختصراً قال: قال عبد الله بن مسعود لا رضاعَ إلا ما شَدَّ اللحم وقال أبو حنيفة: مدة الرضاع

ثلاثون شهراً لقوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ وحمله الجمهور على أقلّ مدة الحمل، وأكثر مدة الرضاع، لأن مدةَ الحمل داخلة فيه، وأقله ستة أشهر.

والشرط الثاني: أن يوجد خمسُ رضعات متفرقات، رويَ ذلك عن عائشة رضي الله عنها وبه قال عبد الله بن الزبير، وإليه ذهب الشافعي، وأحمد في إحدى الروايتين عنه، ويدل على ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: «لا تحرم المصةُ ولا المصَّتَان». أخرجه مسلم.

وعن أم الفضل رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «لا تحرم الإملاجَةُ ولا الإملاجَتَان». أخرجه مسلم أيضاً. وفي رواية: إن رجلاً من بني عامر بن صعصعة قال: يا نبي الله، هل تحرّم الرضعة الواحدة، قال: «لا».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان فيما أنزل من القرآن، عشرُ رضعات معلومات، يُحَرِّمْنَ، ثم نُسخت؛ أي: حكمُها بخمس معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهنَّ فيما يُقْرأُ من القرآن، أخرجه مسلم.

يحتمل أنه لم يبلغها نسخ تلاوتها، وأجمعوا على أن هذا لا يُتْلَى فهو ممَّا نسخ تلاوتُه، وبقي حُكْمُه وقد غَلَب على الناس التساهلُ في أمر الرضاعة، فيُرضِعُون الولدَ من امرأة، أو من عدة نسوة، ولا يهتمونَ بمعرفة أولاد المرضعة، وأخواتها، ولا أولاد زوجها من غيرها، وإخوته ليعرفوا ما يترتب عليهم في ذلك من الأحكام، كحرمة النكاح، وحقوق القرابة الجديدة التي جعلَها الشارع كالنسب، فكثيراً ما يتزوَّج الرجل أختَه، أو عمَّتَه، أو خالتَه من الرضاعة، وهو لا يَدْرِي.

والقسمُ الثالث من المحرمات: ما يحرم بالمصاهرة، وهي أربعةُ أصناف، كما سبق:

الأولى منها: ما ذكره بقوله: ﴿و﴾ حرمت عليكم ﴿أمهات نسائكم﴾؛ أي: أمهات حلائلكم من نسب، أو رضاع بواسطة، أم بغير واسطة، سواء دخل بزوجته أم لم يدخل بها، بل يكفي مجرد العقد عليها، وبهذا قال جمهور

الصحابة ومن بعدهم، وعليه المذاهب الأربعة.

والثانية منها: ما ذكره بقوله: ﴿و﴾ حُرِّمَت عليكم ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾؛ أي: بَنَاتُ نسائكم ﴿ٱلَّٰتِي﴾ ربيتموهن وأدبتموهن ﴿فِي حُجُورِكُم﴾، وبيوتكم حالةَ كونهن كائنات ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾؛ أي: جامعتموهن سواءٌ كانَ بعقد صحيح، أو فاسد يجب لها به الصداقُ، وتجبُ عليها العدةُ ويَلحَقُ به الولدُ. والربائب جمع ربيبة، وهي بنتُ المرأة من رجل آخر، سُمِّيَتْ رَبيبةً لتربيتِها في حجر الرجل، وقوله: دخلتم بهن كنايةٌ عن الجماع، لا نفسُ العقد، فيحرم على الرجل بناتُ امرأته، وبناتُ أولادها، وإن سَفلْنَ من النسب، أو الرضاع بعد الدخول بالزوجة، فلو فارق زوجتَه قبل الدخول بها، أو ماتَتْ قبل دخوله بِهَا جَازَ له أن يتزوَجَ بنتَها، ولا يجوز أن يتزوجَ أمَّهَا؛ لأنَّ الله أطلق تحريمَ الأمهات، وعلَّق تحريمَ البنات بالدخول بالأم، ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾؛ أي: بنسائكم، كأن عَقَدَ عليها النكاحَ، وفارقها قبل الدخول، أو ماتَتْ كما مر آنفاً ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾؛ أي: لا حَرَجَ ولا منعَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في نكاح الربائب بعد طلاق أمها أو موتها.

والثالثة منها: ما ذكره بقوله: ﴿و﴾ حرمت عليكم ﴿حلائل أبنائكم﴾، أي نساءُ أولادِكم ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾؛ أي: من أولاد فِرَاشِكم دُونَ نساء الأولاد الأدعياء الذين تبنيتم، وأمَّا حلائل أبناء الرضاع فعلم تحريمهن بالسنة، وإن كان مقتضَى مفهوم الآية تحليلهن، والحلائلُ جمع حليلة، وهي الزوجةُ، والرجل حليلُ سميا بذلك؛ لأن كلَّ واحد منهما يَحِلُّ لصاحبه، وقيل: لأنَّ كل واحد منهما يَحُلُّ إزارَ صاحبه من الحَلِ بفتح الحاء بمعنى الفكّ.

ويدخل في الأبناء أبناءُ الصلب مباشرةً أو بواسطة كابن الابن، وابن البنت، فحلائلُهما تحرم على الجد كما يدخل الابن من الرضاعة، فتحرم حليلته لما تقدم من قوله ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب».

والرابعة: من هذا القسم حلائل الآباءِ، وذكرها بقوله: في الآية السابقة ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾.

والقسم الرابع من المحرمات: ما يحرم بسبب عَارِض، وقد تقدم لك أنه ثلاثة أصناف:

ذَكَرَ منها واحدة: في هذه الآية بقوله: ﴿و﴾ حرم عليكم ﴿أن تجمعوا بين الأختين﴾؛ أي: وحرم عليكم أيها المؤمنون الجمع بين الأختين بنسب، أو رضاع في الاستمتاع الذي يراد به الولد، وهو الجماع لا في نفس ملك اليمين، والمذاهب الأربعة متفقة على تحريم الاستمتاع بالأختين بملك اليمين، أو بالنكاح، أو بالنكاح والملك كأن يكون مالكاً لأحدهما، ومتزوجاً للأخرى، فيحرم عليه أن يَسْتَمْتِعَ بهما، ويجب عليه أن يحرم إحداهما على نفسه، كأن يعتق المملوكة، أو يهبها. وقال الشافعي: نكاح الأخت في عدة الأخت البائن جائز؛ لأنه لم يوجد الجمع.

والثانية منها: الجمع بين المرأة وعمتها.

والثالثة: الجمع بين المرأة وخالتها. ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يجمع بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها». أخرجاه في «الصحيحين».

والعلة في تحريم جمع هؤلاء إفضاؤه إلى قطع ما أمر الله تعالى بوصَله من الرّحم، لِمَا يوجد بينهما بسبب الجمع من التباغض، والتحاسُد، كما هو شأن الضرتَينِ كما يدل عليه قوله ﷺ: «فإنكم إن فعلتم ذلك قَطَعْتُمُ أَرْحَامَكم».

والضابط لذلك: أنه يحرم الجمع بين كل امرأتين بينهما قرابةٌ لو كانت إحداهما ذكراً. لحرُمَ عليه بها نكاح الأخرى. ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾؛ أي: لكن ما قد مضى، ووقع منكم من الجمع بينهما قبلَ نزول التحريم، فمغفور لكم، لا تؤاخَذون عليه بعد الإسلام، وقد كانوا في الجاهلية يجمعون بين الأختين مثلاً كما يدل على ذلك ما أخرجه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه عن الضحاك بن فيروز الديلمي عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، إني أسلمتُ وتحتي أختان، قال: «طَلِّقِ أيتَهما شئتَ».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن أهلَ الجاهلية كانوا يحرمونَ ما حرم الله إلا امرأةَ الأب والجَمعُ بين الأختين، كما سبق، ثم علَّل الاستثناء بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ غَفُورًا﴾ لكم بما وقع منكم في الجاهلية من المحرمات المذكورة ﴿رَّحِيمًا﴾ بكم حيث سامَحَ وعَفا لكم ما قد وقع منكم في الجاهلية، فلا يؤاخِذُكم بما سلفَ منكم في زمن الجاهلية، إذا أنتم عملتم بشريعة الإسلام، ومِن مغفرته أنْ يمحوَ من نفوسكم آثارَ الأعمال السيئة، ويغفرَ لكم ذنوبَكم إذا أنبتم إليه، ومن رحمته أنْ شَرَعَ لكم من أحكام النكاح ما فيه المصلحةُ لكم، وتوثيق الروابط بَيْنَكم لتتراحَموا، وتتعاوَنُوا على البرّ والتقوى.

الإعراب

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

﴿وَلَا﴾الواو استئنافية. ﴿لا﴾ ناهية جازمة ﴿تَنكِحُوا۟﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة مستأنفة. ﴿مَا نَكَحَ﴾ ﴿ما﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد، أو الرابط محذوف تقديره ما نكحه أباؤكم ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ جار ومجرور، حال من ﴿ما﴾ الموصولة ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ﴿إلا﴾ أداة استثناء منقطع، ووجه الانقطاع أن المستثنى ماض، والمستثنى منه مستقبل، لأن[1] النهي للمستقبل، وما سلف ماض، فلا يكون من جنسه، وهو في موضع نصب، ومعنى المنقطع: أنه لا يكون داخلاً في الأول، بل يكون في حكم المستأنف، وتُقدَّرُ إلا فيه بلكن، والتقدير هنا: ولا تتزوجوا مَنْ تزوَّجَه أباؤكم، ولا تطؤوا مَنْ وطئهُ أباؤكم، لكن ما سلف من ذلك فمعفو عنه ذكره أبو البقاء. ﴿مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب على الاستثناء. ﴿قَدْ﴾ حرف تحقيق. ﴿سَلَفَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على

(١) العكبري.

﴿ما﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ ﴿إن﴾ حرف نصب. و﴿الهاء﴾ اسمها. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿الهاء﴾ في أنه العائد على نكاح نساء الآباء. ﴿فَٰحِشَةً﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ وجملة كان في محل الرفع خبر إن، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة المعللة للنهي المذكور قبلها ﴿وَسَآءَ﴾ الواو استئنافية، أو عاطفة ﴿ساء﴾ فعل ماض من أفعال الذم وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً مبهم يفسره التمييز المذكور بعده تقديره: هو يعود على ﴿سبيل﴾ نكاح نساء الآباء ﴿سَبِيلًا﴾ تمييز له، وجملة ﴿ساء﴾ في محل الرفع خبر مقدم لمبتدأ محذوف الذي هو المخصوص بالذم تقديره: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ ذلك السبيل، والجملة الاسمية، أو جملةُ ﴿ساء﴾ من الفعل، والفاعل في محل الرفع معطوف على جملة ﴿كَانَ﴾ وقيل[1]: إن الضمير في ﴿ساء﴾ عائد على ما عاد إليه الضميرُ قبلَ ذلك، و﴿سَبِيلًا﴾ تمييز منقول من الفاعل والتقدير: ساء سبيله.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿حُرِّمَتْ﴾ فعل ماض مغير الصيغة. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق به. ﴿أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ نائب فاعل، ومضاف إليه والجملة مستأنفة ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ معطوف على ﴿أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ وكذا قوله: ﴿وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ﴾: معطوفات على ﴿أُمَّهَٰتُكُمْ﴾: ﴿ٱلَّٰتِىٓ﴾: صفة ﴿لأمهاتكم﴾: ﴿أَرْضَعْنَكُمْ﴾: فعل وفاعل، ومفعول به، والجملة صلة الموصول ﴿وَأَخَوَٰتُكُم﴾: معطوف أيضاً على ﴿أمهاتكم﴾ الأولى، جرياً على القاعدة المشهورة عندهم: أنه إذا كثرت

(١) الجمل.

المعطوفات، وكان العطف بالواو يكون العطف على الأول منها ﴿مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ﴾: جار ومجرور، حال ﴿من أخواتكم﴾ ﴿وَأُمَّهَـٰتُ﴾: معطوف أيضاً على ﴿أُمَّهَـٰتُكُمْ﴾ الأولى، وهو مضاف ﴿نِسَآئِكُمْ﴾: مضاف إليه ﴿وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ﴾: معطوف على ﴿أُمَّهَـٰتُكُمْ﴾ أيضاً، ومضاف إليه ﴿ٱلَّـٰتِى﴾: صفة لـ﴿ربائبكم﴾ ﴿فِى حُجُورِكُم﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بمحذوف صلة الموصول تقديره: اللاتي رُبِّيْنَ في حجوركم ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه حال من ﴿ربائبكم﴾ وإن شئت قلت: حال من الضمير في الجار والمجرور الذي هو صلة تقديره: اللاتي استقَرَرْنَ في حجوركم كائنات من نسائكم ﴿ٱلَّـٰتِى﴾: صفة لـ﴿نسائكم﴾ المذكور قبله المجرور بـ﴿من﴾ ﴿دَخَلْتُم﴾: فعل وفاعل ﴿بِهِنَّ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة: صلة الموصول ﴿فَإِن﴾: ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم حكم الربائب اللاتي دخلتم بأمهاتهن، وأردتم بيانَ حكم الربائب اللاتي لم تدخلوا بأمهاتهن.. فأقول لكم ﴿إن لم تكونوا﴾ إن حرف شرط. ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم. ﴿تَكُونُواْ﴾؛ فعل ناقص واسمه مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿دَخَلْتُم﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِنَّ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: في محل النصب خبر ﴿تَكُونُواْ﴾ تقديره: فإن لم تكونوا داخلين بهن وجملة ﴿تَكُونُواْ﴾: في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها فعْلَ شرط لها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾: ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً. ﴿لا﴾: نافية تعمل عمل ﴿إن﴾. ﴿جُنَاحَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لا﴾ وجملة لا من اسمها وخبرها: في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً ﴿وَحَلَـٰٓئِلُ﴾ معطوف على ﴿أُمَّهَـٰتُكُمْ﴾ الأولى وهو مضاف. ﴿أَبْنَآئِكُمُ﴾: مضاف إليه ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول للجمع المذكر في محل الجر صفة لأبنائكم ﴿مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه صلة الموصول تقديره: الذين كانوا من أصلابكم ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ﴾: الواو عاطفة. ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَجْمَعُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ وجملة ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على

﴿أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ الأولى تقديره: حرمت عليكم أمهاتكم وجمعكم ﴿بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿تجمعوا﴾ ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾: ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب على الاستثناء ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿سَلَفَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على محمد والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والاستثناء منقطع كما مر نظيره ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الجلالة. ﴿غَفُورًا﴾: خبر أول لها. ﴿رَّحِيمًا﴾: خبر ثان، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة المعللة للاستثناء.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾؛ يقال: سَلَفَ يَسْلُف سلفاً، وسُلوفاً من باب قعد: إذا مضى، وتقدم وسبق يقال سَلَف له عمل صالح إذا تقدم وسَبق ﴿فَٰحِشَةً﴾؛ أي: شديدَ القبح ﴿مقتا﴾ مصدر بمعنى اسم المفعول؛ أي: ممقوتاً مبغوضاً عِندَ ذوي الطباع السليمة، ومن ثَمَّ كانوا يسمونه نكاح المقتِ، ويسمى الولد منه مقيتاً؛ أي: مبغوضاً محتقراً، فالمقت: البغض المقرونُ باستحقار حَصَل بسبب أمر قبيح ارتكبه صاحبه. قاله أبو حيان. ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾: ساء من أفعال الذم بمعنى بئس، والمعنى: بئس طريقاً ذلك الطريقُ الذي اعتادوا سلُوكَهُ في الجاهلية، وبئس مَنْ يسلُكَهُ، لم يَزِدْهُ السيرُ فيه إلا قبحاً.

﴿أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ الأمهات[1] جمع أم، فالهاء زائدة في الجمع، فرقا بين العقلاء، وغيرهم. يقالَ في العقلاء: أمهات، وفي غيرهم أمات، وقد يقال: أمات في العقلاء، وأمهات في غيرهم، وقد سمع أمهه في أم بزيادة ﴿الهاء﴾ قبل ﴿هاء﴾ التأنيث، وعلى هذا يجوز أن تكون ﴿أمهات﴾ جمع أمهه المزيد فيها الهاء، والهاء قد أتت زائدة في مواضع ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ لام[2] الكلمة محذوف،

---

(١) الجمل. (٢) العكبري.

ووزنه فعاتكم، والمحذوف واو أو ياء فَأَمَّا بنت. فالتاء فيها بدل من اللام المحذوفة، وليسَت تاءَ التأنيث؛ لأن تاءَ التأنيث لا يسكِّن ما قبلها، وتقلب هاءً في الوقف، فبناتُ ليس بجمع بنت، بل جمع بَنَةٍ، وكسرت الباء تنبيهاً على المحذوف هذا عند الفراء، وقال غيره: أصلها الفتح، وعلى ذلك جاء جمعها ومذكرها. وهو بنون، وهو مذهب البصريين ﴿وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾ جمع[1] أخت، فالتاء فيها بدل من الواو؛ لأنها من الأخوة؛ فإن قيل: لم ردَّ المحذوف في أخوات، ولم يردَّ في بناتٍ؟

أجيب: بأنه حمل كل واحد من الجمعَين على مذكره، فمذكرُ بنات لم يَرِدَّ فيه المحذوفُ بل جَاءَ نَاقصاً، قالوا: بَنون، وقالوا: في جمع أخ، إخوَةٌ، وإخوانُ فَردَّ المحذوف ﴿وَعَمَّٰتُكُمْ﴾: جمع عمة، والعمة تأنيث العم، وهي أخت الأب ﴿وَخَٰلَٰتُكُمْ﴾: جمع خالة، والخالة تأنيث الخال، وألفه منقلبة عن واو لقولهم في جمع خال: أخوال، ورجل مخول؛ أي: كريمُ الأخوال ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾: جمع ربيبة، والربيبة بنت زوج الرجل من غيره ﴿فِي حُجُورِكُم﴾: جمع[2] حِجْرٍ، بفتح الحاء وكسرها، والحجر مقدم ثوب الإنسان، وما بين يديه في حال اللبس، ثم استعملت اللفظة في الحفظ؛ لأن اللابس إنما يحفظ طفلاً، وما أشبهه في ذلك الموضع من الثوب، ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ﴾: جمع[3] حليلة، والحليلة: الزوجة، والحليل: الزوج. قال الشاعر:

أَغْشَىٰ فَتَاةَ ٱلْحَيِّ عِنْدَ حَلِيْلِهَا ... وَإِذَا غَزَا فِيْ ٱلْجَيْشِ لاَ أَغْشَاهَا

سميت حليلة، لأنها تَحُلُّ مع الزوج حيث حَلَّ، فهي فعيلة، بمعنى فاعلة، وذهب الزجاج وغيره، إلى أنها من لفظ الحلال، فهي حليلة بمعنى مُحلَّله، وقيل: يَحُلُّ كلُّ واحد منهما إزارَ الآخر.

﴿مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾: جمع صلب، والصلب: الظهر، ويقال: صَلُب صلابةً من باب فَعُل المضموم إذا قوي، واشتدَّ، وذكر الفراء في كتاب لغات القرآن، له أنَّ

---

(١) العكبري.

(٢) البحر المحيط.

(٣) البحر المحيط.

الصُّلْبَ، وهو الظهر على وزن قُفْلَ، هو لغة أهل الحجاز، ويقول فيه تميمُ وأسْدَ الصَلَبُ بفتح الصاد واللام.

البلاغة

وقد تضمنت هاتان الآيتان، أنواعاً من البديع والبيان:

منها: الجناس المماثل في قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ﴾.

ومنها: المغاير في قوله: ﴿أَرْضَعْنَكُمْ﴾ ﴿مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ﴾ لأن إسناد التحريم إلى الذوات لا يَصح، وإنما يتعلّق بالفعل، فهو على حذف مضاف، والمعنى: حرمت عليكم نكاح أمهاتكم إلخ، وهذا هو الذي يفهم من تحريمهن كما يفهم من تحريم الخمر، تحريم شربها، ومن تحريم لحم الخنزير، تحريم أكله.

ومنها: الاحتراس[1] في قوله: ﴿ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ احترز من اللاتي لم يدخل بهن، وفي قوله: ﴿وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم﴾ احترز به من اللاتي ليست في الحجور، ولكنَّ هذا القيدَ خَرجَ مَخْرَجَ الغالبِ، فلا مفهومَ له.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ فهو كناية عن الجماع كقولهم بنى عليها، وضرب عليها الحجابَ.

ومنها: الطباق اللفظي في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾؛ لأنه نَسَق المحرمات أولاً ثم قال: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) البحر المحيط.

الحمد لله على إفضاله، والشكر له على نواله، والصلاة والسلام على حبيبه محمد وصحبه، وآله ما تطارَدَ الجَدِيدَان وتطاوَلَ المَدى والزمانُ[1].

---

(١) وكان الفراغ من مسوَّدةِ هذا الجزء بالمسفلة حارة الرشد من مكة المكرمة في شهر ذي القعدة، في اليوم الأول منه يوم الأربعاء وقت الضحوة، على رأس الساعة الرابعة من الطلوع من شهور سنة ثمان وأربع مئة وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضلُ الصلاة وأزكى التحية بتاريخ: ١/ ١١/ ١٤٠٨ هـ/ في شهر يونية: ١٥/ ١٩٨٨ م.

وكان الانتهاء إلى هذا الموضع في التاريخ المذكور في أعلى الصحيفة بيد مؤلفه محمد أمين بن عبد الله الأثيوبي الهرري الراجي من ربه سبحانه أن يُعينه على تمامه، وييسِّره عليه، ويوفِّقه لما هو المعنى عنده، ويجعلَ في عمره البركة إلى إكماله، ويحفظَ عليه سمَعه وبصرَه وفهمَه وعقله وجِسْمه، وجميعَ قواه إلى انتهائه، وينفع به مَنْ شاء من عباده، ويجعله مَرْجِعاً لهم في علوم كتابه وذخيرةً له عند وفوده إلى دار الآخرة، ويجعله خالصاً مخلصاً لوجهه، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين أمين.

تم تصحيح هذه النسخة بيد مؤلفه منتصف الساعة الأولى من يوم السبت بتاريخ ١٧/ ١٢/ ١٤٠٨ هـ والحمد لله أولاً وآخراً.

تم المجلد الخامس من شرح حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن ويليه المجلد السادس وأوله قوله سبحانه وتعالى ﴿والمحصنات من النساء﴾ الجزء الخامس من القرآن الكريم.

الفهرس